

مكتبة الدراسات الناريخية

الفن الحربي في صدر الإسلام

بقلم
عبد الرؤف عون



دار المغارف بمصر

١٩٦١

1. The first part of the document is a list of the names of the persons who have been appointed to the various offices of the city of New York.

الفن الحربي في صدر الإسلام

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – شارع كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الإهداء

« إلى من هو سر وجودي ، ومن غذا بالطيب عودي ،
إلى من زج بي في أنوار المعرفة ، وزودني بحكمته وموعظته
الحسنة ، إلى أبي الشيخ عبد الصمد عون ، أهدي باكورة
إنتاجي العلمي ، وكذا إلى روح الوالدة الطاهرة ، التي كانت
لنا نعم السند والمدد » .

عبد الرؤف عون

تصدير

لقد كانت فكرة هذا الكتاب تراودنى منذ أمد بعيد ، يوم تخرجت ضابطاً احتياطياً ، وقد أخذت بحظ لا بأس به من الفنون العسكرية الحديثة ، وأذكر أن الذى جعل تلك الفكرة تلحّ علىّ ، وتبالغ فى إلحاحها أحياناً ، أنى ألقى محاضرة فى بعض الأمسيات ، على زملائى وقادتى بالكلية الحربية ، وكان موضوعها : « مواقف تكتيكية من حياة الرسول » وبالرغم من أن المحاضرة لم تعد إعداداً كافياً ، فقد أعجب بها السامعون ، وبخاصة بعض كبار الضباط الذى شرفنى بطلبها منى ، فنسخها ثم أعادها إلىّ شاكراً ، ثم شجعتنى بأن طلب منى الاستمرار فى مثل تلك البحوث الحربية الإسلامية ، فتزلت على رأيه ومضيت فى سبيلى .

وفى تلك الفترة ظهر للناس كتاب « عبقرية محمد » لأستاذنا الكبير الأستاذ « عباس محمود العقاد » فكنت من المبادرين إلى قراءته ، وإذا بى أجده فيه فصلاً ممتعاً عن « عبقرية محمد الحربية » أجمل فيه كثيراً مما كنت أنوى الكتابة فيه .

وفى الحق أن هذا الكتاب ثبت من همى إلى حين ، فقد قالت لى نفسى : وماذا عسى أن يغنى كتابك بعد كتاب العقاد ؟ وماذا عسى أن يقرأ الناس لك بعد العقاد ؟

ولا أدرى لماذا داومت الفكرة إلحاحها ، وأخذت معالمها تزداد وضوحاً فى ذهنى ؟ ولا أدرى أيضاً لماذا وجدت نفسى مدفوعاً إلى كتب التاريخ ، أستوعبها وأنقب فى صفحاتها وأقبلت كذلك على قراءة الكتب الغربية ، التى تعرضت للفنون الحربية بوجه عام ، وللفن الحربى الإسلامى بوجه خاص .

ولما طلع على البلاد فجر الثورة المبارك عام ١٩٥٢ ، استبشر الناس بها ، وعلقوا الآمال الكبار عليها ، ووجدت نفسى مدفوعاً إلى بحث الموضوع بنشاط ملحوظ ، وتقدمت به إلى جامعة القاهرة ، لأنال به درجة الماجستير ، محاولاً به أن أبرز

أعجادنا الحربية القديمة ، ومهارة أسلافنا الماضين ، في سياسة الحروب وإدارتها ، وأن أرد عن المسلمين كثيراً من التهم التي ألصقها بهم المستشرقون .

وما إن أوفيت على الغاية ، ودنوت من النهاية ، حتى كان العدوان الثلاثي الغاشم على وطننا الحبيب عام ١٩٥٦ ، فاستدعيت للعمل بالجيش مع زملائي ضباط الاحتياط ، وبقيت أعمل به قرابة عام ، قائداً لإحدى كتائب الحرس الوطني ، وقد بذلت قبل العدوان وفي أثنائه من المجهود البدني والعقلي ، ما جعلني أمرض مرضاً يتطلب الراحة لفترة طويلة ، وبعد أن منّ الله عليّ بالشفاء ، استأنفت العمل بجدة ومضاء ، مضحياً في سبيل ذلك برغبات النفس ، وراحة البدن ، ويعلم الله كم قاسيت من المتاعب ، وكم لقيت من المصاعب ، وكم سهرت الليالي في تحليل النصوص القديمة ، لاستخلاص الحقائق التاريخية منها ، والمقارنة بينها لتوضيح تضاربها ، وتنسيق تعارضها .

أذكر من ذلك على سبيل المثال ، أنني قرأت عن بعض الأعراب ، أنه كان حارساً لقومه في بعض الليالي ، فرأى شبحاً يدنو منه في الظلام ، فأعد قوسه وأطلق عليه بعض أسهمه ، فاختنق الشبح ولم يظهر له أثر ، فظنه الحارس كلباً أو ذئباً ، ثم قال لزوجته التي كانت إلى جواره : « إذا أصبحت فاجمعي عليّ سهامى ، لئلا تمضغها الكلاب » فصرت أتساءل : وكيف تمضغ الكلاب السهام ؟ ولماذا ؟ وأخذت أوجه السؤال لبعض ذوى المعرفة ، فلم أرجع بجواب ناجع ، وظللت مدة قرأت في أثنائها كثيراً من الكتب التي تعرضت للفنون الحربية ، والتي وصفت السلاح ، وزرت المتاحف الحربية التي تحتفظ بنماذج له ، إلى أن عرفت السبب في مضغ الكلاب للسهام ؛ ذلك أن نصل السهم يشد عليه عند مدخل الخشب فيه سيور من الجلد القوى ، كما يشد على آخر السهم بعض ريش الطيور ، لتحفظ توازنه عند انطلاقه ، فالكلاب تقبل على السهام ، لما بها من الجلد والريش .

هذا إلى أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، لا يدرك مدى فضيلة الصبر عليها ، إلا من عاناها وزاولها ، وقدما قال الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها

فإلى الشباب العربى الناهض ، أقدم كتابى هذا ، ليعلموا مفاخر أجدادهم
فيحتدوها ، وليقفوا على نواصع أمجادهم فيعيدوها ، فإننا فى زمن لا يعيش الحق فيه ،
إلا إذا كانت القوة تدعمه وتقويه ، فإلى أسباب القوة يا شباب العرب ، وإلى ينابيع
القومية العربية ، تحققوا لبلادكم نصراً أى نصر ، ولأنفسكم عزاً أى عز .

وفقنا الله جميعاً إلى ما فيه خير الدارين ، وأخذ بأيدينا جميعاً إلى مواطن
الهدى والرشاد .

عبد الرؤوف عون

محتويات الكتاب

صفحة	
٥	الاهداء
٧	تصدير
١٣	مقدمة
	تمهيد :
٢٩	البيئة العربية وحروب العرب في الجاهلية
	الفصل الأول :
٦١	نظرة الإسلام إلى الحروب ومشروعيتها فيه
	الفصل الثاني :
٧٥	جمع القوات وتنظيمها وإمدادها
	الفصل الثالث :
١٢٩	أسلحة القتال
	الفصل الرابع :
١٧٥	وسائل الدفاع وآلاته
	الفصل الخامس :
٢٠٦	تنظيم القوات استراتيجياً وتكتيكياً
	الفصل السادس :
٢٦٩	غنائم الجند ورواتبهم
	الفصل السابع :
٣٠٥	السرى فى اكتساح الفتوح الإسلامية

صفحة

خاتمة البحث ٣٢٤

الملاحق :

١ - الفدائيون في الإسلام ٣٢٩

٢ - جدول زمني للحوادث البارزة في تلك الفترة ٣٣٢

مصادر الرسالة ٣٣٣

الفهرس العام ٣٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

فى تلك الآونة التى تشغل أخبار الحرب فيها أذهان الناس ، ويعيش العالم على فوهة بركان ذرى ، وتهدهد القواعد الصاروخية من كل مكان ، أقدم كتابى عن الحرب عند المسلمين ، فالناس فى حرب ونضال حتى فى أوقات السلام ، التى تعد فترات استعداد واستجمام . وهذه المقدمة تحتوى أبحاثاً ثلاثة هى :

أ - أهداف البحث .

ب - منهج البحث فيه .

ج - دراسة مصادره ومراجعته .

أ - أهداف البحث

جرت عادة كثير من المؤرخين والباحثين ، أن يدرسوا الحروب عند تعرضهم لها من حيث أسبابها الداعية إليها ، ومن حيث نتائجها المترتبة عليها ، صارفين النظر عن الجانب الفنى فيها ، وذلك باستثناء القليل منهم الذى عالجها من تلك الناحية - ولكن فى كثير من الإيجاز والتعميم ، بحيث لا يخرج القارئ مما كتبوا بصورة واضحة لفن الحرب .

وقد لوحظ أن كثيراً من المستشرقين ، أرخوا للإمبراطورية الإسلامية وفتوحها فنظروا بعين الدهشة إلى سرعة توسعها ، ذلك التوسع الذى قضى على نفوذ الفرس والروم - وهما من هما - فى أقل من قرن ، وقد نسبوا تلك السرعة فى التوسع ، إلى اندفاع العرب وراء غرائزهم الحربية ، التى كانت متأصلة فيهم منذ الجاهلية ، كما عللوا لها بضعف الفرس والروم أمام العرب ، نتيجة للحروب التى كانت دائمة بينهما ، على مر القرون .

وقد غفل كثير منهم أو تغافل عن مهارة المسلمين الحربية ، وأهمل مقدرتهم

الفنية ، كأنهم نالوا ما نالوا من الفتوح ، بمجرد الصدقة المواتية ، أو الحظ الموفق^(١) ، دون أن يبرزوا مزاياهم الحربية .

لما تقدم كان من أهم أهداف الرسالة ، أن تبحث النواحي الفنية في حروب المسلمين ، وتقارنها بنظيراتها عند الأمم المعاصرة لهم ، ليتضح للناس مكانهم من الفن الحربي بين أعدائهم ويعرفوا طرائقهم في أساليب القتال ودقة التنظيم الحربي ، وإدارة المعارك ، وإقامة الحصون على الحدود المهمة في مواقع استراتيجية فنية ، لحماية إمبراطوريتهم الفنية .

ويضاف إلى هذا الهدف هدف آخر ، وهو الرغبة في البحوث الإسلامية لذاتها واستنباط الحقائق العلمية من النصوص الغامضة ، وبخاصة في صدر الإسلام ، الذي يعد فترة غامضة من حيث الفن الحربي ، راجياً من ذلك الجهود أن يصل بنا إلى نتائج ، قد تضيف للعلم شيئاً نافعاً ، أو تفتح أمام الباحثين أبواباً كانت شبه مغلقة .

هذا ، وقد جعلت عنوان الكتاب « الفن الحربي في صدر الإسلام » قاصداً به أن يمتد حتى نهاية القرن الثاني الهجري وذلك لأن نهاية القرن الثاني بوجه التقريب ، هي الفترة التي بلغت فيها الإمبراطورية الإسلامية أقصى اتساعها ، ووقفت عندها تقريباً موجة فتوحها ، وتحضرت حتى سبقت - في مضمار الحضارة - الدول المعاصرة لها .

وهي أيضاً الفترة التي بدأ بعدها ، تغلغل النفوذ الأجنبي في الحكم الإسلامي ممثلاً في سيطرة العناصر التركية والفرغانية ، وغيرها من العناصر التي كانت سبباً في إضعاف الحكومة الإسلامية وانحلالها ، منذ عهد المعتصم العباسي .
ومما يذكر بالثناء والفضل ، أن بعض أعلامنا السابقين ، سبق إلى دراسة بعض تلك النواحي الفنية في الحروب الإسلامية ، ولكن واحداً منهم لم يجمع شتات الموضوع في مؤلف واحد ، ولم يعرض له عرض دراسة نقدية تحليلية .

(١) انظر بوجه الإجمال لوبون : حضارة العرب ، تعريب زعيتر ، فيليب حق : تاريخ العرب : تعريب نافع ، فون كريم : الشرق في حكم الخلفاء ، وغيرهم من المستشرقين الذي يكادون يتفقون حتى في العبارات التي تردد في كتبهم .

فمنهم مثلاً من كتب في فضل الرمي بالقوس ، ودرس قوانينه وآدابه وفصل أنواع القسي وما إلى ذلك ، كما فعل « ابن القيم والسنجاري » وغيرهما^(٢) . ومنهم من كتب في سياسة الحروب ، ونظم التعبئة قبل الزحف ، وعند اللقاء ، إلى تفصيلات أخرى « كالهريشي والحسامي^(٣) » . ومنهم من كتب في عتاق الخيل وصفاتها وسهامها مثل « ابن الكلبي والحواليقي^(٤) » . ومنهم من كتب في السيوف وأجناسها وشياتها مثل « يعقوب بن إسحاق الكندي^(٥) » . ولكن أكثر هذه المؤلفات عبارة عن رسائل موجزة ، ينقصها في كثير من الأحيان ، التقصى الكافي ، والبحث العلمي ، وبعضها تغلب عليه المسحة الأدبية ، فهو قليل الغناء في الناحية الفنية .

ويعد في طليعة المحاولين لتلك الدراسة حديثاً ، الأستاذ « جرجي زيدان » في كتابه القيم (تاريخ التمدن الإسلامي) والأستاذ الضابط « نعمان ثابت » في كتابه (الجندية في الدولة العباسية) فقد جمع كل منهما مشكوراً حقائق علمية نافعة ، وحاول أن يجعل من كتابه دائرة معارف موجزة ، ولكنهما أهملتا الجانب التكتيكي والاستراتيجي ، وكلاهما من فن الحرب بمكان ، بل هما أهم النواحي الفنية في الحروب .

وقد حذا حذو هذين الفاضلين ، طائفة من إخواننا الضباط المحدثين فكتبوا مشكورين عن النواحي الفنية ، ولكن كتابة أكثرهم جاءت أقل عمقاً مما كنا نتوقع ، فبعضهم مثلاً يؤلف كتاباً عنوانه « نظم الحرب في الإسلام^(٦) » ثم تقرؤه فتجده يتحدث عن غزوات الرسول فقط ، غير موضح خصائص تلك النظم ، ثم هو يحاول إخضاع السيرة لمصطلحات العصر الحديث في بعض العناوين مثل (عاد إلى قواعده سالماً) ، (الأوامر المختومة) إلخ مما لا مكان لها في التاريخ .

(٢) للأول « الفروسية » طبعة دار الكتب سنة ١٩٤١ ، وللثاني « هداية الراي » إلى الأغراض والمرامى » مخطوط .

(٣) للأول « مختصر في سياسة الحروب » مخطوط ، وللثاني « تحفة المجاهدين في العمل بالميادين » مخطوط أيضاً .

(٤) للأول « نسب الخيل في الجاهلية والإسلام » ، وللثاني « أسماء الخيل وأسماء فرسانها » وهما في مجلد واحد . ط . ليون ١٩٢٨ .

(٥) رسالته في السيوف ، إخراج الدكتور : عبد الرحمن زكي . ط . الجامعة سنة ١٩٥٢ .

(٦) للضابط : جمال الدين عياد .

والأعجب من هذا أن بعض الضباط في الإقليم الجنوبي ، ألف كتاباً عنوانه « تطور القوات المقاتلة »^(٧) صفحاته ٤٧٥ صفحة ، تحدث فيه عن جيوش الفراعنة والإغريق والرومان ، ثم تحدث عن مشاة القرون الوسطى ثم عن العصر الحديث ، ولكنه للأسف لم يذكر كلمة عن الجيوش العربية وتنظيماتها .

يحدث هذا منا نحن العرب ، في الوقت الذي نرى فيه بعض المستشرقين يكتبون عن نظم المسلمين الحربية . وفهم التكتيكي والاستراتيجي . . ويوازنون بين فهم ، وفن الأمم المعاصرة لهم ، وعلى رأس هؤلاء جميعاً المستشرق الألماني « فون كريمير » الذي أطلعنا على كثير من الحقائق الفنية ، أخذ معظمها من كتاب (Tactica) للإمبراطور الرومي « ليو » ، ويدانيه في ذلك الصنيع الدكتور « أومان » في كتابه « تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى » فقد ورد فيه عن العرب قدر معقول ، ودراسة نافعة .

لكل ما تقدم ، أرادت الرسالة أن تجمع شتات الموضوع في كتاب ، وتبرز النواحي الفنية في حروب المسلمين ، في شيء من التقصي والتحليل ليكون أمام الباحث كتاب جامع لشئونهم الحربية المتشعبة النواحي .

على أن الرسالة لم تدخل في حسابها ، دراسة الفن الحربي في الأندلس لأنه يعد امتداداً للفن الحربي في المشرق ؛ لأن السيوف التي فتحته جاءت من ناحية المشرق ، وإذا فرضنا أن الأندلس صار فيما بعد ، ذا فن حربي متميز ، فمن الراجح أن يكون ذلك التمايز جاء متأخراً ، خارجاً عن نطاق الفترة الزمنية التي تعرضت لها الرسالة ، وهي الفترة التي تنتهي بنهاية القرن الثاني الهجري .

وقد تحدثت الرسالة أيضاً عن الحروب البحرية ، فخصصت لها مكاناً في الفصل الخامس الخاص بالنظام التكتيكي ، لأنه فن حربي يطبق على صفحة الماء بخلاف ما جرت به عادة الباحثين قديماً وحديثاً ، من إهمال الحروب البحرية عند الحديث عن الحروب . وبما أن بعض الرسائل العلمية ، قد عابجت هذا الموضوع ، كان من المناسب هنا موازنتها بالحروب البرية ، لمعرفة الفرق بينهما دون توسع فيها ، أو إفاضة في تفصيلاتها .

(٧) الضابط ا. ح : صلاح الدين فرحات : وانظر المراجع في الرسالة .

هذا ، وإن لوحظ أن الرسالة جاوزت القرن الثاني قليلا ، فذلك لأن التطور الزمني لأي فن من الفنون ، لا يمكن تحديده بفواصل زمنية ثابتة ؛ لما يحتاج إليه هذا التطور من تداخل زمني ، بحيث يتم في سنوات متعاقبة متطاولة ، ولا يتم سريعا كقيام حكومة وسقوط حكومة ، بل إن وضع حد ثابت له يعد تعسفاً .

وأخيراً يصح التعريف ببعض الرموز التي وردت في الرسالة وهي : حرف (ط) يرمز للطبعة ، والصفحات إذا كانت بالمرجع مكررة فرموزها (ص ص) وإذا كان المصدر مصوراً ، فالرمز للفيلم حرف (ف) .

وقد جعلت الهوامش سلسلة في كل فصل على حدة ، اختصاراً في الأرقام وتسهيلاً على من يريد الرجوع إليها .

ب - منهج البحث

يستطيع المرء أن يقرر أن أهداف الرسالة كان لها دخل في توجيه منهجها وتحديد معالمها ؛ ذلك أن محاولة إبراز الناحية الفنية في حروب المسلمين ، تستدعي ذكر كلمة عن الحروب عند الجاهليين ، لنعرف مكان الفن الحربي منها ، ونعرف ما أدخل المسلمون عليه من تحسين فيما بعد ، ومن ثم جاء تمهيد الرسالة خاصاً بتصوير البيئة العربية ، وحروب العرب في الجاهلية ، وما كان معروفاً لديهم من نظم حربية .

ولما كان الكلام عن الحروب ، يستدعي الكلام أولاً عن مشروعيتها وإعداد الأذهان لقبولها ، وتهيئة الرأي العام لها ، كان الفصل الأول خاصاً بنظرة الإسلام إلى القتال ، وبيان مشروعيتها فيه ، والأسباب التي أدت إلى سرعة توسعه ، فإن كل دولة تريد الإقدام على الحرب تبدأ أولاً بتهيئة الأذهان لها ، لتظهر للعالم أن حربها مشروعة وأنها ليست معتدية في القيام بها ، فتجذب الرأي العام لصفها .

ولما كانت خطة الرسالة حريصة على ترتيب المنهج ، ترتيباً منطقياً يتفق والواقع العملي في الحروب ، كان الفصل الثاني خاصاً بجمع القوات وتنظيمها ، وإمدادها بحاجاتها في المعركة ، وذلك لأن أول عمل لمن يريد الحرب — بعد إعداد الرأي العام

لها - أن يحشد المقاتلين ويعين عليهم قادتهم ، ويعد لهم سلاحهم وتموينهم ، وكل ما يلزمهم قبل الاشتباك الفعلي في القتال .

وفي هذا الفصل عولج نظام التجنيد الإسلامي ، وهل كان إلزامياً أو اختيارياً ، كما عولج التنظيم الدائم للجيش الإسلامية ، وغير ذلك من موضوعات الإمداد بالحيوان والسلاح ، ومواد التموين ، وكل ما يلزم الجيش في العادة ، من أطباء وممرضين ، وقراء وقصاص ، وعمال ورعاة إلخ .

ومن المقرر في الترتيب الطبيعي ، أن يعد القائد لجنده سلاحهم قبل المعركة ، ولذا تكفل الفصل الثالث بالحديث عن الأسلحة ، وجعل القسم الأول منه للأسلحة الخفيفة كالقوس والرمح والسيف وغيرها ، وجعل القسم الثاني للأسلحة الثقيلة ، وآلات الحصار ، كالمنجنيق والدبابة ورأس الكبش ، ووضحت الرسالة أجزاء تلك الأسلحة ، وشرحت كيفية العمل بها وتاريخها ، عن طريق الرسوم المرافقة للكلام . ومن الواجب على المقاتل ، أن يجهز آلات الدفاع عن النفس ، كما يجهز آلات القتال ، فإن الذي لا يقي نفسه مهزوم لا محالة ، ولذا كان الفصل الرابع خاصاً بآلات الدفاع والوقاية ، وهي أيضاً قسمان :

- ١ - آلات متحركة خفيفة ، كالدرع وملحقاتها ، والقوس بأنواعه الثلاثة .
- ب - آلات ثابتة ثقيلة مثل حسك الحديد الشائك ، وطريقة زرعه حول المواقع ، ومثل الخنادق المحفورة ، وبناء الجدران عليها مما يلي العدو وغير ذلك من إقامة الحصون على التخوم ، وبيان طرق تقويتها ، ونظام العمل بها ، وقد تصدى لكل قسم من هذين جزء من الفصل .

يأتى بعد ذلك في الترتيب دور المعركة نفسها ، مثل كيفية توزيع القوات على جهاتها المناسبة ، ثم تنظيم الكتائب وصف الجند خلال المعركة ، وبيان كيفية بدء القتال ، وعمل القادة والجند عند الالتحام ، ثم عملهم عند انتهاء المعركة ، وقد خصص لهذا الفصل الخامس ، يعالج القسم الأول منه التنظيم الاستراتيجي ، ويعالج الثاني التنظيم التكتيكي .

ولما كانت المعارك تنهى غالباً ، يجمع الغنائم وأخذ السبايا وهي الأصل في المساعدات المالية للمحاربين ، ثم تلاها دور الأعطيات والمربيات ، كان من

المناسب تخصيص الفصل السادس بغنائم الجند ومرتباتهم وبيان ما لحقها من زيادة أو نقص ، حسب التطور الزمني ، وظروف الدولة المالية ، ثم عالج نظام الأسر ، ومعاملة الأسرى في الإسلام ، باعتبارهم بعض غنائم المعركة ، التي يحوزها المقاتلون ؛ ثم أبان الفصل السابع في تفصيل ، السر في اكتساح الفتوح الإسلامية ، بعد أن يكون القارئ ، قد كوّن لنفسه فكرة ، في ضوء ما عرض عليه في الفصول السابقة .

ثم تأتى بعد ذلك خاتمة البحث ، ملخصة أهم ما فيه ، مشيرة إلى ما به من أفكار قد تكون جديدة ، وبحوث قد تكون نافعة .

ثم يأتى بعد الخاتمة ملحقان ، احتاج الأمر لهما وإن لم يكونا في صميم الموضوع .

أولهما : عن النظام الفدائي ، والفدائيين في الإسلام .

وثانيهما : جدول زمني لبيان أهم الحوادث ، في الفترة التي تعرضت لها الرسالة .

ح - دراسة المراجع

إن المصادر والمراجع التي خدمت هذه الرسالة كثيرة متنوعة : بعضها أسهم بمادته في تأليفها ، وترتيب نتائجها ، وبعضها أفادها فوائدها كثيرة ، من قريب أو بعيد ، دون أن يكون أساسياً في تأليفها .

وفي مقدمة هذه المراجع وعلى رأسها ، كتاب الله تعالى ، بسوره العدة التي تعرضت للقتال بوجه ما ، كالأنفال ومحمد والفتح وغيرها ، وتفسير تلك السور لكبار المفسرين الأولين .

وبعد هذا يمكن تقسيم المراجع إلى طوائف ، حسب طبيعة بحثها :

أولاً - مراجع خاصة بالموضوع الفني للرسالة ، وأكثرها مخطوط أو مصور على أشرطة بمعهد إحياء المخطوطات ، التابع للجامعة العربية . وأقدم هذه المراجع وأهمها كتاب « مختصر في سياسة الحروب » تأليف الهرثمي صاحب المأمون وهو يقع في حوالي ١١٤ صفحة ، من الحجم المتوسط ، وقد تحدث « ابن النديم » عن هذا الكتاب في الفهرست حديثاً يشعر بأنه كتاب كبير ، مؤلف من عدة أبواب ، وتحت كل

باب فصول ، وفي كل فصل كذا مسألة ، ويظهر أن هذا الكتاب مختصر منه ولكن هل الذى اختصره هو الهرثمى نفسه أو شخص آخر ؟ هذا ما لم أصل إليه حتى الآن ، وأرجو أن أوفق إليه ، أو يدلنى أحد عليه .

أما الهرثمى فلم تذكر عنه كتب التراجم شيئاً ، ويغلب على الظن أنه ينتمى بسبب ما إلى القائد العباسى المشهور « هرثمة بن أعين » الذى كان قائداً للرشيد ، فوالياً على إفريقية له ، ثم قائداً للمأمون ، حتى بعد أيام الفتنة بينه وبين أخيه الأمين .

هذا ويمتاز أسلوب الكتاب بالرصانة العباسية ، والهمزة المتوسطة فيه تبدل ياء في الغالب « كالطلايع » مثلاً ، وهذا الإبدال كان شائعاً في العصر العباسى ، كما يمتاز بأنه جامع للشئون الحربية ، التى تهتم القائد والجندي ، وقد أفاد وفصل القول في التنظيم التكتيكى وكيفية العمل قبل المعركة ، ثم العمل عند اللقاء فيها ، وذكر كثيراً من النصائح والحيل الحربية ، التى لا يصح لقائد أن يجهلها في أى عصر من العصور . والكتاب مصور بالجامعة العربية (ف ٨٤٤) وصورته عنها دار الكتب المصرية .

ويدانى هذا الكتاب في أهميته ، مخطوط بالمتحف الحربى بالقلعة يسمى « كشف الكروب في أمر الحروب » رقم (١٠٦) عربى ، لصاحبه « موسى بن أحمد اليوسفى » ، ومصور آخر يسمى « هداية الراى إلى الأغراض والمرامى » وهو منقول عن خط صاحبه « الحسن السنجارى » ورقم الشريط بالجامعة العربية هو (١٠٥٦) ، ومؤلفه ينسب إلى مدينة (سنجار) شرق العراق .

وهذان الكتابان على تأخرهما نوعاً ، يشرحان كثيراً من النواحي الحربية الفنية : فالأول يعالج أصول المبارزة بالرمح ، ويسرد طائفة نافعة من النصائح الحربية ، والثانى عظيم الفائدة فيما يختص بشرح الأقواس والسهام ، وبيان أنواعها والجيد منها ، وكيفية صنعها وصنع

السهم وإثبات الريش عليها ، كما تعرض لوظيفة الريش في السهم ، وذكر أنواع الريش وأفضلها ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الرامي الحاذق والباحث المدقق ، وهما يشبهان إلى حد كبير كتب تعليم الرمي في جيشنا الحديث .

ويشبه هذين الكتابين في الموضوع « غرس الأنشاب في الرمي بالأنشاب » لجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) وهو مصور بالجامعة العربية (ف ١٠٥٦) . ورسالة أدبية في الرمي بالبندق ، بالجامعة العربية (ف ٧٧٤) لابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) .

أما كتاب « الفروسية » لابن القيم الجوزي (٧٥١ هـ) فقد كان نافعاً جداً في بيان الفرق بين الأقواس العربية والتركية ، والفرق بين القوس التي تطلق باليد ، والقوس التي تطلق بها وبالرجل ، ولكن يلاحظ عليه أنه أفاض كثيراً في ذكر آداب الرمي وقواعده ، من قبض وعقد ومد وإطلاق ، وأتى بمصطلحات كثيرة لم يشرح مدلولاتها ، وهو مع هذا تغلب عليه النزعة الأدبية ، لدرجة أنه عقد مناظرة طويلة بين قوس اليد وقوس الرجل ، تعد في باب الأدب تحفة رائعة ، ولكنها في الفن الحربي لا تعد شيئاً مذكوراً ، والكتاب طبعته دار الكتب المصرية : ١٩٤١ م ، وهو يميل إلى النهج الأدبي في علاج الموضوعات كلها . ومن الكتب التي كانت عظيمة النفع كتاب « آثار الأول في تدبير الدول » وهو مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي ، لصاحبه « الحسن بن عبد الله محمد » الذي ينتهي نسبه إلى « العباس بن عبد المطلب » بدأ في تأليف كتابه سنة ٧٠٨ هـ .

ومادة الكتاب وافرة جداً فيما يتعلق بالتجنيد وأسلحة القتال المختلفة ما بين خفيفة وثقيلة ، ويكاد يكون هو الكتاب الوحيد ، الذي فصل القول في آلات الحصار ، وخبر طرقه وشرح كيفية اقتحام الحصون ، كما فصل القول في الحروب البحرية عند المسلمين ، وهو — وإن كان متأخراً — يمثل إلى حد كبير الفنون التي كانت شائعة قبله وفي زمنه ،

لأن أثر الزمن في الفنون وتطورها بطيء . وكثيراً ما نقل عنه الأستاذان :
« جرجى زيدان ونعمان ثابت » دون أن يشير واحد منهما إليه ، أو
يدل أحداً عليه ، مع أهميته العظمى ، في النواحي الحربية الفنية .

ثانياً : مراجع عامة أفادت الرسالة من عدة نواح ، ويمكن تقسيمها على
الوجه الآتى :

١ - كتب السنة المختلفة وفي مقدمتها صحيح البخارى ، شرح القسطلانى
(٢٥٦) هـ ورياض الصالحين للنوى (٦٧٦ هـ) في الأبواب
التي تعرضت للجهاد وما يتعلق به . ثم كتب السير والمغازى ،
التي تهج نهج كتب السنة ، وفي مقدمتها « سيرة بن هشام »
(٢١٨) هـ وهى أصح هذه الكتب على اختصارها ، على
ميل فيها إلى جمع الوثائق والآثار الأدبية شعراً ونثراً ، ومثله
« عيون الأثر لابن سيد الناس » (٧٣٤) هـ وهو مخطوط بدار
الكتب المصرية ، تحت رقم ١٧٥ .

ويلحق بهذه الكتب « إمتاع الأسماع » للمقرئى (٨٤٥) هـ .
وطبقات ابن سعد (٣٢٠ هـ) والسيرة الحلبية ، وهى كتب وافية
جامعة ، ولكن أوثقها « طبقات ابن سعد » وأقلها الإمتاع لأنه
ينفرد أحياناً بإيراد بعض الحقائق التي لا يشاركه فيها غيره ،
مما يجعل الشك يحوم حول ما ينفرد به دون سابقه .

وكتب المغازى هذه تكاد تكون نسخة مكررة لمصدر واحد ،
ولا تهتم بالجانب الفنى في الحروب ، وإنما ترد فيها نتف مفرقة
هنا وهناك ، وعبارات ذكرت دون قصد ، ولكنها إذا جمعت
ورببت كان فيها خير كثير للباحثين .

ويلحق بهذه المراجع بعض كتب الفقه ، التي أفردت باباً
فيها للجهاد وأهمها ، « بداية المجتهد لابن رشد » ٥٩٥ هـ ، وكتاب
« الأحكام السلطانية للماوردى » (٤٥٠ هـ) ، وقد أفاد الأول

بصفة خاصة ، فى بيان توزيع الغنمة بين الدولة واخاريين ،
وفصل القول فى بيان أسهم الفارس والراجل وكيفية توزيع الخمس
الذى هو للدولة ، كما أفاد الثانى فى مسألة التجنيد ، وكيفية
اللاحاق بالبحيش والشروط التى كانت تشترط فيمن يريد ذلك ،
وتقسيم الجند إلى نظاميين ومتطوعين ، وبيان الفرق بينهما .

أما كتاب « الحراج لأبى يوسف » (١٨٢ هـ) فهو على
ضالة حجمه جليل القدر ، عظيم النفع ، وبخاصة فى بيان
التطوع والنظام ، ومسألة أعطيات الجند ومرتباتهم ، وما كان
يعترها من نقص أو زيادة ، منذ أن وضع عمر الديوان إلى
زمانه ، ثم فى بيان تاريخ الأراضى الإسلامية ، وما فتح منها
عنوة وما فتح صلحاً ، وكيفية التصرف فيها .

ب - كتب التاريخ العام التى لا تهتم بناحية مخصوصة ، وهى تاريخ
« الطبرى » (٣١٠ هـ) وابن الأثير (٦٢٩ هـ) وابن خلدون
(٨٠٦ هـ) والمسعودى فى المروج (٣٤٦ هـ) . وهى كتب
واسعة وافية ، جامعة لتاريخ العرب وغيرهم من الأمم ، ولكنها
لا تعرض للنواحي الفنية قصداً ، وإنما ترد بها عبارات موجزة ،
ذكرت فى غير مواطنها ، يجد الباحث فى جمعها وترتيبها عناء
كبيراً ، وهى أحياناً تختلف فى ترتيب الحوادث اختلافاً بيناً
يحير من يريد معرفة التطور الزمنى لناحية من النواحي ، ولكنها
مفيدة جداً بما فيها من مادة كافية ضافية ، عن العرب وغير
العرب من الأمم الأخرى .

ج - كتب التاريخ الخاصة ، التى تهتم بإقليم من الأقاليم دون غيره ،
أو التى تتحدث عن طائفة من الناس دون غيرهم ، يذكر منها
على سبيل المثال « فتوح البلدان للبلاذرى » (٢٧٩ هـ) وقد أفاد
كثيراً فى بيان تاريخ الثغور والمسالح الإسلامية ، والقواد الذين
ملكوها من المسلمين وغير المسلمين ، والأدوار التاريخية التى

مرت بها ، ونظام رباط الجند فيها ، والأموال التي كانت تنفق في تحصينها وتقويتها ، ودفع مرتبات الحاميات فيها .

ويلحق بهذه المصادر أيضاً « فتوح مصر لابن عبد الحكم » (٢٥٧ هـ) والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن « طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٩ م وقد كانا مفيدتين جداً في فتوح مصر كلها ، وبخاصة في بيان سبق النوبة على العرب في الرماية ، وانتصارهم عليهم ، وبيان كيفية مهاجمة الحصون البيزنطية ، وبخاصة حصن بابليون ، كما ورد في النجوم الزاهرة الذي كان نافعاً جداً في شرح العمل بآلات الحصار ، وكيفية اعتلاء الأسوار وغير ذلك من فنون الحصار المختلفة ووصف آلاته المتعددة .

ثالثاً : مراجع عربية حديثة ، أشهرها « تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان » « والجندية في العصر العباسى لنعمان ثابت » وسلسلة العبقريات للعقاد ، وبخاصة عبقرية خالد ، ومجموعة الدكتور هيكل في السيرة والتاريخ . وهذه الكتب الحديثة أكثر ميلاً إلى النقد العلمى ، والتحليل الصحيح إلا أن هذه الصفة أقل وضوحاً في الكتاين الأولين ، حيث وردت فيهما بعض الحقائق التي رُدت عليهما في صلب الرسالة ، كمسألة التجنيد وإلزاميته ومسألة الأسبقية في الرمي بالقوس ، ومرتبات الجند وآلات الحصار وغيرها .

ومع هذا فكل من الكتاين يعتبر ذا فضل مشكور ، في فتح مغاليق تلك الدراسة الفنية ، التي ظلت طويلاً قابضة في زوايا النسيان حتى أخرجها للنور ، أما العبقريات وما بعدها ، ففيها نظرات ناقدة ، وتحليل علمى نافع لكل باحث .

رابعاً : مراجع إفرنجية : بعضها معرب وبعضها غير معرب .

١ - أما المراجع المعربة ، فأهمها من ناحية التحقيق العلمى « فتح العرب لمصر » تأليف « الدكتورى بتلر » وتعريب

الأستاذ « أبو حديد » وهو كتاب في غاية الدقة والفحص العلمي ، ولكنه مع دقته يجاني العدالة العلمية أحياناً ، فتراه يتعصب على العرب ويتهممهم بالعجز ، وسيوضح ذلك في الفصل الرابع من الرسالة ، كما لوحظ عليه تعصبه بوجه خاص على الخليفة « عمر بن الخطاب » في أكثر من موضع لغير سبب ظاهر أو معقول ، وقد لامه كثيراً في محاسبته عمرو بن العاص ، دون استناد إلى دليل .

ويلحق بهذا كتاب « تاريخ العرب للدكتور حتى » تعريب الأستاذ « نافع » وبه بعض غمزات مغرضة ، نبه إليها المغرب في هوامشه .

ومن الكتب المعربة القيمة كتاب « حضارة العرب للدكتور لوبون » تعريب زعيتر ، وهو أكثر المستشرقين إنصافاً للعرب ودفاعاً عنهم ، وقد شدد النكير كثيراً على تعصب زملائه الغربيين ، في أكثر من موضع في كتابه ، ويقاربه في هذا المعنى كتاب « حياة محمد لدرمنغم » وللمعرب نفسه ، وقد أراد صاحبه كما قال في مقدمة كتابه : « أن يرسم لمحمد صورة مطابقة لما وصف به في كتب السيرة ، ولا يحول في نفوس أتباعه . ولكنه خلال محاولاته تلك كان يحيد أحياناً عن جادة الحق ، إلى مجاهل التعصب الديني ، لدرجة أنه نسب للرسول عليه السلام بعض الصفات التي لا تليق به ، وهو منها براء ، ومع هذا فالجانب الخيالي ظاهر فيه ، وفي سرد حقائقه وحوادثه ، ظهوراً يبعد به عن حقائق التاريخ الثابتة .

خامساً : مراجع انجليزية خاصة بموضوع الرسالة ، تعرضت لتلك الناحية الفنية قصداً ، وبطريقة علمية حديثة :

وفي مقدمة هذه المراجع كتاب « الشرق في حكم الخلفاء Orient under the Caliphs » للدكتور كريم الألماني ، وترجمه إلى الإنجليزية

الأستاذ «خودا بنخش» وقد كان مفيداً جداً في بيان تنظيم الجيوش الإسلامية، وتكتيكاتها الحربية التي كانت مفضلة عندها، وقد فصل القول في المرتبات الإسلامية للجند، وتتبع التغيرات التي كانت تطرأ عليها، زمن الدولتين الأموية والعباسية، تبعاً لظروف كل من الدولتين سواء أكانت تلك الظروف سياسية أم اقتصادية، ولكن في شيء من الإيجاز.

وقد أبطل الدكتور بعض التهم، التي وجهها للعرب الإمبراطور «ليو» «Tactica» البيزنطي في كتابه وأدحض حجته بأقوى منها، ولكنه في موضع آخر من كتابه اتهم العرب بأنه لم يكن لديهم جيش دائم Standing Army وقد تعرضت الرسالة لرد تلك التهمة في الفصل الثاني منها، بأدلة واضحة، لا تدع مجالاً لمرتاب.

ويكاد يقارب هذا الكتاب في منهجه، كتاب «تاريخ فن الحرب في العصور الوسطى» A history of the Art of War لصاحبه الدكتور «أومان» الذي عقد فيه فصلاً مهماً لحروب العرب مع الروم، وقد لوحظ أنه يطلق على العرب اسم «Saracen» الذي يحمل معنى الهمجية القديمة، كما لوحظ أنه يتهمهم بأنهم لم يعرفوا الجيش الدائم المعد للقتال، وإنما كانوا يجمعون الجند للحرب عند حدوث دواعيها، ثم يسرحونهم بعدها، وقد نوقش هذا الرأي كما تقدم في الرسالة، كما نوقش فيها أيضاً رأي الذي يدعى فيه، أن العرب ما كانوا يريدون من غزوهم لآسيا الصغرى، إلا مجرد النهب وكسب المغنم، وردت عن المسلمين تلك التهم بأدلة قوية، وأمثلة مضروبة من واقع التاريخ الثابت.

وقد أفادت الرسالة أيضاً من كتاب «الإسلام والمدنية» Islam and Civilisation لمؤلفه الهندي المسلم الأستاذ «خواجا كمال الدين» فقد عقد فيه فصلاً في (آداب القتال) Ethics of War يعد من

أكثر الفصول متعة ، فى بيان المعانى الإنسانية فى حروب المسلمين ،
التي تفيض بها كتب الأدب العربى ، والتاريخ الإسلامى العام ، والتي
ذكرت عند معاملة الأسرى ، والميل لإطلاقهم .

بقى بعد هذا أن أشير إلى دائرة المعارف الإسلامية ، ودائرة معارف
البستانى ، وأمّهات الأدب العربى ، التي هى أشبه شىء بدوائر
المعارف ، ولكن كلا منها عقد فصلاً طويلاً خاصاً بالحرب وآلات
القتال وفصل القول فى توضيحها ، وذكر النصوص الأدبية الواردة فيها :
أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : « عيون الأخبار لابن قتيبة »
(٢٧٦ هـ) « وصبح الأعشى للقلقشندي » (٨٢١ هـ) « ونهاية الأرب
للنويرى » (٧٣٣ هـ) والمخصص لابن سيده (٤٥٨ هـ) وهناك
غيرها من كتب الأدب واللغة التي لا داعى لذكرها .

هذا ، وقد رأيت الاكتفاء هنا بالمصادر التي أفادت منها الرسالة
فائدة فعالة ، أما غيرها من المراجع اللغوية ، والمعاجم الإنجليزية
والفارسية وكتب التراجم والفهارس ، فقد اكتفيت بذكرها فى قائمة
المراجع ، وإثباتها فى مواطنها من هامش الرسالة ، ولا داعى للتريد
بذكرها هنا ، كما آثرت حذف كثير من المجلات التي أفادتني من
بعيد ، طلباً للإيجاز ، واقتصاراً على النافع من المراجع .

والله وحده ولى التوفيق فى البداية وفى النهاية .

عبد الرؤوف عون

تمهيد

البيئة العربية وحروب العرب في الجاهلية

ليس الغرض من هذا التمهيد تناول أيام العرب وحروبهم ، والبحث في بواعثها وأسبابها ، والنتائج المترتبة عليها ، وإنما الغرض منه رسم صورة تقريبية لحروبهم ، من حيث الفن الحربي الذي كان يستخدم فيها لمعرفة ، التطورات التي شملته في الإسلام ، ومن حيث الأساليب التي كانوا يتبعونها في القتال ؛ لنرى ماذا كان حظها من التحسين والتهذيب على أيدي المسلمين ، الذين جاءوا بعد الجاهليين .

وليس الغرض منه أيضاً التحدث عن العرب البائدة ، فإن هذا الماضي البعيد يكاد يكون مجهولاً لدينا ، لندرة مصادره ، وقلة الوارد لنا عنه ، مع ما لحقه من عبث الرواية الشفوية عن طريق الرواة العابثين ، وإن كان العقل لا يستبعد منطقياً أنهم كانوا أهل علم وحضارة ، فإن هذه الحضارة التي بهرت العالم على أيدي المسلمين ، لا يمكن أن تكون وليدة يومها ، أو قفزت للوجود دفعة واحدة ، بل لا بد أنها سلكت أطواراً زمنية كثيرة في سبيل النشوء والارتقاء ، كبقية الظواهر الاجتماعية ، التي وصلتنا على أيدي المسلمين مهذبة ناضجة .

وعلى هذا فلا يطعن في نسبة حضارة إلى أمة ما ، أننا نجهل تاريخ وجودها أو منابع ظهورها ، فكثيراً ما أظهر الكشف العلمي حقائق كنا ننكر وجودها لأننا كنا نجهلها ، وفي هذا الصدد يقول « الدكتور جوستاف لوبون » : « إذا ما ظهرت أمة ذات حضارة راقية على مسرح التاريخ قانا : إن هذه الحضارة ثمرة ماض طويل ، وإن جهلنا لهذا الماضي لا يعنى عدم وجوده ، وإن مباحث العلم الحديث قد تؤدي إلى عرض ذلك الماضي للناظرين^(١) » .

ويجافى الحق من يزعم أن العرب في جاهليتهم الأولى كانوا في عزلة عن العالم

(١) حضارة العرب له - تعريب عادل زعير طبعة الحلبي ص ٩٧ .

المحيط بهم ، وأنهم عاشوا محصورين في شبه جزيرتهم ، وإنما الحق أنهم اتصلوا بالأمم حولهم ، وبخاصة الفرس والروم : إما عن طريق التوسط التجارى بين الشرق والغرب ، وإما عن طريق إقامة المدن العربية المتاخمة لهم^(٢) ، وإما عن طريق الاتصال الحربى بهم ، وكان يحتم عليهم هذا الاتصال توسط بلادهم بين قارات العالم القديم : فهي تصل بين (آسيا وإفريقية وأوربا) ، وعندما تقترب المياه الشمالية من المياه الجنوبية ، حيث يبسط المحيط الهندى ذراعيه حولها (الخليج العربى شرقاً والبحر الأحمر غرباً) ويكاد يصافح بهما البحر المتوسط^(٣) ، الذى كانت تعد دوله وما زالت من حملة لواء التجارة في العالم قديماً وحديثاً ، والذى يعد حوضه مهد الحضارات العريقة .

أما التجارة فكان العرب من العاملين على رواجها شرقاً وغرباً ، يركبون البحر في سبيلها إلى الهند والصين ، أو يضربون في البر إلى العراق وفارس ، أو يترددون بين اليمن والشام ، ناقلين البضائع عبر جزيرتهم بين تلك البلاد ، وكانوا خلال ذلك يضاربون ويربحون كثيراً ، فضربوا بسهم وافر في ميدان الحضارة ، وكان لمخازنهم من الأهمية ما كان لمخازن البندقية إبان عظمتها^(٤) فالتجارة في بلاد العرب ، كانت مصدر عيشهم ، ومناطق آمالهم حتى قال عنهم بعض المؤرخين : العربى إما تاجر وإما سمسار .

وقد اتصلوا بجيرانهم حربياً وسياسياً كذلك : فالتاريخ يحدثنا بأن الحبشة استعمرت اليمن عقب اضطهاد « يوسف ذى نواس » اليهودى للنصارى بها^(٥) وأن اليمن استنصرت بالفرس على الأحباش فنصرتها ، ولكن لتحل محل الأحباش فيها وظلت اليمن خاضعة لولاة الفرس ، حتى جاء الرسول (ص) وهى في أيديهم فأقر حاكمها عليها بعد إسلامه بمجرد وصول الدعوة إليه .

ويرى كثير من المؤرخين ، أن الهجرات البشرية للعرب بدأت من جنوب الجزيرة الغربى قاصدة إلى شمالها ، فاتجهت بعض القبائل إلى وادى الفرات الخاضع

(٢) الدكتور « أحمد أمين » فجر الإسلام الطبعة الثانية ج ١ ص ١٣ ، ١٤ .

(٣) الدكتور « سليمان حزين » مذكراتى المخطوطة عنه ١٩٤١ م .

(٤) جوستاف لوبون - حضارة العرب المتقدم ص ١٠٣ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ج ٢ نقلا عن فجر الإسلام ص ٢٨ .

للفوز الفارسي ، وأسست هناك (المملكة اللخمية) واتجه بعضها إلى بلاد الشام حيث النفوذ البيزنطي ، وأقامت هناك (المملكة الجفنية الغسانية) وكثيراً ما كانت نيران الحرب تشتعل بين الفرس والروم ، فكان عرب الفرات يساعدون الفرس ، في حين يساعد الغساسنة الروم ، وكان للعرب أثر ملموس في ترجيح كفة النصر هنا أو هناك لشدة شوكتهم ، وقوة سلطانهم ، ويكفي هنا ما ذكره « جوستاف لوبون » ، الذي يقول عن علاقة الغساسنة بالروم :

« وقد بلغ من نفوذ العرب في الدولة الرومانية شأواً بعيداً ، فصار « فيليب العربي » قيصرًا رومانيًا * (٢٤٤ ميلادية (كذا) وقد كان العرب يهددون سلامة آسيا الصغرى ولم يبعدوا عن مجاورتها إلا بهدم (تدمر) وتحويل سورية إلى ولاية رومانية (٦) . ثم هو يكرر في عدة مواضع من كتابه (حضارة العرب) أن الحيرة التي مجدها العرب كانت تنافس عاصمة الروم وعاصمة الفرس ، وأن مملكة غسان لم تقل عن الحيرة أهمية وعظمة .

وحسبنا في هذا البيان صلات العرب في جاهليتهم البعيدة بغيرهم من الأمم ، لأن القصد الأول هو تصوير الحالة الحربية للعرب في جاهليتهم التي سبقت بعثة الرسول (ص) بحوالي قرن ونصف ، وهي المدة التي يطلق المؤرخون عليها (العصر الجاهلي) . وقبل بيان ذلك يحسن معرفة شيء عن طبيعة العربي ، وحياته في بيئته ، واستعداداته الفطرية للقتال وسفك الدماء ، لنهتدى بذلك إلى فهم أساليبه الحربية ، وفنه الحربي .

١ - البيئة العربية وبواعث الحرب فيها

جزيرة العرب بلاد صحراوية في جملتها ، على اختلاف في تضاريس سطحها ، فهي في الغرب أعلى منها في الشرق ، وهي كذلك تتدرج في الارتفاع من الربع

(٦) حضارة العرب ص ص ١٠٣ ، ١٠٧ ، ٣٧٧ .

* من البعيد أن يصير العربي قيصرًا رومانيًا ، فالعرب لا يعرفون هذا الاسم ووطنية الروم تأتي ذلك . ويظهر أنها شائعات رومية للمودة ، فقد ذكر ابن الأثير في حوادث ١٨٧ هـ زعم الروم أن الإمبراطور « نففور » من أولاد جفنة بن غسان ، والزعم مطية الكذب كما يقولون ، وانظر أيضاً ص ص ١٤ ، ١٥ من هذا الكتاب .

الحالى جنوباً إلى بادية الشام^(٧) شمالاً ، وليست طبيعة البلاد فيها متشابهة في تكوينها ؛ فبادية السماوة في الشمال تمتد نحو ١٤٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب ، وتمتد ١٨٠ ميلاً من الشرق إلى الغرب ، ولكن رءاها غالباً وعثاء يصعب السير فيها ، وليس بها إلا القليل من العيون المائية ، وتخالفها في ذلك صحراء الجنوب التي تصل بين بادية السماوة والخليج العربي ، والتي قدرت مساحتها بخمسين ألف ميل مربع^(٨) فأرضها غالباً مستوية صلبة ، تنتشر فيها الحصباء المختلطة بالرمال ، وتنبت العشب إذا أصابها المطر شتاءً ، وبعض صحرائها تتألف من حرّات بركانية تبتدئ من شرق حوران ، وتمتد متناثرة إلى يثرب (المدينة) التي تقع بين حرتين من تلك الحرّات ، التي تجعل التربة صالحة للزراعة بخصوبتها .

فإذا عدونا الصحراء التي تؤلف معظم الجزيرة وجدنا غربها يتألف من جزئين : الحجاز شمالاً : وهي أرض جبلية يتخلل جبالها الوديان التي تمتلئ بالأمطار ، ثم تجف سريعاً فلا تكون أنهاراً ، ومناخ الحجاز شديد الحرارة فيما عدا بعض جهاته المعتدلة كالمناطق لارتفاعها ، وقد برزت أهمية المدن الحجازية لوقوعها على طريق التجارة الممتد بين اليمن والشام ، من الجنوب إلى الشمال .

واليمن جنوباً : وهي تؤلف الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وقد عرفت قديماً بالخصب والغنى ، وكثرة قصورها وترف ملوكها ، كما فسر القرآن الكريم في سورة (سبأ) : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور » . وكما فصله « الحمداني » في الجزء الثامن من كتابه المهم « الإكليل » .

ففي الجزيرة طبيعة قاسية ، حرها لافح ، وماؤها قليل أو نادر ، وجبالها صلبة ، وعواصفها عاتية دائمة ، ووحوشها ضارية ، كل ما فيها يوحى بالقوة ، وينطق بأن البقاء للأقوى ؛ لذا نشأ العربي على غرار طبيعة بلاده جافاً قاسياً ، محباً للعناد ، كثير التحمل للمشقات ، محباً للحرية إلى أقصى حدودها ، فإذا حاولت أن تحدّها ،

(٧) محاضرات الدكتور حزين المخطوطة ، ومقدمة المستشرق « ليال » على ديوان عامر بن الطفيل

(٨) انظر أحمد أمين : فجر الإسلام ج ١ ص ١ - ٣ ، والرمال الوعثاء هي اللينة التي تغيب

هاج كأنه وحش في قفص وثار ثورة جنونية^(٩) ، والقبيلة عنده هي وحدة الحياة الاجتماعية ، يتعصب لها ويفنى في سبيلها .

وقبل القول مفصلاً في طبيعة حياة العرب وأثرها في حروبهم يحسن أن نقسمهم قسمين :

١ - عرب البادية ب - عرب القرى والممالك

١ - أما عرب البادية : فهم قوم ألفوا الرحلة من مكان إلى آخر طلباً لمواقع الغيث ، ومنابت العشب ، حرقهم الأساسية رعى الماشية يضاف إليها أحياناً ، حراسة القوافل التجارية ، أثناء مرورها بأرضهم ، واحتراف الرعى كان يقتضيهم كثيراً أن يتزاحموا على المشارب ، أو يتسابقوا إلى خصيب المراعى ، أو يعتدى أحدهم على حتى أخيه الذى اتخذه لأنعامه ، ويرى في الاعتداء عليه إهداراً لكرامته ، واحتلالاً لوطنه ، ولهذا الاحتكاكات الدائمة كانت تثار العداوات ، وتدوم الحروب بين القبائل المختلفة ، ولا يبعد أن تكون العداوة التى ثارت بين عرب الشمال ، وعرب الجنوب ، إنما نشأت من أنهم نظروا إلى عرب الجنوب ، نظرة المعتدين عليهم ، المحتلين لبلادهم ، الذين أقبلوا يقاسمونهم أرزاقهم ، ويزاحمونهم في ديارهم ، ومصادر عيشهم .

وبالاختصار كانت نيران الحرب تشتعل بين القبائل البدوية بسبب التنازع على المراعى ، أو لحماية التجارة التى تعهدوا بها ممن يريد التعرض لها ، ففى ذلك حياتهم ، ومقومات عيشهم فى تلك الصحراء الشحيحة القاسية .

ثم إن البدوى يقيم مع أبنائه فى خيام من الشعر ، وسط الصحراء المنبسطة ، فهو معرض وكذا أنعامه لسطو الوحوش ، أو عدوان اللصوص ؛ لعدم احتمائه بالمباني ذات الأبواب والأسوار ، فكان لازماً عليه أن يحمى نفسه بشجاعته ، ويحمى متاعه برمحه وسيفه ، ويحارب الطبيعة ويعاندها مدفوعاً بغريزة حب البقاء ، وفى هذا المعنى يقول العلامة « ابن خلدون » : « وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتبازهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون

(٩) أحمد أمين : فجر الإسلام ج ١ ص ٣٩ .

بالمدافة عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يتقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق . . . ويتوجسون للنبات والهيئات ، ويتفردون في القفر والبيداء ، مدلين بيأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ^(١٠) .

يضاف إلى ما تقدم أن الطبيعة كانت ترضى على العرب أحياناً ، فتجذب الأرض ، ويهلك الخف والحافر ، وتهدهم المجاعات ، فكانت تدفعهم غريزة حب البقاء ، إلى نهب غيرهم ولو كانوا جيرانهم ، وسلب القوافل المارة بهم أيّاً كان نوعها ، ومهما كان أصحابها ، لا يصدّهم عن ذلك وازع من خلق أو دين ، فما هو إلا أن تمتد عين البدوي إلى متاع أخيه ، حتى تمتد يده إلى اغتصابه منه ، معتقداً أن ما يملكه هو ما يستطيع انتزاعه من غيره بحد سيفه ، ويعد العدوان مفخرة من مفاخره ، بل كان يعد نقض العهود وخفر الذم ، أمانة القوة والعزة ؛ لأن الذي لا يفعل ذلك في نظره ضعيف ، فهذا شاعر يهجو قوماً فيعيبهم بالوفاء والعدل فيقول :

قبيلته لا يغدرون بدميةٍ ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقد أبان ابن خلدون « في مقدمته أن الظلم والعدوان طبيعة في الأمم البدوية ، وأن ذلك لإرضاء نزواتهم الحربية ، وإشباع غريزة حب التملك في نفوسهم فيقول : « وطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم ، وليس عندهم في أخذ أموال غيرهم حدّ ينتهون إليه ، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون نهبوه^(١١) » .

وكذلك كان الأعراب إذا عضّهم الجوع ، يفعلون ما تفعل قطعان الذئاب في سهول آسيا الشمالية فيغيرون على القرى القريبة منهم ، يروعون أهلها وينهبون أنعامهم وأموالهم ، فكان يلجأ هؤلاء إلى بعض القبائل المجاورة فيكرونها بالمال يدفع سنوياً ، لقاء حمايتهم من إخوانهم البدو ، يقول « جوستاف لوبون » : « ويبقى الأعراب الرعب في قلوب جيرانهم المتمدنين ، لما فطروا عليه من النهب وحب

(١٠) المقدمة طبعة المهدى ١٩٣٠ م ص ١٠٥ .

(١١) نفس المرجع ص ١٢٥ ، ٢٢٦ .

القتال ، وهم يفخرون بنهب القوافل فخر الأوربيين بضرب المدن بالقنابل وافتتاح الأقطار (١٢) .

يضاف إلى ما تقدم حب البدوى لحماية الجار ، فهو يرى فى العدوان على جاره عدواناً عليه ، فيهب للذود عنه ، مهما كلفه ذلك من متاعب وسبب له من حروب ، وكثير من أيام العرب كانت تثور لهذا السبب ، فإذا ضممنا إلى حماية الجار ، ما عرف به من حب لقبيلته ، وتعصب لها ، وحبه للأخذ بالثأر ، والتشديد فيه تشديداً يعدو طور التصديق— إذا تأملنا ذلك كله ، استطعنا أن نتصور حياة البدو وعاداتهم ، وما كانت تستلزمه من حروب وغارات ، لا يهدأ لهم بدونها بال ، ولا يقرّ لهم قرار ، وقد كانوا يفخرون بتلك الحروب كما كانوا يفخرون برعى الماشية فى العراء ، ويحرقون الزراعة وأهلها ، ويزرون على المدنيين الزراعيين حياتهم الهادئة المستقرة ، التى لا يشرع فيها الرمح أو يمتشق فيها الحسام ، اقرأ قول « القطامى » فى هذا المعنى :

ومن تكن الحضارة أعجبتة فأى رجال بادية ترانا ؟
.....
وأحيانا نغير على أحيانا إذا ما لم نجد إلا أخانا (١٣)

ب - عرب القرى والممالك :

يقصد بهؤلاء العرب المتحضرون ، الذين كانوا يقطنون القرى العامرة ويعمرون الواحات الحصبة ، كأهل مكة والمدينة والطائف وخيبر فى الحجاز كما يقصد بهم العرب الذين كوّنوا لهم ممالك واسعة على أطراف الجزيرة ، وهم اللخميون فى الحيرة غربى الفرات ، والغسانيون فى الشمال على مشارف الشام ، فهؤلاء وأولئك كانت تدفعهم للحرب بواعث البدو السابق ذكرها ، فهم عرب قد ركز فى طباعهم ما ركز فى طباع العرب جميعاً ، ولكنهم انفردوا عن البدو بعامل آخر ، هو تأمين المتاجر وحماية القوافل من عدوان البداة ، إما متاجرين بأموالهم ، وإما حارسين لأموال

(١٢) حضارة العرب المتقدم ص ٨٣ .

(١٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ١٩١ وروى الشطر الأول فى البيت الأخير فى شرح ديوان الحماسة للتبريزى هكذا (وأحيانا على عمرو أحيانا) .

غيرهم لقاء جعل معروف ، وفي كلتا الحالين كانت التجارة تسبب بعض الحروب بين حمايتها والمعتدين عليها. وسيأتى الكلام عن البواعث السياسية ، عند عرب الممالك بشيء من التفصيل ، في ذكر مصادر الرزق عندهم .

٢ - الحرب ومصادر الرزق عند العرب

١ - كان عرب الحجاز بوجه عام يحترفون التجارة ، ولا يقدرّون عليها حرفة من الحرف ، إذا تغاضينا عن أهل « يثرب » الذين كان كثير منهم يحترفون الزراعة ، حيث التربة البركانية الحصبة ، والمياه الوفيرة ، ومع ذلك فقد كان بها كثير من قبائل اليهود يحتكرون التجارة ، وبخاصة تجارة الذهب وصناعة الحلّ ، ومن المعقول أن يكون بعض أهل « يثرب » قد شاركهم تجارتهم تلك وتعلم منها ، وهاك بعض أدلة تبين أهمية التجارة عند العرب بوجه عام :

١ - كثرة أسواق العرب التجارية داخل جزيرتهم : فقد كانت بحيث لا يخلو منها شهر من شهور السنة ، فهناك سوق « دومة الجندل » وسوق « هجر » وعمان والمشقر وصُحار ، وكانت أهم الأسواق عندهم أسواق الحجازيين الثلاثة : « عكاظ وذو الحجة وذو الحجاز » وذلك لتكاثر الوافدين إليها ، ولما فيها من أمن وسلام ؛ لأنها كانت تقام في أشهر الحج الحرم التي يحرم فيها القتال ، كما كانت تقام في أماكن قريبة من الحرم المكي الذين تؤدي فيه مناسك تلك الشعيرة المقدسة^(١٤) والذي قال الله فيه ممتنّاً على أهله بنعمته : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويستخطف الناس من حولهم^(١٥) » .

ب - لم يكتف الحجازيون بهذه الأسواق الداخلية ، بل كانوا يطلبون لسلعهم الأسواق الخارجية ، فألفوا رحلة الشتاء لليمن جنوباً ، ورحلة الصيف للشام شمالاً ، في قوافل تشبه الجيوش ، لها طلائعها وحمايتها وأدلتها ، وقد ذكر « الطبرى » أن بعض هذه القوافل بلغ عددها ١٥٠٠ بعير^(١٦) ، وكيف لا وهى

(١٤) الدكتور على عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ص ١١٢ ، ١٣ .

(١٥) سورة العنكبوت : آية ٦٧ .

(١٦) نقلا عن أحمد أمين في فجر الإسلام ج ١ ص ١٦ ، وذكر فيها أن الرحالة استرابور

رأى بعض هذه القوافل وشبهها بالجيوش .

عرضة للنهب في كل أوان ، فتجب حراستها بالفوارس .

ح - يفهم من نصوص القرآن الكريم الذي نزل بلغتهم ، أن التجارة كانت عندهم بمكان ، فإنه خاطبهم بلغة البيع والشراء والتجارة في حوالى خمسين آية ، تدور حول أجلّ الأمور خطراً ، وهو أمر العقيدة والجهاد في سبيلها ، قال تعالى : « يأياها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله . . . » إلخ^(١٧) .

وقال في كساد تجارة المنافقين : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين^(١٨) » ، وقال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به^(١٩) » . وقد سمي العرب أخذ العهد بالرياسة أو الخلافة « بيعة » وهى من أجل أمورهم السياسية خطراً ، وسموا عملية التفويض مبايعة تشبيهاً لها بالصفقات التجارية التى كانت تملأ حياتهم ، حيث تتصافح الأيدي لتأكيد العقد ، ولذا خاطبهم الله بجارى عادتهم في قوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم^(٢٠) » . أى يؤكد البيعة ويقويها بحضوره معهم . وإذا كان هذا شأن التجارة عندهم ، فمن البدهى أن يركزوا نشاطهم حول رواجها ، ويعملوا جاهدين على حمايتها ، وكثيراً ما كانت تتعرض تلك المتاجر لهجمات البدو ، فيدور الصراع بينهم وبين حمايتها ، ولذا كانت التجارة عاملاً من العوامل التى ساعدت على تكرار الحروب في الجزيرة العربية .

٢ - وأما عرب الممالك على أطراف الجزيرة ، وهم الأسرة اللخمية في الحيرة ، والأسرة الجفنية في الشام ، فقد كان معظمهم يقوم بدور الوسيط التجارى بين الفرس واليمن ، وكان بعضهم يتاجر لحسابه الخاص وكان هذا عند اللخمين أوضح منه عند الغسانيين ، الذين يعد تاريخهم غامضاً في نظر المؤرخين لتناقضهم فيه ،

(١٧) سورة الصف : آيات ١٠ ، ١١ .

(١٨) سورة البقرة : آية ١٦ .

(١٩) سورة التوبة : آية ١١١ .

(٢٠) سورة الفتح : آية ٤٨ .

ولعل السبب في ذلك كما يرى الدكتور « أحمد أمين^(٢١) » أن العرب كانوا أقل اتصالاً باليونانيين الذين دونوا تاريخ الغساسنة ، وأن الموالى الذين دخلوا الإسلام من الفرس كانوا أكثر من موالى اليونان ، فلم تصلنا أخبارهم واضحة كأخبار الفرس التي نقلها مسلمهم إلينا ، والذين كثر اختلاطهم بنا نسباً وصهراً .

تحدثنا كتب التاريخ أن لطيمة « كسرى » كانت تخرج من العراق ، فيها البز والألطفات توصّل إلى « باذان » عامله على اليمن ، وأن العرب كانت تحرس اللطيمة وتجيرها حتى تبلغ اليمن^(٢٢) ، وأن النعمان نفسه كان يجهز كل عام لطيمة يوجه بها إلى سوق « عكاظ » ، وكان يشتري له بثمانها أدم من أدم الطائف^(٢٣) ، وأن تعرض بنى عامر لها كان سبباً في حرب النعمان لهم ، وقد كان السبب الرئيسي في حرب « الفجار الثاني » الذي يعد من أعظم أيام العرب أن « البراض » تعرض لتجارة النعمان ، وقتل عروة الرّحّال الذي كان يقوم بحمايتها وتأمينها من هجمات الأعراب^(٢٤) .

على أن الباعث السياسى في حروب المناذرة والغساسنة كان أهم من باعث التجارة ، ذلك أن المناذرة كانوا يقدمون الطاعة للفرس ، ويردون عنها هجمات الأعراب ، في مقابل إمدادهم بالسلع التجارية ، ووضع الإتاوة عنهم ، فكانت العلاقة بينهما علاقة منفعة متبادلة ، وكذلك كانت علاقة آل جفنة بالروم ، يرى هؤلاء في العرب حماة تجارتهم ومدنهم من البدو ، ويرى العرب فيهم منابع رزقهم وحضارتهم ، وملاذهم عند الشدة .

وقد كان التنافس الحربى على أشده بين الفرس والروم ، حيث كانتا القوتين المتكافئتين في العالم حينئذ ، على النحو الذى تراه اليوم من التنافس الحربى بين « روسيا وأمريكا » فكان عرب العراق حيناً يناصرون الفرس على الروم حتى تهزمها وتستولى على الشام ، وكان عرب الشام حيناً آخر يناصرون الروم على الفرس حتى

(٢١) انظر فجر الإسلام ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢٢) جاد المولى وآخرون . أيام العرب في الجاهلية طبعة الحلبي ص ٢٧ . واللطيمة : القافلة التجارية ، والبز : الثياب كما في القاموس المحيط .

(٢٣) نفس المرجع ص ١٠٧ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤٢ .

(٢٤) نفس المرجع ص ٣٢٧ والكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢٨٤ .

تستولى على العراق ، ومن هنا كان التنافس كذلك بين عرب الحيرة وعرب الشام ، يحارب بعضهم بعضاً لصالح حلفائهم ، فإذا انتصر الملك اللخمي على منافسه الغساني قرّبه كسرى وكافأه ، وإذا انتصر الغساني قرّبه قيصر وكافأه ، يقول الدكتور « فيليب حتى » : « وقد وصلت دولة الغساسنة شأن منافستها وقريبتها الحيرة أو دولة اللخمين إلى أقصى نفوذها خلال القرن السادس بعد المسيح ، ففي هذا القرن ازدهر في التاريخ العربي كل من « الحارث الثاني بن جبلة الغساني » و « المنذر الثالث ابن ماء السماء الحيري » . . . وقد عين الإمبراطور البيزنطي « جستنيان » الحارث الأعرج جزاء وفاقاً على هزيمته لمنافسه الخطر اللخمي المنذر الثالث « سيداً على قبائل العرب في الشام »^(٢٥) .

يضاف إلى ذلك الباعث السياسي ما عرف به العربي أياً كانت إقامته من حماية الجار والغضب للعدوان ، والأخذ بالتأثر مهما طال به الأمد ، يفعل ذلك استجابة لداعى العصبية القبلية ، التي تنادى بنصر الأخ ظالماً أو مظلوماً ، اقرأ قول شاعر الحماسة يلوم قومه ويصور أمنيته :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى	بنو اللقيطة من ذُهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشرٌ خشنٌ	عند الحفيظة إنْ ذو لُوثَة لانا
ومنها: فليت لي بهم قوماً إذا ركبوا	شنوا الإغارة فرساناً وركبانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا
لكن يغيرون أشتاتاً إذا فزعوا	وينفرون إلى الغارات وحدانا ^(٢٦)

٣ - أيام العرب وقفها الحربى

أيام العرب هي حروبهم التي كانت تدور بينهم ، للأسباب التي سبق توضيحها ، وقد كانت كثيرة في الجاهلية كما كانت دائمة لكثرة منازعاتهم ودوامها ؛ وسميت أياماً لأن المعركة كانت تستغرق يوماً أو بعض يوم . ولكن يبدو أن بعض

(٢٥) تاريخ العرب - تعريب الأستاذ « محمد مبروك نافع » ص ٩٣ .

(٢٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ١٨٨ ، وأحمد أمين في فجر الإسلام ج ١ ص ١١ .

أيام الجاهلية لم تصلنا أخبارها ، إما لعدوان الرواية الشفوية عليها ، وإما لدواعي التعصب القبلي الذي يخفى بعضها ويبرز بعضها ، فقد ذكر صاحب « كشف الظنون » أن « أبا عبيدة » جمع في كتابه الكبير من أيامهم ١٢٠٠ يوم ، وأن « أبا الفرج الأصبهاني » ألف فيها كتاباً جمع فيه ١٧٠٠ يوم ، ولكن الأيام التي روتها كتب التاريخ والأدب الموثوق بها بلغت ٥٢ يوماً فقط ، وهي التي جمعها المرحوم « جاد المولى » ورفاقه في كتابهم « أيام العرب في الجاهلية » على أن بعض هذه الأيام فاقت غيرها في الشهرة لطول مدتها ، وكثرة قتلاها ، وانتهاك الأشهر الحرم فيها ، كما انتهكت حرمة الأطفال والشيوخ والنساء وهي : (أيام الفيجار الأربعة ، ثم يوم بُعث ، ويوم ذى قار ، وحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء^(٢٧)) .

هذا ، وقد اختلف الباحثون في الحكم على قيمة هذه الأيام ، وأهميتها الحربية : فبعضهم يعطيها من الأهمية فوق ما تستحق كالأستاذ « العقاد » مثلاً ، الذي يقول عنها : « وعرب البادية لم يفها قط علم الحرب ، كما علمته دول الحضارة في عصور الجاهلية العربية^(٢٨) . » وبعضهم يهون من شأنها ، ويرى أنها ما كانت إلا مناوشات محلية ، كالتى تثور بين بعض الأسر في بعض القرى المصرية ، وعلى هذا درج بعض المستشرقين ، وتابعهم في ذلك الرأى الدكتور « على الجندى » في رسالته حيث يقول : « إن معظم أيام العرب في الجاهلية كانت أقل شأنًا من المعارك الحقيقية ، لقلة المشتركين فيها ، وإنما كانت نوعاً من المصادمات المحلية ، التى تستدعى بطولة فردية فى درجة عالية ، وتعطى فرصاً مناسبة لإظهار البطولة اليدوية^(٢٩) » .

وقد يكون من دواعى المبالغة ، أن يصدر المرء حكمه شاملاً لأيام العرب كلها ، فى تلك الجزيرة الضخمة المترامية الأطراف ، التى تكاد تبلغ مساحتها مليوناً ومئة ألف من الأميال المربعة^(٣٠) ، أى تقارب مساحة الهند العظيمة .

(٢٧) انظر أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى ورفاقه ، وتاريخ العرب حتى ج ١ ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢٨) عبقرية خالد ص ١٠ .

(٢٩) Mortial Poetry among the Arabs in the Jahiliya p. ١٣ .

(٣٠) خواجا كمال الدين : المثل الأعلى فى الأنبياء ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١١٩ .

وقد مرفى هذا التمهيد أن بلاد العرب مختلفة التضاريس (+)، وفيها الصحارى الهائلة والجبال الوعرة، والحرّات البركانية، والسهول الحصبة، ومن الطبيعى أن تختلف تبعاً لذلك عادات السكان ولهجاتهم، وأساليبهم فى حروبهم المختلفة، ولذا كان من الصواب أن نقسم أيام العرب عند دراستها قسمين، كما قسمت البيئة قسمين؛ لنعرف الفرق بينهما:

١ - أيام البادية ب - أيام القرى والممالك

١ - أيام البادية وأهميتها:

أيام البدو هى الحروب التى كانت تثور بين القبائل الرعوية، تناحرًا على وسائل الحياة، أو طلبًا للتّرات، أو قصدًا للعدوان لذاته، وهذه هى التى ينطبق عليها إلى حد كبير قول بعضهم: «إنها كانت تتيح فرصًا صالحة للذهب والغارات، ولإظهار أعمال البطولة الفردية التى كان يقوم بها زعماء القبائل»^(٣١). وإنما يدعونا إلى ذلك الحكم عليها، ما نلمس فيها من تفاهة أسبابها، وقلة الأعداد المشتركة فيها، وضيق النتائج المترتبة عليها.

حقًا إن الدارس لهذه الأيام ليدهش، إذ يرى أن معظمها ثار لمفاخرة بين رجلين، أو اعتداء على بئر أو ناقة، أو مطالبة بدم قتيل، إلى غير ذلك من الأسباب التى تشبه نظائرها عند القرويين فى قرى الإقليم المصرى فكثيرًا ما توافينا الصحف بأن نزاعًا ثار بين فردين، أدى إلى قتال دموى بين بلدين، قد يدوم سنوات عدة، وسببه اعتداء حيوان على مزرعة أو نزاع على السبق فى الرزق، إلى غير ذلك من الأسباب الواهية التى لا يعيرها الإنسان المهذب التفاتًا، ولكنها عند الجاهل كبيرة الخطر تحمل كثيرًا من المعانى، التى تجعله يمتضى فى حدّته، فيخرج عن طوره وينسى إنسانيته، وينقلب فى فعاله وحشًا يحطم كل ما يصادفه، غير مبأن بالنتائج.

ولن يريد الوقوف على تفاهة أسبابها، وخلط المؤرخين بينها أن يرجع إلى

(+) انظر صفحة ٤٣.

(٣١) تاريخ العرب لحتى - نافع ج ١ ص ١٠٥ ورسالة على الجندي السابقة.

ابن الأثير^(٣٢)، والسيرة الحلبية^(٣٣)، وأيام العرب لحاد المولى ورفاقه^(٣٤)، فإنه واجد فيها طرافة تسلية وتدهشه، فمن ذلك على سبيل المثال: أن رجلاً من بني غفار جلس في سوق عكاظ، ومدّ رجله منادياً: أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فضربها رجل من «قيس عيلان» فثارت الحرب بين الحيين لذلك، فأية عقلية تلك التي تريق الدماء، وتقضي على زهرة الشبان، من أجل تفاخر فارغ؟

وعلى هذا فقد يكون من المبالغة ما نقله الدكتور «حتى» من تأكيد المؤرخين، بأن طلب الثأر كان الباعث الأول على هذه الأيام^(٣٥)، إذ أن طلب الثأر إنما يكون لقتال سابق ذهبت فيه أرواح لأسباب تافهة، لكن الباعث الأول عليها هو ما تستدعيه حياة العربي، وتدفعه إليه ظروف بيئته، فلاهل الوبر بواعثهم، ولاهل المدر بواعثهم، وقد يتفقون فيها أو في كثير منها.

أما أعداد المقاتلين في هذه الأيام، فإنها كانت من القلة بحيث تجعل المرء يستخف بشأنها، فما عرفت تلك الأيام الجموع المحتشدة، ولا الجيوش الجارية، وإنما كان متوسط المشتركين في معظمها يقارب المئة، فقد روى «ابن قتيبة^(٣٦)» أن «عمر بن الخطاب» سأل بعض بني عبس: كم كنتم يوم الهبأة، قال: «كنا مئة كالذهب»، لم نكثر فتواكل، ولم نقل فنذل». وروى أيضاً أن «عنترة العبسي» سئل يوماً عن عددهم يوم (الفروق) فقال: كنا مئة لم نكثر فنفسل، ولم نقل فنذل. إذن فهذا العدد هو الحمود عندهم، لأن الكثرة مدعاة للتواكل والفشل، وهو في نظرهم غير قليل لأن الأقل منه مدعاة للذلة.

وأما نهاية المعركة في تلك الأيام، فما كانت تقرر أمراً خطيراً في الغالب وإنما كانت تنهى بتدخل بعض الخيرين للصالح بين القبيلين، وتحمل الديات، إما من ملهم، أو من مال الفريق المنتصر، كما حدث عندما توسط الزعيان

(٣٢) الكامل ج ١ ص ٢٨٤ وما بعدها.

(٣٣) ج ١ ص ١٤١ وما بعدها.

(٣٤) من ص ٣٢٢ - ٣٤٠ ومواضع أخرى.

(٣٥) تاريخ العرب له ج ١ ص ٣٣.

(٣٦) عيون الأخبار ج ١ ص ١٢٥، والعقد الفريد ج ١ ص ١٢١، والفروق موضع بديار

بني سعد حدثت فيه معركة.

« الحارث بن عوف وهريم بن سنان » في حرب عبس وذبيان مما جعل الشاعر « زهير ابن أبي سلمى » يقف كثيراً من شعره على مدحهما .

وأحياناً كان الأمر يقتصر على تنافر الفريقين وتشاتمهما ، ثم ينتهى بأن يتحاجزا عن القتال ، نظراً لتدخل بعض العقلاء منهم ، الذى يوضح لهم أن الخطب يسير لا يستأهل أن تراق فيه الدماء ، كما حدث مثلاً في (الفِجار الأول) على اختلاف في سببه^(٣٧) بين المؤرخين .

وينبغى أن نعرف أن بعض الأيام المهمة التى سبقت الإشارة إليها ، كان يسبقها شىء من الاستعداد لها ، بعقد الأحلاف مع الجيران ، وشراء الخيل والسلاح ؛ ولذا كانت أطول أيامهم وأدومها ، يتعاود الفريقان فيها القتال عاماً بعد عام ، ويتواعدون اللقاء في مشهور أسواقهم ، تنال قبيلة من أخرى في عكاظ مثلاً ، فتواعدها هذه اللقاء في عكاظ القادم « على قرن الحول^(٣٨) » أى في العام القادم ، فيلتقيان في الموعد يكون بينهما قتال أولاً يكون ، فيعد هذا اللقاء يوماً من أيامهم ، تنشد فيه الأشعار ، وتنقل عنه الأخبار .

ولعل هذا التواعد في الأسواق ، هو الذى يفسر لنا امتداد بعض أيامهم سنوات عدة ، فقد دامت حروب « الفِجار » ثمانية أعوام ، ويروى أن حرب « بُعَاث » دامت عشرين عاماً ، وأن حرب « البسوس » دامت أربعين^(٣٩) ، وليس هذا ببعيد (إذا كان اللقاء على فترات كما ذكرت) فإن العداوات في بعض الأسر عندنا ، قد تستمر مثل هذه المدد المتباعدة ؛ ولعل تواعد المسلمين والمشركون بداراً من العام القادم ، بعد معركة أحد ، كان عملاً بذلك التقليد الجاهلى ، الذى كان يتيح لهم فرصاً للانتقام ، ويشبع فيهم رغبتهم الملحة في طلب الترات ، وتعويض ما فات .

ب - أيام القرى والممالك وأهميتها :

هذه حقاً هى الحروب التى تستحق الدراسة ، لأنها حدثت بين أقوام لهم قراهم ومدنهم وحصونهم ، يعملون الحيلة للمحافظة عليها ؛ ولذا فأيامهم تخالف أيام

(٣٧) انظر الكامل ج ١ ص ٢٧١ والسيرة الحلبية ج ١ ص ١٤١ وجاد المولى ص ٣٢٨ .

(٣٨) أيام العرب لجاد المولى - مواضع متفرقة .

(٣٩) ابن الأثير في الكامل ج ١ ص ٢٨٥ ومواضع أخرى .

البدو ، من حيث الأسباب ومن حيث النتائج ، وكثرة عدد الجند فيها ، ومن حيث التنظيم الحربى المتقن ، الذى يصدق عليه قول أستاذنا « العقاد » السابق ، وذلك لتقلهم نظم الحرب عن جيرانهم ، فاتصال الغساسنة بالدولة البيزنطية العريقة وتطوعهم فى جيشها لقتال الفرس ، أتاح لهم فرصة الإحاطة بالشئون الحربية الفنية ، وكذلك كان اشتراك المناذرة مع الفرس فى حرب الروم يحقق لهم نفس الغاية ، كما كان يحققها انخراط بعض الفرس فى جيش المناذرة ، كما سنرى .

فيحدثنا « أبو الفرج » أن النعمان كان عامل كسرى على الحيرة^(٤٠) ، ويزيد « ابن الأثير » أن كسرى ملك « النعمان » وألبسه تاجاً قيمته ستون ألفاً^(٤١) وأنه كان يخدمه من جيش « كسرى » كتيبتان : إحداهما تسمى « الشهباء » ، والثانية تسمى « الدوسر » وهو تعريب للكلمة الفارسية (دوشير) المؤلفة من كلمة (دو) بمعنى اثنين ، وكلمة (شير) بمعنى أسد ، وكان شعار الفرس أسدين متقابلين ، يرسمان على أعلامهم ومبانيهم ، والتسمية نفسها تشعر بأن جنود الشهباء كانوا من العرب ، وجنود الدوشير من الفرس . وكفى بهذا اتصالاً يجعل العرب يملكون على فنون القتال ، ويدربون على أيدي الفرس الذين ينافسون البيزنطيين .

وعلى هذا النحو أيضاً كانت صلة الغساسنة بالروم ، فقد كانوا يملكون من قبل^(٤٢) الروم ، فقد عين « الحارث بن جبلة » الملقب بالأعرج بمرسوم من الإمبراطور « جستنيان » وفاز منه بأعلى لقب بعد الإمبراطور^(٤٣) وهو لقب (فيلارك وبطريق) (Phylarch and Patricius) وأن الحارث زار الإمبراطور بعاصمته ٥٦٣ م ليفاوضه فيمن يخلفه على كرسیه أثناء اشتغاله بالحروب مع الحيرة^(٤٤) . وزيادة على ذلك روى « ابن الأثير »^(٤٥) أن الروم يزعمون أن « نقفور » ملكهم من أولاد جفنة بن غسان ، وأنه كان يلى ديوان الحراج قبل أن يملك .

(٤٠) انظر الأغاني ج ١ ص ١٣٢ والفروسية لابن القيم ص ١٠٢ ط دار الكتب المصرية وابن عبد ربه فى العقد ج ١ ص ٢١٠ .

(٤١) الأغاني ج ٢٠ ص ١٣٤ .

(٤٢) الكامل ج ١ ص ٢١٧ .

(٤٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٧٠ .

(٤٤) أحمد أمين فجر الاسلام ج ١ ص ٢٢ ، والصدیق أبو یکر لهیکل ص ٢٠٤ .

(٤٥) الكامل ج ٦ ص ٦٦ .

وهذه الرواية يحيط بها كثير من الشك ؛ ولذا قال فيها راويها « يزعم الروم »
بالتشكيك ، ولعلهم زعموا ذلك ليجذبوا إليهم قلوب العرب ، فيظلوا على ولائهم لهم
ويكفوا عنهم غارات الأعراب ، ويؤمنوا متاجرهم التي كانوا حراساً على سلامتها .

مقارنتها بأيام البدو :

اتضح لنا آنفاً نوع الصلة التي كانت تربط عرب العراق ، وعرب الشام
بأحلافهم من الفرس والروم ، ومما لاشك فيه أن العرب قبسوا عن حلفائهم كثيراً
من فنون الحضارة المختلفة ، ومنها النظم الحربية ؛ ولذا امتازت أيامهم بضخامة
أعدادها وكثرة قتلاها ، ثم بالتنظيم الحربي الفائق ، ثم بالتجديد في السلاح ، فقد
علم منه العرب ما لم يعلموه من قبل ، وإليك البيان :

١ - إعداد المقاتلين فيها :

لقد عرفت هذه الأيام الأعداد التي كانت تعد بالآلوف ، وتقسم إلى كتائب ، يروى
« ابن الأثير » أن يوم « الكلاب الثاني » اجتمع له ثمانية آلاف في عسكر عظيم
من بني الحارث وأحلافهم^(٤٦) ثم هو يقول : « ولا يعلم في الجاهلية جيش أكثر
منه ، ومن جيش كسرى بذي قار ، ومن يوم جبلة » .

وفي يوم (ذي قار) جند كسرى أربعة آلاف من الفرس ، وثلاثة آلاف من
قبائل العرب الموالية له ، فكان جيشه سبعة آلاف ، فإذا علمنا أن قبائل « بكر
ابن وائل » وهي الطرف الثاني في المعركة ، كتب لها النصر فيها استطعنا أن نقدر
أنهم كانوا في مثل عدد الفرس تقريباً ، فيكون عدد المحاربين ١٤ ألفاً ، وهو عدد
ضخم بالنسبة لأيام البدو ، الذي كان متوسط العدد فيها مئة كما تقدم .

والذي يدعو للدهشة أن « ابن الأثير » وغيره من المؤرخين يروون أن « الحارث
الأعرج » جمع لقتال « المنذر بن ماء السماء » في معركة « عين أباغ » أربعين
ألفاً^(٤٧) ، ولا أظن أن مشارف الشام كانت تسمح له بتجنيد ذلك العدد الضخم ،
الذي يقارب جيش الإقليم السوري في العصر الحديث ، الذي زادت فيه كثافة

(٤٦) الكامل ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤٧) الكامل ج ١ ص ٢٤٦ أيام العرب وجاد المولى ص ٥٢ .

السكان ، فالغالب على الظن أن الروم أمدوه بجند من جنودهم ، كما كان الفرس يمدون ملك الحيرة بجند من جنودهم .

وإذا علمت أن « الحارث » هذا في يوم (حليلة) أسر من بني تميم وحدهم مئة فارس ، ثم قدرت الأسرى من غيرهم ، وقدرت القتلى من الفريقين استطعت أن تتصور كثرة العدد في هذه المعارك .

٢ - التنظيم الحربى الفنى فيها :

عرف العرب في هذه الأيام نظم التعبئة الجيدة ، فقسموا الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب كما حدث في يوم « حليلة » و « عين أباغ »^(٤٨) ، وأضافوا إلى ذلك المقدمة ثم الساقة ، فصار الجيش مؤلفاً من خمس كتائب ، ولذا كانوا يطلقون عليه اسم (الحميس) لتألفه من خمسة أقسام معروفة .

وعرفوا أيضاً بثّ الجواسيس بين أيديهم ، وإرسال الطلائع لرصد تحركات الأعداء حتى لا يبتغتهم ، فقد فعل العرب والفرس ذلك في يوم (ذى قار)^(٤٩) كما حدث في يوم (البرّدان) وغيره من الأيام المهمة التى استخدم فيها الفن الحربى على نطاق واسع .

وكذلك عرفت هذه الأيام استخدام الكمين لمفاجأة الأعداء ، واستخدام كثير من حيل الحرب ومكائدها ؛ لأن الفرس أهل مكر ودهاء ، بل لقد لعبت هذه الحيل دوراً هاماً في يوم « ذى قار » أدى إلى نصر العرب على الفرس لأول مرة في حروبهم معهم ، وحقيقة تلك المكيدة : أن « بنى شيبان » اتفقوا مع قبيلة « إياد » التى كانت تحارب مع جيش الفرس ، على أن تنسحب من المعركة إذا هجم كمين العرب ، وكانوا قد كمنوا للفرس كميناً في مكان يقال له « الحبيء » فلما تناوش الفريقان يوم المعركة ، حملت ميسرة بكر على ميمنة الفرس ، وحملت ميمنتها على ميسرتهم ، فلما حمى الوطيس خرج الكمين عليهم فتصايح العرب وشدوا على القلب ، فولى « إياد » منهزمة كما وعدتهم فوقع الخلل في صفوف الفرس

(٤٨) ابن الأثير . الكامل ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٤٩) نفس المصدر ج ١ ص ٢٩٥ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٦ .

وانهزمت ، وتبعهم قبائل « بكر » تقتل وتأسر كما تشاء^(٥٠) .
 وإليك مثلاً آخر يبين كيف كانت الخديعة عندهم تفعل فعلها في بعض أيام بني « شيبان » مع « بني تميم » : وقف « هانيء بن مسعود الشيباني » وقال لقومه : « إذا أتوكم فقاتلوهم شيئاً من قتال ثم انحازوا عنهم ، فإذا اشتغلوا بالهيب ، فعودوا إليهم ، فإنكم تصيبون منهم حاجتكم^(٥١) » . وقد نفذت خطته بإحكام فنجحت نجاحاً باهراً ، وأمسى معظم بني « تميم » بين قتيل وأسير ، وهي خطة تذكرنا بخطة المشركين في « أحد » فإنه لا يبعد أن يكونوا قد دبروها حيث سبق استعمالها ، وأضافت إليها الظروف حركة الالتفاف الخلفي من الفرسان لما رأوا الرماة تركوا أماكنهم .

ح - أسلحة القتال عند العرب :

سيأتى تفصيل القول في هذه الأسلحة ، ووصف أجزائها وبيان تطورها في الفصل الثالث ، وتكفي هنا كلمة عابرة للإحاطة بها وبنشأتها :
 وهي بحسب الاستعمال في المعركة على هذا الترتيب : القوس ، ثم الرمح ، ثم السيف ؛ ذلك لأن المحارب يرمى أولاً بالقوس عن بعد ، فإذا تقارب الجمعان لجأ إلى الطعن بالرمح ، فإذا التحما لجأ إلى الضرب بالسيف والطعن بالخنجر .

١ - القوس :

لم يكن الرمي بهذا السلاح شائعاً بين العرب قديماً ، ولكنهم نقلوه عن الفرس ولم يبرعوا فيه براعتهم إلا متأخرين ، وسيأتى بسط القول في ذلك في الفصل الثالث ، وحسبنا هنا أن نسمع قول بعض زعماء « بني شيبان » لإخوانهم يوم « ذى قار » لفهم منه أن هذا السلاح كان شبه ملك للفرس ، فقد قال بعضهم يومها : « لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشأها » ، وقال « حنظلة بن ثعلبة » : « إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء^(٥٢) » . وقد أيد « النويرى » امتياز الفرس بالرمي في قوله : « لم تزل الفرس تفتخر بالرمي في

(٥٠) ابن الأثير في الكامل ج ١ ص ٢٢٠ .

(٥١) ابن الأثير في الكامل ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

(٥٢) جاد المولى ورفاقه في أيام العرب ص ٣٠ .

الحروب والصيد^(٥٣) .

أما العرب فكانوا أول أمرهم — وبخاصة بالبادية — يرمون في معاركهم بالحجارة الصلبة التي شبهها شاعرهم برعوس الحجاج بعد حلقها في موسم الحج حيث قال :

جلاميد يملأن الأكف كأنها رعوس رجال حلقت في المواسم^(٥٤)

فلما رأى العربي الفرس يستخدمون القوس ، عمد إلى فرع شجرة صلبة فحني طرفيه وشدّ بينهما وترّاً من جلد ، أو عصب قوى ، واتخذ له سهمًا من نفس الشجر ثم ركب فيه سنانًا وصار يرمي به كالفرس .

ومما يدل على عدم انتشار القوس عند العرب ، أن أشعارهم وردت مفعمة بامتداح السيف والرمح والتدقيق في وصف أجزاءهما ، وأكثر لغتهم من أسماءهما ، ولكنها أقلت جدًّا في أسماء القوس ، ولا نكاد نعرف كيف كانت تؤخذ من الشجر الجبلي ثم تسوى ، إلا من قصيدة « أوس بن حجر » الذي عرف في الجاهلية بوصف السلاح ، فإنه خصص للقوس أبياتاً أولها :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطوّد تراه بالسحاب مجللاً^(٥٥)

يضاف إلى ما تقدم أن العرب كانوا يمجّدون شأن الرامي لندرته بينهم ، ويشيدون بذكر من يجيد الرمي فيهم ، لدرجة أنهم نسجوا حوله قصصاً أشبه بالأساطير ، منها تلك القصة التي تفيد أن أعرابياً أراد أن يرمى رجلاً مسرعاً على جملة ، وقد علق ضبباً في قتب البعير ، فرمى أولاً دماغ الضب ففلقه ، ثم رمى ثانياً وسط فقرات ظهره فأصابها ، ثم رمى ثالثاً أصل ذنبه فأصابه^(٥٦) .

وأظن أن تلك القصة لو صحت لصار في العرب رماة حاذقون ، ولما جاز للفرس أن يفخروا عليهم في الرماية والصيد .

٢ — الرمح :

كان العربي يتخذ العصا دائماً ويستخدمها في كثير من أغراض حياته حتى

(٥٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٦ ص ٢٢٩ ط دار الكتب ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م ، وانظر ص ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ من هذا الكتاب .

(٥٤) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١١ .

(٥٥) الأستاذ « عبد الحميد حسن » في مذكراته الأدبية - مخطوطة عندي .

(٥٦) القصة بطولها في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢١ .

كانت هي والعمامة من خصائصه المميزة له^(٥٧) : يقطعها من شجر جبلي صلب ، فيقومها ويصقلها ويستخدمها في شتى أغراضه ، فلما رأى بقر الوحش يدفع عن نفسه بقرونه ، صار يأخذ تلك القرون ، ويركبها على طرف العصا ، يطعن بها عدوه عن بعد ، ثم صار يتخذ لها أسنة الحديد في أعلاها وأزجة الحديد في أسفلها وسماها بأسماء كثيرة منها الرماح والقنا وغيرها ، ووصفها بصفات متعددة تختلف باختلاف أطوالها فيقال « رمح خَطِيل » ، ثم رمح نائر ، ثم رمح مخموس ، ثم رمح مربوع ، ثم رمح مِطْرَد^(٥٨) إلى غير ذلك من الصفات التي سيأتي توضيحها .

والذي يفهم من شعر « أوس بن حجر » واصف السلاح الجاهلي ، أنهم كانوا يفضلون الرمح الأصم ، على الرمح الأجوف ، الذي كان يؤخذ من الغاب الفارسي ، فهو يقول :

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشر أعصلاً
أصم رُدَيْنِيَّأْ كأن كعوبَه نوى القسب عراًصاً مزجتي منصلاً^(٥٩)

فهو يمتدح رمحه بأنه غير مجوف ، وأنه مستورد من « رُدَيْنِيَّ » المشهورة بصنعه ، وأنابيبه صلبة كأنها نوى التمر ، وهو مع ذلك لَدُنْ مَرِن ، له زُجٌّ في أسفله ، ونصل في أعلاه يطعن بهما ، وسيأتي تفصيل القول في الرماح وأطوالها ، والتحسين الذي أدخل عليها في الفصل الثالث .

٣ - السيف :

هو سيد السلاح عند العرب ، يفرعون إليه عند الصيحة ، ولا يفارق أحدهم في حل أو سفر ، يعتزون به ، ويخاطبونه في أشعارهم كما يخاطبون خيلهم ، ويطلقون عليه الأعلام المختلفة مثل « الصمصامة » ، وذى الفقار ، والبتار ، وغيرها ، وكثيراً ما كان بعض الأبطال يحمل سيفين يعاقب بينهما في القتال ، أو ليحل الإضافي محل الأصلي ، إذا كسر أو التوى أو تثلم .

(٥٧) الجاحظ في البيان والتبيين ج ٣ ص ٦٤ .

(٥٨) نفس المرجع ، والخموس ما طوله خمسة أذرع ، والمربوع ما طوله أربعة .

(٥٩) الأستاذ عبد الحميد حسن في مذكراته السابقة .

وإن الناظر في أشعار العرب ليجد فيها تمجيد السيف ، والإكثار من أسمائه
 كثرة تلفت النظر : وأجودها عندهم السيوف المستوردة من الهند ، أو المطبوعة
 باليمن أو مشارف الشام ، التي كان يطبعها قين رومي يسمى « سُرَيْج » ، ونسبت
 السيوف إليه فسميت « السريجية »^(٦٠) وفي السيف يقول « أوس بن حجر » :
 وأبيضَ هندیًّا كأن غِراره تَلَأْلؤُ برق في حَبَى تهللا^(٦١)

ومما يدل على براعة العرب في استخدام السيف ، وامتنياز الفرس بالقوس قول
 « أعشى قيس » في يوم « ذى قار » :

لما أمالوا إلى الشباب أيديهم ملنا ببيض فظل الهامُ يُقْتَطف

وأخيرا يكفي أن نقرأ النص الآتي ، لنعلم رأى العربي في أنواع السلاح :
 سأل « عمر بن الخطاب عمرو بن معد يكرب » عن السلاح فقال : ما تقول في
 الرمح ؟ قال : أخوك وربما خانك فانقصف . قال : ما تقول في الترس ؟ قال :
 هو المخزّ وعليه تدور الدوائر ، قال : فالنبل ؟ قال : منايا تخطئ وتصيب ...
 قال : فالسيف ؟ قال : هناك ثكلتك أمك ، فضربه عمر وقال : بل أمك
 لا أم لك^(٦٢) .

هذه القصة على فرض صحتها ، تدلنا على أن السيف كان أهم السلاح عند
 العرب وأعمه ، وأما النبال فقد تخطئ وقد تصيب ، وأما الرماح فعييبا أنها قد تكسر
 وقت الحاجة إليها .

د - آلات الوقاية عند العرب :

سبق الكلام عن سلاح العربي الذي كان به يقاتل ، وبقى الكلام عن الآلات
 والعدد التي كان يقي بها نفسه في المعركة : وأهمها الدرع والمجنّ وإن كان أحيانا
 يقي نفسه بجملته أو حصانه ، يتخذ منه ترسًا يضرب من خلفه ويحتمى به .

(٦٠) القاموس المحيط « مادة السراج » .

(٦١) غرار السيف حده ، والحبي السحاب المطر ، وتهلل البرق لمعانه .

(٦٢) انظر الأغاني ج ١٤ ص ١٣٢ ، وابن القيم في الفروسية ص ١٠٢ .

أما الدرع فهي حياة ثانية لصاحبها ، لأنها جلد حديدى فوق جلده يقيه طعنات الرماح وضربات السيوف ، ولذا كان بعض عقلاء العرب يقول : « لست أشتري أذراعاً وإنما أشتري أعماراً »^(٦٣). وهي ثوب ينسج من حلق حديدية رفيعة ، يشبه في نسجه إلى حد ما (الشبكة) التي يضعها رجال الفرسان في الجيش على أكتافهم ، وأحياناً كانت تنسج حلقاتها مزدوجة ويسمىها العرب (الدرع المضاعفة) ، والدرع في الغالب قطعة واحدة تغطي البدن من العنق إلى الركبتين أو ما دونهما ، تشبه إلى حد ما الثوب الذي يلبسه جنود الفرسان اليوم ويسمونه بالإنجليزية Over all ؛ ويلبس جزء من الدرع على الرأس تحت البيضة (الخوذة) ، ويغطي العنق جزء منه من الخلف ، وتتخذ بعض الدروع بلا أكمام ، وبعضها واسع طويل الأكمام ، يغطي الأنامل والأطراف ويسمونها (الدرع الفضفاضة أو السابغة) يقول « أبو قيس ابن الأسلت » في سلاحه برواية « ابن الأثير »^(٦٤) :

أعددت للحرب موضونة فضفاضة كالنهي بالقاع

ومنها :

قد حصت البيضة رأسى فما أطعم يوماً غير تهجاع^(٦٥)

وقد كان بعض المياسير وكبار القواد ، يضاعف بين درعين ، يلبس أحدهما فوق الآخر ، زيادة في الحيلة والتوقى ، فعل ذلك « الحارث الأعرج » في يوم « حليلة » ، وفيه يقول « علقمة بن عبده » :

مُظَاهِرٌ سِرْبَانِي حديد عليهما عقيلا سيوف مِخْذَمٌ ورسوبٌ

ومنها :

تُخْشِشُ أَبْدَانَ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ كَمَا خَشْخَشْتُ يُبْسَ الْحَصَادِ جَنُوبُ^(٦٦)

(٦٣) ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٩ .

(٦٤) الكامل ج ١ ص ٣١٣ ، أيام العرب ص ٨٢ .

(٦٥) الموضونة المنسوجة حلقتين حلقتين كما في القاموس ، والنهى النهر الصغير ، وحصت البيضة رأسه أذهبت شعرها .

(٦٦) أيام العرب لجاد المولى ص ٥٧ - ٥٨ ، ومخْذَمٌ ورسوبٌ علمان على سيفين معروفين ، والجنوب الريح الجنوبية .

وهذا قيس بن الحطيم يذكر أنه لبس فوق البردين درعاً مضاعفة واسعة جداً فيقول :

فلما رأيت الحرب حرباً تجردتُ لبست مع البردين ثوبَ المحارب
مضاعفةً يغشى الأناملَ فضلُها كأن قسّيرها عيونُ الجنادب^(٦٧)

وهناك فريق من الفرسان كان يلبس الدرع بلا أكمام ، إما اقتصاداً في النفقة وإما تخفيفاً منها عند الطعن ، لتسهيل حركة يديه عند القتال ، فكثيراً ما كان الفرسان يقطعون أكمام الدروع ، إذا أرادوا أن تخف أيديهم لإجادة الطعان . يروى « ابن الأثير »^(٦٨) عند الحديث عن يوم « ذى قار » أن ٧٠٠ رجل من بني « شيبان » قطعوا أيدي أقبيتهم من مناكبها ، لتخف أيديهم لضرب السيوف . والأقبية جمع قباء بالفتح ، والقباء في الأصل القميص ، والمراد به الدرع هنا .

ولعل هذا هو السبب ، في أن أطراف الفارس كانت أول ما تقطع في المعارك لأنها أكثر أجزاء بدنه تعرضاً للضرب ، والضارب نفسه كان يتحرى الأطراف والمفاصل بسلاحه ، فكثيراً ما كانت الأقدام والأكف تتطاير في المعارك الكبرى تطاير أوراق الشجر ، أو كالماء المتدفق من نهر فياض ، كما يقول الشاعر في هذا المعنى عن الفرس :

وكأنما أقدامهم وأكفهم سَرَبٌ تساقط في خليج مفعم

على أن بعض المبرزين من الأبطال كان يعتز بشجاعته ، فيترك الدرع ويحارب حاسراً ، أنفةً من أن يبق نفسه بغير سيفه ورمحه ، فالفراس الحق عندهم من يعتمد على سيفه دون أى سلاح ، وذلك لحفة حملة ، وسرعة قطعه ، وإجهازه على القتيل ، يقول « قيس بن الحطيم » :

أجالدهم يوم الحديقة حاسراً كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

ومن العجيب حقاً أن ترى العرب يفخرون بجودة السلاح ، ودقة صنعه وينسبونه أحياناً إلى صانعه ، وتراهم مع هذا يحقرون صانع الأسلحة ، ويعدونهم فيهم غير

(٦٧) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٣١٦ ، والقشير رويس المسامير التي تصل حلقات الدرع ، والجنادب الجراد كما في القاموس .

(٦٨) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢٠ .

شريف ولا حسيب ، فإذا استهانوا بأحد نسبوه إلى حرفة (الحدادة) وهجوه بأنه قين أو أن أباه كان قيناً ، فيقول « حسان بن ثابت » يهجو الوليد :

فألحقُ بقينك قين السوء إن له كيراً بباب عجز السوء لم يرم
تلكمُ مصانعكم في الدهر قد عُرِفَتْ ضربُ النصال وحسن الرقع للبرم^(٦٩)

ثم هو يهجو « بنى المغيرة » جميعاً بأن أباهم كان حداداً وهم مثله فيقول :

عبيدٌ قيون إذا حُصِّلا أبوكم لدى كيره جاثم^(٧٠)

وقد شاع هذا النوع من الهجاء في الشعر الجاهلي ، ولكنني لم أقف له على تحليل ظاهر ، ولعل السبب أن القائمين بهذه الصناعة ، كانوا جميعاً من العبيد والموالي الذين هم في الأصل من أسرى الحروب ، ولم يرتفعوا إلى درجة العرب الخالصاء .

هـ - أسلوب العرب في القتال :

أما عرب البادية فحروبهم بدائية ، يخرجون فيها للقتال على غير تعبئة خاضعين في ذلك للنظام الذي يراه شيخ القبيلة ، وكانوا في العادة يُغيرون بغتة ، ثم يفرون إلى البادية عند مطاردتهم^(٧١) . ولكن عرب المدن عرفوا نظم التعبئة ، وتقسيم الجيش إلى مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين ، ورأيناهم في حرب الفرس يقسمون قواتهم إلى (كراديس) حتى لا تفرقهم سهام الفرس^(٧٢) إذا وقفوا صفوفاً ، أو اجتمعوا في مكان واحد .

وكانت المعركة في العادة ، تبدأ بطلب المبارزة من أحد الطرفين جرياً على عادتهم ، وذلك بأن يخرج بين الفريقين فارس مشهور ، فيطلب أن يخرج لمبارزته فارس آخر في مثل سنه ومركزه في قومه ، وكان الغرض من تلك المبارزة إظهار المهارة الفردية ، والقوة البدنية ، وعرض الفن الحربي أمام النظارة ، ليخلع المبارز بفنه قلوب الأعداء ، ويقوى به قلوب الأصحاب . ثم إنها بما يحدث فيها من قتل

(٦٩) ديوان الشاعر مطبعة السعادة سنة ١٣٣١ هـ ص ٣٣٠ ، والبرم جمع برمة وهي الوعاء .

(٧٠) نفس الديوان ص ٣٣٢ .

(٧١) حضارة العرب ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٧٢) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢٤٥ . والكردوس فرقة من الجيش تقارب الألف .

متتابع ، تثير في الفرسان شهوة الانتقام ، والأخذ بالثأر ، فتجيش نفوسهم للقتال ، وتتحرق للطعان ، فهي تعتبر من المشهيات للقتال ، والمحرضات عليه ، كما يقدم الطاعم بين يدي طعامه بعض المشهيات لتغريه به ، وتدفعه إليه .

وفي بعض الأحيان كان يحدث التفاهم بين قائدى الجيشين ، على أن المباراة تحسم النزاع ، وتحقن دماء الناس ، وعلى أن يكسب القضية من يفوز فيها ، وقد تعاهد على ذلك « الحارث والمندر » يوم « عين أباغ »^(٧٣) ، وقد بقي لهذه الطريقة أثر في العهد الإسلامي فإن « علياً » طلب إلى « معاوية » في حرب صفين أن يتبارزا ، ويحقنا دماء الناس ، فمن قتل أخاه رجع بالخلافة ، فلم يقبل « معاوية » ذلك . وإذا لم يتم الاتفاق على أن المباراة تحدد نتيجة المعركة ، كان الذى يحدث بعدها أن يتراشق الفريقان بالنبال ، وكان هذا السلاح قليلا بين العرب كما تقدم ، فإذا كانوا يحاربون من هم أمهر منهم في استعمال القوس ، فإنهم كانوا يبادرون بالهجوم عليهم ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للنبال القاتلة ، يصبها عليهم رماة الفرس من التوابيت الخشبية التى على ظهور الفيلة ، ويرون في شن الهجوم الحافظ دهشة العدو^(٧٤) ، لأنه يكون في العادة هجوماً عنيفاً قاسياً .

فإذا أفلح هجومهم هذا ، وإلا تراجعوا قليلا ، ليعيدوا تنظيم صفوفهم ثم يعاودوا الهجوم ، وهذا النظام يسمى عندهم (نظام الكرّ والفرّ) وكثيراً ما كانوا يوصون أنفسهم بإتقان الكرة بعد الفرة .

والعربي عند الالتحام مدفوع بطلب الثأر ، فسيفه في يده يضرب به القريب ، ورمحه تحت إبطه يطعن به البعيد ، وهو خلال المعركة يطلب فارساً بعينه إن كان له ثأر عنده ، وإلا يطلب فارساً في مثل مركزه وسنه ، فكانت الحرب عندهم حرب فرد لفرد ، وفرس لفرس ، والغرض منها إظهار البطولة الفردية ، وكانت تنهى معاركهم — وبخاصة البدو — بتدخل فريق ثالث للصلح ، على أن تدفع القبيلة التى قلت خسارتها ، الدية عن العدد الزائد من قتلى أعدائها^(٧٥) ، أما معارك الحضرة

(٧٣) المسعودى في مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٧ .

(٧٤) أيام العرب في الجاهلية ص ٣٠ .

(٧٥) حتى — نافع . تاريخ العرب ج ١ ص ١٠٥ .

فكانت تنهى بسلب الغنائم وجمع السبايا ، وتفريقها على المقاتلين ، وتتبع المهزمين ، واحتلالهم ديارهم أو إخضاعهم لسلطانهم ، بحيث يكونون في قبضتهم .

و - كيفية توزيع الغنائم بعد المعركة

كان العرب يخرجون للقتال ، ومعهم متاعهم وأنعامهم ، ينحرون منها إذا طال بهم المقيم ، ثم تكون في المعركة حصناً لهم يلوذون به عند الجولة ، وكانوا يصحبون أيضاً نساءهم ، لتحرضهم على القتال وتسقى الظمآن ، وتضمّد جراح المجروح ، وتثير في نفوس الفرسان النخوة والحمية ، لأن الفارس يبذل جهده في القتال ، إذا علم أن النساء تراقب فعالة ، فيخجل أن يفر ، ويخاف أن تسبي نساؤه إذا انهزم ، فإذا خانه الحظ ولحقت به الهزيمة فإنه كان يفر من أرض المعركة ، تاركاً فيها كل ما معه ، من متاع وأنعام ونساء ، وهنا يبادر المنتصر فيستولى على ما ترك ، بعد أن يبلغ بالنصر مداه ، فيطارد القلول قاتلاً وآسراً في كل طريق .

أما الغنائم التي تجمع ، فكانت تقسم بين المحاربين بالتساوي ، على أن يفوز القائد منها بنصيب موفور .

حقوق القائد منها :

كان الذي يقود القبيلة شيخها ، والذي يقود القبائل ملكها ، فإذا غاب عز القتال الشيخ أو الملك أناب عنه (رديفه) وهو الوزير الذي يجلس في المجالس عن يمينه ، وينوب عنه في غيبته ، ويظهر أن الرّدافة كانت من الوظائف العربية المهمة فيقول عنها « ابن الأثير » : « وكانت الرّدافة في الحيرة لبني يربوع ، يتوارثونها صغيراً عن كبير ، فلما كانت أيام النعمان طلبها بنو دارم^(٧٦) » .

ولقد كان القائد أو الرديف يفوز من الغنيمة بنصيب الأسد ، فكان يأخذ لنفسه الأنواع الآتية :

١ - ربع الغنيمة^(٧٧) : وقد خُفّض في الإسلام فصار إلى الخمس ، وكما كان الخمس في الإسلام ينفق على ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، ومصالح

(٧٦) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٠٠ .

(٧٧) انظر جاد المولى السابق ص ٩٤ . والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٧ .

المسلمين ، كان القائد أو الرديف ، ينفق كثيراً من رُبْعِه في مثل هذه الوجوه على قبيلته ، فهو المدخر للنوائب ، والحامل الغارم في الديات ، وهو الراعى لهم ، يعول فقيرهم ، ويزوج محتاجهم لأنه بهذه الخلال استحق أن يكون شيخ القبيلة ، الذى يمثلها في المعاملات الاقتصادية والمعاهدات ، والأحلاف السياسية والتجارية وغيرها ، ومن هذا الربع أيضاً كان ينفق القائد من شاء من المقاتلين لبلائهم ، ففي يوم « فيف الريح » جعل القائد ثلث المربع لختهم ، ومناهم الزيادة إن هم أحسنوا القتال^(٧٨).

كان يحدث أحياناً أن تصادف القبيلة في طريقها بعض الأنعام ، أو الأموال فتبادر بأخذها ، بقطع النظر عن أصحابها ، سواء أكان ذلك في أرض العدو ، أم في أرض غيره من المسلمين ، فالأخذ بالغلبة طبع البدوى ، وكانوا يطلقون على هذه المغنم : (النشيطة) ، وكانت من مخصصات القائد أيضاً ، فله وحده كل ما يصيبه الجيش في طريقه قبل أن يصل مقصده ، فلما جاء الإسلام نظم أمر النشيطة ، وقصرها على المال الذى يؤخذ من العدو ، عند تسليمه أو هربه بلا قتال وسماه (النىء) وهو للرسول أو الخليفة ، ينفقه في وجوه البر المختلفة ، فكل ما لم يوجف المسلمون عليه بنخيل ولا ركاب ، لا حق لهم فيه ، وإنما هو للدولة تضعه حيث تشاء ، وتنفقه في مصالح المسلمين العامة .

٣ - كان الرئيس يختص بنوع آخر يسمى (النقيعة) وهى بعير كان يتخيره قبل القسم ، فينحره ويطعمه الناس^(٧٩) ، ولعلها هى المرادة بكلمة (حكمك) فى البيت الآتى ، وقد ذكر الحلبي أن الإسلام أسقط النقيعة والنشيطة ، ولكن يظهر أن الأخيرة عدلت إلى النىء ، لأن الإسلام يكره العدوان على الغير ، ويقبل ما يؤخذ دون قتال من أرض الأعداء .

٤ - وكان للرئيس أيضاً أن يختار لنفسه ما أعجبه من الغنيمة ، ويسمون هذا

(٧٨) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٧٩) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٧ نقلاً عن التبريزي فى شرح الحماسة .

النوع (صفيّة) وجمعها صفايا ، وسميت كذلك لأن الرئيس اصطفاها لنفسه ، ولم يرد أن الرسول (ص) استعمل الصفايا إلا نادرا ، ففي غزوة بدر اصطفي لنفسه من غنائمها سيفاً يسمى « ذا الفقار » كما اصطفي جملاً كان لأبي جهل ، بقي عنده إلى أن ساقه في هدى « الحديبية »^(٨٢) ، تروى كتب السيرة أنه اصطفي لنفسه من سبايا « خير » السيدة « صفية بنت حيّ » التي أسلمت فأعتقها وتزوجها ، وجعل صداقها عتقها ، لكن يبدو أن تلك الصفايا كانت من سهمه عليه السلام في الغنيمة ، وإن كان لم يرد في ذلك نص صريح ، لكن روح التشريع الإسلامي والعدالة النبوية ، تحول دون اختصاصه بشيء من الغنيمة .

٥ - ويظهر أنه كان للرئيس أن يأخذ لنفسه (الفضول) التي لا تقبل القسمة وقد جمع الشاعر العربي ، كل ما يخص الشيخ أو الرديف في قوله :
لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول^(٨٣)

أما بقية المغنم فيظهر أنها كانت توزع على المقاتلين بالتساوي ، دون تمييز للراكب على الراجل ، وإن لم يرد في ذلك نصوص صريحة ، ويدل على ذلك أن غنائم معركة « بدر » وهي أول معركة في الإسلام وزعت بالتساوي ، قبل أن ينزل القرآن بتنظيم التوزيع ، وسيأتي تفصيل ذلك في صلب الرسالة .

ز - معاملة الأسرى :

تعتبر الأسرى من غنائم المعركة ، يجري عليهم ما يجري على الأموال والأنعام ، ويبدو أن نظام الأسرى عند العرب ، كان لا يخضع لقانون معين ، ولا يسير حسب قاعدة معروفة ، وإنما كان السبي يفرق على المحاربين كبقية الغنائم ، فإذا حصل أحدهم على أسير فهو بالخيار في أمره :

إما أن يمسكه ليقوم على خدمته وخدمة أنعامه ، ونقل الماء له وسقى النخيل من الآبار المختلفة . وإما أن يَجْزَّ ناصيته ، ويفكّ أسره إذا كان للأسير عنده يد ،

(٨٢) تاريخ الخميس للديار بكرى ج ٢ ص ٦٢ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٩٦ .

(٨٣) أيام العرب في الجاهلية ص ٩٤ .

أورغب هو في العفو عنه لسبب من الأسباب، روى « ابن الأثير »^(٨٤) أن الأسير كانت تُجزّ ناصيته ثم يطلق سراحه ، ولا تجزّ ناصية الملوك لما في ذلك من المهانة ، وكذلك فعل « عامر بن الطفيل » بأسيره الذي أطلقه بعد جزّ ناصيته ، في نذر كان على أمه .

وأحياناً كان العربي يطلق الأسير تكريماً منه ، أو زهداً فيه لفقره ، أو لتقديم المعروف أو المروءة ، لأنه غنى ليس بحاجة إلى خدمة الأسير . أو فداء يأخذه فيه ، يقول « حسان بن ثابت » يفخر بقومه :

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها^(٨٥)

وكان بعض الناس يحتفظ بأسيره — وبخاصة إذا علم يساره — ليفدى نفسه منه بالمال ، أو يحضر بعض عشيرته لأخذه ودفع فدائه .

وكان مقدار الفداء يختلف باختلاف مكانة الأسير في قومه ، ودرجة يساره ، ويظهر أنه كان يتراوح بين مئة من الإبل وأربعمئة ، فهذا العدد الأخير فدى الزعيم « عبد يغوث » نفسه يوم الكلاب الثاني^(٨٦) ، والذي يفهم أن المئة هي المتوسط ، أنها كانت القدر المخصص لدية القتل عندهم ، وجرى العمل بذلك في الإسلام .

وأيا ما كان الأمر ، فما كان العربي يسترق أخاه العربي أبد الآبدين ، فإن قدمت عشيرته لأخذه بالفداء ، وإلا باعه لغيره ، فإن لم يوفق ، أطلقه ومن عليه بالطريقة السابقة .

ح — الحرم والأشهر الحرم :

من آداب القتال التي كانت مرعية عند العرب ، وبخاصة عرب الحجاز ، احترام الحرم المكي والأشهر الحرم بمنع القتال فيها . ففي هذه الأشهر الأربعة ،

(٨٤) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٠٠ ، ٣١٦ .

(٨٥) ديوان الشاعر طبعة ١٣٣١ ص ٣٣٢ .

(٨٦) أيام العرب في الجاهلية ص ١٢٨ .

وإلى هذا المكان المقدس ، يفد الناس من سائر البقاع كل عام ، ليؤدوا فريضة الحج ، ويطوفوا بالبيت العتيق ، فيفيضوا على أهل البلاد من خيراتهم ، وينعشوا حالهم الاقتصادية ، فيحصلوا من المال ما يكفيهم بقية عامهم فإذا هُدد الحاج في أنفسهم أو أموالهم ، انقطعوا عن الوفود إلى الحجاز ، ففقد حياته ومات أهله جوعاً وفقراً ؛ ولذا تواضع العرب على تحريم تلك الفترة من العام ، وتحريم هذا المكان بالذات ، بحيث لا يحدث فيه قتال ، لدرجة أن ولي المقتول كان يلقي فيه القاتل فلا يمس به بسوء ، وفي بعض الأحيان كانت تستعر الحروب بين القبائل ، وتثور العصبية ، ويصادف أن يكون ذلك قرب موسم الحج ، وهم يخشون ضياع الدماء إذا سكتوا عنها في الموسم ، فكان رؤساء القبائل ، يتفقون على تأخير حرمة بعض الشهور ، حتى يدركوا ثأرهم قبل فواته وسميت هذه العملية (النسيء) أى التأخير ، الذى عابه القرآن الكريم ، وسماه زيادة في الكفر حيث يقول : « إنما النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا » .

وأحياناً أخرى كان يضعف الوازع الدينى فى النفوس ، وتثور فيهم الشهوة للقتال فينسبون حرمة البيت وحرمة الأشهر الحرم ، فيحاربون فيها ، ويريقون الدماء بلا حساب ولذا سميت الحروب التى انتهكت فيها حرمتها « حروب الفجار » لأن الناس فجروا فيها ، وانتهكوا حرمة الشيوخ والأطفال ، وانتهكوا حرمة الزمان والمكان وما إلى ذلك .

فلما جاء الإسلام أقر حرمة الأشهر الحرم بمنع القتال فيها ، لدرجة أن الرسول عليه السلام غضب على بعض قاداته لما حارب فيها ، ولكن لما كثرت عدوان قريش على المسلمين ، هون الله على رسوله أمر القتال فى الحرم ، وبين له أن الكفر بالله والصد عن سبيله ، أكبر عند الله من القتال فى الأشهر الحرم ، وكذلك أحترم الرسول مكة عندما فتحها فى العام الثامن من الهجرة ، ولم يحدث فيها إلا قتال خفيف ، اضطر إليه بعض القادة ، رغم أن الرسول حذر من القتال فيها ، وإراقة دماء الناس فى هذا المكان المقدس من بلاد الحجاز .

الخلاصة

وجملة القول في هذا التمهيد ، أن العربي محارب بطبعه ، تحتم ذلك عليه بيئته الصحراوية ، ونوع حياته فيها ، وسبل تحصيل رزقه : فهو إما بدوى يرعى الإبل والشاء ، ويحمي لها الحمى حيث الحصب والمطر وعيون الماء ، وهو يحارب من يعتدى على حماه ، وما أكثر العدوان في خلق البدوى ، وهو في جهة أخرى حضري مدنى ، يحترف التجارة ، فيعمل على حمايتها ممن يعرض لها ، وما أكثر المتعرضين لها في هذه البلاد الواسعة الفقيرة ، ثم هو في جهة ثالثة فاتك أو قاطع طريق يعيش على سلب القوافل ، ويرى في ذلك بطولة وعزاً وشهامة ، وحياة هذه طبيعتها تتطلب فيمن يحياها القوة والشجاعة ، والاستعداد للقتال في كل أوان ، ومرافقة السلاح في كل مكان .
والعربي في حروبه هذى تختلف طرقه وأساليبه ، باختلاف بيئته :

فالبدوى كان يحارب بالحجر والرمح والسيف ، حرب العصابات ، في أعداد قليلة غير منظمة ، يغير فجأة فيقتل وينهب ثم يتفرق كذلك فجأة في رؤوس الجبال ، ومنحنيات الوديان ، ليس له دين يردعه أو يهذبه ، ولا خلق قويم ينظم معاملته مع الناس ، فقد رأينا كيف كانوا يهدرون حرمة البيت الحرام والأشهر الحرم ، كما كانوا يهدرون حرمة النساء والأطفال والشيوخ .

أما الحضري ساكن القرى والممالك ، فكان يحارب على نظام وتعبئة في جيوش مقسمة وقيادات مرتبة ، وطبقاً لخطط مدبرة ، كما تعلم من الفرس والروم الذين اتصل بهم من قريب أو بعيد ، وعرف منهم أسلحة جديدة ، وأساليباً منظماً في القتال ، فقتاله يبدأ تراشقاً بالنبال ، ثم تطاعناً بالرماح ، ثم اشتباكاً بالسيوف يتبع فيه نظام الكرة بعد الفرقة ، والرجعة بعد الجولة ، كما عرف أيضاً نظام الأسر والفداء وتوزيع الغنائم وما إلى ذلك .

لذا كانت أيام الحضري هي التي تستحق الدراسة ، وتستأهل العناية بها ، لأن دارسها يخرج منها بما يفيد في غيرها ، ويصلح أن يكون أساساً لما يأتى بعدها ، من دراسات حربية في صدر الإسلام

وإليك الآن أول فصول الكتاب

الفصل الأول

نظرة الإسلام إلى الحرب ومشروعيتها فيه

لعلّه قد اتضح من تمهيد الرسالة ، تصوير حياة العرب الجاهليين ، من نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والحربية ، ولعلّه قد اتضح أيضاً تصوير حروبهم والبواعث عليها ، والأساليب التي كانت متبعة فيها ، ولعلنا أخذنا صورة واضحة عن حروب البدو وحروب الحضار ، ولمسنا الفارق بينهما .

ويحق الآن قبل التفرغ إلى دراسة الفن الحربي عند المسلمين ، وبيان ما أدخلوا عليه من تحسين وتهذيب ، أن نعرف نظرة الإسلام إلى الحرب ، ونظرة علماء الاجتماع إليها ، وأن نعرف مشروعية القتال في الإسلام ، والبواعث عليه ؛ لنعرف السرّ في هذا الانتشار السريع للإسلام ، ولنعرف السبب الذي حمّله على امتشاق الحسام . وقد قسم هذا الفصل ثلاثة أقسام :

١ - نظرة الإسلام إلى الحرب .

٢ - مشروعية الحرب في الإسلام .

٣ - بواعث الحرب في الإسلام .

القسم الأول

نظرة الإسلام إلى الحرب

الحرب قديمة في العالم بقدم البشرية ، لا يخلو منها زمان أو مكان ، وهي طبيعّة في البشر ، لا تخلو منها أمة ولا جيل ، وسبب هذا في الأكثر « إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى في تمهيد^(١) » . والحرب طبيعتها الغلظة والقسوة ، لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، فهي ضرام تأتّى على زهرة شباب الأمم ، وتأكل خيراتها ، وتحطم مدنياتها ، وقد قال « عنبرة

(١) ابن خلدون في مقدمته : طبعة المهدى ص ٢٢٦ .

الفوارس « في وصفها : « أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى ^(٢) » . ومن ثم كرهتها النفوس البشرية ، فهي تنفر من ذكرها ، وتفزع لمباشرة أهوالها ، وقد وصفها بعض أبطالها بأنها « مرّة المذاق إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن نكل عنها تليف ^(٣) » . ولذا رأينا كثيراً من العقلاء يحذرون الناس من إشعال نارها ، وينصحون لهم بالبعد عنها . والشعر العربي - وبخاصة شعر « زهير » - مملوء بالمنفرات منها ، وتبشيع منظرها .

وإن من يقارن بين طبيعة الحرب قديماً وحديثاً ، يرى أنها اليوم أقسى وأفظع ، لأنها لا تستند إلى قوة البدن ، وإنما تستند إلى قوة الحديد والنار ، ولا يقف أذاها عند المحاربين فقط ، وإنما يعدوهم إلى المدنيين الآمنين ، وعندى أنه من واجب العالم أن يتجنبها بقدر طاقته ، ليجنب نفسه الإبادة والفناء ، بتلك الأسلحة الذرية ، التي تتبارى الأمم المتحضرة في إنتاجها ، حتى تكون بها نهاية حضارتها ، بل نهاية وجودها . والحرب مع ما تحمل من شرور ضرورة اجتماعية لا محيص عنها ، ومكروه لا يمكن توقيه ، قرر ذلك القرآن الكريم ، كما قررته الشرائع كلها ، بل إن القرآن يرى فيها إصلاحاً لأدواء المجتمع ، وعلاجاً لاختلال التوازن بين قواه ، إذ هي تصلح من شذوذ الشاذ ، وترد إلى الطاغى صوابه ، وهذا معنى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لفسدت الأرض ^(٤) » . ومع أنه سبحانه يعلم ثقل الحرب على النفوس ، نراه يوجبها على المسلمين لنصرة الحق : « كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ^(٥) » . ثم وضّح ذلك الخير بأنه القضاء على الفساد ، فلولا الجهاد لهدم المشركون بيوت الله بطغيانهم ، ولقضت الوثنيات على الديانات السماوية « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ^(٦) » ، ففي حرب المفسدين بقاء لدين الله .

(٢) ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ١ ص ١٠٩ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٥١ .

(٥) نفس السورة : آية ٢١٦ .

(٦) سورة الحج : آية ٤٠ .

ولتوضيح ضرورة الحرب للحياة الاجتماعية ، يمكن تشبيه المجتمع البشرى بجسم إنسان : أعضاؤه الأمم والدول ، وخلاياه وأنسجته الأفراد ، فإذا أصيب بعض الأعضاء أو الخلايا بمرض ، أسرع صاحبه إلى علاجه ، فإذا أخفق العلاج لجأ إلى كيئه بالنار ، أو بتره من جسمه نهائياً ، فإن فقدان عضو واحد أهون من فقدان البدن كله ، إذا شاع الفساد فيه ، وإذا كان في بتر عضو صلاح المجتمع هان بتره ، بل أصبح بتره واجباً ، ليستمر البدن في عمله وإنتاجه .

الحرب في نظر علماء الاجتماع :

رأى علماء الاجتماع في الحرب ما رأى القرآن الكريم ، من أنها إصلاح للكون ، وأنها سنة من سنته ، حتى لقد عدها بعضهم من وسائل تحقيق السلام بقوله : « لكي نحقق السلام ، لا بد لنا من أن نكدّر صفو السلام ^(٧) » . وهي في رأى ابن خلدون « أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل » ومنشؤها عنده « إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منهما أهل عصبته ، فإذا تدامروا لذلك ، وتواقفت الطائفتان : إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب ^(٨) » .

والحق أنه ما دام في النفوس حب السيطرة من الأقوياء على الضعفاء ، فالحرب لا تنتهى ؛ لأنه لا بد للظالم من قوة تردعه ، وتعيد الحق إلى نصابه فهو لن يرجع عن نزواته إلا بالحروب ، ونزواته لا تنتهى فالسلام لا يتحقق .

استحالة السلام الدائم :

أما هذه المجتمعات الدولية ، التي تدعى أنها تعمل على إقرار السلام وتعمل على إيجاد التوازن بين القوى ، فما تقوم إلا بمحاولات فاشلة وهو باطل ؛ وإن أعضائها في واقع الأمر يقومون بدور تمثيلي ، يخدعون به الناس ويخدعون معهم أنفسهم ، بل إن أكثرهم يحضر تلك المؤتمرات ، وقد أخفى تحت مسوح الرهبان غدر الذئاب ، ويحمل في يمينه غصن الزيتون ، بينما يخفى في يسراه أسلحة الفتك والإبادة والتدمير ، وعلى هذا فالحرب باقية لا محالة والبشرية لا تستغنى عنها لأسباب عدة :

Kamal Eldien: Islam and sivilization. (٧)

(٨) المقدمة ص ٢٢٦ .

أولاً — إن أية محاولة لتحقيق سلام دائم مخالفة صارخة لطبائع الأشياء . وخروج على السنن الكونية المألوفة منذ خلق الله الأرض وأهلها؛ لأن المرء بطبعه مفطور على حب التملك وحب الحرية ، والقوى دائماً يحاول التسلط على الضعيف ، ليسلبه ماله وحرية ، وحقه في الحياة، والضعيف بما فيه من غريزة تنازع البقاء يقاوم القوى ، وهنا تتعارض النزعات والأهواء ، فلا يكبح جماحها إلا الحرب ، وما دام في الكون نظريات اجتماعية متباينة ومذاهب سياسية متعارضة ، فلن تخبو نار الحرب أبداً ، فيوم السلام الذي يتحدثون عنه ، هو ذلك اليوم الذي تمحى فيه من الوجود هذه النظريات وتلك المذاهب ، وليس ذاك بمتوقع .

ثانياً — إن الله خلق الرجل نزاعاً لمكافحة الحياة، والوقوف في وجه الشدائد، ومحاربة مظاهر الطبيعة ، لإثبات وجوده ، وإبراز طموحه في الحياة، والسلام الدائم يقتل في الإنسان كل تنازع وتنافس من أجل الطموح ، ويقتل فيه كل صفات النهوض التي هي من مقومات التقدم والرقى .

ثالثاً — الواقع الملموس يشهد بأن السلام الدائم لا وجود له ؛ فالعالم منذ أنشأه الله إلى الآن لم يعرف مجتمعاً كله سلام ، ترفرف عليه أعلام السعادة والوثام ، بل إن أيام الحرب في التاريخ تعادل أيام السلم أو تزيد ، وهب أن مجتمعاً كهذا أمكن وجوده ، قد جهل أفراد مدلول كلمة الحرب ، وجعلوا آلات القتال ونظمه ، فأى مجتمع يكون هذا ؟ إنه إذن مجتمع رخو ناعم ضعيف ، فقد رجاله الشجاعة لفقد بواعثها، والتنافس لفقد أسبابه، وجعلوا فوق ذلك القيم الذاتية للخير والشر والسلام والحرب، وبضدها تتميز الأشياء كما يقولون.

رابعاً — على أن النعيم الدائم ، والسلام الشامل ، قد يكون بين الناس باعثاً على المفاسد ، داعياً إلى الفجور والاعتداءات ، وهي بدورها قد تجر إلى الحرب وتحطم السلام ، وعلى هذا فلن يأتى اليوم الذى ينضوى فيه العالم تحت لواء السلام، إلا إذا خرج عن طبيعة الأشياء فصار أمة واحدة، تقودها عقلية واحدة ، وتحدها آمال واحدة ، وهذا لن يكون إلا في عالم ملائكى محض ، أو في جمهورية كجمهورية « أفلاطون » التي كثيراً ما نادى

بها ، ولكنه عجز عن تحقيقها ، ومات وهو يحلم بها ، تدبر قوله تعالى :
 « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم
 ربك ولذلك خلقهم »^(٩) ، فإذا خلق الله الناس مستعدين للتنازع والاختلاف ،
 فكيف ندعى نحن العباد إمكان القضاء على هذا الخلاف ؟ أظن ذلك
 مستحيلا ، وإنما أملنا الوحيد ، أن تحصر الحرب إذا نشبت في أضيق
 دائرة ، حتى لا تمتد ضرامها فتأثي على الحضارة الإنسانية ، وبخاصة بعد
 المخترعات الذرية وغيرها التي لا تعرف طريق الرحمة ، ولا تفرق بين الظالم
 والبريء ، أو العسكري والمدني .

القسم الثاني

مشروعية القتال في الإسلام

١ - تأمين الدعوة :

الإسلام لا يعرف حرب العدوان ، ولا يزاو لها لبسط سلطان ، وإنما هو يعتبرها
 تأمينا لدعوته ، وإباحة الحرية الاعتقاد ، ويتخذ منها حصنا يقيه اعتداء
 المعتدين ، ويرد عنه كيد الغاشمين ، ليبلغ للناس كلمة التوحيد التي جاء
 بها الرسول ، الذي بعثه الله ليعيد ما تناساه الناس من التوحيد الذي جاء
 به الرسل السابقون ، ويهدم الوثنية عند المشركين ، فكل من يمنعه من تبليغ
 دعوته ، ويحول بينه وبين نصيح الناس يجب قتاله ، ليفسح الطريق أمام الدعوة
 قال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا
 فلا عدوان إلا على الظالمين »^(١٠) . وقال تعالى في أهل الكتاب الذين قاوموا
 دعوته وكذبوا رسوله ، « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ،
 ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب
 حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »^(١١) .

(٩) سورة هود : ١١٩ .

(١٠) سورة البقرة : ١٩٣ .

(١١) سورة التوبة : ٢٩ .

٢ - رد العدوان :

وقد جعل الله نبيه في موقف المدافع الذي يرد العدوان ولا يعتدى فقال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين »^(١٢) . كما بين له أن طرد المسلمين من ديارهم ومباداتهم بالعدوان ونقض عهودهم ، كلها أمور كافية لقتال أعدائهم : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة »^(١٣) . بل لقد جعل الله قتال المشركين وسيلة لكف شرهم ، ليكفوا عن المسلمين أيديهم ويعتزلوهم قال تعالى : « وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا . » وقال : « فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم ، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »^(١٤) .

وفوق هذا علّم الله رسوله أن يكتفى برد العدوان في قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين »^(١٥) . وقد اعتدى المشركون على المسلمين أيما اعتداء ، وحاولوا بالقوة المسلحة أن يقضوا على « محمد » وصحبه ، وهاجموا المدينة مرات لهذا الغرض ، فكان من حق الدفاع الشرعى ، أن تواجه القوة بمثلها ، ليعلم العادون أن للعقيدة ما يشد أزرها ، فيخشوا بأسها ويعملوا على اجتناب طريقها ، ويدعوها وشأنها .

فهل يعاب على الرسول بعد ذلك أن يرد وثنيّاً إلى حظيرة التوحيد ، أو يهدى الضالين إلى سبيل الله ؟ إنه لو لم يفعل لكان مقصراً في حق دعوته وتبليغها . إذن ما كانت حروب الإسلام لقهر الناس على اعتناقه كما يدعى بعض المغرضين من أعدائه، وإنما كانت لنشر الدعوة ، ردّاً للوثنيين عن وثنيّهم ، وهداية للكتابين من غوايتهم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء

(١٢) سورة البقرة : ١٩١ .

(١٣) سورة التوبة : ١٣ .

(١٤) الآيتان من النساء مرتبتين ٨٤ ، ٩١ .

(١٥) سورة البقرة : ١٩٤ .

فليكفر ، فإن هداية القلوب بيد الله وحده قال تعالى : « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء »^(١٦) .

٣ - دعوى الإكراه على الإسلام :

وهنا يصحّ التعرض إلى نقطة ليست من صميم البحث ، ولكنها تتصل به اتصالاً وثيقاً ، وهي دعوى الإكراه في الإسلام ، وحسبنا هنا بعض إشارات للرد على زاعميها ، فليس المقام مقام مناقشتها من كل نواحيها .

أولاً - العقائد لا تستقر بالإكراه :

لقد أدرك الرسول وأصحابه جيداً مما علمهم القرآن ، أن العقائد لا تستقر في النفوس بالقهر والترهيب ، وإنما تستقر بالإقناع والافتناع ، قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »^(١٧) . كما علموا أن العقيدة التي يكره عليها المرء ، يكون أشدّ عداً لها ، وأكثر حرصاً على هدمها والتخلص منها ، وما على الرسول إلا أن يبين للناس الخير ويحضهم عليه ، والشر ويحنبهم إياه ، ولا يحمل أحداً على طريق بعينه قال تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي »^(١٨) . وقال : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »^(١٩) . بل كيف يكره الناس على عقيدته وشريعته تنفّر من الإكراه وتبطل عقود المكره ، وتجعل يمينه ماضية لاحقاً فيها ؟ « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

ثانياً - مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير ، ووظيفته توضيح السبيل والإقناع بالحجة ، وليس عليه بعد ذلك أن تبعه قوم وانصرف آخرون ، فلن يُسأل عن ضلالهم ولن يحاسب على اعتراضهم ، قال تعالى في

(١٦) سورة البقرة : ٢٧٢ .

(١٧) سورة النحل : ١٢٥ .

(١٨) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(١٩) سورة يونس : ٩٩ .

أول سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . وقال فى تحديد وظيفة الرسول : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم^(٢٠) » . أفصح لعقل بعد هذا أن يرمى الرسول بجهل حقيقة وظيفته ، فينسب إليه استعمال القوة فى نشر دعوته ؟ وكيف وهو الذى كان يقرُّ الكتابيين على دينهم ، ما كفوا عنه كيدهم ، كما تفيض بذلك معاهداته التى كان يعقدها معهم .

ثالثاً — يطلق الإسلام على القتال لفظة « الجهاد » والجهاد قد يكون بغير الحرب وسفك الدماء ، إذ هو بذل الجهد فى مدافعة الشر وإفساح الطريق للخير ، وبذل الكثير من القوى الفكرية والسياسية والمادية فى سبيل المجاهدة ؛ ولذا قسم العلماء الجهاد أقساماً : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس والهوى ، وهذا الأخير هو الذى سماه الرسول (الجهاد الأكبر) وسمى قتال المشركين (الجهاد الأصغر) فلم يجاهد الرسول لشهوة الحرب ، ولكن لإعلاء كلمة الله ، ورغبة فى السلام ؛ ولذا أمره الله أن يقبل الصلح ويقر السلام إذا رأى فى عدوه استعداداً له ، حتى وإن كان يقصد بالصلح الغدر والخيانة ، فالله هو الكفيل برد بغيه ومكره . قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين^(٢١) » .

رابعاً — انتشار الإسلام فى عهود ضعف أهله :

لو كان الإسلام يستند فى وجوده إلى القوة ، لكان يقوى بها حيث تكتمل ، ويضعف حيث تنكمش ، ولكن التاريخ يثبت أن الإسلام ظلَّ يغزو البلاد والشعوب ، حتى فى أيام ضعف حكوماته ، وذهاب قوتها ، بل لقد زالت الأمة الإسلامية الموحدة ، فى الوقت

(٢٠) سورة البقرة : ١١٩ .

(٢١) الآيتان من سورة الأنفال : ٦١ ، ٦٢ .

الذى بقى فيه الإسلام فتيا قويا ، فالأهم الإسلامية الآن تشكو ضعفها فى الوقت الذى يشق الإسلام طريقه إلى بلاد الغرب ، يغزو عقول الغربيين و يشهد مفكروهم له بأنه دين الإنسانية ، وذلك لما عرف عنه من بساطة مبادئه وأنه يصل الإنسان بخالقه ، ومخاطبة العقول لإقناعها بالبرهان ، ومخاطبة العواطف لاستمالتها إلى ما فيه خيرها ، ولا أريد الإطالة فى بيان آراء « لوبون وبرناردشو » وغيرهم من فلاسفة الغرب فيه حتى لا أخرج عن القصد ، وبحسبى أن أحيل على كتاب « سماحة الإسلام » للدكتور أحمد الحوفى .

* * *

وهنا يصح التعرض إلى شبهة قد تجول ببعض الأذهان ، وهى حروب « أبى بكر » للمرتدين من العرب ، فإن بعض الناس يعتقد أن العرب ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة الرسول ، فأعادهم خليفته إليه بالقوة ، والواقع خلاف ذلك ، فإن معظم العرب لم ترتد عن الإسلام إلى الوثنية التى كانت عليها ، ولكن حركتهم كانت ثورة على حكومة المدينة ، وثورة على دفع الزكاة التى كانت عندهم بمثابة الجزية ، التى تأنف نفوسهم من قبولها ، وتأبى حريتهم وعزتهم الإقرار بها ؛ لأنهم يرون فى ذلك مذلة وعارا ، وقد فهموا أن حكومة المدينة تجب طاعتها فى حياة صاحب الدعوة ، الذى نقل السلطان من مكة ذات البيت العتيق ، كما فهموا أن الزكاة حق من حقوقه وحده ، وليس لغيره أن يطالب بها فلما ولى « أبو بكر » بعثوا إليه وغدا يفاوضه فى أن يقبل منهم الصلاة ويعفيهم من الزكاة ، لأن العرب لا تقر لهم بدفع الجزية ، ولكنه أبى وعزم على قتال من يفرق بين الصلاة والزكاة .

إذن فما ارتد الناس عن الإسلام جميعا ، فقد كانوا يقرون بالشهادة وكانوا يقيمون الصلاة وإنما اعتبرهم المسلمون مرتدين ، لأنهم هدموا ركنا من أركان الإسلام وهو الزكاة^(٢٢) ، وما كان « أبو بكر » ليرغم ناسا بالسيف على الدخول فى الدين الجديد ، ولكنه كان يرغم المسلمين على القيام بالتزامات الدين وإقامة أركانه ، لأنه ما كان يفرق بين الصلاة التى قبلوها ، والزكاة

(٢٢) انظر الصديق « أبو بكر » للدكتور هيكى . من ص ١٠٣ - ١١٢ .

التي رفضوها؛ لأن الصلاة كما قال حق البدن ، والزكاة حق المال ، وبهما يقوم الإسلام؛ ولذا أكد الله سبحانه فرضيتهما في كتابه العزيز ، وذكرهما مقترنين في آيات كثيرة ، بحيث لا تذكر الصلاة إلا مع الزكاة ، لأن الأولى طهارة للنفس ، والثانية طهارة للمال .

وخلاصة القول أن الإسلام لا يعرف الإكراه ، ولكنه لجأ إلى الجهاد لخير الإنسانية ، وحرية الاعتقاد ، وما كان كغيره من الانقلابات الدينية التي ثارت بسببها الحروب ، فكثيرا ما أشعل الإسرائيليون نار الفتن الدينية في بلاد الشام إلى أن نفاهم منها « بُخنتصر » ومثّل بهم ، ولعلنا لا ننسى عهد الاضطهادات الدينية ، والحروب التي أشعلت للإكراه على مذهب بعينه ، إننا إذا قارنا الإسلام بهذه الديانات ، لرأينا عنصر الإكراه فيه منعزلا تماما . وتذكرهنا ما حدث بين فريقى اليعاقبة والنساطرة قديما ، وتذكر (٢٣) أيضا ما حدث لأصحاب الأخدود باليمن على يد « يوسف ذى نواس » اليهودى من تعذيب وإحراق بالنار (٢٤) ، خلّد ذكره القرآن ، وتذكر أخيرا حركات الاضطهاد الدينى ، التي خلّدها التاريخ فى العصور الوسطى ، ولا داعى للإفاضة فيها هنا ، فليس ذلك من موضوعنا .

القسم الثالث

بواعث الحرب فى الإسلام

يمكن تلخيص الدوافع التي دفعت الرسول إلى قتال المشركين ، وامتشاق الحسام فى وجههم فيما يأتى :

أولا - إفساح الطريق للدعوة ، ومنع الفتنة فى الدين :

لقد بعث الله « محمداً » إلى العرب بوجه خاص ، وإلى العالم كله بوجه عام ، وكلفه أن يبلغ رسالته للناس فينفّرهم من النار ، ويبشّرهم بالجنة ، وأخبره بأنه إذا لم يفعل ما أمر به فما بلغ رسالة ربه قال ، تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ،

(٢٣) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٧٧ وسورة البروج الآيات : ٤ - ٨ .

(٢٤) انظر شارل ديل ملحق فى كتاب الإمبراطورية البيزنطية تعريب حسين مؤنس ص ٣٢٢ - ٢٥ .

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته^(٢٥) . فقام الرسول يبلغ للناس ما كلف تبليغه ، ولكن قريشا وقفت حجر عثرة في سبيل تلك الدعوة ، ولم يكتفوا بتكذيبه ورفضها ، ولكنهم جاهدوا في القضاء عليها وإطفاء نورها ، فلما لم يفلحوا في ذلك تناولوا أتباعه بالأذى ، وساموهم سوء العذاب ألوانا ، مما جعلهم يتركون وطنهم المحبوب ، ويهاجرون من طغيان قريش إلى الحبشة مرتين متعاقبتين ، ولكن قريشا تعقبهم هناك ، وحاولت الإيقاع بهم عند النجاشي العادل ، فأخفقت في سعيها ، وعاد سفراؤها خائبين .

وبينا كان المهاجرون بالحبشة يقاسون مرارة الغربة ، وقسوة الحياة ، كان الرسول عليه السلام وعشيرته يلاقون أضعاف ذلك في مكة ، فإن قريشا لما رأت « بنى هاشم » مصرة على حماية الرسول ، وعدم التخلي عنه ، عمل رجالها على عقابهم بالحصار الاقتصادي ، فكتبوا صحيفة فيما بينهم بمقاطعتهم ، وعلقوها في جوف الكعبة توثيقا لها ، اتفقوا فيها على عدم التعامل مع الهاشميين ببيع أو شراء ، أو صهر أو نسب ، وعزلوهم في « شعب بنى هاشم » ثلاث سنوات أو أربع ، ذاقوا فيها قسوة المجاعة وأهوال العيش ، فكان أحدهم يخرج ليشتري من السوق طعاما لأولاده الجياع ، فيضعف عليه التجار الثمن بإيعاز من زعماء قريش ، فيعود لهم خالي الوفاض ، وكان الرسول عليه السلام لا ينشط لنشر دعوته ، إلا حيث يتوافر الأمان في موسم الحج ، فيلاقي قصاد بيت الله يبلغهم رسالة ربه ، وزعماء قريش من خلفه يحذرون الناس سحره ، ويتهمونونه في قوله وعقله .

بل لقد صادر المكيون حرية الاعتقاد ، وحرية التصرف ، لدرجة أنهم حاولوا أن يحولوا بينه وبين المدنيين ، فلما بايعهم سرا بيعة (العقبة الثانية) ووصل إليهم خبرها ، عملوا على اغتياله خلسة ، فلما هاجر سرا حاولوا أن يردوه إليهم ففشلوا ، فصبوا جام غضبهم على من آمن به من الضعفاء والفقراء والعبيد ، فكانوا يضربونهم إلى درجة الهلاك ، ويوثقونهم في الرمضاء تحت وقدة الشمس المحرقة ، ليردوهم للشرك حتى مات بعضهم بسبب ذلك العذاب وقتل فيه ، كما روى « ابن الأثير^(٢٦) » ، فإنه قال : « مات « ياسر » في العذاب ، وأغلظت امرأته القول لأبي جهل ، فطعنها

(٢٥) سورة المائدة : آية ٦٧ .

(٢٦) الكامل له طبعة سنة ١٣٠١ هـ ج ٢ ص ٣٠ .

في قُبُلها بحربة في يده فماتت ، وهي أول شهيد في الإسلام . « وقد روى » المقرئ (٢٧) « في هذا قوله : « ومرو الحبيث أبو جهل » بِسُميَّة أم عمار بن ياسر » وهي تعذب في الله هي وزوجها وابنها ، فطعنوا بحربة في فرجها فقتلها . وبنفس الطريقة مات « أبو فكيهة » بيد أمية بن خلف وأخيه أبي (٢٨) « وما قنعت قريش بهذا كله ، فإنها تعقبت » محمدا « بالمدينة ، وصارت تغري به يهودها ، خشية أن يعم دينه ، فينتقل السلطان منهم إليه ، ومن مكة إلى المدينة ، ولذا فهم الرسول من واقع أمرهم أنهم دائبون على الكيد له ، مصرؤون على القضاء عليه وعلى دعوته ، مهما اختلفت به البلاد ، ثم أيد الله سبحانه فهمه هذا بقوله : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن استطاعوا » (٢٩) . فكيف لا يدفع الرسول الموانع من طريق دعوته ؟ وكيف يبلغها للناس وهذا الحجر في طريقه ؟ وكيف يقف مكتوف اليدين وأتباعه يفتنون في دينهم ، ويعذبون ليعودوا إلى الشرك ؟ لا شك في أن الرسول كان يتمنى أن تكون له القوة التي تمكنه من وقف ذلك العدوان ، وقد ظل يهدئ نفوس أصحابه كلما ثارت لوقع الظلم ، وكلما طلبوا القتال قال لهم : كفوا أيديكم ، وبقي ينتظر الإذن من ربه له في القتال ، حتى نزل عليه قوله تعالى : « أُوذِنَ الَّذِينَ يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (٣٠) .

إذن فما شرع القتال في الإسلام ، إلا لحماية العقيدة ، وحرية الفكر ، وحماية الضعفاء من طغيان الطغاة ، وهذا معنى قوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » (٣١) . أي حتى ينتهي إرغام الناس على عقيدة بعينها وترك غيرها .

ثانياً – حمل قريش على مهادنة المسلمين :

ويغلب على الظن أن الرسول عليه السلام ، قام بمهاجمة القوافل التجارية لقريش ؛ ليشعرهم بخطرهم ، فيؤمنوا بوجوده ، ويروا وجوب مسالمتهم ، فيعملوا على

(٢٧) إمتاع الأسماع ص ١٨ ، ١٩ .

(٢٨) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٣١ وإمتاع ص ١٩ .

(٢٩) سورة البقرة : ٢١٧ .

(٣٠) سورة الحج : آيات ٣٩ ، ٤٠ .

(٣١) سورة البقرة : ١٩٣ والأنفال : ٣٩ .

التفاهم معه ومفاوضته ، فيقرر قرار السلم في الجزيرة ، ويصل الرسول إلى هدفه السياسي والديني من أقرب الطرق ، فقد كان هدفه هداية الناس ، وإصلاح مجتمعهم الفاسد . ولا يخفى أن المكين أهلُ تجارة ، فيها معاشهم ومنها رزقهم ، وهم أدرى الناس بما يصيبها من كساد وبوار ، وأدرى الناس بأثر ذلك في أصحاب رءوس الأموال عندهم ، وقد كان تعرض الرسول لقوافلهم سبباً في الإقلال منها وتعريضها للخسارة ، بسبب التماس الطرق الوعرة المطولة ، التي تبعد عن المدينة حتى لا تمر عليها التجارة في غدوها ورواحها ، فتكون مهددة بالتهب والمصادرة .

والرسول عليه السلام يعلم أن حياة قريش بحياة تجارتها ، فأراد تهديدها ، ليفكروا جادين في تأمينها ، بالاتفاق الودي مع المسلمين فيضمنوا لتجارتهم رواجها في فترات سلام طويلة ، يتمكن فيها الرسول من نشر دعوته بين الناس ، في نطاق من الحرية والأمان .

ثالثاً - الباعث الاقتصادي :

لقد أرغم المسلمون على الهجرة إلى المدينة فراراً بدينهم ، وهرباً من عسف قريش وظلمهم ، وقد حاول أكثرهم أن يصحب معه ماله ففنع من ذلك ، فتركوا في أيدي قريش ديارهم ونخيلهم فصادروها واستولوا عليها ، ثم ذهب المهاجرون إلى المدينة فوجدوا أهلها يحترفون الزراعة ، وهم أجهل الناس بها ، لأن حرفتهم الأولى هي التجارة ، ثم إنهم رأوا في أنفسهم حالة على إخوانهم الأنصار ، بالرغم من الأخوة التي عقدها الرسول بينهم ، ومشاطرة الأنصار لهم في أموالهم ، فكان بعضهم يزاول التجارة بالمدينة استقلالاً بنفسه ، ورغبة في الأكل من كسب يده .

لهذا العامل الاقتصادي كان المسلمون يخرجون إلى قوافل قريش محاولين أخذها ليستردوا بعض المال الذي فقدوه ، وهو - وإن كان قليلاً في نظر غيرهم - يعتبر عندهم رأس مال مهما كان ، يدير تجارة ناجحة ويدر أرباحاً كافية ، وإنما يزيد من خطره عندهم أنه صودر قهراً ، وأخذ منهم ظلماً ، وقد كانوا بهذه الأموال يستطيعون أن يستقلوا بالعيش ، أو يخفوا بعض الشيء عن الأنصار ، حيث تكون لهم أموال ثابتة ، يعيشون من أرباحها ، ولذا كان الرسول عليه السلام كثيراً ما يدعو

للمهاجرين بقوله : « اللهم إنيهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنيهم عراة فاكسهم^(٣٢) » .
ولعل هذا المعنى كان ملحوظا أيضا في الاجتماع الذي عقده الرسول قبل بدر ،
فإنه لما علم بقدوم تجارة قريش من الشام ، جمع أصحابه بمسجد المدينة ثم قال لهم :
« هذه غير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها » .

وكيف يترك الرسول أصحابه في حال ضيق وعسر ، في بلدة محدودة الموارد ،
لا تكاد تكفي سكانها الأصليين ، وهو يرى غير قريش التي اغتصبت أموالهم تغدو
وتروح في أمن وسلام ، لتستخدم أرباحها في الكيد له ودفن دعوته ؟ إنه من الحق
أن يسترد المرء ماله من غاصبه ، وأن يغصب المال الذي يستخدم في حربه والقضاء
عليه ، كما أنه من حقه أن يحطم الرمح الذي يشرع إلى صدره .

ويغلب على الظن أن حال المهاجرين الاقتصادية ، وضيق ذات يدهم كان
يشغل حيزا كبيرا من تفكير الرسول عليه السلام ، كما كان يشغل تفكيره إثقاله على
إخوانهم الأنصار ؛ ولذا كان دائما يدعو لهم ، فهم من أجله ضحوا بديارهم وأموالهم ،
وهجروا وطنهم الذي فيه درجوا ولعبوا صغارا ، ولهذا السبب نفسه كان الرسول يؤثر
المهاجرين بالمغانم ، في الغزوات الأولى ، ويستميح الأنصار ويرضى نفوسهم ،
ولعل موقف الأنصار يوم غنائم حنين ، وغضبهم لحرمانهم منها ، وإعطاء المهاجرين
أمر لا يحتاج إلى بيان ، فهو دليل على أن الرسول كان حريصا على أن يؤسس للمهاجرين
أموالا غير التي فقدوها بينون منها ديارهم ، وينفقون منها على عيالهم وسلاحهم .
مما يتقدم يتضح أن بواعث الحرب في الإسلام كلها بواعث طبيعته فهو
لا يلجأ للقتال إلا مرغما ويتجنبه بكل الوسائل ، وكثيرا ما كان الرسول يقول لأصحابه
« لا تمنوا لقاء العدو فعسى أن تبسلكوا بهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفنا وكف عنا
بأسهم^(٣٣) » . وما كان الرسول يوما معتديا ، فالإسلام لا يعرف حرب العدوان ،
وإنما كان يحارب لتأمين الدعوة ، وإزالة العقبات من طريقها ورد العدوان الواقع
على أصحابها ، وإشعار أعدائها بالقوة ، علهم يثوبون لرشدهم ، ويخافون على
تجاريتهم ، فيعملون على سلامتها ، بمخالفة الدين يهددونهم ومصالحتهم ، فيتحقق
السلام الذي ينشده الإسلام .

(٣٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦١ .

(٣٣) شرح القسطلاني على البخاري ج ٥ ص ؛ الأخبار لابن قتيبة ١٢٣ ، وعيون الأخبار ج ١ ص ١٠٧ .

الفصل الثاني

جمع القوات وتنظيمها وإمدادها

يعالج هذا الفصل كيفية جمع القوات للقتال ، فيبحث تعيين القادة وشروط تعيينهم ، ونظام التجنيد من حيث التطوع والإلزام ، كما يوضح سنّ التجنيد وسن التسريح ، والتنظيم الدائم للجيش الإسلامية ، وتزويدها بحيوان القتال والسلاح والطعام ، وما يلزمها من قراء وقصاص ، وأطباء وممرضات وما إلى ذلك مما يلزم الجيش في العادة .

ذلك أن كل محارب لا بد له من أن يجمع القوات قبل الحرب بالطريقة التي يراها ، ويعيّن القواد الأكفاء على هذه القوات ، ليعملوا على تنظيمها وتوجيهها ، ويزودها بكل ما تحتاج إليه لتكون وافية العدة ، صالحة لمواجهة الأعداء ، في كل الظروف ، وشتى المناسبات .

القسم الأول

القادة ومؤهلاتهم

١ - القيادة بين الجاهلية والإسلام :

ظهر الإسلام وقيادة القبائل العربية إلى شيوعها ، فزعم القبيلة أو (رديفه) الذي ينوب عنه في غيابه ، ويجلس عن يمينه في حضوره ، هو الذي يتسلم اللواء عند الحرب ، لتوافر مؤهلات الرياسة فيه من كبر السن ، وسداد الرأي والشجاعة والنجدة ، والكرم والتضحية ، إلى غير ذلك من صفات الزعامة التي كانت انتخابية أكثر منها وراثية كما يرى الدكتور « فيليب حتى ^(١) » .

وإذا عرفنا أن قبائل بذاتها كانت تحتكر اللواء كبنى عبد الدار ، وأن رتب الشرف والرياسة كانت موزعة على قبائل معينة ، وأن الإسلام ظهر واللواء في آل حرب ، استطعنا أن ندرك أن اللواء كان يتوارثه بطون القبيلة الواحدة بحيث لا يخرج

(١) تاريخ العرب تعريب الأستاذ « نافع » ص ١٧٠ الطبعة الأولى .

منها ، أما صاحب اللواء من البطن أو القبيلة ، فكان يُستخب إليه ، مستوفيا شروط الزعامة السابق إجمالها .

أما الإسلام فلم يجعل القيادة وفقاً على أشخاص ، ولا خاصة بقبائل معينة ، وإنما كان الرسول أول الأمر هو القائد الأعلى ، يقود قواته بنفسه إذا خرج معهم ، ويؤمّر من يراه صالحاً للإمارة إذا غاب عنهم ، غير متقيد في ذلك بعامل الأقدمية في السن ، فقد سلّم رايته « لعلی » يوم بدر وهو في العشرين من عمره كما روى « ابن سيد الناس ^(٢) » ثم سلمها له في غزوة « حمراء الأسد » وغزوة « خيبر » وفي الصحابة من هو أسنُّ منه ، وكذلك فعل مع « أسامة بن زيد بن حارثة » حتى لقد غضب غضباً شديداً لما بلغه قول المنافقين : « أمّ غلاما على جَلّة المهاجرين والأنصار » فخرج إلى الناس وأفهمهم إصراره على توليته قائلاً : « إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبل ، وإنه خلّيق للإمارة ، وكان أبوه خليقاً لها ^(٣) » وبذا صرف الرسول أصحابه عن تقدير عامل السن في الإمارة إلى تقدير الذكاء وحسن قيادة الجند "Man management" في كل قائد، وفهم عنه خلفاؤه ذلك فعملوا به ، وقدموا الخبرة الحربية على كل اعتبار ، « فأبو بكر » رفض عزل « أسامة » عن القيادة لما تجدد الكلام فيه عقب وفاة الرسول ^(٤) ، وولى « يزيد ابن أبي سفيان » قيادة جيش موجه إلى الشام ، وفيه من هو أسنُّ منه من الصحابة ، ولم يعبأ بنقد الناقدين .

ب - شروط القيادة :

إذن فما هي الشروط التي كانت تراعى في القائد ؟ إن المؤرخ « جستاف لوبون ^(٥) » يجمع شروطها في التقوى والشجاعة ، ورقة الشمائل والقريحة الشعرية ،

(٢) عيون الأثر في فنون المغازي والسير - مخطوط بدار الكتب ورقة ١١٣ . وهو كما في دائرة المعارف الإسلامية (فتح الدين محمد بن أبي بكر اليعمرى الأندلسي) من كتاب التراجم ولد بالقاهرة ٦٦١ هـ ودرس فيها وفي دمشق ، ثم أصبح معلماً للحديث بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة ، وتوفي ٧٣٤ هـ ١٣٣٤ م .

(٣) ابن الأثير في الكامل ج ٢ ص ١٥٣ - الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة ٢٣٠١ هـ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦١ ، والإصابة لابن حجر في ترجمة أسامة .

(٥) حضارة العرب له تعريب « زعيتر » ص ٢٩٧ .

والفصاحة والقوة ، والمهارة فى ركوب الخيل ، والقدرة على استعمال السيف والرمح والنشاب ، ومعنى هذا أن يكون القائد مستوفياً كل خلال الفروسية والزعامة ، وما هذا بميسور لكل إنسان ، ويمكن إجمال شروط القيادة عند المسلمين فيما يلى ، حسب ما يفهم من المراجع العربية :

١ - السبق للإسلام والفناء فى العقيدة :

لقد كان لهذا العامل وزن أى وزن ، فى اختيار القادة عند المسلمين إذا توافرت معه الشجاعة والخبرة الحربية ، ولذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤمّر على سراياه السابقين للإسلام من أصحابه « كعلى بن أبى طالب » وغيره وأظنه لم يؤمّر « خالد بن الوليد » يوم مؤتة ، مع درايته الحربية مراعاة لهذا العامل ، لأنه كان أحدث عهداً بالإسلام من « زيد بن حارثة » ومن جاء بعده فى القيادة ، ولو قد كان سابقاً مثلهم ، لكان أولى بها منهم من الوجهة الفنية .

ويؤيد هذا المعنى أن القرآن نفسه ، فضل الذين أنفقوا أموالهم وقاتلوا فى سبيله قبل الفتح ، على الذين فعلوا ذلك بعده ، فهو يقول : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ^(٦) » . وهذا تقدير منه للأسبقية فى الهداية .

وكما قدّر الرسول فى القائد عمق الإيمان ، وقوة الروح المعنوية ، التى يفيض منها على جنده ، قدر ذلك أيضاً أصحابه من بعده ، فكانت القيادة فى عهدهم للمهاجرين السابقين والأنصار ، فكان المسلمون يؤلفون الجيش وهؤلاء السابقون هم ضباطه ^(٧) ، ولذا حرم شرف الإمارة كل من مسته شائبة فى حروب الردة ، فلم يتول واحد منهم القيادة فى حروب الفرس أو حروب الشام على رغم ماظهر من توبة بعضهم ، وإرادته التكفير عن زلته ، كما يظهر فى رسائل ووصايا الصديق والفاروق إلى قادتهم وولاتهم .

وكذلك كان الأمويون يختارون للقيادة شديد الإيمان بدولتهم ، الذى يفى نفسه فى تدعيمها ، ويكون سباقاً إلى تحقيق أهدافها ، كآل المهلب وآل الحجاج

(٦) سورة الحديد : آية ١٠ .

(٧) تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان ج ١ ص ١٤٤ .

وغيرهم ، وعلى نهجهم سار العباسيون فاختروا للقيادة المخلصين لدولتهم المعروفين بشدة الولاء لها ، ولا داعى للإطالة بالتمثيل .

٢ - التجربة والخبرة الحربية :

الحرب خُدعة كما يقول الرسول عليه السلام ، ولذا كان يختار لها المعروفين بالمهارة فيها ، وسياسة معضلاتها ، « كحمزة بن عبد المطلب وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد » وغيرهم من القادة الذى خبروا الحروب ومرتوا عليها ، وقد قال توضيحاً لهذه الحقيقة : « إني لأؤمر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب^(٨) » . وقد طبق الرسول هذا كثيراً ، وبخاصة فيما يتعلق « بخالد وعمرو » ، وقد بعث عمرأ على سرية فيها « أبو بكر وعمر » فلما وصلوا إلى مكان الحرب نهاهم أن يوقدوا نارا ، فغضب « عمر » فنهاه « أبو بكر » وأفهمه أن « الرسول » لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه^(٩) ، واقتنع بوجهة نظره .

وقد أثبتت الأيام براعة القادة المسلمين ، وخبرتهم بمكائد الحروب ، فإن الذى يسمع بفعال « خالد وسعد ، أو المثنى أو القعقاع ، أو الحجاج أو قتيبة أو موسى ابن نصير » لا يملك إلا أن يبدى الإعجاب بهم ، ويؤمن بتفوقهم فى الفن الحربى على قادة الفرس والروم وغيرهم .

٣ - الشجاعة وتقوى الله :

إن القادة الناجحين فى التاريخ كله « كانوا ممن عرفوا بجرأة الجنان والشجاعة ، فإن ذلك منهم يجعل الجندى الجبان شجاعا ، وقوة اندفاعهم تجر الجند وراءهم ، فيأتون بالأعاجيب ، فإذا أضيف إلى شجاعتهم قوة الإيمان بالله ، والاعتقاد الراسخ بأن الموت بيده وحده كانوا مثالا فى المضاء ، ودانت لهم البلاد ، وهكذا كان كثير من قادة المسلمين ، الذين عرفوا بيمين الطالع فكانت تسبقهم شهرتهم ،

(٨) السيوطى فى تاريخ الخلفاء ص ٤١ طبعة مصر سنة ١٣٠٥ هـ .

(٩) نفس المصدر والصفحة .

ويسارع الناس للتطوع معهم ، لثقتهم بالنصر في ظلال الفن الحربي الذي شهر به هؤلاء الأبطال ، وفاقوا به معاصريهم^(١٠) من الأعداء .

وأخيراً لا أريد الإطالة في هذا الشأن ، ويصح الاكتفاء بما أورده لنا « الهرثمي^(١١) » في مخطوطه عن فضائل الرئيس ، فإن كلامه يعد تلخيصاً لمؤهلات القيادة ، قال في الباب الثالث : « قالوا أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة ، وأكملهم عقلاً وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتاً ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواقعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايد ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة ، وتسييرهم أوان المسير ، وإنزالهم أوان النزول ، وإدخال الأمن عليهم ، والخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وأن يكون حسن السيرة عفيفاً ، صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً » .

وقد تعرض « الهرثمي^(١٢) » لتقوى الله في الحرب ، وأفرد لها الباب الأول من مخطوطه ، ومما جاء فيه قوله : « فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده ، وكثرة ذكره والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والفرع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر » .

ح - نظام تعيين القادة :

كانت القيادة من واجبات الرئيس ، ولذا كان الرسول والخلفاء يخرجون للمعارك بأنفسهم ، ولكن أوقات الرسول أو الخليفة كانت لا تسمح له بذلك أحياناً ، وكانت تحتم عليه الظروف البقاء لإدارة دفة الحكم وتنظيم حركات الجيوش ، وإمدادها بحاجتها من الجند والعتاد ، وفي هذه الحال كان ، يبعث مكانه قائداً مستوفياً لمؤهلات القيادة ، وذلك بأن يدعو إليه ثم يعقد له لواءً على رمح طويل^(١٣) ينشره أثناء السير

(١٠) الشرق في حكم الخلفاء - « فون كريمير » - ترجمه للإنجليزية « خودا بنخش » ص ٣١٤ طبعة كلكتة .

(١١) مختصر في سياسة الحروب - ألفه الهرثمي للمأمون مصور بالجامعة العربية ورقات ٦ ، ٧ فيلم ٨٤٤ .

(١٢) مختصر الهرثمي السابق المصور ورقة (٤) ، وانظر أيضاً النويري في نهاية الأرب سفر ١٥١/٦ .

(١٣) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٤٤ .

للمعركة ، على نحو ما كان معروفاً عند الجاهليين ، فإن أحدهم كان يتزع عمامته فيعقدّها على رمح ، جاعلاً منها رايته ، اعتقاداً منهم بأن ذلك أهيبُّ في القلوب وأعظم في العيون^(١٤) ، وعدّها علامة للعقد ، ومرجعاً للجند عند الجولة .

وأول لواء عقد في الإسلام هو الذي كان يخفق على رأس الرسول عند دخوله المدينة مهاجراً فقد حلف أحد الأنصار ألا يدخلها إلا بلواء ، فنشر عمامته على رمح وثار أمام الرسول^(١٥) . ثم كان بعد ذلك إذا بعث قائداً يعقد له اللواء ويسلمه له بعد تسمية الله والنصح له . فيركزه هذا في مسجد الرسول ، أو أمام بيته ، ليجتمع عنده الخارجون للغزو بمتاعهم استعداداً للرحيل معه « فالرسول » عليه السلام لما بعث « أسامة » إلى البلقاء ، استدعاه وعقد له اللواء رمزاً للقيادة فركزه هذا بالجرُف خارج المدينة ، وعسكر الناس حوله ، فلما توفي الرسول عاد أسامة باللواء وركزه أمام بيت النبوة ، وظل هكذا حتى بويع بالخلافة « لأبي بكر » فأمر بأن يركز اللواء أمام بيت « أسامة » ليضئ به^(١٦) كما عهد الرسول .

وكذلك كان يفعل « أبو بكر » ، فإنه لما ثارت بحكومته القبائل بعد وفاة الرسول عزم على قتالهم ، فركز لواء القيادة بمسجد الرسول ، وحوله اجتمعت القوات وعسكر بالمسجد ، ومنه خرجت بأسلحتها^(١٧) ، فأوقعت « بعيس وذبيان » ومن ناصرهم في معركة « ذي القصة » الخالدة ، فلما عاد إلى جيشه بعض المتربصين ، واستراح جيش أسامة بعد عودته ، عزم على قتال من منعوا الزكاة ، فندب الناس للقتال ، ثم خرج بهم إلى ذي القصة ، بعد اجتماعهم بمسجد المدينة وفيما حوله ، ففرقهم أحد عشر فرقة ، وركز لكل فرقة لواء يتسلمه عند الرحيل قائدها الموكل بها ، فعقد اللواء الأول « لخالد بن الوليد » والثاني « لِعكرمة بن أبي جهل » والثالث « لشُرَحْبِيل ابن حسنة » وهكذا جعل لكل قائد لواء^(١٨) ، ثم وجه إليهم نصائحه الحريية ،

(١٤) الجاحظ : البيان والتبيين ط ١٣٥١ هـ ج ٣ ص ٧٢ ، ٨٠ .

(١٥) إميل درمنغم : حياة محمد تعريب زعير ص ٤ والإدريسي في التراتيب الإدارية طبعة فاس سنة ١٣٤٦ هـ ج ١ ص ٣١٧ .

(١٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى طبعة ليدن ج ٢ ص ١٣٦ ، ٣٧ .

(١٧) « الصديق أبو بكر » لهيكل ص ١٠٦ .

(١٨) « الصديق أبو بكر » للدكتور هيكل مطبعة مصر سنة ١٣٦١ هـ و ١٩٤٢ م ص ١١٣ ، ١١٤ .

كما هي العادة عند تسليم اللواء ، وأصدر إليهم أمره بأن يستنفروا لقتال المرتدين من يَمروا به من المسلمين . وقد كان « عمر بن الخطاب » يعقد اللواء ويسلمه بنفسه للقائد ، ثم يقول للجند : « باسم الله وبالله ، وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر . . إلخ .

ظل عقد اللواء هو مرسوم التعيين للقائد بعد ذلك ، إلى أن اتسعت رقعة البلاد ، وتفرقت الجيوش الإسلامية شرقاً وغرباً ، فأصبح الخليفة يعقده للقائد إن كان في حضرته ، فإن غاب عنه فهو بالخيار : إما أن يرسل له اللواء حيث يكون ، وإما أن يكتب بالأوامر المكتوبة يحملها البريد ، وكذلك كان الخلفاء العباسيون يفعلون ، فيرسلون اللواء والخلعة إلى الولاة عند تعيينهم ، فإن كان الولى حاضراً ألبسوه خلعة الولاية ، وإن كان غائباً بعثوا له بكتاب ومعه نفس الخلعة ، فقد أرسل « إبراهيم الأمام » « لأبي مسلم الخراساني » لواء وراية ، مقلداً إياه قيادة الدعوة إليه في مرحلتها السرية ، فلما أظهر هذا دعوته عام (١٢٩ هـ ، ٧٤٧ م) عقد اللواء على رمح طوله أربع عشرة ذراعاً ، والراية على رمح طوله ثلاث عشرة ذراعاً^(٢٠) ، وسار بهما في البلاد ، يخفقان على جيشه في معاركه كلها .

وبمضي الزمن وتداول الدول ، صار لكل حكومة أو طائفة إسلامية علم يدل عليها ، ويحمل لوناً خاصاً بها ، يسلمه رئيسها إلى قواده عند تنصيبهم ، فاختر الأمويون اللون الأبيض تخليداً لذكرى غزوة (بدر) التي كان لواء الرسول فيها أبيض ، واختار العلويون الخضرة لتذكير الناس ببردة الرسول الخضراء ، التي سجدى بها « عليا » ليلة أن بات مكانه عند الهجرة ، واختار العباسيون السواد تخليداً لذكرى راية الرسول السوداء المسماة « بالعقاب » ، كما اختار الخوارج اللون الأحمر^(٢١) رمزا للدماء المراقبة في سبيل الله ، أما الرسول فلم يختار لنفسه لوناً خاصاً كما كان العرف جارياً في الجاهلية^(٢٢) .

وأيا ما كانت ألوان الأعلام وأطوالها ، فإنها كانت تسلم للقادة الممتازين ،

(٢٠) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٤٤ .

(٢١) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٢١ وسماه « الحمرة » .

(٢٢) انظر في ألوان الأعلام : الجاحظ ، في البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٠ .

المعروفين بقوة الروح الحربية والبطولة ، وكما عرفت أسر عريقة باحتكار القيادة في الدولة البيزنطية وإمداد جيشها بالضباط جيلاً بعد جيل كأسر (فوكاس) « وبرنياس ، ودوكاس^(٢٣) » وغيرها عرفت كذلك أسر عربية باحتكار القيادة الحربية ، والعسكرية فيها ، يذكر منها على سبيل المثال « آل المغيرة وبنى الوليد ، وبنى القعقاع ، وبنى ثقيف ، وبنى المهلب ، وبنى ذُصير » وغيرها من الأسر التي أمدت الجيوش الإسلامية بقواد أكفاء ، خلد التاريخ أمجادهم .

نخرج مما تقدم بأن الخليفة كان يعقد اللواء للقائد ، فيركزه هذا في المسجد أو أمام بيته ، أو في فضاء واسع خارج المدينة ، ثم يجتمع الناس حوله وأحياناً كان الخليفة يجمع الجند ، ثم يعين القائد بعد ذلك ، كما فعل « أبو بكر » عند تقسيم الأولوية ، وكما فعل « عمر » عند تعيين « سعد بن أبي وقاص » على القوات التي جمعها ليوجهها إلى العراق .

د - اللواء والراية عند المسلمين :

لقد عرف العرب اللواء في الجاهلية والإسلام ، ويرى الأستاذ « جرجي زيدان » أنهم اقتبسوا ذلك النظام من الروم ، فقد قال عنهم^(٢٤) : « كانوا في الجاهلية يسمون رايتهم " العقاب " اقتباساً من الروم ، لأن شارتهم التي كانوا يرسمونها على أعلامهم ، وينقشونها على أبنيتهم هو " النسر " ، ويظهر أن الروم أغرموا بالعقاب ؛ لأنهم أول من صاد به كما ذكر المسعودي^(٢٥) فرأوا فيه رمز القوة فاتخذوه شعاراً لهم لذلك ، ثم نقله العرب عنهم .

ومن الجائز أيضاً أن يكونوا نقلوا الرايات عن الفرس ، فقد اتصلوا بهم في الجاهلية والإسلام ، ورأوا عندهم نظاماً لم يعرفوها ، كما رأوا عند البيزنطيين ، ورأوا الفرس يتخذون الرايات ، فكانوا يخرجون في معاركهم راية كبيرة من جلود النمر ، تسمى « درفش كايباني^(٢٦) » عرضها ثمانى أذرع ، وطولها اثنتا عشرة ذراعاً كما جاء في

(٢٣) Dr. Oman. A History of the Art of War. p. 190.

(٢٤) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥١ .

(٢٥) مروج الذهب ج ١ ص ٣١٠ .

(٢٦) اسمها في معجم اللغة الفارسية للدكتور الهنداوى ص ٢٥٣ «درفش كاوياني» ومعناها العلم الإيراني.

المصادر العربية^(٢٧) ، ولكن الذى يرجح نقل العرب عن الروم ما توحى به التسمية ، فإن « العقاب » كان شعار الروم ، وكان شعار الفرس أسدين كما تقدم . وسواء أكان المسلمون فى ذلك مقلدين للفرس والروم ، أم اتخذوا اللواء استقلالاً ، فإنهم جعلوه أمانة القيادة ، ورمز الجيش ، يلوذ به الجند ويحاربون من حوله ، يحملونه عند المسير مطويين ، فإذا وصلوا إلى أرض المعركة نشره ، وكانوا يكتبون عليه عبارة « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ثم كثرت الرايات أيام الدولتين ، وصارت من المحمل ، وكتبت عليها عبارات مختلفة ، وزادوا فى طولها وعرضها ، على النحو الذى نراه اليوم عند الفرق الصوفية التى تدعى نسبتها إلى العلويين .

وقد اختلط اسم الراية باللواء عند كثير من المؤرخين واللغويين قدامى أو محدثين فأطلقوا كلاهما على الآخر بلا تحديد^(٢٨) ، وبلا تبيان للفرق بينهما ، ولكن يبدو بعد مراجعة النصوص أن بينهما فرقاً من وجهين :

١ — أن اللواء يكون كبيراً أبيض اللون ، بقطع النظر عن كتابته ، والراية تكون مختلفة الألوان ، فأهل السير على أن لواء الرسول كان أبيض اللون وأن رايته كانت سوداء ، وقيل إنها كانت صفراء^(٢٩) ، فيلاحظ أنهم يذكرون الألوان مع الرايات ، ولم يذكروها قط عند ذكر اللواء ، ويقولون عن اللواء : (كان مكتوباً عليه كذا) والكتابة تظهر واضحة فى البياض لا فى الألوان .

٢ — أن اللواء هو الرمز العام للجيش ومركز القيادة ، أما الرايات فتكون صغيرة دالة على القبائل والوحدات التى يتألف منها الجيش ، فقد كان لكل قبيلة رايته التى تحمل شارتها ، وكثيراً ما كان « خالد » يقف على الرايات قبل المعركة يحرض أصحابها ، وكان قائد القبيلة يقول لها : الزموا رايتهم فلا تُميلوها ، وقد سئل المهدي ذات يوم : كم رايةً عندك ؟ فقال : لا أدري^(٣٠) ،

(٢٧) ابن الأثير . الكامل ج ٢ ص ١٨٤ ، وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢٨) انظر الكامل ج ٢ ص ٤٨ ، ج ٥ ص ١٤٤ وغيرها ، تاريخ التمدن لزيدان ج ١

ص ١٥١ ، الأعلام لعبد الرحمن زكى ص ٢٦ والقاموس المحيط .

(٢٩) ابن سعد — الطبقات ج ٢ ص ٧٧ ، الواقدي . فتوح الشام ج ١ ص ١٩ ، ٥٢ ، السيرة

الحلبية ج ٣ ص ٤٢ ، ٩٨ .

(٣٠) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ١٠ .

والسائل طبعاً يسأل عن عدد الكتائب ، وهذا يدل على أن الراية كانت تشير لفرقة من الجيش ، أما اللواء فكان رمزاً للجيش كله ، يشير إلى مركز القائد العام وقت المعركة ، وعند المسير والنزول .

القسم الثاني

التجنيد ونظمه

بعد الحديث عن القائد وكيفية تعيينه ، والشروط التي يحسن توفرها فيه ، يجدر الكلام عن الجند الذين سيحارب بهم خاضعين لقيادته ، والكلام عن الجندى يكون في الشروط التي يلزم توافرها فيه ، وسن التجنيد وسن التسريح وشرح نظام التطوع والإلزام ، وما إلى ذلك من الأمور التي لم يوضحها الكاتبون في الشئون الحربية ، وعذرهم في ذلك أنه ليس لديهم سجل مفصل واف يوضحها، وإنما هي شذرات مبعثرة تأتي في كتب الأقدمين عرضاً بلا قصد ، يجد الباحث عناء كبيراً في استخلاص الحق منها ، وبخاصة إذا كان بينها تناقض أو خلاف كبير ، أو إجمال وغموض في بعض النصوص .

١ - شروط التجنيد وسن المجند :

الحرب أتى وُجِدَتْ تقوم على عواقب الشباب ، الذين هم أصبر من الشيوخ على مقاساة أهوالها ، وأكثر منهم ميلاً إلى إظهار بطولتهم فيها ، وهم بعد لم يرتبطوا في الحياة بما يجعلهم حراساً عليها من زوجات أو أبناء، فهم لذلك أكثر إقداماً ونشاطاً وغناء في المعارك .

وقد عرفت الدول العريقة تلك الحقيقة فعملت بها ، ولجأت إلى الشباب من أبنائها ، فالدولة البيزنطية كانت تجند الشبان المعروفين بالنظام والشجاعة والقوة ، غير مفرطين في الصغر أو الكبر ، وقد علل الإمبراطور « ليو » لذلك بقوله الذي نقله عنه « دكتور أومان » : « لأن الشبان - مهاجمين أو مدافعين - يكونون

أحراراً من حمل هموم أهلهم ، الذين تركوهم وراءهم يفلحون لهم أرضهم^(٣١) .
ولقد حكم الأستاذ « العقاد »^(٣٢) بأن الروم كانوا يجندون صغار السن ، مستدلاً
بأن الجند كانوا يهربون من الجيش ، ويؤثرون الخدمة في الفرق المتطوعة ، لأنهم
كانوا يستقلون تمريناته وأسلحته ، ولكن قد يكون الفرار من الجيش للرغبة في
الحرية ، وضعف الشعور الوطني في النفوس ، ورغبتها في التمتع بالغنائم التي تزيد
عن مرتبات الجيش ، مع أن عدم الإفراط في الصغر أو الكبر الذي ذكره « ليو »
يفهمنا أنهم كانوا يجندون الشبان بين العشرين والثلاثين تقريباً ، أو الخامسة
والثلاثين .

هذا ، وقد درجت الحكومات الإسلامية غيرها على تجنيد الشباب بوجه عام ؛
فقد كانوا عماد جيش الرسول في معاركه الشهيرة^(٣٣) ، وكان هو أيضاً لا يختار
المفرطين في الصغر ولا الشيوخ الكبار ، ولكن ما شروط المجند ؟ وما الحد
الأدنى لسن التجنيد ؟ وما حدها الأقصى ؟ إليك البيان .

لا يشترط الإسلام في الجندى إلا أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً ، سليماً من
الأمراض ، مقداماً غير هباب^(٣٤) ، فكل جندى في عهد « عمر » استوفى هذه
الشروط كان يدون في الديوان ، أما الرسول عليه السلام فكان لقله أصحابه أول
الأمر لا يشترط فيهم سوى الرغبة في الجهاد ، لإعلاء كلمة الله ، لا للشهرة أو المغم
وقد ضمن لمن خرج لمجرد الجهاد في سبيل الله ، أن يدخله الجنة إذا مات ، وأن يعيده
لمنزله بالأجر والغنيمة إذا ظفر^(٣٥) ، وما كان الرسول يشترط في جنده سنّاً معينة ،
وإنما كان المدار عنده على الطاقة البدنية ، والقدرة على إجادة القتال فإنه اعتاد في
غزواته أن يستعرض الجند قبل الدخول في المعركة ، فيجيز منهم من يرى لياقته
للقتال ، ويرد من يراه غير لائق له^(٣٦) ، ولكن ما هي حدود تلك اللياقة ؟

(٣١) Dr. Oman. A history of the Art of War. p. 189.

(٣٢) عبقرية خالد ص ١٦٣ .

(٣٣) شرح البخاري للقسطاني طبعة بولاق ج ٧ ص ١٣٢ ، ٣٣ .

(٣٤) وزيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٤٢ ، وثابت في الجندية ص ٩٣ الماوردي

في الأحكام السلطانية ص ١٩٣ .

(٣٥) انظر النووي : رياض الصالحين طبعة حجازي ج ٧ ص ٩٩ ، ١٥٤ .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٦٢ .

يفهم من بعض النصوص أن الخامسة عشرة كانت السن التي تجيز لصاحبها اللحاق بالجنود فقد روى « ابن خلدون » أن الرسول صلى الله عليه وسلم أجاز يوم أحد « سمرة بن جندب ورافعا بن خديج » في الرماة وسنهما خمسة عشر عاماً، ورد يومها « أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر » في نفر غيرهم وسن الجميع يومئذ أربعة عشر عاماً ، ثم ذكر في موضع آخر برواية الشيخين عن « ابن عمر » أنه قال : « ردني الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ، ثم أجازني يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة^(٣٧) » . ولكن هناك نصوصاً أخرى أوردها « ابن جرير وأبو الفرج » تفيد أن الرسول يوم أحد أجاز رافعا ورد سمرة لصغره، فحزن « سمرة » وأفهم الرسول أنه يصرع رافعا ، فصارع الرسول بينهما، فلما صرعه أجازته هو الآخر^(٣٨) ، بعد أن ظهرت له قدرته البدنية .

يفهم من ذلك أن إطاعة القتال كانت العامل الرئيسي في التجنيد، وأن اللياقة البدنية كانت ملحوظة ، فإن « الرسول » اختار « رافعا » أول الأمر؛ لأنه قام على خفين له فيهما رقاع ، وتناول على أطراف أصابعه ، ليدو طويلاً وافياً في العين ، فلما رآه يافعا أجازته ، ولم يرد في نص واحد أن الرسول سأل بعض هؤلاء عن سنهم ، فما كانت تواريخ الميلاد عندهم دقيقة بحيث يعرفونها^(٣٩) فنحن في أيامنا هذى نختلف في تحديدها ، وماذا يصنع القائد بمهزول في سن العشرين أو الثلاثين ؟ وكيف يترك فتى جلداً في الخامسة عشرة ؟ علماً بأن الأجسام تختلف نماء وقوة ، باختلاف التغذية والسلامة من الأمراض ، ومن هنا لا تكون السن مبدأ مضبوطاً ؛ ولذا نراها حديثاً قد زيد فيها إلى حد العشرين أو الحادية والعشرين ، لتؤكد البلوغ واكتمال القوة .

ويغلب على الظن أن البلوغ في الجزيرة العربية كان يأتي مبكراً ، لحرارة المنطقة المنشطة للغدد ، وصحية الغذاء والهواء والنشأة ، بحيث حددوا له الخامسة عشرة

(٣٧) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١١ قارنه بما ورد في التراتيب الإدارية للإدريسي طبعة فاس ج ١ ص ٣٥٧ ، والأغاني طبعة المغربي ج ١٤ ص ١١٥ .

(٣٨) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٣ ، ١٢٠ ، والأغاني ج ١٣ ص ١٣ .

(٣٩) دليل ذلك أن ابن عمر لم يعرف سنه في الرواية السالفة ، لأنه جعل أحداً والخندق في عامين متتاليين ، والجمهور على أن أحداً كانت في العالم الثالث والخندق في العام الخامس بفارق عام بينهما .

تقريباً ، وقد حضر الرسول حرب الفجار ، ينبل على أعمامه ، وهو في الرابعة عشرة ، لأن البلوغ في الجزيرة العربية ، كان يأتي مبكراً لما تقدم .

ظل تجنيد الشباب معمولاً به أيام الخلفاء ، وبخاصة لما وضع « عمر » الديوان واشترط في الجندى البلوغ والإسلام ، مع السلامة من الأمراض ، وظل معمولاً به كذلك أيام الدولة الأموية ، فكان القائد ينتخب من الديوان من شاء من الجند^(٤٠) ، ولكن يبدو أنهم زادوا في سن المجند قليلاً ، ولذا عاب الناس على « أبي حمزة الشاري » حادثة أسنان أصحابه^(٤١) فقد قال في بعض خطبه : أيها الناس : « تعيين أصحابي بأنهم شباب أحداث ، وهل كان أصحاب الرسول إلا شباباً أحداثاً ؟ ! » ويظهر أن في كثرة الجند مجالاً متسعاً للاختيار ورفع السن ، فإذا قلوا كما كانوا أيام الرسول ، لجأ القائد إلى أول مراحل البلوغ ، فقد كان كل من تلفظ بالإسلام يوم الخندق في العام الخامس ألفاً وخمسمائة^(٤٢) ، ولذا جند الرسول كل صالح للقتال ، فلما زاد عدد الجند ، وكثر الراغبون في الجهاد ، وضع عمر الديوان ، واشترط الشروط السابقة .

ويظهر أن العباسيين درجوا على نفس السبيل ، وبخاصة عندما اتخذ خلفاؤهم الأحراس ، من شباب لهم صفات بدنية خاصة ، فاختراروا الفتيان من الحراسانيين والمغاربة ثم من الفراغنة والأتراك ، حيث القامة الفارعة والشباب المكتمل ، وكان هذا الحرس يمثل قسماً مهماً من الجيش ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يطبقون في الجيش ما يطبق في الحرس تقريباً .

ولم تصلنا تفاصيل وافية عن أسنان الجنود ، ومدة خدمتهم عند المسلمين ، وإنما كان المهم عندهم اكتمال الفتوة ، وهي لا تتحقق إلا في طور الشباب ، أما السن فمن الجائز أن يكون مسألة عرفية تختلف باختلاف الأقاليم والبلاد ، ففي عصرنا الحديث يجند الشاب في الإقليم المصري في الحادية والعشرين أو العشرين ،

(٤٠) ابن الأثير في الكامل ج ٤ ص ١٥٢ .

(٤١) الجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٣ طبعة سنة ١٣٥١ هـ .

(٤٢) شرح البخاري للقسطاني ج ٥ ص ١٧٥ .

بينما يجند الشاب التركي في السادسة عشرة^(٤٣) ، وقد عاصر المسلمون البيزنطيين الذين كانوا يجندون في مثل هذه السن تقريباً قبل أن يتزوج شبانهم ، فمن الجائز أن يسيروا على نظام مقارب لنظامهم ، يوضحه لنا ما أورده « جرجى زيدان »^(٤٤) في قوله : « كان عند المسلمين لاختيار الجند من بين الناس شروط : منها أن من أراد الانتظام في الجندية يقدم طلباً إلى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر في أهليته لها ، ولا يكون أهلاً لذلك إلا إذا كان حراً^(٤٥) بالغاً مسلماً سليماً مقداماً ، فإذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودوّن اسمه في دفاتر الجيش ، مع نسبه وطوله ولونه وملاحه ، وسائر ما يتميز به عن غيره . لثلاً يحصل لبس في الأسماء ، عند استدعائها للمعارك ، فإن الإعجام كان مهماً في الكتابة وقتها ، واللبس كان شائعاً .

وكل ما تقدم من مؤهلات التجنيد ، إنما هو للذين تدوّن أسماءهم في سجلات الجيش ، كالجند النظاميين الذين يتقاضون مرتباتهم من خزانة الدولة (والذين كتبت أسماءهم في دفاتر الجند) أما المتطوعون الذين يخرجون للجهاد رغبة في الثواب ، فليست لهم شروط محددة ولا أسنان معينة ، فكثيراً ما كانوا يخرجون وهم في الخمسين أو الستين أحياناً ، فإن لم ينفعوا بأبدانهم ، نفعوا بأرأئهم وسابق تجاربهم ، كما كان يخرج بعض الموالى والعبيد ، وغير المسلمين فينفعون بالمساعدة وتكثير العدد ، كما ينتفعون بالمنح التي كانوا يأخذونها من المغانم ، بحسب تقدير القائد لها .

ب - نظام تسريح الجند بعد الخدمة :

يُقصد بهذا النظام شيان : التسريح المؤقت المراد به إراحة الجند لاستئناف القتال ، والتسريح النهائي الذي به تنتهى مدة الخدمة في الجيش . أما في حياة الرسول عليه السلام فقد كان المسلمون جميعاً جنده ، يدعوهم للقتال فيجتمعون ، وبعد انتهاء دواعيه يتفرقون في شئونهم الخاصة ، فكثير منهم كان يحترف التجارة أو الزراعة ، أو غيرهما من الصنائع ، وما احترف المسلمون الجهاد إلا أخيراً بعد أن كثرت المغانم ، فأقبلت عليه النفوس .

(٤٣) نعمان ثابت - الجندية ص ٩٥ .

(٤٤) تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٤٤ ، والجندية لثابت ص ٩٨ .

(٤٥) اختلف في الحرية : فبعض الأئمة يعتبرها ، كالشافعي ، وأبو حنيفة يسقطها فليست شرطاً متفقاً عليه .

وبعد حياة الرسول ثارت الجزيرة بحكومة « أبي بكر » ، وعمت حركة البدو الانفصالية عن السلطان المركزى فى المدينة ، فعزم « أبو بكر » على إخضاع الثائرين وإعادتهم إلى حظيرته ، فكتب يستنفر الناس من جهات الجزيرة ، فاجتمعت له القوات التى قسمها أحد عشر لواء ، وعين على كل لواء قائدا ، ووجه القوات إلى أنحاء الجزيرة المختلفة ، فلما ملّ القتال جنود « عكرمة » باليمن ، لبعد الشقة وكثرة المشقة ، سرحهم واستبدل بهم غيرهم ، ثم عادوا للمدينة ، ومن ثم سعى الجيش الحديد « جيش البِدال^(٤٦) » وإن اشتهار هذا البِدال فى التاريخ يدل على أنه لم يكن مألوفاً ، كما لم يكن منظماً يخضع لقواعد ثابتة ، وإنما الأمر لا يعدو أن يكون استبدال طائفة مستريحة ، بطائفة تعبت من القتال .

فلما كان عهد « الفاروق » وانتشرت جنوده فى سواد العراق ومروج الشام ، أخذ على نفسه عهداً « ألا يجمّر الناس فى ثغورهم^(٤٦) » ولا يطيل مدة غيبتهم فى غزواتهم ، حتى يأمن الفتنة عليهم وعلى نساءهم ويحقق العدالة بينهم ، فكان الغازى لا يملك فى الغزو أكثر من أربعة أشهر ، ثم يستقدم ويرسل مكانه آخر^(٤٧) ، وكذلك نُظم الغزو بين أهل البصرة والكوفة ، فكان الجندى يأتى دوره فى الغزو على فترات معينة كل أربعة شهور ، كما كان الجند المرابطون بالإسكندرية يستبدل بهم غيرهم كل عدة شهور ، فى نظام دقيق ينفذه قائدهم « عمرو » مراعىا العدالة بين الجند ، بحيث لا يشكو أحدهم تحيزاً أو عنفاً .

أما إنهاء مدة الخدمة من الجيش بالتسريح النهائى ، فلم أقف على سن معينة له ، وإن كان الظاهر أنهم كانوا يسرحون من بلغ حد الشيخوخة ، كما كان يفعل البيزنطيون ، والمنطق نفسه يقضى بهذا ، فإن الجيش لو احتفظ بشيوخه ما وجد مكاناً للشباب الجدد ، مع قلة غناء الشيوخ فيه ، وشدة الحاجة إلى الشباب .

(٤٦) انظر الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٩٦ .

(٤٧) الفاروق عمر للدكتور هيكى ص ٩٦ .

(٤٨) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن - ٣ ص ١٠٨ والجندية لثابت ص ٢٨ ويروى أن السبب فى تحديد تلك المدة ، أن الفاروق كان يمر بحارات المدينة ليلاً ، فسمع امرأة فى دارها ، تنشد شعراً تذكر فيه شوقها لزوجها الغائب فى الجهاد ، وتذكر الله والعفة فسأز بنته حفصة : كم تستطيع المرأة أن تصبر عن زوجها ؟ فقالت : أربعة أشهر ، فأصدر أمره السابق .

هذا عن الجنود المرتزقة ، أما المتطوعون ، فإنهم كانوا يخرجون للغزو أو الرباط ، فإذا حل الشتاء أو هجم البرد تفرقوا إلى بلادهم ، حيث يريحون دوابهم ويستريحون ، وكان « عمر » ينصح لقواده أن يفرقوا في الناس أرزاقهم قبل أن يتفرقوا في مشاتهم^(٤٨) وقد كان من الأغراض الاستراتيجية التي قصدها من تأسيس المعسكرين « البصرة والكوفة » أن تعود إليهما القوات الغازية شتاء ، فاختار بعض الناس البقاء بهما ، وظلوا فيهما يتناسلون ويتوارثون الرباط هم وأبناؤهم جيلا بعد جيل .

ج - التجنيد بين التطوع والإلزام :

يرى بعض الباحثين في الشؤون الحربية عند المسلمين ، أن التجنيد عندهم كان إلزاما^(٤٩) مذ كان ، بدون بيان لظروفه أو تطورات ، ويرى بعضهم أن فكرة التجنيد الإجباري فكرة إسلامية خالصة^(٥٠) ، ويرى ثالث أن التجنيد الإجباري بدأ في أواسط الدولة الأموية ، عندما ولي « الحجاج » العراق ، وألزم الناس الخروج مع المهلب لحرب الأزارقة^(٥١) ، والوجه في المسألة أنها بحاجة إلى تفصيل وإيضاح لأدوارها التاريخية .

١ - الدور الأول في عهد الرسول وخليفته :

يبدأ هذا الدور بعهد الرسول عليه السلام ، وقد بعثه الله بدينه الجديد ، لإعادة الناس إلى حظيرة التوحيد ، ومحو آثار الوثنية من الوجود ، فهو مكلف بقتال الوثنيين حتى يؤمنوا بالله ، ولكنه كان أول أمره في قلة مضطهدة من أصحابه ، كانوا يأتونه بين مضروب ومشجوج ، ويطالبونه بقتال عدوهم فيأمرهم بالصبر ، لأنه لم يستكمل بعد مؤهلات القتال ووسائله ، وكان إذا أراد بعض المتحمسين منهم حمل السيف قيل لهم « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة^(٥٢) » فلما كثر عدد المسلمين

(٤٨) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٤٥٣ .

(٤٩) رئيس الركن نعمان ثابت : الجندية في الدولة العباسية ص ٢٠٥ .

(٥٠) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٤٢ ومواضع أخرى .

(٥١) جمال الدين عياد : نظم الحرب في الإسلام ، طبعة الخانجي سنة ١٣٧٠ هـ . ص ٧٣ .

(٥٢) سورة النساء : آية ٧٧ .

وأصبحوا قادرين على رد العدوان ، والقيام مع الرسول بتحقيق رسالته ، أباح الله لهم القتال في قوله « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »^(٥٣) .

منذ ذلك الحين حمل الرسول لواء الجهاد ، وأوجب على المسلمين أن ينفروا إذا استنفروا ، ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ما داموا قادرين ، ولهم الأجر والغنيمة ، ولكنه ما كان يلزم أحداً بقتال ، فقد كان يكلُّ المسلمين إلى قواهم الدافعة ، وظروفهم المادية ، وكان يكره لهم أن يخرجوا للغنائم فقط فيقول : « لا يخرجنَّ معنا إلا راغب في الجهاد »^(٥٤) ويأمر قواد سراياه ألا يُكرهوا أحداً على المسير معهم ، وكان يتخلف عنه الرجل فيذكره الناس فيقول : «دعوه فإن يك فيه خير فسيُلاحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه »^(٥٥) وما ذاك إلا لعلمه بأن مدخول الضمير ، لا يزيد الجيش إلا خبالاً وضعفاً بما يبدى من جبن ، ولهذا السبب نفسه ، كان يأذن لبعض المنافقين الذى يستأذنونهم في التخلف ، حتى في أوقات الدفاع عن بلدهم الذى هم أولى الناس بحمايته ، محتجين بأن بيوتهم عورة كما حدث في غزوتى أحد والحنديق وغيرهما .

ولقد كان الرسول أعلم الناس بأصحابه وظروفهم ، ودرجة إيمانهم ، فهم عنده طائفتان : طائفة لا يرجى نفعها في القتال كالمنافقين وضعاف النفوس المتربصين ، وهؤلاء كان لا يحاسبهم على تخلفهم تاركاً لله أمرهم ، بل كان ينهاهم عن الخروج معه أحياناً ، فقد قال يوم « حمراء الأسد » يقصد المخلفين في اليوم السابق « أحد » : « لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس »^(٥٦) .

ويوم فتح مكة تخلفت قبائل بأسرها ، فلم يعقد الرسول الألوية ، وينشر الرايات حتى قدم قديداً^(٥٧) ، ولم يرد أنه عاقب هؤلاء المتخلفين ، وإنما كان يجدُ عليهم في نفسه ، إذا علم أنهم تخلفوا عنه بدون عذر ، فكان يمنع خروجهم معه لئلا تمتد

(٥٣) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ .

(٥٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٢٧ .

(٥٥) سيرة ابن هشام (الجبلى) ج ٤ ص ١٦٧ ، وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ .

(٥٦) الطبرى ج ٣ ص ٢٨ .

(٥٧) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٨ .

عدوهم إلى غيرهم ، فيؤثرون فيهم بضعفهم ، وليحرمهم أيضا من المغنم التي كانوا يحرصون عليها ، ولذا لما جاءه المخلفون يوم الحديبية يريدون الخروج لخير رجاء الغنيمة قال لهم : « لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد ، فأما الغنيمة فلا (٥٨) » .

وقد كفى الله رسوله مثونة عتاب هؤلاء ، فطعنهم في أعز الأشياء لديهم ، وهي الشجاعة والرجولة ، حيث يقول في كتابه الخالد : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون (٥٩) » . كما رماهم بصغر الهمة ، والتماس نهب المال إذا كان قريبا سهل المنال حيث يقول : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة (٦٠) » . وبين للرسول أيضا أنهم غشَاء كغشَاء السيل ، يزيد قذارة ولا غناء فيه ، بما يذيعون من شائعات تضعف روح الجند المعنوية : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة (٦١) وفيكم سماعون لهم » .

ويفهم من نص القرآن أن هذه الطائفة ، كانت تستأذن الرسول عند الخروج للقتال معه فيمنعهم ، لعدم الاعتماد عليهم ، ولحرمانهم من المغنم . يقول تعالى : « فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ، ولن تقاتلوا معي عدوا (٦٢) » . فكان الرسول يكتفى باجتنايبهم والإعراض عنهم ، ولا يأذن لهم بالغزو معه .

أما الطائفة الثانية ، فهي طائفة المؤمنين المخلصين ، الذين أخذوا أنفسهم بنصر دين الله ، وعلى المستطيع الغنى من هؤلاء أن يجاهد في سبيل الله ، ولا يتخلف عند النفير ، أما الفقير أو صاحب العاهة فلا جناح عليه ، قال تعالى مينا الأعذار التي تبيح لصاحبها التخلف : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله . » وقال : « إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء (٦٣) » . وقال تعالى معاتباً المؤمنين : « يأياها الذين آمنوا مالكم ،

(٥٨) السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٦ .

(٥٩) سورة التوبة : ٩٤ . والحوالف النساء .

(٦٠) سورة التوبة : ٤٢ .

(٦١) سورة التوبة : ٤٧ .

(٦٢) سورة التوبة : ٨٣ .

(٦٣) سورة التوبة : آيات ٩١ ، ٩٣ .

إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثأقلتم إلى الأرض ، أرضيتهم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضره شيئا ، والله على كل شيء قدير^(٦٤) .

إذن فقد كان الرسول عليه السلام يلزم أصحابه بالجهاد، ويكلفهم الوقوف في وجه المناهضين لكلمة التوحيد ، إذا علم منهم عمق الإيمان ، وسعة ذات اليد وإنما كان تهاونه في تجنيد الأنصار قبل بدر ، وفاء لهم بشروط بيعة العقبة؛ لأنها كانت تنص على حمايتهم إياه ما دام بالمدينة، لا في القتال خارجها .

ولقد تغير الوضع قليلا بعد فتح مكة ، فبه أصبحت كلمة الإسلام هي العليا في الجزيرة، وعرف المرتابون ذلك ، فدخلوا في دين الله أفواجا ، ثم انتوى الرسول عليه السلام تأديب الغسانيين الذين قتلوا رسله إليهم ، وهزموا المسلمين يوم « مؤتة » ليؤمننَّ حدود الجزيرة الشمالية، فقال في أصحابه قولته المشهورة: « لا هجرة بعد الفتح » ولكن جهاد ونية^(٦٥) « ولعل في مقابلة الجهاد بالهجرة ما يوحى بأنه فرض كفاية ، إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين ، وبخاصة بعد أن كثر عدد المسلمين بعد الفتح، ويفهم هذا أيضا من قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة^(٦٦) » وهذه الطائفة هي التي استكملت أسباب الجهاد وشروطه ، وتوفرت فيهم القوة المعنوية الدافعة ، ولذا كان أحدهم إذا تخلف عن الجهاد استأجر بدله أجيرا للقتال ، على شيء معين يدفعه له^(٦٧) ، وعلى هذا فالبدل الشخصى كان معمولاً به في الإسلام، كما كان معمولاً به في الجاهلية ، ثم عمل به أيضا في الدولة الأموية ، فقد جاء للحجاج رجل يقدم ولده عنه ، فقبل ذلك منه وأجازه .

ومع فرضية الجهاد كانت نيات المسلمين تختلف فيه، باختلاف قوة روحهم المعنوية ، ففي الوقت الذى نرى فيه بعض المسلمين يتخلفون عن الرسول ، نرى بعضهم يخرج معه في غزوة حمراء الأسد وهو مشغن بجراحات « أحد » في اليوم

(٦٤) سورة التوبة : آيات ٣٨ ، ٣٩ .

(٦٥) صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٣ .

(٦٦) سورة التوبة : آية ١٢٢ .

(٦٧) المصدر السابق ج ٥ ص ١٢٧ .

الثاني للمعركة، ونرى بيوتا بأسرها تخرج معه للقتال ، كأولاد عفراء السبعة الذين شهدوا بدرا واستشهد بها منهم ثلاثة^(٦٨) وكبيت نُسبية « التي خرجت مع الرسول يوم « أحد » مع زوجها وولديها ، وكبيت « عمرو بن الجموح » الذي خرج يومها رغم عرجه الذي يعفيه من الجهاد ، مع بنيه الأربعة ، الذين كانوا كالأسد يشهدون المشاهد مع « رسول الله » صلى الله عليه وسلم^(٦٩) .

وخلاصة القول أن التجنيد في عهد الرسول كان مبنيًا على الإلزام الأدبي لمستطيعه ، وكان جزاء المتخلف عنه مع قدرته ، الحرمان من المغنم الدنيوية والحرمان من الثواب الآخروي ، نتيجة لغضب الله وغضب رسوله ، الذي كان يكل أصحابه إلى درجة إيمانهم ، فما كان له أن يلزمهم وهم ينفقون من أموالهم الخاصة، ولكنه كان يغضب على الذين يثق فيهم ، فقد ظل زمنا واجدا على « المهاجر بن أمية » لتخلفه بلا عذر ، إلى أن استطاعت زوجته « أم سلمة » أن تأخذ له العفو منه .

أما الرجال السبعة الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، لتخلفهم عن الغزو ، والثلاثة الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، وعوقبوا بالمقاطعة التامة من المسلمين حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فهؤلاء جميعا وكل الرسول أمرهم إلى الله حتى تاب عليهم^(٧٠) ، وأغلب الظن أنه اتبع معهم هذا الإجراء التأديبي ؛ لأنهم جاهرُوا بتخلفهم بلا عذر ، وشاع أمرهم في الناس ، فلو تركوا بلا حساب لكانوا قدوة سيئة لغيرهم ، وإلا فقد جاء غيرهم فاعتذر له عن تخلفه وحلف فقبل منهم ، لأنه كان يقبل من الناس ظواهرهم ويكل السرائر إلى الله ، وكان يقبل من المنافقين عُدْرهم وهو يعرف كذبهم .

مما تقدم تظهر لنا المبالغة في قول بعض الباحثين ، مستندا إلى قصة الثلاثة المخلفين ، والسبعة الذين أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد ، « إن المتخلف عن الغزو ممن لا عذر لهم ، كان يعاقب بالغرامة والحبس^(٧١) » وقد أخذ الغرامة من قوله تعالى

(٦٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٥ .

(٦٩) نفس المصدر السابق ص ٢٤٩ وما بعدها . (السيرة الحلبية) .

(٧٠) اقرأ من التوبة آيات ١١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٧١) نظم الحرب في الإسلام - جمال الدين عياد ص ٧٦ .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وأخذ الحبس من مقاطعة المسلمين للخالفين حتى تاب الله عليهم ، ومن ربط بعض المتخلفين أنفسهم بسوارى المسجد (أعمدته) ، وهذا في الواقع تزكية للنفوس الطاهرة التي ترى جرمها كبيرا ، وليس حسباً يوجبه السلطان ، أما الصدقة فالمراد بها الزكاة التي كانت تؤخذ من الناس جميعاً ، ليعود فضل الغنى على الفقير ، فتتحقق الاشتراكية الإسلامية التي جاء بها الرسول .

ويغلب على الظن أن التجنيد أيام « أبي بكر » سار في الطريق الذي رسمه له « الرسول » عليه السلام ، فكان قائماً على مبدأ التطوع والانتداب ، المبني على نية الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وكان « أبو بكر » يجمع الجند إليه بالمدينة ، ثم يوزع منها القوات كما فعل في حروب الردة ، ويجعل على الألوية قادة أكفاء ، ثم يكل إلى القائد مهمة استنفار القبائل التي يمر بها ، فكان الجيش المنتصر يكثر أتباعه واللاحقون به ، لتيسر الجند بقائده ، وانشراحهم إلى القتال معه ، ولكنه ما كان يُلزم أحداً بقتال ، فقد كتب إلى قواده عند فتح العراق والشام « أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع ، ولا يستفتحوا بمتكاره ، وأن يستنفروا من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد الرسول ^(٧٢) » . وكان يهدف من ذلك إلى حرمان المرتدين من المغنم والأنفال ، وقد أفاد سلاحه هذا معهم ، فإن الناس تسابقوا في الخروج إلى الشام بعد وقعة « اليرموك » ، لما رأوا المغنم التي حصلها إخوانهم من دولة الروم التي كانوا يهابون قتالها ^(٧٣) .

٢ - التجنيد بعد وضع الديوان في عهد عمر :

تسلم « عمر بن الخطاب » زمام الخلافة ، وجيوش المسلمين ، تطوى أملاك الفرس ، وتجوس خلال الشام ، ووجد نفسه مقبلاً على عمل ضخم ، هو مواجهة الدولة الفارسية والدولة البيزنطية اللتين تنبهتا إلى خطر المسلمين ، فاتخذتا العدة للقضاء عليهم أو ردّهم عن بلادهم ، فكان بحاجة إلى جند كثيف يواجه هذه القوات ، ثم هو لا يطمئن إلى القبائل المرتدة ، فليجعل عماده على الأنصار والمهاجرين ،

(٧٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤ ، ٢٩ وعبرية خالد ص ١٦ .

(٧٣) فتوح الشام للواقدي ج ١ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

ومن أسلم من القبائل بعد الفتح ، ومن انضم إليهم من غير المرتدين ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا أول أمرهم يهابون الفرس والروم ؛ لأنهما الدولتان القويتان في العالم آنئذ ، وليس في قدرة الخليفة أن يلزمهم الخروج إلى وجه يستقلونه ، فقد ظلّ بعد وفاة « أبي بكر » يندب الناس للخروج إلى العراق مع « المثني بن حارثة » ثلاثة أيام فلم يجبه أحد ؛ لخوفهم من قوة الفرس التي قهرت الروم أمامهم ، وهنا رأينا يترك الإلزام والشدّة إلى التذكير بجذب البلاد العربية ، والإغراء بالنبيء حيث يقول (٧٤) : « إن الحجاز ليست لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك » .

وقد سلك « المثني » طريق الترغيب أيضا كما سلكه « عمر » فإنه لما لمس تقاعس الناس خشية الفرس ، قام يهون لهم أمرهم ، ويحرك فيهم الرغبة في المال فقال : « أيها الناس : لا يعظّمن عليكم هذا الوجه ، فإننا قد تبجبحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها (٧٥) » . ثم أخذ الخليفة يخطبهم ، ويدكرهم بنعيم الله ووعده لهم في قوله : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ؛ فاستجاب إلى دعوته في اليوم الرابع « أبو عبيد بن مسعود الثقفي » فكان أول متطوع فولاه « عمر » قيادة القوات ، ثم تلاحق به الناس بعد ذلك تباعا ، وساروا معه إلى العراق .

تعلم « عمر » من هذا الدرس الذى صادفه أول خلافته ، أن التجنيد بحاجة إلى شئ من الحزم والتنظيم ؛ ولذا رأينا يشدد في ذلك ، لما علم باجتماع الفرس على « يزديجرد » واستعدادهم للقاء المسلمين ، فأرسل كتبه للأقاليم فيها شئ من الشدة فيقول : « ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا حلفائها أحدا من أهل النجدة ولا فارسا إلا جلبتموه ، فإن جاء طائعا ولا حشرتموه (٧٦) » . وتجري بعض روايات الطبرى بأنه كتب لقواده : « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى » ، والعجل العجل » . فنحن نراه هنا يستعجل الولاة أن يرسلوا أهل

(٧٤) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ والفاروق عمر لهيكل الطبعة الأولى ص ص

٩٦ ، ٩٧ .

(٧٥) نفس المرجع ج ٤ ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٧٦) نفس المصدر ج ٤ ص ٨٢ .

النجدة فإن أطاعوا وإلا ألزمهم ، وكذلك فعل في جمع الجند الذين أرسلهم إلى « سعد » قبل « القادسية »^(٧٧) ، فنحن نراه هنا يمزج أوامره بالشدة ، ويدقق في جمع المقاتلين .

ثم صار بعد ذلك يُضفى على كتبه صيغة الأوامر التي يجب تنفيذها، فرأيناه يكتب إلى الأمصار بجمع أعداد معينة ، ويؤمر عليهم قائدا بذاته، ويوجههم إلى مكان يسميه لهم وهو بالمدينة، ويدير دفعة القيادة العليا من مقر الخلافة بالرسول والأوامر^(٧٨) ، ولكن هذا الإلزام لم يكن عاما في عهده، فإن بعض القبائل كان سلطان المال عليها نافذا ، فكان « عمر » يشبع فيها تلك الرغبة ، فقد جاءه « جرير البجلي » في قبيلته « بجيلة » يريد الخروج ليقاتل الروم بالشام، وعمر يطلب منه الخروج للعراق ، فتحاورا طويلا ، ثم قبل جرير طلب الخليفة، بشرط أن يجعل لهم ربع الخمس مما أفاء الله عليهم في غزاتهم هذه ، فقبل « عمر » شرطه ونفذه^(٧٩) ، علما منه بأن إغراء المغانم شئ طبيعي في نفس البدوي ، كما علم ذلك فيها « خالد بن الوليد » فاستغله أحسن استغلال، وحرّضهم بسببه على القتال في قولته المشهورة : « ألا ترون إلى الطعام كرفخ التراب^(٨٠) ؟ » التي أطمعهم بها في ريف العراق، وذكرهم بالجوع والإقلال الذي هم فيه .

وأغلب الظن أن الخليفة فكر وأطال التفكير ، في تثاقل الناس عن الجهاد فعلم أن ذلك لاشتغالهم بكسب المال وتدبير سبل المعاش ، ثم إنه رأى الأموال تأتيه تباعا من أخماس المغانم ، ومن الجزية والحراج شرقا وغربا ، وهي من الكثرة بحيث كانت توضع أكواما في مسجد الرسول، وينام حولها الحراس حتى يأتي ويقسمها ، فلم لا يضمن للناس عيشة راضية من هذه الأموال ، ثم يلزمهم بعد ذلك الجهاد عند الحاجة ؟

وضع « عمر » الديوان بعد أن مضى من خلافته عامان ، لمس فيهما عيوب

(٧٧) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٩٠ .

(٧٨) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٩ .

(٨٩) المصدر نفسه ج ٤ ص ٧٠ ، ٧٧ .

(٨٠) المصدر نفسه ج ٤ ص ٩ .

التطوع والانتداب ، والديوان كما عرّفه « ابن خلدون »^(٨١) « هو القيام على أعمال الجبايات ، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج ، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم ، وصرف أعطياتهم في إبتائهم ، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قوّة تلك الأعمال ، وقهارة الدولة » .

وسواء أكان « عمر » في هذا مقلداً للفرس أم مقلداً الروم ، فإنه نظم الديوان وأراد أن يضمن للمسلمين رزقهم ورزق عيالهم سنوياً ؛ ليخفوا للجهاد إذا طُلبوا إليه ، غير حاملين أعباء من وراءهم ، فكتب أسماء المسلمين جميعاً في دفاتر ، ورتب لهم فيها أرزاقهم السنوية ، وجعلهم مرتبين حسب قرابتهم من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والسبق في الإسلام ، والبلاء في الجهاد ، وجعل الأرزاق السنوية تتراوح بين خمسة آلاف درهم وألف درهم^(٨٢) ، وأفرد للجند دفاتر خاصة ، تسمى (ديوان الجند) يدون فيها اسم الجندى مع نسبه وقبيلته ، وبيان قدّه ولونه وملاحمه ، وسائر ما يتميز به عن غيره ؛ لئلا تتفق الأسماء وليسهل استدعاؤه^(٨٣) ، فكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ، وراتب لأهله وولده ، في أوقات معينة من كل عام^(٨٤) وما دام المسلم قد ضمن عطاءه وعطاء أهله ، فقد لزمه الجهاد إذا دعى إليه واستوفى شروطه ، وليس هذا بمستغرب على عمر ، فقد كان يصنع نفس الصنيع بإبل الزكاة بعد جمعها ، فيدونها في دفاتر خاصة بألوانها وصفاتها وأسمائها^(٨٥) .

ومن هنا نعلم أن التجنيد الإلزامي بدأ بوضع « عمر للديوان » لا في عهد « عبد الملك بن مروان » كما يقرر الأستاذ « جرجى زيدان »^(٨٦) مستدلاً بشدة الحجاج على أهل الكوفة ، في الخروج مع « المهلب » لمحاربة الخوارج ، وسيأتى تفصيل ذلك ، مؤيداً بالأدلة التاريخية قريباً .

(٨١) المقدمة طبعة المهدى ص ٢٠٤ وحضارة العرب لجوستاف لوبون ص ١٩١ .

(٨٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٢ ، ٦٣ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢١٢ وحضارة

العرب لجوستاف لوبون ص ١٦٩ .

(٨٣) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان ج ١ ص ١٤٢ .

(٨٤) الجندية لثابت ص ٨٦ و ٨٧ .

(٨٥) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٣ .

٣ - الجند النظاميون والمتطوعون :

عمد الخليفة « عمر » إلى تنظيم الجيش الإسلامي ، لما كثر الناس واضطرتهم المدنية إلى الاشتغال بغير الجهاد ، فقسمه على الوجه الآتي :

١ - الجنود النظاميون ولهم ديوان خاص ، ويصرف لهم عطاؤهم من بيت المال ، فوق أسهمهم من المغنم ، وهؤلاء كانوا موقوفين للجهاد لا يشتغلون بغيره من تجارة أو زراعة أو غيرها ، وإن فعلوا ذلك عوقبوا .

٢ - المتطوعون الذين يلحقون بالجيش من البوادي والأمصار ، والبلاد المفتوحة وهؤلاء كانوا يجندون وقت الحرب ويسرحون وقت السلم ، وحظهم من الجهاد هي سهمانهم فقط ، ولا يمنعهم الخليفة من زراعة الأرض ، أو الاشتغال بأي حرفة أخرى ، وكذلك كان عبيدهم وأتباعهم .

وهذا يفسر لنا تعارض النصوص الواردة في هذا الموضوع ، فمرة نرى الخليفة يبيح الزراعة للجند ، وأخرى نراه ينهاهم عنها ، ويعاقب من يشتغل بها^(٨٨) ، فقد علمنا أنه كان يحرمها على النظاميين ، ويبيحها للمتطوعين .

وإذا علمنا أن الذي كان يتخلف عن الغزو زمن « عمر » كان يناله العقاب ، علمنا أن التجنيد في عهده كان إلزامياً ، فقد روى « ابن الأثير »^(٨٩) عن الشعبي قوله : « كان الرجل إذا أخلّ بوجهه الذي يكتب له زمن « عمر وعثمان وعلي » نُزعت عمامته ، ويُقام في الناس ويُشهر أمره » . وهذا العمل عند الحر الكريم عقاب صارم ، وراذع قوى ، دونه السجن والإيذاء .

سار التجنيد والتنظيم زمن « عثمان » في الطريق الذي رسمه له « عمر » ، فلم يطرأ عليه تغير يذكر ، بل لا يكاد المرء يجد تغيراً فيه ، نظراً لتقدم سن الخليفة ، وميله إلى النعيم بطبعه ، وانشغاله بالفتن الأهلية التي عمت في السنوات الست الأخيرة من

(٨٦) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٤٢ ومواضع أخرى .

(٨٨) انظر أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ص ٣١٦ ، ١٧ ، وتاريخ التمدن الإسلامي

ج ١ ص ١٣٣ .

(٨٩) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٥٨ ، وليس المقصود بالإلزام ضريبة الدم ، التي يقدمها

كل وطني ، وإنما هو وجوب التلبية على المرء ، إذا دعى للجهاد أو كلف بعض الواجبات الحربية .

حكمه ، أما فون كريم فقد علل ذلك بأن مدة حكمه كانت قصيرة جدا^(٩١) ، والواقع أنها زادت عن مدة سيدنا عمر ، إذ بلغت ثلاثة عشر عاما تقريبا ، فكيف تكون قصيرة جدا ؟

ظلت الفتوح بعد عمر مدفوعة بدفعته ، وظل الديوان خاضعا لنظامه . . فإذا أراد القائد الخروج للقتال أحضر دفاتر « الديوان » ، فاختر منها المعروفين بالنجدة ، أو أقرع بينهم فيصرون ملزمين بالخروج معه ، ولا محل لاختيارهم ، يفهم هذا من قول « عثمان » رضى الله عنه « لمعاوية » لما أذن له في الغزو بحرا بعد إلحاح منه : « لا تنتخب الناس ولا تُقرع بينهم ، خيّرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه وكان يعاقب في زمن عثمان من يخلّ بوجهه ، كما كان الأمر زمن « عمر » وظل التجنيد إلزاميا على المرتزقة ، إلى أن أصيب بنكبة الحروب الأهلية بين « على ومعاوية » ، وكانت فتنة عمياء التبس فيها الحق بالباطل ، وكان الجند كذلك قد استنفدوا كثيرا من نشاطهم ، في فتوح فارس والروم ، ففقد كثير من الناس عن هذه الحرب ، وفترت في الجند روح الجندية ، ولزم الكثير منهم أعمالهم ، غير منحاز إلى أحد الفريقين ، الا عصبية أو رجاء لنفع سياسى ، وكان في قعود جلة أصحاب الرسول عنها ، أكبر دافع لغيرهم على القعود كذلك ، خائفين قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها . . . الآية » .

لقد كانت هذه الحرب الأهلية جرحا داميا ، أصاب قلب الجندية الإسلامية فيها فترت في الجند الحماسة للقتال ، لعدم إيمانهم بعدالة القضية التي يحاربون في سبيلها ، ولعدم وضوح مشروعيتهما في نظرهم ، حتى لقد قاسى « على ومعاوية » مصاعبَ جمة في جمع الجنود فهذا ابن عباس يستنفر أهل البصرة مع « على » فلا ينفر إلا القليل منهم^(٩٢) ، مع أنه كان الوالى عليها ، ولما بلغ عليا مقتل « محمد بن أبى بكر » بمصر خطب الناس وحضهم على الخروج لأعدائهم من الشاميين والمصريين ، فلم يخرج معه أحد^(٩٣) ، وتكرر منهم ذلك حتى تأفف منهم ، وسم

(٩٠) الشرق في حكم الخلفاء ص ٣٠٤ .

(٩١) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٥٢ .

(٩٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٤٧ .

(٩٣) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة دار الكتب ج ١ ص ١١١ .

عتابهم ، وملّ حسابهم ، كما تنطبق به خطبه في نهج البلاغة .
وكذلك كانت الحال في معسكر معاوية ، إلا أنه استغلّ سياسته حب المال في النفوس ، فبذله مسترضيا به أنصاره ، مستميلا به أعداءه ، وقرب إليه زعماءهم يحقق لهم الرغبات ، ويمنّهم بالولايات^(٩٤) ، وشجع العصبية القبلية فجعل الحرب بينه وبين « على » حربا إقليمية بين عرب الشام وعرب العراق ، وأفاض الأموال على عرب الجنوب ، الذين أخذوا على عاتقهم أن يجمعوا له ألئى فارس ، بشرط أن يدفع لكل منهم ألئى درهم سنويا ، وأن يكون لشيخهم حق إدارة شئونهم « وعلى أن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس ، وكل ما كان من حلّ وعقد فعن رأى منهم ومشورة^(٩٥) » ومضى العمل بهذه الشروط في عهد « يزيد بن معاوية » ورضى بها « مروان الأول » عند ولايته ، مما يشعر بأن التجنيد أصبح اختياريا ، بل إنه كان في هذه الفترة يشتري بالمال .

٤ - التجنيد في الدولة الأموية :

فقد التجنيد عنصر الإلزام أو كاد بهذه النكسة التي سببتها الحروب الأهلية ، وصار المال أداة التجنيد في الدولة الأموية ، وارتفع صوت الذهب فوق كل صوت ، فكان الخليفة تكثر أجناده أو تقل ، تبعا لكثرة المال في خزائنه أو قلته ، وكذلك كانت الحال عند العلويين وعند الزبيريين ، وكذلك عند الخوارج^(٩٦) ، واختل نظام التجنيد ، وأصبح يندمج في المقاتلة من يرجو كسر الحراج ، ومن يرجو السلب من اللصوص^(٩٧) ، وصار الخلفاء يسترضون الجند بصرف الأموال لهم مقدما^(٩٨) ، وعزل من يطلبون عزله من الولاة ، فقد عزل « عبد الله بن الزبير » عن البصرة أخاه « مصعبا » لشكوى الجند منه ، إبقاء على مودتهم^(٩٩) وولائهم له .

(٩٤) تاريخ ج ٥ ص ٢٢٨ الطبرى .

(٩٥) المسعودى . مروج الذهب طبعة المطبعة التجارية ج ٣ ص ٩٥ . والشرق في حكم

الخلفاء « كريم » ترجمة خودا بخش للإنجليزية ص ٣١٧ ، ١٨ .

(٩٦) الكامل للمبرد طبعة مصطفى محمد ج ٣ ص ١٢٠ .

(٩٧) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٥٩ .

(٩٨) نفس المرجع ج ٤ ص ٤٨ .

(٩٩) الأغاني طبعة الساسى ج ١٤ ص ١٦٣ والشرق في حكم الخلفاء ص ٣١٩ . قارنه بما

ورد في الكامل ج ٥ ص ٢٩ ، ٣٠ والأغاني ج ١٥ ص ١٨ .

ولم تقف روح التهرب من الجندية عند حد ، نظرا لكثرة الأحزاب السياسية فسرت عدواها إلى الأمصار حتى إلى « البصرة والكوفة » وهما المعسكران اللذان كانا مصدر المدد الحربي للمسلمين ، ومنهما اتجهت الجيوش شرقا حتى اقتحمت على الفرس عاصمتهم ، ووطدت قدم الإسلام فيما وراء النهر إلى حدود الصين ، حتى بلغ عدد الجند في « خراسان » وحدها أيام « قتيبة بن مسلم » سبعة وأربعين ألفا كما في رواية « ابن الأثير ^(١٠٠) » ، عدا ما كان في غيرها من المقاطعات الفارسية .

نسى أهل المصرين تلك الأيام ، التي كانت تدفعهم فيها الرغبة في الجهاد ، فلما توافرت لديهم أسباب الثراء ، وألفوا الدعة في ظلال القصور ، ثقلت عليهم الجندية ، ونمت فيهم الرغبة في التهرب منها ، مما جعل الحاكم الحازم « عبد الملك بن مروان » يؤلف جماعة سماها « الساقة » واستعمل عليهم « الحجاج بن يوسف » ومهمتهم أن يحشدوا الناس على أثره ، خشية أن يقيموا ^(١٠١) إذا ظعن ، فأحرقوا خيام المتخلفين في بعض أسفار عبد الملك ، ومنهم بعض خاصته .

ولقد بلغ من تقاعسهم عن الجهاد ، أنهم لم يحملوا السلاح في وجه الخوارج ، دفاعا عن ديارهم المهددة بهم ، فكان « بشر بن مروان » أيام ولايته على البصرة يلزمهم الخروج للدفاع ، وكان يعاقب المتخلف بصلبه على حائط ودق المسامير في أطرافه ^(١٠٢) ، فلما مات تفرق ناس كثيرون عن « المهلب » ، وتسلبوا عائدين إلى بيوتهم ليلا ، فلما ولي « الحجاج » الكوفة عام ٧٥ هـ ، ٦٩٥ م ألزم الناس الخروج لحرب الأزارقة بيد من حديد ، واستمهلهم ثلاثة أيام ، وتوعد الخالف منهم بضرب عنقه ، وأنفذ وعيده فعلا بقتل واحد منهم أخاف به العراق كله ^(١٠٣) ، فخفف الناس للخروج سراعا ، وكثروا حتى ازدحموا على الجسر ، وسقط بعضهم في الفرات ،

(١٠٠) الكامل ج ٥ ص ٦ .

(١٠١) ابن خلدون في المقدمة ص ٢٢٤ .

(١٠٢) الكامل لأبن الأثير ج ٤ ص ١٥٨ .

(١٠٣) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٣٨ ، ٣٩ ، وفيها أن شيخاً فانياً أتى الحجاج ليأخذ

ولده مكانه ، فلما علم أنه أحد قتلة عثمان ، قال له : تقتل عثمان بنفسك ، وتأتي للخوارج بالبلاء ؟ ! ثم قتله إرهاباً لغيره .

فأمر صاحب الجسر بأن يعقد لهم جسرا آخر ، ليسهل مرورهم جميعا، وانطلق الناس إلى « المهلب » على أن يُحضر « العرفاء » كتباً موقعة منه ، تفيد حضور الناس الذين في عرافاتهم ، وبذلك تبرأ ذمتهم عند « الحجاج » الذي عُرف بالقسوة في العقاب ، فكان العريف لا يهدأ حتى يسلم الناس الذين في عرافته ، ويوقع له المهلب بالاستلام .

ولعل موقف « الحجاج » هذا من التجنيد هو الذي جعل الأستاذ « زيدان » يقرر أن التجنيد الإجباري بدأ في أواسط الدولة الأموية ، وفي خلافة « عبد الملك بن مروان » بالذات .

وقد استبان لنا أول هذا القسم ، أن إلزامية التجنيد بدأت في عهد الخليفة المبتكر « عمر بن الخطاب » وما صنع « الحجاج » شيئا أكثر من الشدة في تنفيذ ذلك النظام العمرى، بعد أن أهمل تنفيذه أو كاد ، وإلا فقد صنع ما يقرب من صنعه ناس من قبله، ولم ينسب أحد الإلزام إليهم ، وكانوا أولى بهذه النسبة منه ، فقد كان « مصعب ابن الزبير » بالعراق « يعاقب المتخلف الملزم بعقاب « عمر وعثمان » فينزِع عمامته ، ويشهرُّ به في الناس ، وزاد على ذلك حلق رأسه ولحيته ، فلما ولى « بشر بن مروان » صار يصلبه كما مر آنفا ، فلما ولى « الحجاج » قال : « هذا لعب . اضرب عنق من يخلّ بمكانه من الثغر^(١٠٤) » .

على أن « الحجاج » ما ذهب للعراق للتجنيد العادي ، ولكنه ذهب لإعلان التعبئة العامة كما في الاصطلاح الحديث ، فإن هجوم الحوارج على العراق كان يتطلب الحشد العام ، ومثلهم في ذلك مثل النار المشتعلة التي إن تركت أكلت ما في طريقها ، فيجب لإخمادها أن تتضافر كل القوى الممكنة على العمل جنبا إلى جنب لكفاحهما؛ ولذا رأينا « الحجاج » يقول لهم : « سيروا بأجمعكم كافة ، فانصرف الناس يتجهزون^(١٠٥) » . لأن الظروف قاسية، والخطر داهم لأهل العراق بالذات ، وإن لم يدفعه عنه أهله فمن الذي يدفع ؟ فما كان « الحجاج » إلا عاملا على تنفيذ قانون أهمل ، ومكلفا من الخليفة بعقاب المخالفين ، فقام بذلك خير قيام، غير مبالٍ

(١٠٤) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٥٨ ، والمراد بالثغور المواقع التي على حدود الأعداء .

(١٠٥) نفس المصدر ص ١٧٤ .

ما أريق في سبيله من دماء ، وما نزل بالناس من مظالم ، وكلنا يعرف أن التجنيد الإلزامي ، ليس فيه « سيرو بأجمعكم كافة » وإنما يقال ذلك عند الحشد العام ، للدفاع عن الوطن المهدد ، ولا يقال في التجنيد المعتاد .

٥ - التجنيد في الدولة العباسية :

أما التجنيد في الدولة العباسية فقد كان خاضعا للمال ؛ حيث صارت الجندية مهنة « مُرَبَّحَة ، وكان الجند يترقبون المرتبات ، فإن سُلِّمَتْ لهم في أبنائها وإلا شَغَبُوا على مَنْ أَخَّرَهَا ، وربما قتلوه ، كما كانوا لجشعهم ينتهزون أدنى المناسبات للمطالبة بالمال ، والشطط في ذلك إلى حد المطالبة بثلاث سنين مقدما أو أكثر (١٠٦) ، فلما كثر المال في أيديهم شاع الترف ، وشيوع الترف مفسدة للجند ، وقتل لروح الجندية ، فألف كثير من الناس اتخاذ المخاصر بدل السيوف ، وخضاب الأكف بالحناء بدل الدماء (١٠٧) ، وزالت تقريبا عن العباسيين الصبغة العربية الخالصة ، فضعف في النفوس الشعور القومي ، والشعور الوطني ، فتهرب الناس من الجندية ، ولم يجدوا من يلزمهم بها .

وقد عرف الخلفاء أنهم لن يخضعوا الجند إلا بالمال ، فأشبعوا فيهم تلك الرغبة ، وشجعوا القادة على جمع المال ، بأن كانوا يسندون إليهم جمع الخراج في الأقاليم التي يغلبون عليها ، فكانت النتيجة عكسية ؛ لأنهم شغلوا بأمر المال عن أمر الجند والحرب ، ولذا عاب هذا النظام « ابن المقفع (١٠٨) » في رسالته إلى « أبي جعفر المنصور » فقال له فيها : « إن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » مع أنه رجل فارسي يحب النفع لقومه ، ولكنه كان يرجو إصلاح الجند بوجه عام ، وإذا شاع هذا الفساد في أيام المنصور ، فما ظنك به بعد ذلك .

ولا أدل على فساد نظام الجند بسبب المال ، من أن الخليفة الأمين « طلب إلى بعض قواده الخروج لملاقاة قائد أخيه « المأمون » في الحرب التي كانت بينهما

(١٠٦) الكامل ج ٥ . ص ٣١ .

(١٠٧) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٩٩ طبعة دار الكتب (والمخاصر العصى القصيرة) .

(١٠٨) الرسالة بطولها في ضحى الإسلام الطبعة الثانية للأستاذ أحمد أمين ج ١ ص ٢٠٦ وما

بعدها إلى ٢١٠ ، والجندية لثابت ص ص ١٠٨ ، ٩ ، ١٠ .

فاشترط هذا عليه قبل الخروج شروطا قاسية متطرفة ، منها أن يأمر لأصحابه برزق سنة مقدّما ، وتُحْمَل معهم أرزاق سنة أخرى ، ويزاد أهل البلاء ، وأن يبدّل من فيهم من الضعفاء ، وأن يكون فيهم ألف فارس ، وفي النهاية اشترط ألا يسأله الخليفة عن حساب ما فتحه من المدن والأقاليم^(١٠٩) ، وهذا تعسف ما بعده تعسف ولكن الغريب أن الأمين قبل شروطه .

ولعل الإنسان بعد هذا يزايله العجب ، إذا علم أن السبب في هذا الفساد هي الحروب الأهلية بين الأخوين « الأمين والمأمون » « فهي التي أضعفت روح الجندية ، وجعلت الجنود يبيعون دماءهم بأثمان باهظة ، لمن يقدر على دفعها ، وينحازون إلى صف من يكثر لهم العطاء ؛ وبذا فسدت أخلاقهم ، وضعفت فيهم الروح الوطنية ، وانهار النظام الذي وضعه « الفاروق عمر » ولم يبق منه إلا شكل الديوان ، تدوّن فيه الأسماء لأخذ العطاء ، إلى أن أبطل فعلا في عهد « المعتصم » الذي أمر بحذف أسماء العرب من الديوان ، ووقف رواتبهم ، لعدم خضوعهم لنظام التجنيد ، وأحل محلهم أخواله الأتراك والفراغنة ، الذين جعلهم حراسه الأمناء ، ومستشاريه الأوفياء ، فتم على أيديهم تقويض البناء العباسي ، بتدخلهم في شئون الحكم ، ووضع يدهم على السلطة كلها ، حتى صار لهم أخيرا عزل الخليفة وتولية غيره ، كلما أرادوا ذلك .

القسم الثالث

الجيش الإسلامي الدائم وتنظيمه

يعالج هذا القسم نقطة « الجيش الإسلامي الثابت » لبيان وجه الحق فيها ، وتوضيح ما إذا كان لهم جيش مستعد للجهاد ، أو كان يجمع عند الحرب ثم يتفرق ، كما يعالج التقسيمات الثابتة للوحدات والكثائب ، ومقارنة ذلك بنظيره عند الفرس والروم ، وأخيرا يعالج الوحدات المدنية التي تلحق بالجيش ، كطوائف المهندسين والعمال ، والأطباء والمرضات والقراء والقصاص ؛ لبيان مهمة كل طائفة منها .

(١٠٩) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٩١ قارنه بما ورد في ص ٩٧ ، ١٠٩ .

١ - الجيش الدائم وحرس الخلفاء :

لقد تعرّض لبحث هذه النقطة دكتور « أومان » عند حديثه عن العرب فزعم أنهم « لم يتمكنوا من تجنيد جيش ثابت مُعدّ للجهاد ، ولم يعرفوا مزايا التدريبات والتنظيمات العسكرية ، وإنما كان حرس الخلفاء هو الجيش المعد للجهاد ، وباقي الجيش كان يتألف من أخلّاط أخرى تبغى الجهاد لأجل المغنم ، أو من جنود الأقاليم والأمصار^(١) ». وقد تعرض لها أيضا المؤرخ « جوستاف لوبون^(٢) » عندما قال : « والخليفة كملوك ذلك العصر لم يكن صاحب جيش دائم ، وكانت تقوم بالمحافظة عليه كتيبة قليلة من الحراس ، وإن كان يستطيع أن يجند كل شخص قادر على حمل السلاح من رعاياه » .

أما حرس الخلفاء فلم نسمع به إلا في عهد « معاوية بن أبي سفيان » فهو أول من اتخذ الحرس بعد المؤامرة التي دبّرت لاغتياله ، ثم اتخذه بعد ذلك خلفاء الدولتين ، وتوسعوا فيه كثيرا ، وكانوا يعدونه بعض الجيش ، ولكنه المكلف بإخماد الثورات ضد الخليفة ، لأنه يمتاز بالإخلاص له .

وأما الأمر الذي يصعب تصوره ، فهو وجود دولة واسعة الأملاك بدون جيش ثابت يحميها ، ويقمع الثورات في البلاد المفتوحة ، وقد استبان من القسم الثاني أن « الخليفة عمر » أول من وضع نظام التجنيد الإجباري ، ونظمه تنظما دقيقا ، وجعل للجنّد النظاميين مرتبات ثابتة ، ونظم خروجهم للحروب وعودتهم منها للراحة ، أما المتطوعون فهم الذين كانوا يخرجون للقتال جهادا في سبيل الله ، أو طلبا للمغنم ، ثم يتفرقون إلى بلادهم إذا حل الشتاء ، ولعل هؤلاء هم الذين يعنيهم المؤرخان « لوبون وأومان » ولا أدري لماذا سكّتا عن الجند النظامي ؟ مع أنهما يعترفان — كما يعترف معظم الباحثين — بأن العرب اعتادوا أن يقيموا في البلاد التي يفتحونها مراكز حربية ثابتة ، في التحوم المهمة التي تجب حمايتها ، وأهم من وضحو ذلك هو « دكتور كريم » في كتابه « الشرق في حكم الخلفاء^(٣) » فقد ذكر أن العرب كانوا يقيمون

(١) A History of the Art of War. p. 209.

(٢) حضارة العرب تعريب « زعير » ص ٢٩٥ .

(٣) ترجمة للإنجليزية « خودا بخش » ص ٣٠٦ وما بعدها إلى ٣١٣ .

فى هذه المراكز عددا كبيرا من الفاتحين ، ومعهم أسرهم ؛ يصرف لهم بها عطاؤهم السنوى ، ويتوارثون الرباط بها ، وذكر أن « الخليفة عمر » أقام فى الشام أربعة مراكز حربية ، وأنه أقام فى « مصر » مركز الفسطاط وزود « الإسكندرية » بحامية قوية ، كثيرا ما كان يُستبدل بها غيرها ، بين الوقت والوقت .

على أنه كان هناك مركزان آخران ، أهم مما تقدم ، وهما « البصرة والكوفة » وهما المعسكران اللذان فتحا بلاد الفرس بقواتهما ، فلم أقيمت هذه المعسكرات إذن ؟ هل أقيمت عبثا بلا هدف حربى يرجى منها ؟ !

إنها أقيمت فى مواقع استراتيجية مهمة ، على أبواب الطرق المؤدية للبلاد المفتوحة ، لتكون مقرا للقوات المحاربة الثابتة ، التى يتألف من مجموعها الجيش الإسلامى ، يراقبهم الخليفة ويبث فيهم عيونه فيأتونه بأخبارهم ، وكان يشترط فى هذه المعسكرات ألا تُفصل عنه بالمياه ؛ ليتمكن من زيارتها أنى شاء ، وليرى مدى استعدادها لمواجهة الأعداء ، وتحكّمها فى الطرق المؤدية لداخل البلاد .

هذا وقد روى « ابن جرير^(٤) » أن « عمر » كان قد اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا ، من فضول أموال المسلمين ، وعدة لكون إن كان ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فارس ، وكان فى كل مصر من الأمصار الثمانية كما بالكوفة ، وذكر الغرض من هذه القوات ، وهو أنه كان على كل خيل قيم (قائد) يتقدم لنجدة المسلمين بها ، إذا نابتهم نائبة ، إلى أن يستعد الناس ويلحقوا بهم ، ثم تتوالى الإمدادات بعدهم .

وإذا كانت المعسكرات الحربية فى عهد « عمر » ثمانية عند « الطبرى » وكان بكل معسكر أربعة آلاف فارس معدين للطوارئ ، استطعنا أن نقدّر قوة الحياالة المربطة باثنين وثلاثين ألفا ، عدا المشاة والمتطوعة ، وهى قوة ضخمة يصح أن تسمى جيشا ثابتا معدا للدفاع ، ولذا حرّم عليهم الخليفة الاشتغال بالزراعة عن الجهاد .

ثم إن هذه القوات كانت تقوم بتمريناتها الدائمة ، عن طريق المسابقة والتناضل

(٤) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٩٦ وتواليها .

بالسهام والقيام بالصوائف والشواتي^(٥) وقد خصص الخليفة لتلك الحيلول « حمى^(٦) » في كل مصر، موقوفا لرعيها وتمرياتها، لا يتخطاه أحد من الجند؛ إلا المشرفون عليها . وكان القواد يسلحون جندهم في هذه المعسكرات ، ويقومون بعرضهم في فترات متباعدة، فمن رأوا منه تقصيرا في سلاحه ، أو إهمالا لفرسه ، أنقصوا من عطائه عقابا له^(٧)، فإذا تجاوزنا هؤلاء الفرسان، وجدنا أنه كان يقيم بالكوفة عشرون ألفا من عرب الجنوب والشمال ، إلى جانب بضعة آلاف من الفرس الذين هزموا في القادسية وأسلموا ، فأدرجت أسماؤهم في الديوان ، وكان « عمر » يرسل إليهم أرزاقهم سنويا^(٨) ، فزاد عدد الجند بهم .

ولقد كان الفاروق « عمر » يريد بهذه المعسكرات — فوق ما تقدم من نجدة المسلمين وإعانتهم — أن يحافظ على نقاء الجندى العربى^(٩) بحفظه بعيدا عن جند الفرس والروم ومدنهم ، حتى لا تفسد أخلاق العرب وتسوء سمعتهم ، ولذا كان يبيح لهم استصحاب نسائهم ؛ ليُعصموا بها عن الدنو من قرى أهل الذمة ، وكان يعاقب من يدنومنها بلا إذن، أو يرزأ بعض أهلها بعض متاعه بيعا أو شراء ، كما كان يهدف إلى المحافظة على صحة الجند ، خشية تفشى الأمراض^(١٠) فيهم نتيجة الترف ، لأنه كان يعتقد أن العربى لا يصلح إلا حيث يصلح جملة ، فى الجو الصحراوى النقى ، الذى لم تفسده مظاهر المدنية والتحضر .

أفيحق بعد هذا كله أن ننكر أنه كان لدى المسلمين جيش ثابت ؟ وإذا كان تفريق هذا الجيش على المعسكرات ينبنى عنه صفته ، فلنا أن ننكر وجود جيش ثابت للدولة البيزنطية ، لأنها كانت تفرقه على حصونها العدة « كالمصيصة وطرسوس وأدنة وحمص ودمشق ومصر » وغيرها من المدن ، وحق لنا أيضا أن ننكر وجود جيش ثابت للدولة البريطانية ، لأنها تفرقه على أنحاء العالم، ولا يوجد فى جزرها

(٥) الحملات التى يقوم بها الجيش صيفاً أو شتاء وكانت تسمى زمن (عمر) المدارب جمع مدربة .

(٦) انظر الجندية لثابت ص ٢٥ نقلا عن « خلاصة الوفاء للسمهورى » .

(٧) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٣٠ ، ١٨٢ .

(٨) Orient under the Caliphs. p. 309.

(٩) تاريخ العرب (حتى) — (نافع) الطبعة الثانية ج ١ ص ٧٥ والجندية لثابت ص ٢٨ ، ٢٩

(١٠) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٤ ، والجندية لثابت ص ٢٧ .

منه إلا القليل ، فهذه الجيوش تشبه الجيش العربي تماما، أيام أن كان منتشرا في البلاد المفتوحة .

ولقد أظهرت الأيام والحوادث صدق نظر الفاروق في اختيار هذه المواقع لجنده ، فمنها كان يرسل القوات الإسلامية إلى بلاد الفرس ، وينظم حركاتها وهو مقيم بالمدينة^(١١) ، وقد أثنى على أهل الكوفة خيرا ، لحماية حوزتهم وإمداد غيرهم من الأمصار^(١٢) ، وقد ظلت هي و «البصرة» حتى نهاية العهد الأموي أهم مصادر المدد الحربي، للإمبراطورية الإسلامية، فمنهما كانت تتألف معظم قوات «خراسان» أيام الخليفة «سليمان بن عبد الملك» و «هشام ابن عبد الملك»^(١٣) ومن بعدهما .

وإذا لم يكن للمسلمين جيش دائم فلم كان التجنيد إذن ؟ ولم كانت تدون أسماء الجند في الديوان ، وتصرف لهم المرتبات الشهرية ؟ وماذا نسمى القوات التي أسست هذه الإمبراطورية الضخمة ، وتغلبت على جيوش الدولتين الفارسية والبيزنطية ؟ الحق أنهم كانوا يحتفظون بالجيش الدائم ، ويراقبون تمريناته ويستعرضون قواته ، ولا يعنى عدم وجوده ، أنه كان يوزع على الأقاليم والثغور للرباط بها والمحافظة عليها، فقد كان لدى الخليفة «المنصور» من الجند ١٢٠ ألفا مفرقين في الأقاليم ، حتى لقد ندم يوما على ذلك^(١٤) لما ثار عليه بعض الناس، وفي عسكره الخاص ألف جندي فقط ، وهي قوة لا تكفى لصد أى هجوم مفاجئ ، فأدرك غلطته، وعزم على ألا يعود لمثلها، وكذا كان جيش «المأمون» بالعراق يتألف من ١٢٥ ألفا^(١٥)، له وحداته وقواده ، مفرقين على المدن والأقاليم المختلفة .

ب - النظام الدائم لكتائب الجيش :

الجيوش في كل دولة لا يستقيم أمرها ، ولا تنجح في تحقيق أهدافها، إلا بدقة تنظيمها ، وتقسيمها إلى وحدات صغيرة يسهل الإشراف عليها ، فوحدات تليها

(١١) فتوح البلدان للبلاذري طبعة أوربا ص ٣٠٢ .

(١٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٩٦ .

(١٣) الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٦٧ ، ١٢٥ .

(١٤) نفس المرجع ص ص ٢٢٨ ، ٢٩ .

(١٥) Orient under the Caliphs. p. 336 .

في الكبر وهكذا، حتى يتم تأليف الجيش بقائده الأعلى، الذي يهيمن على من تحته من القواد الصغار، الذين يشرفون بدورهم على الجنود، كما نرى في جيشنا الحديث مثلاً: فإنه يتألف من ألوية، وتُقسم الألوية إلى كتائب، وتقسم الكتائب إلى سرايا، وهذه تقسم إلى فصائل، وهي تقسم إلى جماعات، تشتمل كل منها على عشرة أفراد تقريباً، وسيأتى تفصيل ذلك، عند الموازنة بين النظم الإسلامية وغيرها. وقد كان الجند في فجر الإسلام، هم عامة أصحاب الرسول عليه السلام، وكانوا أول الأمر من القلة، بحيث يسهل عليه جمعهم عن طريق المنادى كما يسهل عليه خطابهم وتنظيمهم، ولكنه مع هذا كان محباً للنظام وتسلسل القيادة، وأول تنظيم عرف عنه، أنه اختار من أصحابه ليلة «العقبة الثانية اثني عشر نقيباً»^(١٦)، ليكونوا وسطاء بينه وبين الناس، في نشر دعوته الجديدة، وليكونوا نواة صالحة لجيشه المرتقب.

فلما كثر أصحابه، واشتبكوا مع المشركين في عدة معارك، قسمهم عِرافات وجعل على كل عشرة منهم عريفاً، فقد روى (الطبري)^(١٧) في حديثه عن القادسية أن سعداً «عرف العرفاء، فجعل على كل عشرة عريفاً، كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم».

وقد بقي العمل بهذا النظام في خلافة «أبي بكر» وأوائل خلافة «عمر» حيث كانت القوات توزع على أساس قبائلها، فلما اتسعت الفتوح، وتبع ذلك كثرة الأجناد وكثرة الأموال، وضع «عمر» الديوان، ورتب العطاء للناس جميعاً، وجعل العرفاء^(١٨) أدواته في توزيعه، فكان العريف في المدينين ينوب عن القبيلة، وفي الجند ينوب عن عشرة، فلما كثر عدد الناس، جمع كل عدد من العرافات في «سبع» عليه أمير، وسماهم «أمراء الأسباع» فكان هؤلاء يأخذون العطاء، فيدفعونه إلى العرفاء والنقباء والأمناء، فيدفعونه إلى أهلهم في دورهم^(١٩).

ويبدو أن هذا النظام وضع أولاً للمدنيين، ثم تعداهم للجيش، مع بعض

(١٦) الطبقات الكبرى لابن سعد ط ليدين ج ٢ . ق ١ . ص ١١٢ .

(١٧) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ . ص ص ٨٧ ، ٨٨ .

(١٨) تاريخ الطبري ج ٤ . ص ٢٢٧ .

(١٩) الطبري ج ٤ ص ١٩٤ .

التعديل ، وسيأتى تفصيل ذلك عند الموازنة بين النظم ، ولم يلتفت إلى هذا المعنى « جرجى زيدان »^(٢٠) عندما ذكر أن عمر جعل العريف على ثلاثين من الجند أو أربعين ، وجعل بعض العرفاء على عشرين حسب طبقاتهم ، ولم يذكر لنا مصدره ، فإن هذا النظام كان فى المدنيين ، أما الجيش فله نظام سيأتى .

ح - مقارنة التنظيم الإسلامى بالفارسى والبيزنطى :

من المعروف بين الباحثين أن الخليفة عمر بن الخطاب ، أول من نهض بالحكومة الإسلامية ، وأول من وضع لها أسسا قويمه راسخة ، وكان الجيش الإسلامى وتنظيمه ، من أهم الأمور التى اختصت بعناية الخليفة الحبيب ، فإنه لما شرع فى وضع الديوان العام ، أفرد للجند ديوانا خاصا بهم ، يضبط أفرادهم بصفاتهم وبلادهم ، ويلزمهم به الجهاد إذا دعوا إليه ، بعد أن ضمن لهم رزقهم ورزق عيالهم فى طول العام^(٢١) . وكان النظام الذى سنه عمر ، يقضى بأن يُقيم فى كل مصر من الأمصار الإسلامية ، عدداً من الفرسان بخيولهم ، مرابطين فى سبيل الله ، متأهبين لرد أى عدوان ، أو إخماد أى انتقاض ، وقد روى « الطبرى » أنه كان فى كل مصر ، أربعة آلاف فارس مرابطين^(٢٢) .

وقد كان لهذه القوات تمرينات يومية (طوابير) ، تراوحتها خارج المصر فى ميدان خاص بها يسمى (الحمى) لا يجتازها أحد من الناس ، كما روى « ابن قتيبة » الذى أضاف إلى ذلك ، أن الخليفة (عمر) كان يخرج إلى ذلك الحمى ، ويشرف بنفسه على تلك التمرينات ، وأنه كان يصحب معه بيطريا بصيرا بالخيول وأدائها ، يسمى (سلمان الخيل) فكان يشرف على بيطرتها ، ويعنى بأمورها^(٢٣) .

وليس من المعقول أن يعيش ذلك العدد الضخم من الفرسان - ومثله الجنود المفرقون فى الأمصار - على غير تنظيم ثابت ، يخضعون له عند الاصطفاف ، وعند الخروج للتمرينات ، وعند الانصراف منها ، وعند التعبئة للقتال ، والاشتراك فى المعارك

(٢٠) تاريخ التمدن الإسلامى . ج ١ . ص ١٤٨ .

(٢٠) انظر ص ٧٧ من هذه الرسالة . فصل التجنيد .

(٢١) الطبرى ج ٤ . ص ١٩٦ .

(٢٢) عيون الأخبار . ط دار الكتب . ج ١ . ص ١٥٥ .

سنرى حالا أن تلك القوات كانت منظمة، بحيث يكون الإشراف عليها دقيقا عند دفع الأرزاق ، وعند إبلاغ الأوامر وإدارة المعارك ، التي ثبت فيها نجاح نظامهم . ولكن يحق لنا - قبل أن نعرض لتاريخ النظم الإسلامية - أن نلقى نظرة على النظامين الفارسي والبيزنطى ، لنعرف أوجه الشبه والخلاف بينهما من ناحية ، وبينهما وبين التنظيم الإسلامى من ناحية أخرى .

أما التنظيم البيزنطى فقد أشار إليه « الدكتور أومان » فى كتابه « تاريخ فن الحرب فى العصور الوسطى »^(٢٣) كما نقله بتفصيل الأستاذان « جرجى زيدان » « ونعمان ثابت »^(٢٤) وقد ظهر من هذا المراجع أن التنظيم الدائم للجيش الرومى ، كان على الوجه الآتى :

رقم	اسم القائد	الجند الذين يقودهم
١	القائد العام (بطريق)	١٠,٠٠٠ جندى
٢	طورماخان	» ٥,٠٠٠
٣	درانجرى	» ١٠٠٠
٤	القومس	» ٢٠٠
٥	القمطرخ	لم يذكر عدده ويظهر أنه ٥٠
٦	الدمرداخ	١٠ جنود

وأما التنظيم الفارسي فكان قريبا من ذلك التنظيم ، على نحو ما سنرى :

- (١) طبقة القواد العظام - ويسمى واحداهم (ميرمران) أى أمير الأمراء .
- (٢) تحت كل ميرمران أربعة قواد، يسمى واحداهم (أصفهيد) أى أمير حاكم .
- (٣) تحت كل (أصفهيد) أربعة ، يسمى واحداهم (مرزبان)^(٢٥) أى حاكم إقليم .

(٢٣) أومان . ص ١٩٣ .

(٢٤) الأول فى كتابه : تاريخ المدن الإسلامى ج ١ . ص ١٣١ ، ٣٢ . والثانى فى كتابه :

الجندية فى الدولة العباسية ص ١٢٣ . يسميه ثابت (طور بخارى) .

(٢٥) تفسير المصطلحات الفارسية فى الرسالة ، مأخوذ من المعجم الفارسي للدكتور هندأوى .

وقد كرر ذكره بالهوامش .

- (٤) تحت كل مرزبان أربعة سالاريّه ، يسمى واحداهم (سalar) = رئيس .
 (٥) تحت كل سalar عشرة (أساوره) أى فرسان مفردة واحداهم (أسوار) وخمسة

من (البيادة) = المشاة ، فيكون المجموع ١٥ جنديا .

هذا ولم تذكر المراجع عدد الجند ، الذين كان يقودهم كل قائد ، كما رأينا فى النظام البيزنطى ، ولكن من المستطاع تقدير الأعداد بطريق الاجتهاد ، فقد لوحظ فى ذلك النظام ، أن المرتبة الدنيا تساوى ربع المرتبة التى فوقها ، فكل أربعة سالارية يقودهم مرزبان ، وكل أربعة مرازية يقودهم اصفهبد وهكذا ، وإذا عرفنا أن السالار كان يقود خمسة عشر فردا . فمن الممكن القول بأن نظامهم كان كالاتى :

رقم	اسم القائد	عدد جنده
١	الشاه أو الوزير	يقود ما يشاء بلا حصر
٢	الميرمران (قائد عظيم)	$240 = 4 \times 60$ أو ١٠٠٠
٣	الأصفهبد	$60 = 4 \times 15$
٤	المرزبان	$15 = 4 \times 10$
٥	السalar	$10 = 5 \times 10$

وإذا كان هذا التقدير صوابا ، فإننا نلاحظ فيه قلة الأعداد التى يشرف عليها الضباط ، لأنها أقل من الأعداد البيزنطية ، ويتبع ذلك أن نظام الضبط عند الفارسيين كان أدق ، لضبط القيادة ودقتها ، فكلما صغر العدد سهل الإشراف عليه .

أما التنظيم الإسلامى ، فالرسول عليه السلام أول من بدأه ، وذلك عند اجتماعه سرا بأتباعه ، ليلة (العقبة الثانية) ، فإنه اختار منهم إثني عشر نقيبا ؛ ليكونوا رسله إلى الناس ، ويبلغوا إليهم تعليماته ، وجعلهم يشرفون على العرفاء ، الذين كان كل منهم يشرف على عشرة من المسلمين ، ويتصل بهم دائما .

ثم مضى العمل بذلك النظام . أيام الخليفة المتبع (أبو بكر) وصدرا من خلافة «عمر» المبتدع ، الذى ابتكر للمسلمين نظاما لم يألّفوها من قبل ، كان هدفه

منها إصلاح الحكومة الجديدة ، والنهوض بها كمعاصراتها .

يروى لنا « الطبرى » كتاباً أرسله « عمر » إلى قائده ، « سعد بن أبى وقاص » قبيل وقعة « القادسية » يقول له فيه^(٢٦) : « إذا جاءك كتابى هذا فعشّر الناس ، وعرف عايهم ، وأمر على أجنادهم وعيهم ، ومر رؤساء القوم فليشهدوا ، وقدّرهم وهم شهود ، واجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة » .

ويفهم من هذا الكتاب في ضوء ما مضى ، أن العريف كان على عشرة من الجند ، وأن الأمير كان فوق العريف ، وأن رؤساء القوم هم زعماء القبائل ، وأن أصحاب الرايات ، هم قواد الميمنة والميسرة وغيرهما من أجزاء الجيش ، ولم يرد في هذا الكتاب ذكر النقباء .

يضاف إلى ذلك أن القائد الماهر « خالد بن الوليد » لما ذهب لمساعدة إخوانه باليرموك (١٣ هـ) وحّد القيادة بعد مشورتهم ، فلما جعلت له في اليوم الأول ، قسم الجيش إلى ٣٦ كردوساً ، في كل كردوس ألف جندي ، لأن جملة من كانوا معه ٣٦ ألفاً^(٢٧) ، وصرنا نرى بعد ذلك عبارة (أمراء الكراديس) تردّد في المراجع المختلفة ، ومما لا شك فيه أنه كانت هناك رتب أخرى بين رتبة (أمير الكردوس) الذى يقود ألفاً ، ورتبة العريف الذى كان يقود عشرة .

وقد وضح لنا العلامة « ابن خلدون »^(٢٨) تلك الحلقة المفقودة ، فقد روى أن العريف كان على عشرة ، وأن الخليفة على خمسين ، وأن القائد على مئة ، والقواد طبعا تحت أمراء الكراديس ، وهؤلاء طبعا تحت (أمراء التعبئة)^(٢٩) ، الذين كانوا يقودون الميمنة والميسرة وغيرهما ، وفوق هؤلاء جميعاً أمير الجيش الذى يكون في القلب ، ويقوم بمهمة القيادة العامة .

فإذا ضُمّ ما ذكره الطبرى وابن الأثير إلى ما ذكره ابن خلدون ، استطعنا أن

(٢٦) تاريخ الطبرى ج ٢ . ص ١٨٨ .

(٢٧) ابن الأثير في الكامل ج ٢ . ص ٢٠٠ .

(٢٨) تاريخه ج ٣ . ص ٢٩٩ .

(٢٩) انظر وقعة اليرموك في الكامل ج ٢ . ص ٢٠١ .

نذكر تنظيم القواد ، وعدد جندهم على الوجه التالى :

رقم	اسم القائد	عدد جنده
١	أمير الجيش	فوق العشرة آلاف
٢	أمير التعبئة	خمسة آلاف تقريبا
٣	أمير الكردوس	١٠٠٠ جندى
٤	القائد (قائد السرية)	١٠٠ جندى
٥	الخليفة	٥٠ جندياً
٦	العريف	١٠ جنود

وقد روى لنا (المسعودى)^(٣٠) تنظيمًا كان معمولاً به زمن المأمون العباسى وقد عزاه للعيّارين ، وهم جنود متطوعون ظهرُوا فى الدولة العباسية ، وقد ذكرته هنا استئناساً به ؛ لأنه لا يحكم على التنظيم الرسمى للجيش وإن كان يشابهه كثيرا ، وهو :

(١) الأمير — وتحتة عشرة قواد ، وجنده ؛ ١٠,٠٠٠ جندى

(٢) القائد — وتحتة عشرة نقباء ، « ؛ ١٠٠٠ »

(٣) النقيب — وتحتة عشرة عرفاء ، « ؛ ١٠٠ »

(٤) العريف — وتحتة عشرة من الجنود تقريباً .

ويلاحظ أن أمير الكردوس والخليفة ، لا وجود لهما فى ذلك النظام العيارى . ومن ثم فإننا إذا وازنا بين النظام الإسلامى ، والنظامين السابقين له ، — وجدناه أقرب عددا ومراتب من النظام البيزنطى ، وهذا يرجح بلا قطع أنه متأثر به ، لأن المسلمين كانوا يقبسون كثيرا من نظم هاتين الدولتين ، ولكن المرء لا يستطيع أن يحدد بالضبط مصدر هذا النقل .

وسواء أكان المسلمون فى ذلك متأثرين بالروم أم بالفرس ، فقد ثبت لنا أنهم لم يكونوا دونهم فى تنظيمهم ، وأنهم كانوا فوقهم فيما سواه من أمور الحرب الأخرى ، فقد كانت عاداتهم أن ينقلوا عن غيرهم ، ثم يهضمون ما نقلوا ، ويهذبون فيه حتى يفوقوا أساتذتهم .

ويصح أن نوازن هنا — إتماما للفائدة — بين الرتب الإسلامية القديمة ورتب الجيش فى عصرنا الحديث ، وسوف يظهر لنا من تلك الموازنة وأعداد الجند ، أنهما

(٣٠) مروج الذهب ط ٢ سنة ١٩٤٨ ج ٣ . ص ٤١١ .

متقاربان جدا ، من حيث الأعداد ، ومن حيث الرتب العسكرية .

رقم	الرتبة الإسلامية القديمة	الرتبة الحديثة	عدد الجند
١	أمير الجيش	القائد العام للمعركة	لاحضر لعدده
٢	أمير التعبئة	العميد أو العقيد (قائد لواء)	حوالي ٢٠٠٠
٣	أمير الكر دوس	المقدم - قائد كتيبة	» ١٠٠٠
٤	قائد السرية	رائد أو نقيب - قائد سرية	» ١٠٠
٥	الخليفة	ملازم - قائد فصيلة	» ٥٠
٦	العريف	العريف	» ١٠ تقريباً

هذه بوجه التقريب أهم النظم ، التي كانت تسود الجيش في الدولة الأموية ، وأوائل الدولة العباسية ، ومن الجائز أن يكون قد شملها بعض التعديل ، بعد تغلغل العناصر الجديدة في الدولة العباسية ، من عناصر تركية وفرغانية وكردية وغيرها ، ولكنها تعديلات لا تعيننا ، لأنها خارجة عن نطاق القرن الثاني ، وهو نهاية الفترة التي ندرسها هنا .

أما التمرينات اليومية لجند المسلمين ، فكانت ممثلة في المبارزة بالرمح ، لإظهار المهارة في استخدامها ، والتناضل بالسهم ، الذي يرمى فيه جماعة على هدف واحد ، وسباق الخيل والتمرّن على ركوبها ، وقد كان « عمر » نفسه يخرج إلى مكان التدريب في الحمى القريب من المدينة ، فيشاهد ركوب الخيل واستعمال الأسلحة عليها^(٣٠) ، وأما التمرينات والمناورات الجماعية ، فكانت تتمثل في هذه الحروب التي لا تنقضي ، وفي نظام المدارب أيام الخليفة « عمر » حيث كان المسلمون يُدربون إلى عدوهم في الدروب المختلفة ، ثم في نظام « الصوائف والشواتي » الذي ظل معمولاً به في الدولتين الأموية والعباسية ، وبخاصة مع الروم ، الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه . ومن وظائف الجيش الثابتة وظيفة « الرائد » الذي يرتاد مكان نزول الجيش قبل قدومه ، وصاحب الأقباض « الذي يتولى جمع وتقسيم المغنم ، و « الدعاة » الذين يدعون الأعداء للدين ، ويعرضون المطالب عليهم ، والقضاة والكتبة والمترجمون ،

(٣١) ابن قتيبة في عيون الأخبار ج ١ ص ١٥٥ .

(والوزعة) الذين يصلحون الصفوف ، وأصحاب الساقة الذين يخلفون الجيش لسوق الناس ، وحفظ ما عساه أن يسقط منهم أثناء السير ، (والسعاة) الذين يقومون بواجب المراسلة على الهجن السريعة ، لحمل الرسائل والكتب بين القواد الخ .

د - الوحدات المدنية الملحقه بالجيش :

ولقد كان يرافق الجيوش الإسلامية في سيرها ، بعض الطوائف المدنية التي تشغل بعض الوظائف فيها ، كطائفة القراء والقصاص ، وطائفة العمال والفعلة وطائفة الأطباء والمرضات وغيرها ، ويصح هنا أن نخص كل طائفة بكلمة موجزة توضح طبيعة عملها المناط بها .

١ - القراء والقصاص :

اعتاد المسلمون أول أمرهم ، أن يترنموا أثناء معاركهم بالشعر الحماسي ، جريا على عادة العرب في جاهليتهم ، متخذين من الرجز وأنغامه مثيرا لأنفسهم ، ومنشطا لدوابهم ، فكان يفعل فيهم بموسيقاه ومعانيه ، كما تفعل الموسيقى الحماسية في الجيوش الحديثة ، وقد وجدوا أولا في شعر « حسّان وابن رواحه » معينا لا ينضب فلما توالى نزول القرآن ونصحهم الله بالذكر في قوله : « يأياها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (٣٢) . صاروا يكثرون من تلاوته وذكر الله في حروبهم ، يتلمظون به بلا صوت تلمّظ الأفاعي (٣٣) كتعبير الرواية ، ثم عرف جماعة منهم بحفظ القرآن يسمون (القراء) كانوا يخرجون مع الجيش ، ويتفرقون بين صفوفه ، يسمعون الناس سورة « الأنفال » لما فيها من ذكر الثواب الأخرى على الجهاد ، والثواب الدنيوى بذكر المغانم ، وقد كان قتل الكثير من القراء في حروب (الإمامة) سببا في جمع القرآن زمن أبي بكر .

ثم ظهرت في الدولة الأموية طائفة القصاص ، وكانوا ينتشرون بين الجند كالقراء ، يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ، ويلقون عايمهم الشعر الحماسي ، في أوقات سمرهم

(٣٢) سورة الأنفال : آية ٤٥ .

(٣٣) طبقات ابن سعد طبعة ليدن ج ٢ ص ١٠ .

موقعا على نغمات الناي^(٣٤) أو القيثارة، كما يتغنّون أمام الصفوف بالشعر المطرب، فتجيش همم الأبطال^(٣٥) ويسارعون للقتال.

وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة، كما يقوم بها القراء والقصاص^(٣٦) والشعراء، لينشروا في الجند روح الفداء، ويرفعوا من روحهم المعنوية، ويزهّدوهم في الدنيا انتظارا لنعيم الآخرة، وكذلك كان الجيش البيزنطي يَخرج معه كثير من القسس والرهبان، لنفس الغرض، ولعل بقاء نظام الوعظ والوعاظ في جيشنا الحديث، يُعد أثرا من آثار الماضي، يدل عليه ويشير إليه.

٢ - العمال والفيلة :

كان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد، كما يقومون بالأعمال الأخرى اللازمة لهم، من حفر الخنادق وإقامة التحصينات، وزرع الحسك ورعى الماشية، يشترك فيها كبيرهم وصغيرهم، والشريف الموسر منهم كان يصطحب معه خادما يكفيه شتونه « كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير » ومن إليهم. فلما فتحو الأقطار وكثر في أيديهم الأرقاء، استكثروا من الخدم، استعانة بهم على أعمال الجهاد الهينة، كتعهد الجمال والخيول، وحزم الأمتعة وحراستها في الحل والترحال، وتمهيد الطرق، وحفر الخنادق وردمها، وسدّ الطرق الجبلية، وإقامة القناطر والجسور، وغيرها من الأعمال التي يقوم بها اليوم (سلاح المهندسين) حتى لقد كان بعضهم يخرج ومعه أتباع من الخمسة إلى العشرة، وأكثر من ذلك^(٣٧).

ويبدو أن العرب استكثروا من الأتباع تقليدا للفرس والروم، فقد رأوا الجندي الفارسي بالقادسية، يخدمه الخمسة والعشرة، إلى ما هو دون^(٣٨) ذلك، لدرجة أن أن الأتباع عندهم كانوا يقاربون المحاربين في أعدادهم، ويفهم من كلام "Dr. Oman" أن ذلك النظام كان متبعا عند البيزنطيين دائما، فقد ذكر أن قادتهم كانوا يحضرون معهم عددا من الغلمان، بعضهم أرقاء وبعضهم خدم مأجورون،^(٣٩)

(٣٤) Oriënt under the Caliphs. p. 335.

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٦.

(٣٦) الكامل لأبن الأثير ج ٢ ص ١٩٠.

(٣٧) مروج الذهب للمسعودي - الطبعة الثانية ج ٢ ص ٤٠٤.

(٣٨) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٠٣.

(٣٩) A History of the Art of War. p. 190.

كما ذكر أن الإمبراطور (ليو) استحسن تلك العادة ، وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان ، على أن يقتنى كل أربعة أو خمسة منهم خادما ، وتابعا أيضا إذا أمكن ، لحمل أمتعتهم التي لا يمكن حملها معهم بسهولة .

وأيا ما كان الأمر فقد توسع الأمويون والعباسيون في استخدام طوائف الفعلة ، الذين يقومون بأعمال هندسة الميدان ، فكان منهم أصحاب القنوس^(٤٠) ، ومنهم الذين يزيلون الثلوج عن الطرق ، والذين يحفرون الخنادق ، والذين يعقدون الجسور على الأنهر ، والذين يَطْمُون الخنادق لتعبرها الخيالة والدبابات^(٤١) ، إلى غير ذلك من الأشغال التي تُيسر للجيش مهمته ، ويقوم بها سلاح المهندسين حديثا .

٣ - الأطباء والمرضات :

كان الطب لدى المسلمين ضيعفا في عهد الرسول ، ولم يكن للمجروح في القتال من يقوم بعلاج جراحه إلا زوجه ، أو من يلوذ به من أهله ، فقد كثرت الجراحات بالمسلمين يوم أحد ، وانصرف كل إلى بيته يعالجها وكانت « فاطمة » بنت الرسول عليه السلام ، هي التي تضمّد جراحه كما رأينا يوم أحد ، ثم صارت هذه المهمة من خصائص بعض النساء المسلمات المتطوعات ، فكان للسيدة « رُفيدة » خيمة بمسجد المدينة يوم الخندق ، تداوى بها الجرحى الذين يذهبون إليها ويومها أمر « الرسول » بأن يعالَج « سعد بن معاذ » في خيمتها ، حتى يعود من غزو بني قريظة^(٤٢) ، الذين نقضوا معه عهدهم ، فكانت هذه الخيمة كأنها مستشفى الميدان حديثا .

ثم باتساع الفتوح وبعد الأسفار ، صار المسلمون يصحبون معهم نساءهم فكان من أول واجباتهن ، سقى المحاربين والعناية بالجرحى ، وحمل الماء لهم ونقلهم إلى مكان أمين لعلاجهم ، وحفر القبور بالاشتراك مع الأطفال لمن يقتل منهم ، والإجهاز على قتلى أعدائهم ، فكان النساء يطفن بأرض المعركة ومعهن الأطفال ،

(٤٠) دائرة المعارف الإسلامية - نقل الأستاذ « ثابت » في الجندية ص ١٦٠ .

(٤١) الجندية في الدولة العباسية « لنعمان ثابت » ص ١٦١ .

(٤٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦١ .

ومع كل واحدة هراوة (عصا) وسقاء ، فإن وجدت رثيثا من الأعداء أجهزت عليه ، وإن وجدت جريحا مسلما سقته وساعدته (٤٣) .

وقد كانت المرأة المسلمة تقوم إلى جانب ذلك بإعداد الطعام للمحاربين ، وتحريضهم على القتال وقت المعركة ، وتقريع من يفر منهم ، ورده للمعركة ولو بضربه ، وبعض النساء كانت إذا حزب الأمر تشترك في القتال فعلا وتجيده ، وتسبق الشجعان فيه ، فقد ثبتت (أم سليم) يوم حنين حين تزلزلت الأقدام ، وأجادت القتال « أم عمارة » يوم أحد ، وانحازت للرسول (صلى الله عليه وسلم) عند الهزيمة ، تقاتل دونه حتى جرح ، ويكفيها قول الرسول في حقها : « ما التفت يميننا ولا شمالا يوم أحد إلا وجدتها تقاتل دوني » (٤٤) . وقد قاتلت النساء جيّدا ، باليرموك والقادسية وأجنادين ، ومرج دهنشور بمصر ، وغيرها من المعارك الفاصلة .

ولكن هذا لا يدعونا إلى أن نرفع المرأة في القتال إلى مرتبة الرجل ، ونسوى فيه بينهما كما يرى بعضهم (٤٥) ، فإن هؤلاء النساء اللاتي ذكرن في المصادر المختلفة ، يصحّ أن تعتبرن من الشواذ ، اللاتي تغلب عليهن بعض صفات الرجولة ، فتبدو بطولتها في أوقات الأزمات ، كما يغلب على بعض الرجال عنصر الأنوثة ، فيبدو كالنساء ناعما رخوا في بعض الأحيان .

على أن النصوص الواردة ، تفيد أن هؤلاء النسوة ، خرجن أول ما خرجن لسقى الجرحى وعلاجهم ، وهذا أول واجباتهن ، فلما رأين الأمر يشتد باشرن القتال ، إلا من كانت تضعف دونه كأم المؤمنين (عائشة) مثلا ، فإنها كانت تسقى الجرحى مع « أم سليم » يوم أحد (٤٦) ، ولكنها لم تقاتل كما قاتلت ، لأنها ليست

(٤٣) انظر تاريخ الطبري ج ٤ ص ص ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٣٤ والكامل لأبن الأثير ج ٢ ص ص ٢٠٠ ، ٢٠٢ والإسلام والحضارة العربية لكرد على ج ١ ص ٨٥ .

(٤٤) صحيح البخاري ج ٥ ص ٨٤ ، ٨٥ تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٠٦ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٤٥) يذكر كمال الدكتور أحمد الحوفي في رسالته للدكتوراه من دار العلوم : « المرأة في الشعر الجاهلي » ص ٢٧٤ - ٢٨٠ .

(٤٦) صحيح البخاري ج ٥ ص ص ٨٤ ، ٨٥ .

في جرأتها ولا قوتها ، وقد استبعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يبلى أحد بلاء (أم عمارة) يوم أحد ، فإنه لما رأى فعالها العجيبة قال لها : « من يطبق ما تطيقين يا أم عمارة ^(٤٧) ؟ » وهذا دليل على شدوذها في ذلك الباب ، لتغلب ناحية البطولة عليها ، كما تغلبت على بعض نساء الخوارج مثل « غزالة » زوج « شبيب الخارجي » التي فر أمامها « الحجاج » فغيره الناس بذلك ^(٤٨) والتي صلت في مسجد « الكوفة » ركعتين بالبقرة وآل عمران ، وفاء بنذرهما ^(٤٩) الذي نذرتة إن هي دخلتها على الحجاج ، فغزالة هذه التي فاقت الرجال ، لا تجعلنا نحكم بتفوق النساء بوجه عام ، أو مساواتهن بالرجال في تحمل أهوال الحروب فقد كانت تولول إذا مسها ضررها :

ولكننا إذا صرفنا النظر عن الشواذ من النساء ، وجدنا وظيفة المرأة الأساسية الى كانت كما حددتها « أم عطية » في قولها : « كنا نغزو مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنداوى الجرحى ، ونمرض والمرضى ، وكان يرضخ لنا من الغنيمة ^(٥٠) » أى يعطينهم ولا يضرب لهم بسهم كالرجال ، وفي هذا إشارة لعدم التساوى بينهم وبين الرجال أصحاب السهمان .

ثم لما اتسعت ونُظمت الفتوح الإسلامية ، وأبطلت عادة الخروج بالنساء صار يقوم بهذه المهمة أطباء وممرضون مخصصون ، بعد أن حذق العرب الطب عن الفرس والروم ، واتخذوا منهم الأطباء والممرضين ، فصار الجريح يُحمل على ترس طويل ، أو على محمل بين رجلين ، فيوضع في مكان العلاج ، وقد روى الجاحظ ^(٥١) « أن « الحجاج بن يوسف » أول من عمل المحامل ، ثم صار الأطباء يرافقون الجيش عند خروجه ، وتخصص لهم خيامهم في المعسكرات ، كما كان يفعل البيزنسيون بفرق الإسعاف في كتائبهم ^(٥٢) ، وكذلك كان العباسيون إذا جهزوا جيشا زودوه بالأطباء ، وبالصيادلة لتركيب الأدوية وإعدادها ، فقد ذكر الأستاذ

(٤٧) رسالة الدكتور الحوفي السابقة ص ٢٧٧ .

(٤٨) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ١٩٥ ، ٩٦ .

(٤٩) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ١٤٦ ، ٤٧ .

(٥٠) بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣١٢ . والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٥١) البيان والتبيين الطبعة الثانية سنة ١٩٣٢ ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٥٢) A History of the Art War. P. 192, (٥٢)

« ثابت^(٥٣) » نقلا عن « طبقات الأطباء » أن بغداد وحدها ، كان فيها من الأطباء في أول القرن الرابع ٨٦٠ طبيبا ، وهو عدد عظيم ، يدل على أنهم عالجوا فنون الطب وتوسعوا فيها من عهد بعيد ، ومن المعقول أن يكون بعض هذا العدد مخصصا للجيش ، يقوم بما تقوم به الآن مشافي الميدان ومشافي الجيش في العواصم .

القسم الرابع

تموين الجند بالحيوان والسلاح والطعام

الجند في الميدان يعتمدون على حيوان القتال ، كما يعتمدون على السلاح والطعام والشراب ، وقد يكون الفارس أشد وقعا على الأعداء من الراجل ، ولذا فهو يفوز من المغانم بما لا يفوز به الراجل وتبعاً لذلك كان المسلمون يهتمون بالجمل والحصان ، كما تهتم الجيوش الحديثة بسلاح الفرسان ، فعملهما واحد في الأصل .

١ - الجمل :

فهو عماد العربي في حياته السلمية والحربية ، يساعده على عبور الصحراء في الأسفار الطوال ، يطعم لحمه ويشرب لبنه ، ويتخذ خيمته من وبره ، ودرعه وقرسه^(٥٤) من جلده .

ويدربه على القتال فيغزو عليه ، ويحتمي من السلاح به ، ويصفه أرجله حول المعسكر إذا أقام ليلاً ، فيبيت الجند في حصن من الجمال وأحمالها .

وقد استخدم الرسول عليه السلام الجمل في غزواته ركوباً وقتالاً ، فكان معه يوم « بدر » سبعون بعيراً وفرسان فقط ، وكذلك كان معظم أصحابه يركبون الجمال يوم « حنين »^(٥٥) ، وحارب « أبو بكر » عليها بعض المرتدين الذين

(٥٣) انظر الجندية في الدولة العباسية له ص ١٦٤ .

(٥٤) انظر (الدرع والقرس) في الفصل الخامس ص ٥ ، ٨ .

(٥٥) سيرة ابن هشام طبعة الحلبي ج ٤ ص ٨٧ .

هجموا على المدينة ، وكان من عادة المسلمين كالعرب إذا - عندهم الخيل - ، أن يجنبوها ويركبوا الجمال في المسافات البعيدة ، فإذا كانت قريبة ركبوا الخيل استعداداً للقتال وجنبوا الأبل .

وكانوا يحملون الظعن (النساء) على الجمال خلف صفوف المقاتلين ، فإذا نزلوا جعلوا من أرحلها حصناً يدور بهم ، وهى فوق ذلك أداتهم في نقل الخيام والأمتعة الثقيلة ، وآلات الحصار كالمنجنيق والدبابة ورأس الكبش وغيرها ، فما كانوا ينقلون أمتعتهم على عربات الثقيل أو الخيل والبغال ، كما كان يفعل البيزنطيون^(٥٦) المعاصرون لهم ، وإنما على ظهور الجمال ، التى هى عدتهم في كل شيء ، والتى كانت تثير الفزع بين خيل الأعداء ، وتكثر عدد الجيوش في رأى العين ، بما يرفرف فوق أرحلها من رايات يحملها الجنود .

هذا وقد عاب الإمبراطور البيزنطى « ليو » نظام النقل على الجمال ، في كتابه « Tactica » ولا أجد لتفنيد قوله أبلغ مما قاله « الدكتور كريمر » في الرد عليه في كتابه « الشرق في حكم الخلفاء »^(٥٧) حيث يقول : أما ملاحظة « ليو » على النقل بالجمال في الجيوش العربية ، فإنها تستدعى ملاحظة أخرى ، فبينما استخدم البيزنطيون في النقل الخيل والبغال والحمير والعربات التى تجرها الثيران ، استطاع العرب أن ينقلوا رحالهم ومتاعهم في أمان تام ، على ظهور الجمال ، حتى عبر الصحارى القاحلة ، التى تناسب الحمل ، ولا تناسب الجيش الإغريق مطلقاً ، وهذه ميزة عظيمة للعرب ، بل إنى لا أكون مغالياً إذا قررت ، أن العرب أحرزوا معظم انتصاراتهم بفضل جمالهم ، فهذا الحيوان الصبور فتح لهم مصر والشام ، بل إنه في الحقيقة كتب النصر الدائم للإسلام . ولعانا جميعاً نذكر حسن استغلال « خالد » للجمال في عبور صحراء الشام ، وفي ردم الخنادق بالعجائر منها^(٥٨) ، ونذكر كيف ساعدته مساعدة فعالة ، في عبور بادية السماوة ، يوم رحيله من العراق إلى سورية ، لنجدة المسلمين باليرموك .

(٥٦) The Orient under the Caliphs. p. 329.

(٥٧) The Orient. pp. 332-33.

(٥٨) انظر الفصل الخامس - اقحام الخنادق ص ١٧ . واقرأ في كتب التاريخ انتقال خالد من العراق للشام بأمر أبى بكر قبيل معركة اليرموك .

ب - الحصان :

وأما الحصان فقد اعتز به العرب منذ جاهليتهم ، وحفظوا أنساب خيلهم ، وحافظوا على نقائها ، وألفوا فيها الكتب أخيراً ، كما فعلوا بأنسابهم ، ذلك لأن الحصان سيد الميدان ، الصالح للكر والفر في الأراضي المكشوفة ، وظهره حصن لراكبه ، لحفة حركته عند المجاورة ، وسرعة عدوه عند الفرار ، وهو مصدر غناه في الجهاد لأنه يفوز بسهمين وحده ، في الوقت الذي يفوز صاحبه بسهم واحد^(٥٥) ، ومن ثم قال عليه السلام : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة^(٥٦) » وذلك ترغيباً في اقتنائها والعناية بها ، وتعليمها فنون الحرب ، كما قال : « عاتبوا الخيل فإنها تعتب » .

ولما عرف المسلمون فضل الفرسان على المشاة ، أكثروا من العناية بالخيل وحفظوا شيات العتيق والهجين منها ، حتى شهر جماعة منهم باسم « نُعَمَات الخيل » ، وكان « عمر بن الخطاب » يعنى بخيل المسلمين ، ويذهب إلى الحمى القريب من المدينة ليشرّف على تمرينها ، وكان يصحب معه « سلمان بن ربيعة الباهلي » الذي سمي « سلمان الخيل » لخبرته بها ، فكان يشرف على بيطرتها ، ويفرق بعلاماته بين العتيق والهجين منها^(٥٧) ، وقد عينه الفاروق للتفتيش على خيول الجيش بالكوفة ، ولما ولي أمر الأقباص يوم « جلولاء » لم يضرب بسهم إلا للعتاق منها^(٥٨) ، ليبعد الناس عن إقتناء الفرس المهجن الذي اختلط بدم غير أصيل .

وكان قواد المسلمين يعرضون الخيل كاعتراض الرجال ، فمن وجدوا في فرسه هزالا ، أو في عدته نقصاً ، أنقصوا من مرتبه عقاباً له^(٥٩) ، ومن عُنى بها زادوا في

(٥٩) انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٨ ، ١٨٧ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٧٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١١٠ والبداية لابن رشد ج ١ ص ٣١٤ ، وفتوح الشام للواقدي ج ١ ص ١٤٣ ، والكلبي في أنساب الخيل .

(٦٠) النووي - رياض الصالحين ج ٧ ص ١٤٢ طبعة توفيق .

(٦١) عيون الأخبار لابن قنينة ج ١ ص ١٥٥ .

(٦٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٨٢ ، والجندية لثابت ص ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٦٣) حسن المحاضرة للسيوطي - نقل ثابت في الجندية ص ١٤١ وتاريخ التمدن لزيدان ج ١ ص ١٥٠ .

فريضته ؛ ولذا كان بعض الفرسان الأشداء يعاقب بين فرسين يحارب عليهما ،
ويأخذ أسهمهما ، كما فعل « الزبير بن العوام » في حنين ، وفي حروب الشام
المختلفة ، وكثيراً ما رأينا الفرسان يطلقون على خيلهم أسماء معينة تعرف بها ، وذلك
اهتماماً بشأنها ؛ لأنها عماد الطلائع والسرايا ، ومنها يتألف جناح الجيش لحمايته ،
على ما سيأتى تفصيله في الفصل السادس عند ذكر التعبئة ، وعليها تخفف النجيدات
لغياث المحتاجين ، ويسرع البريد بالرسائل بين قواد الميدان ، إلى غير ذلك من
الفوائد الحربية التي لا داعي للإفاضة فيها ، كما أنه لا داعي لذكر السلاح ،
فسيأتى تفصيله وافياً في الفصل الثالث .

وكل الذى يهمنا هنا أن نعرف كيف كان المقاتلون يزودون بهذه الحيوانات
وحاجاتها ، وكيف كانوا يمدون بالسلاح الذى يقاتلون به ، وبالطعام الذى يقويهم
على القتال .

ج - الطعام والعلف والسلاح :

في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان المسلمون جميعاً هم الجند ، أخذوا
أنفسهم بنصره ونشر دعوته ، للقضاء على الشرك والمشركين ، فكل منهم كان يعد
نفسه للجهاد ، فيشتري جملة أو حصانه ، ويشترى سلاحه ، ويحمل معه إذا خرج
للغزو زاده ومتاعه ، وقد ينفق أحدهم جلّ ماله في ذلك .

وكيف لا يفعل وهو يرى المشركين - وهم على الباطل - ينفقون أموالهم
ليصدوا عن سبيل الله ؟ بل كيف يرغب عن التجارة الربحية التي دله عليها قوله
تعالى : « يا أيها الذين لم آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله
ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم »^(٦٤) .

وما كان المسلمون في درجة واحدة من اليسار ، فكان الغنى منهم يساعد
الفقير في جهازه ، أو يسلمه كل ما أعده لنفسه إذا حبسه عن الخروج عذر مشروع^(٦٥)
فإن لم يجد الفقير من يساعده ، كان يعتمد إلى بعض من يعرفه ، فيستعير منه

(٦٤) سورة الصف آية ١٠ .

(٦٥) النووى - رياض الصالحين ج ٧ ص ١١٥ ، ١١٧ .

السلاح ، على أن يعطيه النصف مما يغم ، حتى إنهما ليقسمان السهم بينهما^(٦٦) . يأخذ أحدهما النصل مع الريش ، والآخر يأخذ القِدْح ، وكثيراً ما كان الرسول يجهز الفقراء من الصدقات ، وخمس المغنم الذي يقبضه ، والى الذى يخصه .

وفى الغزوات المهمة كان أثرياء الصحابة ، يجودون بكل ما لهم أو بعضه فى شراء الخيل والجمال للمحاربين ، وإمدادهم بالسلاح والطعام ، وجميع الأمتعة ، كما فعل « طلحة » الذى تكرر تبرعه فى الغزوات المختلفة ، حتى سماه « الرسول » صلى الله عليه وسلم « طلحة الجود أو طلحة الخير »^(٦٧) ، وكما فعل « عثمان وأبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف » وغيرهم عند التجهيز لغزوة « تبوك » حتى لقد بعث النساء للرسول صلى الله عليه وسلم ، بكل ما يقدرن عليه من الحلى^(٦٨) ، تطوعاً فى سبيل الله ، ليباع فى تجهيز الجند .

وقد كان التمر أغلب زاد الجند فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، يضاف إليه السويق واللحوم مقددة أو طازجة ، فكان المحارب يصحب معه طعامه فى رحله فإذا قصر به الفقر كفاه ذلك الأغنياء من إخوانه ، فقد كان « سعد بن عُبادة » خلال حصار « بنى النضير » يأتى المسلمين بالتمر من عنده ، كما أمد المسلمين بلحوم الإبل فى غزوة « حمراء الأسد » فكانوا ينحرون اثنين فى يوم وثلاثاً فى يوم^(٦٩) ، وقد صنع مثله أغنياء الصحابة وجعلوا الإطعام مناوبة بينهم ، فيوماً ينحر سعد ، ويوماً ينحر غيره ، وكثيراً ما كان الرسول عليه السلام يستعير المال والسلاح من غير المسلمين ، ليزود به المجاهدين ، إذا لم تقم بذلك أموال الصدقات والأخماس .

إذن فقد كان الجندى مكلفاً بتجهيز نفسه من ماله الخاص ، وحظه من المغنم ، ويعين الحاكم الفقراء من فضول أموال المسلمين ، فلما وضع « الفاروق » الديوان ورتب العطاء ، ألزم الجند بالجهاد وما يصلح أمرهم فيه ، وكان يشتري خيلاً من أموال المسلمين التى كثرت فى زمنه ، فيسلمها إلى الجند المرابطين فى معسكرات الأمصار ، ليكونوا عدة لكون إن كان ، كما سبق فى القسم الثالث من هذا الفصل ، وكذلك

(٦٦) فتوح مصر لابن عبد الحكم طبعة أوربا ص ٥٤ .

(٦٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٥١ .

(٦٨) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٤٤ ، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤٨ .

كان يخصص للدولة كثيراً من السلاح يوزعه على المحتاج إليه من الجنود النظاميين ، وكان يجعل عليه « سمة السلطان » حتى لا يختلط بغيره ، وعنه أخذ « على بن أبي طالب » بناء خزائن السلاح ووسمتهُ بسمة السلطان^(٧٠) ، على الطريقة التي كانت متبعة في أموال الصدقة ، وهي أن يُكتب على أفخاذ الخيل والجمال كياً بالنار ، كلمة (صدقة) أو كلمة (عدة)^(٧١) .

أما المتطوعون فكانوا يُعدون أنفسهم بمستلزمات القتال ، لأن « عمر » كان لا يدخر شيئاً في بيت المال ، وكان يفرق كل ما أتاه على المسلمين مهما كثر^(٧٢) ، فقد أثر عنه قوله لما أتاه « أبو هريرة » بمال كثير من البحرين :

« أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كيلاً ، وإن شئتم عددنا لكم عدلاً » ، وقد اقترح عليه بعض المسلمين أن يحتفظ في بيت المال بشيء يكون عدة للحوادث ، فزجره ولم يعمل بقوله^(٧٣) .

مضى العمل بهذا النظام عند المتطوعين في الدولتين الأموية والعباسية ، فكان المتطوعون يخرجون للقتال بزادهم ، فإذا فرغ منهم عادوا لتجديده ، أو أرسلوا إلى أهلهم فزودوهم وهم بمكانهم^(٧٤) ، ولا شأن للدولة بهم .

أما الجيش النظامي فكانت نفقات نقله وتموينه على الحكومة ، بينما يقوم أفرادُه بإعداد سلاحهم وصيانتَه ، من مرتباتهم الشهرية ، وأرزاقهم السنوية ، بحيث كان الحاكم يُنقص من عطائهم إذا أهملوا ذلك ، وكذلك كانت الحكومة تنفق على إنشاء وإصلاح آلات الحصار ، ونقل الجيوش وتمهيد الطرق الجبلية ، وعلاج المرضى من الجند ؛ ولذا لا ندهش إذا وجدنا « الحجاج » يجهز جيشاً إلى (سجستان) فينفق عليه مليوني درهم^(٧٥) ، عدا رواتب الجند ، وإن كان هذا يعد إسرافاً منه ، فقد

(٧٠) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٢٢ .

(٧١) مما يستطوف لهذه المناسبة أن « الحجاج » بعث بعض قواده إلى معركة فماد منهزماً ، فلما رأى خيله مكتوباً بالكى على أفخاذها كلمة « عدة » أمر بأن تكتب تحتها كلمة (للفرار) .

(٧٢) ابن الأثير في الكامل ج ٣ ص ٤٥٣ .

(٧٣) تاريخ التمدن الإسلامي لزيدان ج ٢ ص ١١ .

(٧٤) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١٣٨ .

(٧٥) الكامل لأبن الأثير ج ٤ ص ٣٦٥ .

لامه عليه الخليفة « عبد الملك » كما لاه على الإسراف في سفك الدماء^(٧٦) .
 ولقد رأينا العباسيين يدخلون كثيراً من التحسين على هذا النظام ، فيدخرون
 للجيش حاجته من التموين في مخازن خاصة ، على نحو ما يفعل « مكتب خدمة
 الجيش » الآن ، ورأينا لهم خزائن لحفظ أصناف الأموال والقماش ، وخزائن للغلال
 والحبوب ، وخزائن للسلاح^(٧٧) ، تحفظ بها الأسلحة والذخائر ، فقد نقل الأستاذ
 « نعمان ثابت » عن صاحب « آثار الأول » أنه كان بخزائن السلاح أيام « السفاح »
 خمسون ألف درع وخمسون ألف سيف ، وخمسون ألف جوشن ، ومئة ألف رمح ،
 وأن الخليفة « محمد الأمين » لما تولى الخلافة أمر بإحصاء ما في الخزائن من
 الكسوة والفرش والآنية والآلة ، فكان فيها سلاح كثير يطول ذكر عدده^(٧٨)
 ووصفه ، خصص بعضه للخليفة ومن يحيط به من حرسه الخاص ، وبعضه لطوائف
 الجند المختلفة ، وتزويدها به عند خروجها للقتال .

(٧٦) مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

(٧٧) الجندية لثابت ص ١٠٠ .

(٧٨) نفس المصدر ص ١٠١ .

الفصل الثالث أسلحة القتال

القسم الأول الأسلحة الخفيفة

لما كان على كل محارب أن يعدّ سلاحه قبل المعركة ، ويتخذ لها الأهبة قبل خوضها ، كان لزاماً على أن أقدم الكلام على الأسلحة في هذا الفصل .
وقد اعتاد القدماء من الباحثين وبعض المحدثين ، أن يطلقوا لفظ (السلاح) على كل أداة تستخدم في المعركة ، حتى على أدوات الدفاع والوقاية ، كالدرع والمغفر والترس وغيرها ، ولكني رأيت هنا أن أفرق بين الأسلحة التي تستعمل للقتال ، والآلات التي تستعمل للوقاية ، كما رأيت أن أقسم أسلحة القتال قسمين في هذا الفصل :

- أ - أسلحة خفيفة يستخدمها الجندي الواحد ، راجلاً كان أو فارساً ، كالقوس والرمح والسيف وما إليها من البلطة والدبوس إلخ .
 - ب - أسلحة ثقيلة يشترك في استخدامها أكثر من جندي ، وتحملها في الميدان حيوانات الحمل ، كالمنجنيق والدبابة والعرادة ورأس الكبش وسلم الحصار وهي آلات الحصار الخاصة بفتح الحصون .
- وقد جعلت الجزء الأول من هذا الفصل خاصاً بالأسلحة الخفيفة ، وهي على ترتيب استعمالها في المعركة كالآتي : القوس والسهم ، ثم الرمح ، ثم السيف ، ثم الحنجر والدبوس والفأس .

وذلك أن القتال يكون أول أمره تراشقاً بالسهم عن بعد ، ثم تطاعناً بالرمح عند الميمنة واقتراب الصفوف ، ثم تصافحاً بالسيوف عند الاختلاط ، ثم تضارباً بالأسلحة البيضاء ، وخلصاً بالحناجر ، عند الالتحام والاختلاط . (١)

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٦ ص ٢٣٨ ، وقد نص على تأنيث القوس ص ٢٢٧ .

(١) القوس والسهم

وصف القوس وأجزائها :

القوس في الأصل عود من شجر جبلي صلب ، يحني طرفاه بقوة ، ويشد فيهما وترٌ من الجلد أو العصب الذي يكون في عتق البعير ، وهو يشبه إلى حد ما قوس المنجدين في هذه الأيام ، وكان العرب يسمونه الذراع لأنه في طولها ، ولذا كانوا يتخذون منه وحدة للقياس ، فيقيسون به المذروع ، ومن ذلك قوله تعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى » أي قدر قوسين عربيَّين أو قدر ذراعين ^(٢) .

ومنذ أن اهتم العرب بالرماية وصناعة الأقواس ، صارت لهم قسيٌ عربيةٌ معروفة بصلابتها وشدة جفافها ، يأخذونها من شجر (النبّع أو الشّوحط) ثم تعددت أنواعها عندهم ، فصار منها الحجازية والفارسية والواسطية والشّريحية وهي المأخوذة من قضيبين فأكثر .

وعلى الرامي إذا أراد الرمي أن يمسك وسط القوس باليسرى ، ثم يثبت السهم في وسط الوتر باليمنى ، ثم يجذبه إليه مساوياً مرفقه الأيمن بكتفه ، مسدداً بنظره إلى الهدف ، فإذا بلغ الوتر نهايته تركه من أصابعه ، فاندفع إلى وضعه الأول ، دافعاً أمامه السهم إلى هدفه .

أجزاء القوس :

١ - البدن : ويطلق على خشب القوس كله ، ويقال للناحية العليا منه

(يد القوس) وللناحية السفلى (رجل القوس) ^(٣) .

٢ - المقبض : وهو موضع اليد اليسرى منه في الوسط من البدن .

٣ - السيّة : وهي ما انعطف من طرفي القوس وركب فيها الوتر ، فلكل قوس سيّتان وهما اليد والرجل .

٤ - القاب : وهو ما بين المقبض والسيّة ، ولكل قوس قابان كما جاء في

القاموس المحيط .

(٢) القاموس المحيط مادة (قاب) .

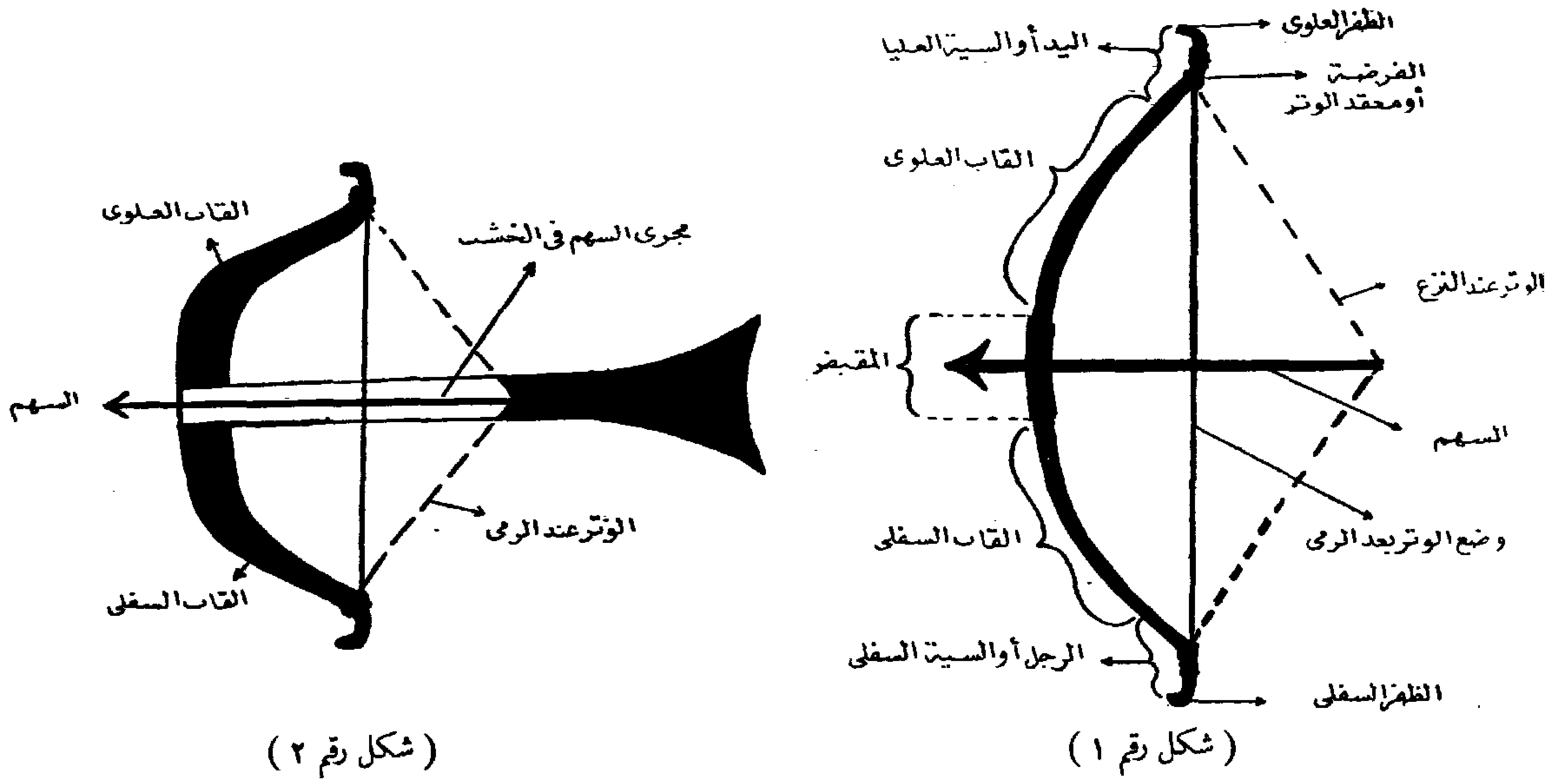
(٣) ابن سيده : المخصص ج ٦ ص ٤٣ .

٥ - الوتر : وهو ما يتخذ من خيوط مفتولة أو شراك جلد ، ثم صار يتخذ من عصب في عنق البعير المسن ، أو من وظيف الساق ، وكانوا يسمونه (العقب) ولذا يقال : « عقب القوس » أى لوى شيئاً من العقب عليها ^(٤) ، ويقال للوتر (ربدى) وإن كان لم يعمل بالربذة لأنه في الأصل عمل بها ^(٥) ، وهو يفسد بالشمس الحامية أو ماء المطر ، ولذا كان يحفظ منهما بكيس أو نحوه .

٦ - الفُرضية : وهى الحُزة التى يلف عليها طرف الوتر المعقود ^(٦) ، وذلك طبعاً يكون فى السية العليا والسفلى .

٧ - الظفر : وهو ما يبقى ظاهراً من طرف السية بعد معقد الوتر عليها من أعلى ومن أسفل ^(٧) .

٨ - الحماله : الحماله من القوس بمنزلة حمالة السيف ، وهى علاقته التى يحمل بها ، يلقيها المتنكب فى منكبه الأيمن ، ويخرج يده اليسرى منها ،



(شكل رقم ٢)

(شكل رقم ١)

(٤) ابن سيده : ص ٥٥ والقاموس المحيط مادة (عقب) .

(٥) نفس المرجع ص ٤٥ .

(٦) النويرى نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٢٣ .

(٧) المخصص ج ٦ ص ٤٣ .

فتكون القوس في ظهره وقد توشحها توشح السيف ، وربما جعل الحماة في صدره وأخرج منكبيه منها ، فتصير على كتفيه ^(٨) ، وذكر « النويرى » أن العرب تقول تنكّب قوسه إذا ألقاها على منكبه ، وتأثّبها إذا جعلها على ظهره ^(٩) (انظر رسم القوس شكل ١ ، ٢) .

كلمة تاريخية عن القوس :

أغلب الظن أن العرب أول أمرهم لم يبرعوا في استعمال القوس براعتهم في استعمال الرمح والسيف ، وأنهم توسعوا في هذا السلاح وأتقنوه بعد اتصالهم بالفرس والروم والنوبة ، حيث كانوا يلاقون منهم أذى شديداً ، بسبب إجادتهم الرمي بهذا السلاح .

والعجيب أن رئيس الركن « نعمان ثابت » ينقل إجماع المؤرخين على مهارة العرب في استخدام القوس ، فهو يقول في كتابه ^(١٠) « لقد أجمع المؤرخون على أن العرب من أمهر المقاتلين في النزاع بالقوس ، وقلمّا كانت تطيش سهامهم ، وبلغ من إصابتهم في الرمي ما يكاد يتعدّى طور التصديق ، ولقد كان في كل قبيلة من قبائلهم مئات من رماة الحدق . » والأعجب من ذلك أن الأستاذ « جرجى زيدان » وافقه في قوله ، وادعى أن العرب سُموا « رماة الحدق » لأن أحدهم لو أراد أن يرمى إحدى عيني الغزال دون العين الأخرى لرهاها .

ولقد استند كل من المؤلفين إلى قصة جاهلية ، رواها صاحب العقد الفريد ^(١٢) ، وهى على شبهها بالخرافة ، تحاول أن تثبت للأرب ما ليس لهم تزويداً وتعصياً ، وقد كنت أحب أن يكون العرب كما وصف كل منهما – وإن صاروا فيما بعد كذلك . إلا أن واجب الأمانة العلمية يقتضى الباحث أن يسير وراء النصوص ، مجرداً من تعصبه لجنسه أو أمته ، طالباً الحقيقة وحدها . وأما الآن كثير من النصوص العربية ، يفهم منها صراحة أو ضمناً أن العرب

(٨) المرجع نفسه ص ص ٤٣ ، ٤٤ .

(٩) نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٢٨ .

(١٠) الجندية في الدولة العباسية ص ١٥١ .

(١١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٦٩ .

(١٢) انظر الهامش (٥٧) من التمهيد .

كانوا متخلفين عن غيرهم في استعمال هذا السلاح ، حتى العام الثالث عشر من الهجرة ، فقد روى «البلاذري» أن الفرس كانوا يشبهون نبال المسلمين يوم القادسية بالمغازل^(١٣) ، استهانة بها ، واستخفافاً بشأنها ، وكانت القادسية في العام الثالث عشر . ومن قبل ذلك أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الحقيقة ، فامتدح قسماً العجم في حديث رواه «الإدريسى» عن الزرقاني بقوله عن العجم : «هم أقوى منكم رمية^(١٤)» ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث الناس على تعلم الرمي ويؤكد أنه أكثر من غيره من فنون الحرب تأكيداً يوحى بضعفهم فيه ، وكان يبين لهم خطره ليهتموا به ، فهو يفسر القوة في قوله تعالى : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . بقوله : ألا إن القوة الرمي . ويكررها ثلاثاً . ومرّ يوماً هو وصاحباها برماة يرمون ، فقال الرامي : «أصبتُ والله» فأخطأ ، فقال «أبوبكر» حنث يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : «لا : أيمان الرماة لغو ، لا حنث ولا كفارة^(١٥)» . وروى عنه أنه قال في القوس : «ما سبقها سلاح إلى خير قط» وأنه قال : «إن الله ليُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممسك به ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحبُّ إلى من أن تركبوا^(١٦)» فما قدّم الرمي على ركوب الخيل إلا للعناية به ، وحض المسلمين عليه .

هذا وقد كان الذي يجيد الرماية في صدر الإسلام ، يشار إليه بالبنان ، ويرفع ذكره بين الناس «فسعد بن أبي وقاص» كان يرمى بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة (أحد) ؛ لأنه كان من أرمى الناس ، فكان يجمع له الرسول أبويه ، ويقول له : «أرم فداك أبي وأمي^(١٧)» وكان يأمر من يمر به أن ينثر لسعد كنانته ، بل لقد كان أحياناً لشدة الموقف ، يناوله السهم لا نصل له فيرمى به^(١٨) ، وما ذاك إلا لأن مثل سعد في أصحابه نادر أو كالنادر .

وكذلك كان من مهرة الرماة يوم أحد «سُهَيْل بن حُنيف» الذي بايع الرسول

(١٣) فتوح البلدان طبعة باريس ص ٢٦٠ وانظر الهوامش ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من التمهيد .

(١٤) التراتيب الإدارية للإدريسى طبعة فاس سنة ١٣٤٦ هـ ج ١ ص ٣٧٨ .

(١٥) ابن القيم الجوزي : الفروسية طبعة دار الكتب ص ١٠ .

(١٦) هذه الأحاديث من نفس المرجع ص ص ١٥ ، ١٦ .

(١٧) النویری في نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٣١ .

(١٨) أبو الفرج ؛ الأغاني ط الساسي ج ١٣ ص ١٨ .

على الموت ، وجعل ينضح عنه بالنبل حتى كشف الناس ، فكان الرسول يقول لأصحابه : « نبلوا سهيلاً » أى أعطوه نبلكم ، فلو قد كان فى المسلمين مثل هذين لأجادوا الدفاع ، وهل يترك الناس سهامهم له إلا لدفته فى الرمى من دونهم ؟

يضاف إلى ما تقدم أن رماة المسلمين يوم أحد كانوا خمسين ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يومها رمى عن قوسه (الكستوم) حتى صارت شظايا ، فرمى بالحجر^(١٩) ، وأن « سعدا وسهيلاً » أبلياً خير البلاء ، وأن أبا طلحة « كسر يومها قوسين أو ثلاثة^(٢٠) » ، فلو أن هؤلاء الرماة كانوا لا يكاد يسقط لهم سهم كما يزعم بعضهم ، وفرضنا أن كلا منهم رمى فى المعركة بعشرين سهماً أو نحوها ، لبلغ القتل والجرحى من المشركين عدداً ضخماً ، بالإضافة إلى قتلى الرماح والسيوف ، ولتغيرت نتيجة المعركة من تحاجز بين الفريقين إلى نصر للمسلمين ، وهذا لم يحدث فى الواقع .

وفوق كل ما سبق يقرر المؤرخون المسلمون — الذين نقل ثابت إجماعهم على مهارة العرب فى التزع بالقوس — أن الفرس والترك والنوبة كانوا أمهر من العرب ، وأن العرب هم الذين سموا النوبة (رماة الحدق) .

يروى الطبرى أنه « بلغ من مهارة الفرس فى الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالنشاب^(٢١) » ولا يقال هذا تعصب من الطبرى لقومه ، فهو مسلم معروف بالفطنة والصدق ، وقد روى فى مكان آخر « أن المسلمين لما فتحوا مصر غزوا النوبة ، فقفلوا بالجراحات وذهب الحدق ، من جودة الرمى فسموهم (رماة الحدق) ، فلما ولى (عبد الله بن سعد) صالحهم على هدية عدة رءوس منهم يؤدونهم للمسلمين فى كل سنة ، ويهدى إليهم المسلمون طعاماً مسمى وكسوة^(٢٢) » ويتابع الطبرى ابن الأثير حيث يقول : « ولما فتح عمرو مصر ، غزا النوبة ، فرجع المسلمون بالجراحات لجودة رميهم ، فسموهم « رماة الحدق^(٢٣) » .

هذا ولا أكون غالباً إذا قلت : إن جمهور المؤرخين ومن كتبوا فى السلاح ينسبون التفوق فى الرمى إلى الفرس والترك لا إلى العرب ، فابن القيم لما تحدث عن

(١٩) ابن سعد فى طبقاته ط ليدن ج ٢ ص ٢٩ .

(٢٠) البخارى شرح القسطلانى ج ٥ ص ٩٥ .

(٢١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٤٠ .

(٢٢) نفس المرجع ص ٢٣٠ .

(٢٣) الكامل له ج ٢ ص ٢٣٩ .

أنواع القسي العربية قال : « ولا تكاد ترى هذه القسي إلا بارض الحجاز ، ولا يُستفَع بها في غيرها من الأماكن .^(٢٤) » فهم بعد نقلهم عن الفرس لم ينشروا القوس في بلادهم كلَّها ، وإنما ظلت مقصورةً على الحجاز .

وقد تعرض « الحسن بن عبد الله^(٢٥) » في كتابه إلى الأمم المختلفة وبيان ما امتازت به من سلاح في حروبها ، فجعل من مزايا الفرس والترك الرمي بالنشاب ، فلما جاء لذكر العرب قال : « وليس لهم من أنواع الأسلحة إلا الرمح ، ورمي القوس العربي في بعض طوائفهم ، وهو كالنادر فيهم^(٢٦) » وروى في موضع آخر أن الذي يحسن الرمي بالقوس السودان والفرس والروم وطائفة من العرب^(٢٧) ، فلم يذكر العرب جميعاً كغيرهم ، وإذا كانت القوس كالنادر في أيام الحسن في القرن السابع ، فما بالك بالقوس قبل ذلك التاريخ ؟

ويقول « ابن خلدون » في هذا المعنى : « وبُلِّغْتُ أن أمم الترك لهذا العهد ، قتالهم مناضلة بالسهم » ويؤيد هذا أيضاً أن « ابن السنجاري » ذكر تاريخ القوس في كتابه^(٢٨) ، فنسب إبداع الرمي إلى ملوك الفرس ، ثم ذكر بعدهم « الرسول » صلى الله عليه وسلم ، وسعد بن أبي وقاص .

هذا ، وليس معنى سبق الفرس والأحباش للعرب في الرماية ، أنهم ظلوا جميعاً متخلفين عنهم في ذلك الميدان . فإن بعض قوادهم توسعوا في استعمال القوس ، وأجادت بعض فرقهم فن الرماية كما هي عاداتهم : ينقلون السلاح الحديد عن غيرهم ، ثم لا يلبثون أن يفوقوا فيه أساتذتهم ، ولذا رأينا بعضهم بعد اتصالهم بالفرس يتقدمون كثيراً في الرماية ، ويستأهلون حقاً لقب « رُماة الحدق » . يذكر « الطبري^(٢٩) » في حوادث العام الثالث عشر أن أهل الأنبار ، تحصنوا من « خالد بن الوليد » في حصونهم وخندقوا عليهم ، فتقدم إلى رماة وقال : « إني أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب

(٢٤) الفروسية ص ١٠١ .

(٢٥) ابن محمد بن عمر بن محاسن ابن عبد الكريم ينهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب من علماء القرن الثامن بدأ في تأليف كتابه سنة ٧٠٨ هـ .

(٢٦) آثار الأول في تدبير الدول مطبوع بها من تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٧ ، ٦٨ .

(٢٧) نفس المرجع ص ١٨٣ .

(٢٨) هداية الراي بخطوط مصور بالجامعة العربية - فيلم ٦٣٦ .

(٢٩) تاريخه ج ٤ ص ٢٠ .

فارموا عيونهم ولا توخّوا غيرها ، فرموها رشقاً واحداً ، ثم تابعوا الرمي ففقّء ألف عين يومئذ» وهذه الرواية على ما قد يكون فيها من مبالغة ، تقفنا على التقدم السريع الذى أحرزه المسلمون فى فن الرماية ، ويزيد هذا المعنى وضوحاً وقوة أن أحدهم كان يعتبر نفسه تيساً إذا فقد قوسه فى المعركة ، فلم يرم بها .

ولم يقف تقدم العرب عند القوس وحدها ، وإنما تناولوا سائر الأسلحة بالتحسين ، حتى أدهشوا فى ذلك الفرس والروم ، وقد اعترف بذلك الإمبراطور البيزنطى « ليو » مع ما عرف عنه من تعصب على العرب ، فقد نقل عنه العلامة « فون كريمير »^(٣١) أنه قال « إن الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح ، فالأسلحة هى نفس الأسلحة : القوس والسهم ، والسيوف والبلطة ، والخوذة وقاية الرأس ، والدرع وقاية البدن ، والحديد يلبس فى الأذرع والسيقان . »

تطور القسيّ عند العرب :

كان العربىّ أول أمره يتخذ القوس من عود يحنى طرفيه ، ثم يشدّ بينهما وترّاً ، فلما تقدم به الزمن تنوعت عنده الأقواس ، فصار لأهل البدو قسيّ متمايزة عن قسيّ أهل الحضرة^(٣٢) ، وشهرت فى بلاد العرب القسيّ (الحجازية) وهى عود من النبع أو الشوحط يحنى طرفاه وليس لها سيتان ولا مقابض ، وكان منها نوع يصنع من عودين ويسمونها « شريحية » ولكن الذى من عود واحد كانت عندهم أجود^(٣٤) . ثم تطورت القسيّ بعد ذلك ، فصارت تصنع أجزاءها منفصلة ، ثم تتركب بعد ذلك وتلتصق بالغراء^(٣٤) ، ولذا كانوا يسمونها (المنفصلة) لانفصال أجزائها ، وصار لها سيتان ومقبض ، وكانوا يطلقون عليها أيضاً (الواسطية)^(٣٥) وبها مجرى غائر بالخشب ، تجرى فيه السهام أمام الأوتار .

(٣٠) تاريخه ص ١١٧ .

(٣١) The Orient under the Caliphs. p. 328.

(٣٢) ابن القيم فى الفروسية ص ١٠١ .

(٣٣) نفس المرجع ص ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣٤) التويرى فى نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٣٥) ليست من عمل أهل واسط كما ذهب بعضهم ، بل هى أقدم من واسط - : السنجارى :

هداية الرامى إلى الأغراض والمراى . فيلم ٦٣٦ ، ويظهر أنها نسبت إلى صانعها .

ثم تطورت القسيّ ، وتعددت أنواعها ، وصارت تنسب إلى البلاد والصناع كالحجازية والدمشقية والواسطية وغيرها ، وأجودها عندهم كما ذكر صاحب « آثار الأول » ما كثر فوقها ، وقل خشبها ، وصحّ لحامها ، واشتد جفافها ، وقوى حبها^(٣٦) ، وإذا كانت القوس المنفصلة أقدم من واسط كما في الهامش^(٣٥) فمن الراجح أنها كانت مستعملة في القرن الثاني الهجري .

ولم يقف تطورها عند هذا الحد ، فصار إلى جانب القوس التي تطلق باليد ، قوس تطلق بالرجل مع اليد يتمطى فيها الرامي ، فيصعد برجليه وينزع بيديه ذكرها « ابن القيم » ولم يوضح لذا كيفية الرمي بها ، ولكنه عقد فصلا طويلا عن تعليم الرمي ، وأوضاع الرامي ، وكيفية العمل بالقوس ، من قبض ومد وعقد وإطلاق ، إلى قواعد كثيرة كالتى يتعلمها جنودنا اليوم لأول عهدهم بالرمية ، كما عقد مناظرة أدبية بين قوس اليد وقوس الرجل^(٣٧) ، ليس هنا موضعها ، ولا أدري على وجه التأكيد ، هل استخدمت قوس الرجل في تلك الفترة أولا ؟ أنظر شكل (٣) . مما تقدم نرى أنه لا فرق بين تعليمات الرماية قديماً ، وتعليماتها في الجيوش الحديثة ولكل زمان سلاحه ، وما علينا إلا أن نظهر للناس تراث السابقين الذين خدموا الفن الحربى بمؤلفاتهم ، التي لا تزال في غيابات المكتبات .

وصف السهم وأجزائه :

القوس للرامي (كالبندقية) والأسهم كطلقاتها ، ولا بد للرامي من أن يحتفظ في كنانته الجلدية ، بعدد من الأسهم عند القتال ، والسهم والنبل والنشاب أسماء لشيء واحد ، وهو عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريباً ، يأخذه الجندى فينحته ويسويه ، ثم يفرض فيه فروضاً (حزوزاً) دائرية ، ليركب فيها الريش ، ويشده عليها بالجلد المتين أو يلصقه بالغراء ويربطه ثم يركب في قمته نصلا من حديد مدبب ، له سنتان في عكس اتجاهه ، يجعلانه صعب الإخراج إذا نشب في الجسم .

(٣٦) مطبوع بهامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٨٣ ، ولعل كلمة (لحامها) تصحيف (خامها) واللحام يكون بالغراء .

(٣٧) الفروسية ص ١٠٧ - ١٣٤ ، وعلى من أراد التوسعة فليرجع إلى هذا الكتاب ومخطوط السنجارى ، ومخطوط السيوطى ، وآثار الأول السابقة .

وأجود الخشب عندهم للقوس والسهم « ما اجتمع فيه الصلابة والخفة » ورقة البشرة وصفاء الأديم ، وكان طويل العرق ، غير رخو ولا متنفّش ، وأجود الخشب بالمشرق عود الشوحط ، وبالأندلس الصنوبر الأحمر الخفيف^(٣٨) .
وللسهم عند العرب أسماء تختلف باختلاف أطوار صنعه ، وهى أسماء تبين الطريق التى كان يسلكها حتى يصير سهماً . فهو فى أول أمره (قدح) فإذا قوّم ونُحِت فهو (مخشوب) فإذا لُين للريش والعقب فهو (محلق) . . . فإذا فُرض فهو (فريض) فإذا ريش فهو (مريش) فإذا عمل له فوق قلت (فوقت)^(٣٩) . وإليك توضيح هذه المسميات والمصطلحات ، كما فى المراجع اللغوية .

أجزاء السهم :

- ١ - القدح : وهو جسم السهم المتخذ من الخشب الصلب الخفيف والقصير منه فى طول الذراع ، ويسمونه (الحظوة) وقد يزيد عن ذلك^(٤٠) . وقد يكون فى سمك الإصبع ، وقد يكون فى سمك القلم .
- ٢ - النصل : وهو حديدة يطرّقها الحداد ، ويلوحها على الجمر حتى تصير زرقاء ، ثم تُبَرّد بالمبرد ، ويجعل له شوكلات جانبية تجعل نزعه صعباً إذا نشب ، وله أسماء مختلفة أكثر منها « ابن سيده » ولا داعى للإكثار منها هنا^(٤١) ، ويكفيها فى معرفة أنواعها قوله « ومن نصال السهام العريضُ الطويل ، والعريضُ القصير ، والمدور المدملك ولا عرض له ، ومنها ما هو كمخيط أو مسلة ، ليست له حروف ولا شفرة ، ومنها ما هو قدر الإصبع ، ومنها ما هو مثل النواة^(٤٢) » . وذكر فى موضع آخر أنه قد يكون النصل مشعباً ، ومنه ماله أربع شعب ، وهو سهم طويل بعيد المرمى وسماه « المريخ »^(٤٣) .

(٣٨) مخطوط السنجارى . الهداية .

(٣٩) انظر هداية الراى للسنجارى السابق باب ٤٥ .

(٤٠) ابن سيده : المخصص ج ٦ ص ٥١ .

(٤١) نفس المرجع ص ٦٠ .

(٤٢) ابن سيده : المخصص ص ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٤٣) المرجع نفسه ص ٥١ .

- ٣ - سِنَخ النصل : وهو أصله من أسفل ، الذي يجوّف ثم يدخل فيه أعلى القدح
- ٤ - الرُعْظ : وهو مدخل السنخ الذي يوضع فيه القدح .
- ٥ - العَقَب : لفائف من سير جلدي أو عصب ، تلفّ حول الرعظ لتمكين النصل من القدح ، ويقال له أحياناً « الرصفة أو الرصافة »^(٤٤) .
- ٦ - الفُوق : وهو تجويف يفرض في أسفل السهم ، ليثبت فيه الوتر قبل الرمي .
- ٧ - زَمْتَا الفوق : جاء في المخصص أن حرفي الفوق يسميان زمتاه أو رجلاه .
- ٨ - الشريجة : العَقَبَة التي يلزق بها ريش السهم ، ليزنه في سيره ويسرع به إلى الهدف ، ويقال في اللغة : راش السهم فالسهم مريش ، ويقال لها « الطنبية »^(٤٥) أيضاً .

٩ - الريش : وهو ريش طير يركّب على جانبي السهم في الفروض التي فرضت له ، ثم يشد عليه بالعقب في أسفله ، أو يلصق بالغراء إذا كان بلا فروض^(٤٦) ، وذكر « ابن سيده » أن « عدد الريش غالباً اثنتان أو ثلاث » وظيفتها حفظ توازن السهم وعدم اضطرابه عند السير إلى الغرض ، كما ذكر أن بعضهم « حذّر الرامي من أن يجعل ريشتين معاً لظهر أو لبطن أو يجعل ريشتين لظهرهما والثالثة لبطنها فيضطرب السهم في سيره ، كما حذّر من أن تؤخذ ريشة من عقاب ، وأخرى من نسر وثالثة من غراب أو رخمة لاختلاف الصلابة »^(٤٧) . انظر شكل « ٣ »

وأجود الريش عندهم ريش النّسر ، ثم ريش العقاب ، فإن عدم الريش فالكاغْد (الورق) وريش الأذنان خير من ريش الجناحين ، وكانوا يفضلون خوافي الجناحين على قوادمها ويسمونها « الدخل » وهو الذي لا يلي الشمس أو المطر من الطائر ، ولا يلي الأرض منه إذا جثم ، وإنما يقع بينهما ، وذلك لأن الشمس

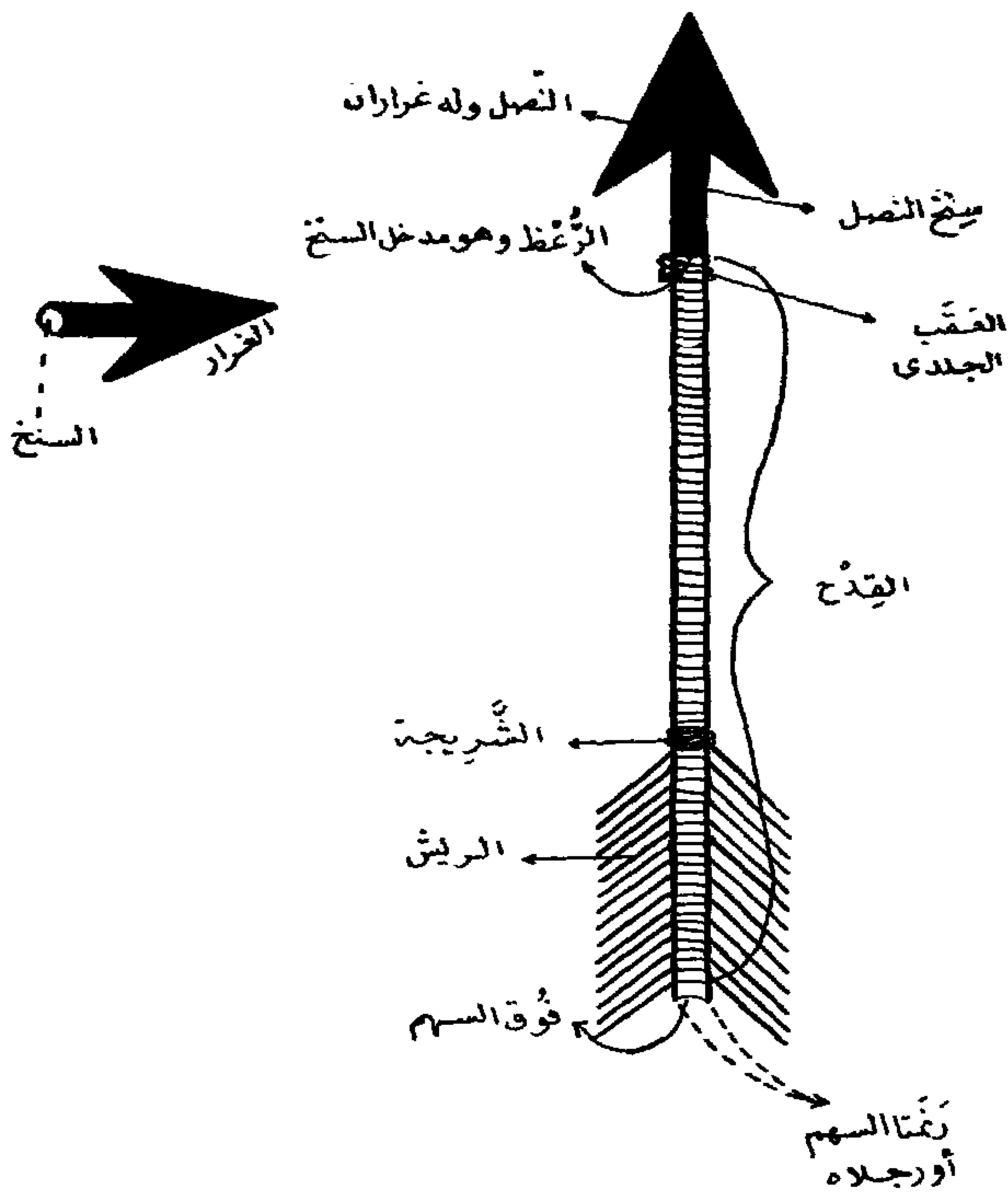
(٤٤) القاموس المحيط مواد (رصف ، رعظ ، ريش ، فوق) .

(٤٥) انظر في هذه الأجزاء المخصص ، والإفصاح في آلات القتال ، والقاموس المحيط مادة

(شرح وعقب) .

(٤٦) المخصص ج ٦ ص ٥٦ .

(٤٧) ابن سيده - المخصص ج ٦ ص ٥٧ .



(شكل ٣)

لا تصيبه، فلا تنشعب أطرافه إذا رُمي به وكانوا يفضلون ريش الجناح الشمال؛ لهدوئه عن ريش اليمين، وحذروا من أن تكون إحدى الريشتين أثقل من الأخرى، أو تكون إحداهما راقدة والأخرى قائمة، فيختل التوازن (٤٨)، (انظر رسم السهم شكل ٣). وكان الرامي يلبس في إبهام يمينه أنملة من جلد، لئلا يؤذيه الوتر عند

الرمي، وهي أداة تسمى « الختية » تشبه الأداة التي يلبسها الحائكون في أناملهم، لاتقاء وخزات الإبر.

ومن مستلزمات السهام الكنانة، وهي الوعاء الذي تودع فيها مثل البُل الذي يلبسه الجندى ليحفظ فيه الطلقات حديثاً، وهي وعاء من قوائم خشبية، يوصل ما بينها بالجلد، أو وعاء جلدي لا خشب فيه، وفي تلك الحال كانوا يشقون الجلد ثم يخيطنونه مرة أخرى، ليصل الهواء إلى الريش فلا يفسد (٤٩).

وهناك نوع يرمى السهام الكبيرة؛ يسمى « البالستا » وهو نوع متأخر، ذكرهنا للفائدة.

(٤٨) المصدر نفسه ص ٥٧ وهداية الرامي باب ٤٥ .

(٤٩) المصدر نفسه ص ٦٩ .

استعمالات السهم :

الأصل في السهام أن يُرمى بها عن بعد ، سواء أكان ذلك في ميدان مكشوف أم من وراء الأسوار والحصون ، وهو سلاح قتال فتاك ، وبخاصة إذا سبق نصله بالسهم ، كما كان يفعل رماة الروم بسهامهم ^(٥٠) ، وقد سبق في الكلمة التاريخية عن القوس بيان أهمية الرماية ^(٥١) .

وفي بعض الأحيان كانت السهام تستعمل كأداة للتخاطب ، يكتب عليها راميها ما يشاء ، ثم يرميها لمن شاء ، حفظاً للسرية ، وأكثر ما كان يحدث هذا في حصار الحصون ، فإذا أراد المهاجم أن ينشر الذعر بين المحاصرين كتب لهم على السهم أو على ورقة مربوطة به ، أخباراً تحطم روحهم المعنوية أو أخباراً وأمنيات ، تجعلهم يميلون إلى التسليم ثم يرمى به إليهم ، وقد يكون من في الحصن يرغبون في التسليم ، فيطلبون الأمان مكتوباً ، ثم يرمون به في سهم إلى من في الخارج ^(٥٢) وأحياناً كانت تدبر المؤامرات والمكائد ، ضد بعض القواد بلا علمه ، وتجرى المحادثات بين أتباعه وأعدائه مراسلة بالسهم ^(٥٣) ، فتم المؤامرة في جو من السرية .

روى « ابن الأثير » أن رجلاً من المحاصرين في مدينة « رامهرمز » رمى إلى المسلمين يستأمنهم بسهم فأمنّوه ، فدلهم على مدخل المدينة ، وأن المسلمين لما حاصروا مدينة « جُنْدِسَابُور » رمى عبد من عبيدهم بالأمان إلى من بها ، ففتحوا أبوابها وقالوا : رميت لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا بالجزية ، فقبلوا منهم ^(٥٤) . وأجاز القائد أمان ذلك العبد ، وإن كان بدون علمه .

ولأهمية القوس في القتال والمراسلة والتخاطب ، كانت تؤلف لها فرق خاصة تسمى « النبالة أو النشاشبنة » يتقدمون الجيش ، حافظين أوتارهم من الشمس والمطر ، محتفظين بأوتار احتياطية ، ليبدّل أحدهم الوتر إذا ضعف ، ضماناً لجودة الرمي

(٥٠) V. Kremer : The Orient under the Caliphs. p. 331.

(٥١) انظر الهوامش ١٣ - ٢٣ من هذا الفصل .

(٥٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢١٦ .

(٥٣) انظر ابن الأثير في الكامل ج ٤ ص ١٤١ .

(٥٤) نفس المرجع ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٤ .

(٥٥) الناقل الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه « الفتوة عند العرب » ص ٢٤٣ .

واستمراره ، كما تبدل مواسير بعض الرشاشات في الجيوش الحديثة ، خوفاً عليها أن تكسر ، وضماناً لاستمرار الرمي .

السهم والبندق :

نقل بعض الباحثين عن « ابن الأثير » أن العرب استخدموا الرمي بالبندق زمن « عثمان » وأنهم أخذوه عن الفرس^(٥٥) ، وقد يظن قارئ الخبر أن هذا سلاح كان يستخدم في القتال ، والواقع أنه كان رياضة تستخدم في صيد الطيور ، حيث يجهز قوس به قناة توضع فيها حصيات في حجم (البندق) ثم يقذفها السهم أمامه ، فهي أضعف من أن تقتل الرجال أو تجرحهم . وهناك بعض الأدلة التي تؤيد أنه كان عملاً يقصد به اللهو ، ولا يقصد به القتل :

١ — ما نقله الأستاذ نفسه في الخبر ، من أن العرب زمن « عثمان » كانوا يعدون هذا العمل منكراً يجب اجتنابه ، ويعيبون على المشتغلين به ، ولو كان عملاً حريياً لشجعوه ورغبوا فيه .

٢ — أنه كان « للرشيد » فرقة تسير بين يديه ، ترمي بالبندق من يقف في طريق موكبه ، وليس من المعقول أن يبغى الرشيد قتل من يزحم طريقه ، وإنما هي كسرة من طين أو من حجارة تنبه ولا تجرح .

٣ — روى « أبو إسحاق الصابى » في رسائله ، أن رمى البندق كان يستخدم للصيد ، تلهياً به عند السادة ، وتكسباً عند العامة ، حيث يقول في وصف رمى البندق وآلاته^(٥٦) : « يعتد به الخاصة مسرة وملعباً ، والعامة حرفة ومكسباً ، الصيد الذى فاتحته طلاب لذة ووطر ، وخاتمته حصول مغنم وظفر ، وقد اشتركت الملوك والسوقة في استحماله^(٥٧) ، واتفقت الشرائع المختلفة على استحلاله ، ونطقت الكتب المنزلة بالرخصة فيه ، وبعثت المروءات على مزاولته وتعاطيه ، وهو رائج للأبدان ، وجامع شمل الإخوان »

(٥٦) رسائل الصابى : مصور بالجامعة العربية . فيلم ٣١٩٣ ورقة ١٧٤ .

(٥٧) كذا بالأصل ولعلها تصحيف لكلمة (استعماله) .

(ب) الرمح

وصفه وتسمية أجزائه :

كان العربي يتخذ رمحه من فروع أشجار صلبة لدنة ، أشهرها النبع والشوحط وأحياناً كان يأخذه من القصب الهندي المجوف Bamboo الذى يسمى عند العامة (البوص) بعد تسوية عقده بالسكين ، وتركيب نصل من حديد فى رأسه ، وأهم أجزائه هى :

١ - المتن أو العامل : وهو جسم الرمح كله من أعلاه إلى أسفله ، قبل أن يُركب عليه النصل .

٢ - الكعوب : هى العقدة التى تكون فى الفرع ، ثم تسوى حتى تصير ملساء .

٣ - الزُّج : وهو حديدة تركب فى أسفله مدببة الطرف ، تساعد على إثباته فى الأرض ويُطعن بها أيضاً فى المعركة عند الحاجة إليها .

٤ - العالية : وهى الجزء العلوى ، الذى تحت النصل ويسمونه (صدر الرمح) وليس له حد معروف قال زهير :

ومن يعص أطراف الزُّجاج فإنه يطيع العوالى ركبت كل لهدم

٥ - السنان : وهو الجزء الذى يركب فوقه للطعن به ، وكان أولاً يُتخذ من قرون البقر الوحشى^(٥٨) ، ثم صار يتخذ من الحديد الجيد النقى ، ولذا كانوا يصفونه بالزرقاء لصفائه ، وله أشكال مختلفة ، فمن الأسنة العريض كالکف المدبب من الطرف ، محدد الجانبين ، ومنها ما يكون من شعبتين : إحداهما مستقيمة كالسكين ، والثانية متعرجة ، ومنها السنان الرفيع الطويل ، وعنه نقلت فكرة (السنكى) الذى يركب على البندقية الحديثة ، ومنها الرفيع المعرج المموج ، الذى يحدث فجوة عند الطعن به^(٥٩) .

٦ - الثعلبة : وهى الجزء الأسفل من السنان ، الذى يدخل فيه أعلى الرمح .

٧ - الظُّبَّة : وهى نهاية السنان المدبب من أعلاه . انظر الأشكال (٤ ، ٥) .

(٥٨) انظر المخصص ج ٦ ص ٣٤ .

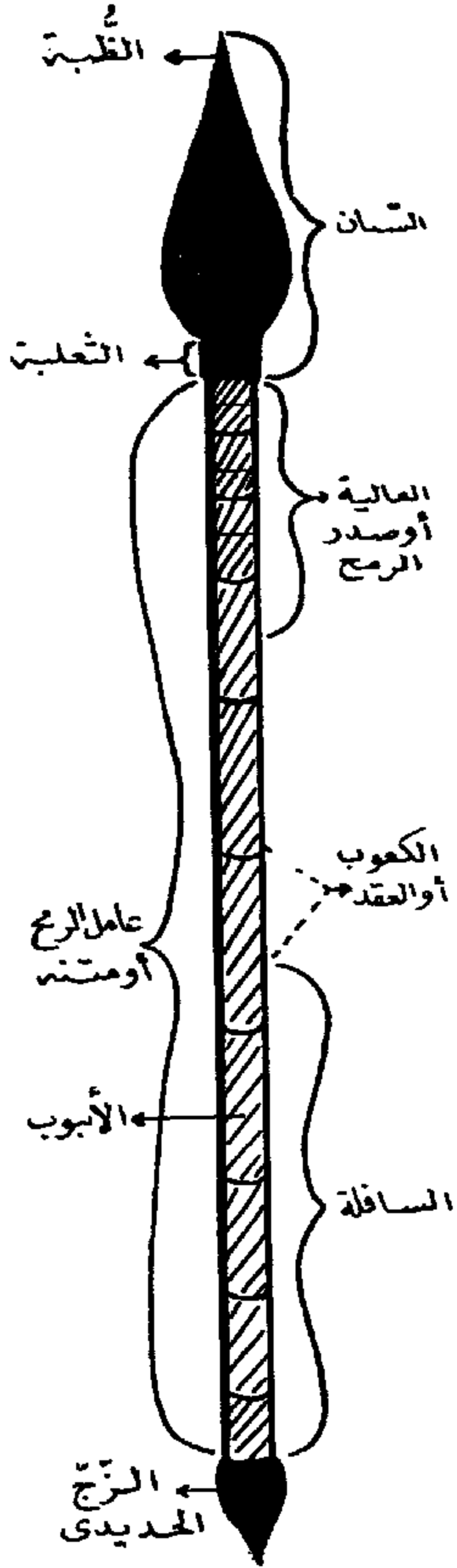
(٥٩) زيدان فى تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٧ ، وثابت فى تاريخ الجندية ص ١٨٣

والمتاحف الحربية والإسلامية .

وذكر « البستاني » من أنواع الرماح « الخطاف »
وهو قنطرة طويلة في رأسها حربة ، أو حربتان مستقيمتان
وحربة عوجاء ، كانوا يستعملونها للطعن أو النقب أو
لحر العدو عن بعد ، خصوصاً عند الهجوم على الأسوار
والحصون^(٦٠).

الرمح والحربة :

الرمح سلاح عريق في القدم ، شاع استعماله عند
قدماء المصريين والشعوب القديمة^(٦١) ، وكان أكثر
شيوعاً عند الأمم التي تسكن الصحراء ، ومنهم العرب ،
فهو عماد العربي في صحرائه الواسعة ، ينشر عليه ثوبه
فيستظل به إذا لفحه الهجير ، ويصيد به الوحش إذا
جاع ، ويهش به أوراق الشجر على غنمه ، ويدفع
به عن نفسه عدوان المعتدين ، يتخذه الفقير من فروع
الشجر ، والغنى من نادر الخشب وكرائم العيدان ،
كالأبنوس وألباب الغصون الكريمة^(٦٢) . كل بحسب
قدرته المالية ، ومركزه في مجتمعه ، وقدرته وبطولته بين لداته .



شكل (٤)

وقد شجع الرسول (ص) المسلمين على اقتنائه بالإشادة به في قوله لما رأى
القوس :

« بهذه وبرماح القنا تفتحون البلاد » وقوله : « جعل رزقي تحت ظل رمحي »^(٦٣)
وكان للرمح أطوال مختلفة ، تتراوح بين الأربعة أذرع والخمسة والعشرة
وما فوقها ، يشهد لذلك ما رواه « الجاحظ » من شعر العرب ، قال الشاعر :

(٦٠) دائرة المعارف له ج ١٦ ص ٦٩٩ .

(٦١) دائرة المعارف له ص ٦٩٦ .

(٦٢) الجاحظ في البيان والتبيين ط القاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م ج ٣ ص ٦٤ .

(٦٣) الحديثان من صحيح البخاري ج ٥ ص ١٠٠ ، ونهاية الأرب للنويري ط دار الكتب سفر

وأسمَرَ خطيئاً كأن كعوبه نوى القَسْبُ قد أرمى ذراعاً على العشر^(٦٤)
فهو يفخر بأن رمحه صُلب العُقد كنوى التمر اليابس ، وأنه طويل يزيد على
عشرة أذرع ؛ لأن طوله دليل على شدة احتمال صاحبه ، وعامل من عوامل الهيبة في
عين العدو .

ومما قاله الجاحظ في أطوال الرماح :

« للرماح طبقات : منها « النيزك » ومنها المربع ، ومنها الخموس ومنها التام ،
ومنها الخطيل ، وهو الذى يضطرب فى يد صاحبه لإفراط طوله .^(٦٥) . » وأورد
لذلك شواهد شعرية لاداعى للإكثار منها .

والذى يفهم من النصوص أن الرماح الطوال ، كانت خاصة بالفرسان حيث
تساعدهم الخيل على حملها ، والعمل بها عند اللقاء ، أما « النيازك أو المطارد ؛
وهى الرماح القصيرة فكانت تستخدم فى حالين :

- ١ - عند مطاردة الهاربين . فربما شد أحدهم على الفارس المولّى فيفوته ،
بأن يكون رمحه مربعاً أو خموساً ، وعندئذ يستعملون النيازك وهى أقصر الرماح ،
فإذا كان الفارسُ الهارب يفوت الفارسَ الطالب ، زجه بالنيزك أى رماه به عن بعد .
- ٢ - أن يخاف الفارس الطاعن من المطعون لقوته ، فإنه فى تلك الحال يرمى
بالحرية عن بعد ولا يطعن بالرمح ، وفى هذا يقول الجاحظ : « وربما هاب
مخالطته فيستعمل الزّج دون الطعن » .

فى لغة العرب أن « الحرية والنيزك والمزراق والمطرّد والعنزّة ؛ كلها أسماء لشيء
واحد » وهى القصار من الرماح التى لم تبلغ أربعة أذرع وهى أشبه شيء بالعصا .
وتفيد النصوص أن العرب نقلوا هذه الأنواع القصيرة ، عن الأحباش والنوبة
الذين عرفوا بالمهارة فى القذف بها ، فقد روت السيدة « عائشة » أن الأحباش
كانوا يفدون إلى المدينة ، فيلعبون بحراهم لعب الحبشة أمام الرسول
وصحبه^(٦٦) ، وروى « الطبرى » اختصاص الأحباش بالقذف بالحرية فقال فى

(٦٤) المرجع السابق للجاحظ ص ١٩ .

(٦٥) انظر المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٠ ، وأصل نيزك بالفارسية « نيزه » ثم عرب كما ورد

فى معجم اللغة الفارسية للدكتور هندأوى ص ٣٣٨ .

(٦٦) نفس المرجع السابق (رقم ٦٥) البيان للجاحظ ج ٣ ص ١٩ .

(٦٧) صحيح البخارى ج ٥ ص ٩٥ ، ٩٧ .

قاتل حمزة : « كان وحشياً غلاماً حبشياً يقذف بحربة له قذف الحبشة^(٦٨) » .
وقد اعترف شاعر الرسول نفسه ، بأنها سلاح ما هو بسلاح العرب ، إن صحت
رواية « أبي الفرج^(٦٩) » . عنه في غزوة أحد .

وأغلب الظن أن العرب نقلوا عن النوبة استخدام هذا السلاح ولكن في نطاق
ضيق ، فقد أخذ الرسول الحربة من بعض أصحابه يوم أحد ، ثم قذف بها « أبي
ابن خلف » الذي جاء يطلب قتله ، وفي يوم الخندق رأينا « سعد بن عبادة »
يحمل الحربة في يده دائماً^(٧٠) .

أهمية الرمح وكيفية حمله واستخدامه :

كان العرب يعنون بالرمح ، ويفضلون القناة الصماء على الجوفاء لصلابتها
وغنائها في المعارك ، فيوالون دهنها بالزيت لتحافظ على مرونتها ولدونتها^(٧١) ،
ويدعمون العناية بها ، لتحافظ على لمعانها وجودتها .

وكما نسب العرب السيوف إلى صناعتها ، نسبوا كذلك الرماح « فالسمهرية »
عندهم الصلبة ، التي تنسب إلى رجل معروف بتقويم الرماح يسمى « سمهر »
« والزاغية » المنسوبة إلى « زاغب » واليزنية المنسوبة إلى « ذى يزن » ، والرمح
« الرديني » المنسوب إلى امرأة تسمى « ردينة » وهي امرأة كانت تباع الرماح^(٧٢)
معروفة .

ويظهر أن الرماح الجوفاء كانت ترد للعرب من فارس والهند ، لأنه ليس
ببلادهم ذلك النوع من القصب ، ولأنهم نسبوا رماحهم الصماء إلى صناعتها كما
رأيت ، إلا الرماح الخطية ، فإنهم نسبوها للخط وهو كما روى « ياقوت وابن
سيده » مرفأً للسفن بالبحرين تنسب إليه الرماح ، وليس بمنبت لها ولكن تحمل
إليه القنا من الهند ، كما نسبوا المسك إلى « دارين » وهي مرفأً يحمل إليه من

(٦٨) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠ .

(٦٩) الأغاني ط الساسي ج ١٤ ص ٢٠ .

(٧٠) سيرة ابن هشام ط الحلبي ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٧١) الجاحظ في البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٠ ونهاية الأرب للنويري ج ٦ ص ٢٢١ .

الهند أيضاً^(٧٣) ، فليس الخط إذاً مكان نموها أو صنعها .

أما طريقة حمل الرمح فكانت في الغالب « الاعتقال » وهو خاص بالفرسان ولذا كان يقال عندهم : « اعتقل رمحه » إذا جعله بين ركابه وساقه^(٧٤) بحيث يكون النصل لأعلى والزج لأسفل ، على أنه كان لبعض قبائل العرب طرائق خاصة في حمله ، « فبنو سُليم » كانوا إذا ركبوا يضعون رماحهم بين آذان خيلهم « والأوس والخزرج » كانوا يحملونها عليها مستعرضة ، أما « القرشيون » فكانوا يحملون رماحهم على عواتقهم^(٧٥) .

وكان المسلمون يقضون وقتاً طويلاً في التمرن على استخدامها ، أما بمطاردة الوحوش وطعنها بها ، وإما بإعداد حلقة من الحديد تسمى « الوترّة » يتمرنون على الطعن داخلها حتى حذقوا الطعن بها ، وصارت لهم فيه طريقة تغاير طريقة الفرس وفي كتاب « آثار الأول » تفصيلات وافية عن طرق المبارزة ، يصح الاكتفاء منا بما يأتي :

« منها (المواجهة) وهي أن تحمل على مبارزك ، وقد أخذت الرمح تحت إبطك ، وجعلته بين أذني فرسك ، وتقصده مستوياً حتى تقرب منه ، فإن رأيته قد طرح رمحه يميناً فاطرح رمحك يسرة ، وإن طرح رمحه يسرة فاطرح رمحك يميناً ، واجتهد أن تبدأ بالحمل عليه وأنت مسدد ، وتحول الرمح يميناً ويسرة كي تدهشه ، فلا يدرى من أين تجيؤه ، فإذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذي لا يكون رمحه فيه ، وإذا أردت أن تبتدىء بالخروج فخذ أسفل الرمح بيدك اليمنى ، ورأسه إلى الهواء ، وهو على عاتقك الأيمن^(٧٦) » .

ثم أبدع المسلمون بعد ذلك في فنون الطعن بالرمح ، وصار لهم طرق في اللعب بها بين أيدي الملوك ، وفي الاستعراضات العامة ، وصاروا يهتمون بأبطال طعنات الخصم أكثر من اهتمامهم بطعنه ، وعرف عندهم « الطعن الحجازي »

(٧٢) انظر النويري في نهاية الأرب ج ٦ ص ٢١٥ ، وابن سيدة في المخصص ج ٦ ص ٣٣ .

(٧٣) انظر المخصص سفر ٦ ص ٣٤ ، والخط في معجم البلدان .

(٧٤) نهاية الأرب السابق ص ٢١٨ .

(٧٥) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٧٦) الحسن بن عبد الله في آثار الأول - بهامش تاريخ الخلفاء ص ١٨٦ .

والطعن « الروماني » والطعن « الفارسي » ومن أراد التوسعة في ذلك فليرجع إلى « آثار الأول » وكتاب « نجم الدين الرماح » في ذلك الفن ، ففيهما تفصيلات طويلة

(ج) السيف وما يتعلق به

أهمية السيف :

السيف أشرف الأسلحة عند العرب ، وأكثرها غناء في القتال يحافظ كل عربي عليه ولا يكاد يفارقه ، وقد امتلأت بتمجيده أشعارهم ، وجاوزت أسماؤه المئة في لغتهم ، وأطلق بعض أبطالهم الأعلام على سيوفهم فيها (الصمصامة وذو الفقار^(٧٧)) والبتار والقلعي وذو الخرطوم وذو النون وغير ذلك من الأسماء^(٧٨) ، وبلغ ثمنه عندهم فوق الألف من الدراهم أحياناً .

وهو آخر الأسلحة استعمالاً في المعركة بعد القوس والرمح ؛ فهو الذي يحدد مصيرها ، وعلى حسن بلائه تتوقف نهايتها ، ويكتفى لبيان فضله قول الرسول (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف^(٧٩) » . وهو أعم أسلحة العرب وأكثرها شيوعاً ، يدل على ذلك أن الرسول لما استولى على غنائم (بنى قريظة) كان معظمها السيوف فقد غنم منهم ١٥٠٠ سيف ، ٣٠٠ درع ، ٢٠٠ رمح ، ٥٠٠ ترس ، ولضياء قطعه والاعتماد عليه ، كان بعض الجند لا يكتفى بسيف واحد ، وقد بالغ بعضهم فرغب في أن يكون لكل محارب سيفان^(٨٠) : سيف في وسطه وسيف يتقلده ، وذلك لأن السيف قد ينشب في الترس ، وقد يلتوى أو يتثلم وقد ينكسر — كما حدث لخالد بن الوليد يوم مؤتة — فقد انكسرت في يده تسعة أسياف ، ولم يصبر معه إلا سيف يمانى جيد .

(٧٧) سمي بذلك لحزوز مطمئنة على متنه كفقار الظهر ، النويرى في نهاية الأرب ج ٦ ص

٢٠٦ .

(٧٨) نفس المرجع والطبري ج ٣ ص ١٨٤ والقاموس في المواد المذكورة .

(٧٩) صحيح البخاري ج ٥ ص ٥٣ .

(٨٠) انظر كشف الكروب لموسى اليوسفي مخطوط بالمتحف الحربي ، ورقة ٧ .

أجزاء السيف :

- ١ — قائم السيف : وهو مقبضه وموضع اليد منه ، وقد يكون من حديد كالسيف وقد يكون من عاج أو أبنوس ، أو غير ذلك من المعادن الكريمة ، ويسميه النويرى (النصاب) .
- ٢ — النصل : وهو جسم السيف كله ما عدا القائم ، ويكون من الحديد الجيد المطروق .
- ٣ — السيّان : وهو أصل المقبض من نهايته ، مما يلي شحمة الكف ويسميا النويرى « القبعة » .
- ٤ — الكلاب : وهو جزء مستعرض في نهاية القائم ، مما يلي نصل السيف ، فالقائم يكون محصوراً بين السيّان والكلاب ويكون بارزاً من الجانبين ولذا سموه أيضاً (الشاربان) لأنه في صورة الشارب .
- ٥ — الشفرة : وهى حد السيف الذى يرقق ويشحذ ، ويقال له (الغرار) أيضاً ومن السيوف ماله (غراران) من الجانبين ^(٨١) وقد جاء فى شعرهم : « بكل رقيق الشفرتين يمانى » .
- ٦ — المتن : وهو ظهره المقابل للشفرة ، ويكون أغلظ منها وأقوى ، ويكون فيه غالباً حروز عرضية ، كهيئة المبرد .
- ٧ — المضرب : وهو الجزء الذى يضرب به منه ، وهو نحو شبر من طرفه ^(٨٢) ، وهو القدر الذى يكون مقوساً منه .
- ٨ — الذؤابة : وهى طرفه المدب من أعلى ، ويقال لها الذبابة أيضاً ..
أنظر شكل (٦)

(٨١) النويرى فى نهاية الأرب ج ٦ ص ٣٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨٢) نفس المرجع ص ٢٠٨ .

أنواع السيوف وأطوالها :

وسيوف العرب أنواع كثيرة ، تختلف باختلاف صناعتها وأماكن صنعها ، وأشهرها :

١ - السيف اليماني : نسبة إلى اليمن التي كانت مشهورة بصناعة السيوف ، ويظهر أن مادتها الخام كانت تأتيها من الهند ، ولم تصبر مع « خالد بن الوليد » يوم مؤتة إلا صفيحة له يمانية بعد أن انكسرت في يده تسعة أسياف .

٢ - الهندي : أو الهندواني أو المهند وهو المصنوع بالهند وكان يلي اليماني في الجودة .

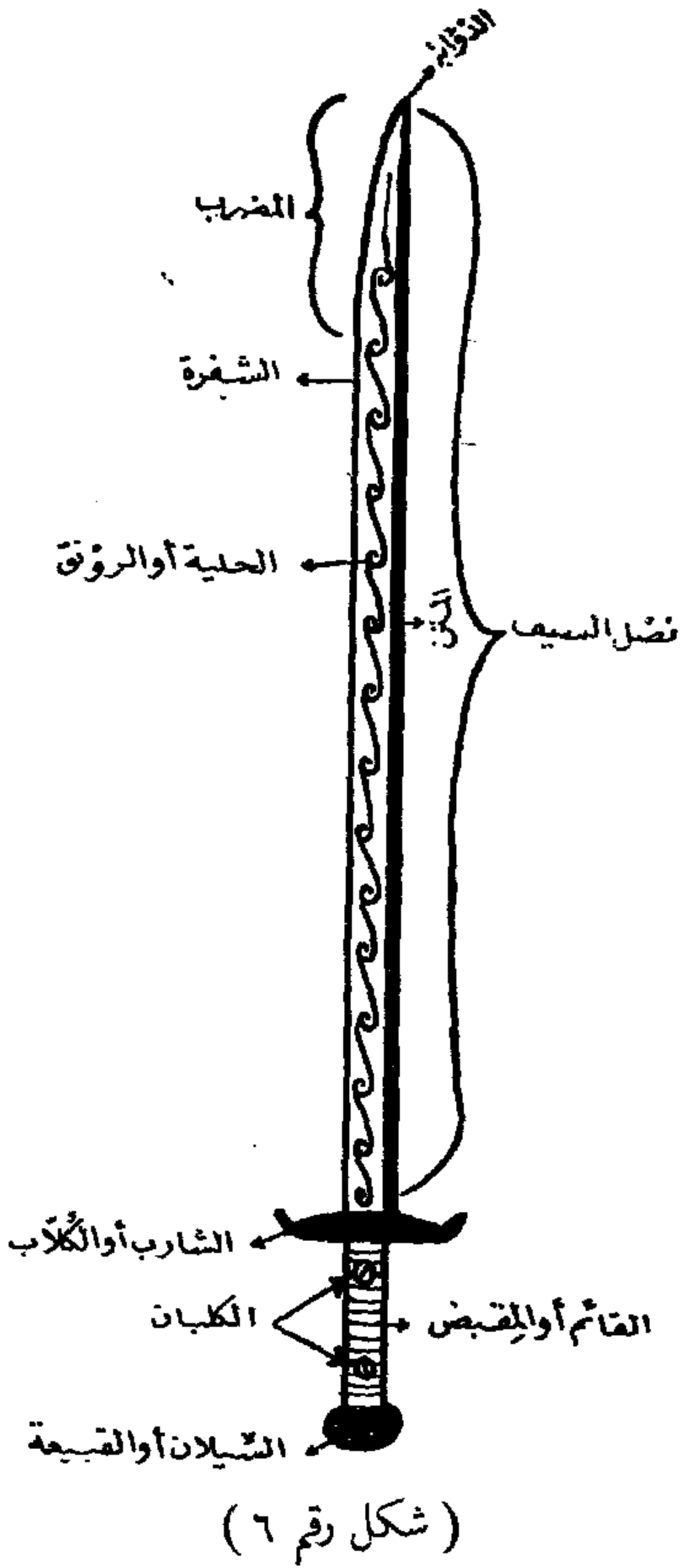
٣ - المشرف : المنسوب إلى مشارف الشام ،

وهي قرية من أرض العرب تدنو من الريف^(٨٣) ، وقد علل الدكتور « على الجندى »^(٨٤) تلك التسمية ، بأنها نسبة إلى صانعها ، وهو رجل من ثقيف كان يسمى « مشرف » ولكنه لم يذكر مصدره .

٤ - البُصروي : المنسوب إلى « بصرى » بالشام ، وفي شعرهم (صفائح بُصرى أخلصتها قيونها^(٨٥)) . . .

٥ - القلعي : نسبة إلى (القلعة) بفتح القاف واللام ، وهي عند « النويرى » حصن بالبادية ، وعند صاحب القاموس بلد من بلاد الهند ، وإليه ينسب الرصاص والسيوف .

٦ - السليمانى : ولم يذكر أحد العلة في تسميته ، ويظهر أنه سمي بذلك ،



(شكل رقم ٦)

(٨٣) المرجع نفسه ص ٢٠٦ والقاموس المحيط مادة (شرف) .

(٨٤) رسالة عن شعر الحرب في العصر الجاهلي ص ١٥٩ .

(٨٥) نهاية الأرب ج ٦ ص ٢٠٢ .

لما كان يستقى به من السم (السليمانى) ليزيد فى صلابته ومضائه ، وللسقى بالسم شاهد من الشعر العربى ، يقول الشاعر فى وصف الصمصامة :
أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت به الذعاف القيون^(٨٦)

٧ - السُّريجية : نسبة إلى حداد يسمى « سُريج » ويذكر « على الجندى » فى رسالته أنه عبد رومى تنسب إليه السيوف الرومية ولم يذكر أيضاً مرجعه^(٨٧) هذه أهم أنواع السيوف ، ومنها نعلم أن أجودها عندهم ما كان هندى الأصل أو رومى الصنعة .

هذا والذى يفهم من الشعر العربى ، أن المسلمين كانوا يفضلون السيوف المرفهة الخفاف على الغلاظ ، وكثيراً ما كان « حسان ابن ثابت » وغيره يشبهون لون السيف بالملح فى شدة صفائه وبياضه ، ولا داعى لذكر الشواهد خشية الخروج عن القصد^(٨٨) .

وقد صرح الأستاذ « جورجى زيدان » بأن السيوف العربية أكثر قطعها فى اللين ، فإذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت ، وفضل عليها سيوف الروم التى كانت تسقى لدرجة أنها تبرى الحديد^(٨٩) ، ولكن الآثار الواردة تفيدنا أن السيوف العربية كانت صلبة قاطعة ، تبرى الأذرع والسيقان، وتفلق الهام ، قال (حسان بن ثابت فى سيف : -

إذا ما يصادف صُمَّ العظام لم يَنْبُ عنها ولم ينثلم

وورد أيضاً أنها كانت تقطع حديد الدرع ، وتقطع مغاليق الحصون الحديدية وغيرها ، كالسلاسل والقيوم ونحوها ، ولا أدرى علام بنى الأستاذ « زيدان » حكمه هذا ؟ أما أطوال السيوف فلم يكتب لى التوفيق فى تحديدها ، ولكن الذى يفهم من النصوص المختلفة أن بعض السيوف كان طويلاً ، وبعضها كان قصيراً ،

(٨٦) نفس المرجع ص ٢١٣ .

(٨٧) الرسالة السابقة ص ١٦٠ .

(٨٨) اقرأ ديوان حسان طبعة ١٣٣١ هـ ص ٢١٠ ، ٢١ ، ٣٢ ، ٢٥٧ .

(٨٩) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٦ .

ويساعدنا في ذلك الحكم نماذجها المحفوظة بالمتحف الحربى ، والمتحف الإسلامى ، فإنها مختلفة الأطوال ، وقد ورد أن بعض القبائل كانت معروفة بطول سيوفها « كبنى عبد المطلب »^(٩٠) وأن بعضها كانت تفضل قصر السيف على طوله ، للدلالة على الشجاعة والإقدام ، قال الشاعر :

إذا قصرت أسيافنا عن عُدائنا مددنا خطانا نحوها فتطول
وكان « على » رضى الله عنه ينصح لأتباعه ، ، أن يصلوا السيوف بالخطا ،
لإظهار الإقدام والشجاعة^(٩١) .

ويصح بعد ذلك أن نعرف ما إذا كانت سيوف المسلمين معتدلة أو مقوسة ، أما النماذج الموجودة بالمتاحف فلا توضح تلك الحقيقة ، رغم أنها جميعاً من العصور المتأخرة ، إذ يندر جداً أن يبقى سيف معرض للصدأ ، من القرن الثانى الهجرى حتى الآن ، ولكن الذى يفهم من بعض النصوص أنها كانت مستقيمة ثم اعترأها التقوس أخيراً ، يشهد لذلك أن بعض الجند يوم أحد ذبّ فرسه بذنبه ، فأصاب كلاب سيف لجاره ، فاستله من غمده^(٩٢) ، ولو كان سيفه مقوساً أو منحنيّاً ما نزع بمثل هذه السهولة ، وقد أفقّى الخبراء المختصون بدراسة السلاح الإسلامى بأن سيوف المسلمين كانت معتدلة لا تعرف الانحناء^(٩٣) .

حلية السيف وطريقة حمله :

كان الجاهليون يُحملون سيوفهم ، برسم صور الحيات والأسماك عليها بطريقة التكفيت ، وهو إما بالنحاس أو الفضة ، أو غيرها من المعادن الثمينة ؛ ولذا كان من سيوفهم ما يسمى : « ذو الحيات وذو النون »^(٩٤) . ولكن المسلمين الأولين كانوا لا يحفلون بحلية سيوفهم ، امتثالاً لنهى الرسول عليه السلام عن التصوير والتمثيل ، الذى يعيد للأذهان ذكرى الوثنية الجاهلية ، فقد أهدى إليه فى بعض الأيام

(٩٠) المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٩١) نفس المرجع ص ٣٨٩ ، وكشف الكروب المخطوط لليوسفى ورقة ١٠ .

(٩٢) الأغاني ج ١٤ ص ١٤ .

(٩٣) الدكتور عبد الرحمن زكى فى حديث شفوى معه .

(٩٤) الدكتور على الجندى فى رسالته ص ١٥٨ ، ونهاية الأرب ج ٦ ص ٢٠٨ .

ترس" فيه صورة عقاب أو كبش فأزالها منه^(٩٥) .

لهذا ما كان المسلمون يُحلون سيوفهم بالذهب ولا الفضة ، وإنما كانت حليتهم على جفون سيوفهم الرصاص والعَلَابِي والحديد^(٩٦) . لا يزيدون عليها وإن رخص لهم الإسلام في تحليتها بغير الصور ، فقد ورد أن السيف الذي أعطاه الرسول عليه السلام أبا دجانة يوم أحد ، كان مكتوباً على إحدى صفحتيه قول الشاعر:

في الجبن عار وفي الإقبال مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر^(٩٧)

وكان ذو الفقار سيفُ الرسول له حلية من الفضة على مقبضه ، كما كانت حلقتة وعلاقته من الفضة^(٩٨) . وهذا يدلنا على القدر المسموح به في الحلية الإسلامية .

فلما اتسعت فتوح المسلمين ، وسال في أيديهم النضار والذهب ، وبعد عهدهم بالوثنية ، صاروا يقلدون الفرس والروم في تحلية سيوفهم وأغمادها وحماثلها ، بسبور وفروع شجر من الفضة والذهب ، وبخاصة أعلى مقبض السيف^(٩٩) ، وبعد أن كان المسلم يلف على سيفه خرقاً تقوم مقام الغمد ، صار يتخذ له الغمد من الجلد ، ويحلى (نعله) وهو أسفل الغمد بالفضة ، ويجعل حلقاته من الفضة^(١٠٠)

وَبِمُضَى الزمن والبعء عن زمن الرسول ، توسع المسلمون في حلية السيوف ، بالكتابة عليها وتكفيتها بالمعادن ، ورسم الصور والتماثيل عليها ، وبخاصة السيوف اليمانية^(١٠١) وبفحص بعض السيوف الإسلامية بالمتحف ، وُجد أنه قد كُتب على بعضها بالنحاس أو الذهب هذه العبارات « لا إله إلا الله ، لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي » كما رُسم على بعضها زخارف لأغصان شجر وهي – وإن كانت

(٩٥) القسطلاني : المواهب اللدنية ج ١ ص ٣١٢ .

(٩٦) صحيح البخاري ج ٥ ص ٩٨ . والعلباء عصب في عنق البعير يشد به المقبض .

(٩٧) السيرة الخلية ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٩٨) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٩٩) نهاية الأرب النويري ج ٦ ص ٢٠٨ .

(١٠٠) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٦ ونهاية الأرب ج ٦ ص ٢٠٩ .

(١٠١) آثار الأول ص ١٨٤ وفي الخطوط ص ١٦١ .

ترجع غالباً إلى عصر المماليك - تقفنا على ما كان معروفاً قبلهم في تحلية السيوف وزخرفتها ، فإن التقليد في العادات يرسخ طويلاً ، ولا يتطور كثيراً مع الزمن .
أما عن طريقة حمل السيف ، فقد جرت عادة المسلمين بتعليقه في أكتافهم وعواتقهم ؛ ولذا يقال : تقلد سيفه ، أى جعله كالقلادة ، وذلك بحمله على كتفه الأيمن ، وتركه متدلياً في جنبه الأيسر ، بخلاف الفرس الذين عرفوا بتعليق السيوف في أوساطهم^(١٠٢) ، وقد ذكر صاحب التراتيب الإدارية « أن الرسول تقلد سيفه في أحد ، فجعل علاقته على كتفه الأيمن وهو تحت أبطه الأيسر^(١٠٣) .
أما إذا كان الفارس يحمل سيفين ، فإنه كان يتقلد بأحدهما ويجعل الآخر في وسطه على الطريقة الفارسية ، وقد علق كلا في حمالته محفوظاً في قرابه الجلدى .

د - الأسلحة الصغيرة

وهناك بعض أسلحة صغيرة ، كانت تستخدم عند الالتحام اليدوى والاختلاط وهى تلحق بالسيف بوجه عام ؛ لأنها من نوعه :

فمنها الحنجر :

وهو معروف بحمله المحارب في منطقته ، أو تحت ثيابه ، فإذا اختلط بآخر طعنه به خلسة ، وقد كانت بعض نساء المسلمين تحمل الحنجر في الغزوات^(١٠٤) المختلفة تحت ثيابها للدفاع الشخصى .

ومنها الدبوس :

وبعضهم يسميها «المطرقة» وهى عصا قصيرة من الحديد، لها رأس حديدية مربعة أو مستديرة ، وهى فى العادة للفرسان يحملونها فى سروجهم^(١٠٥) ويتقاتلون بها عند الاقتراب ، وقد قال عنها صاحب «نظم التعبئة» : «أما ما كان من أمر

(١٠٢) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨٥ وتاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٢٧٥ .

(١٠٣) الأدريسى ج ١ ص ٣٤٤ طبعة فاس .

(١٠٤) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٨ : ٨٩ .

(١٠٥) انظر دائرة معارف البستانى مجلد ١٦/٦٩٦ .

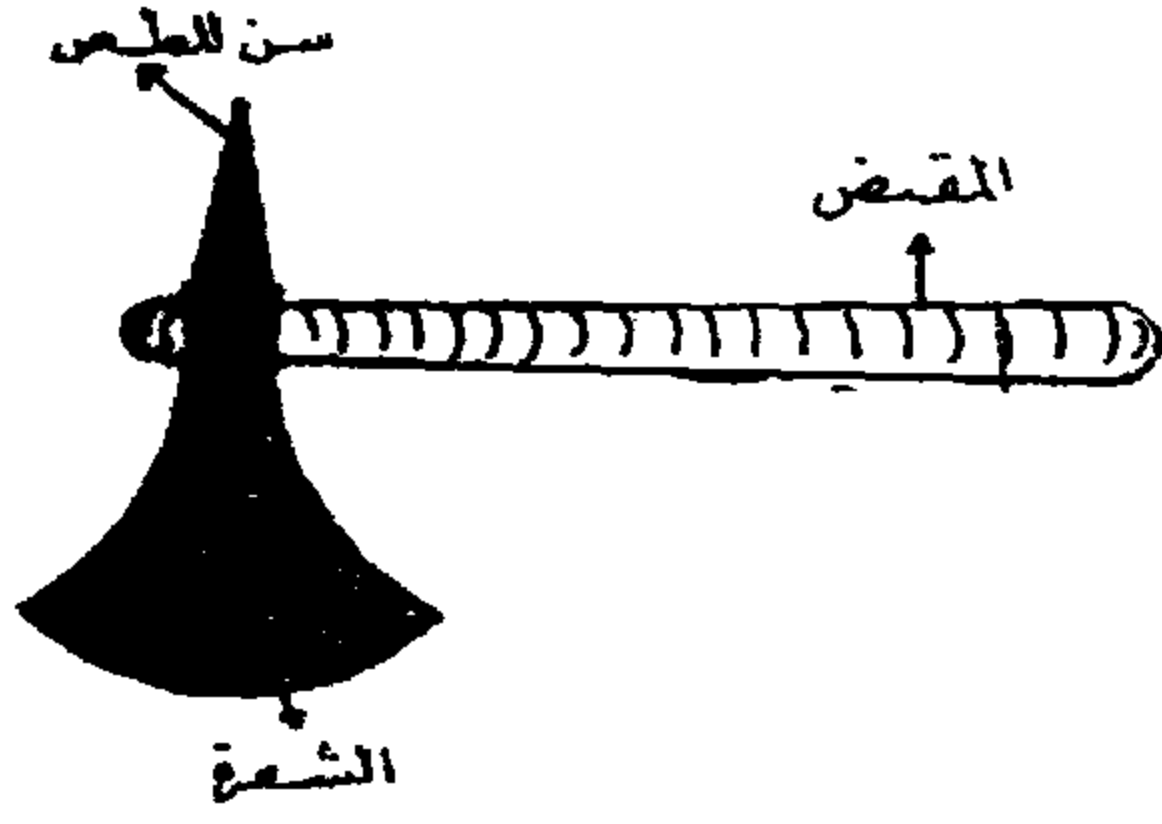
الدبوس ، فتظاهرت به الفرس زمن « كسرى أنو شروان » وكان في جيشه عشرة آلاف يقاتلون بها^(١٠٦) . انظر شكل (٧) .

ومنها الفأس أو البلطة :

وهو سلاح منقول عن الفرس كالـدبوس ، له نصل من الحديد مركب في قائم من الخشب ، كالبلطة العادية ، بحيث يكون النصل مدبباً من ناحية ، ومن الأخرى رقيقاً مشحوداً كالسكين ، وقد ذكر « البستاني » أن نصلها كان يُصنع من النحاس أو الحديد أو الفولاذ أو الخشب^(١٠٧) . انظر شكل (٨)



(شكل رقم ٧)



(شكل رقم ٨)

هذه جملة الأسلحة الخفيفة، التي كان يستخدمها المسلمون في معاركهم ، وضَّحتْها على قدر طاقتي ، مستعيناً في ذلك بالرسوم الموضحة ، فقد يغني رسم صغير عن مقالة طويلة ، ويحق الكلام بعد ذلك عن الأسلحة الثقيلة وهي موضوع القسم الثاني .

(١٠٦) مصور بالجامعة العربية فيلم ٩٤٦ ، والبهلولان بالفارسية هو الفارس .

(١٠٧) نفس دائرة معارفه السابقة ونفس الصفحة .

القسم الثاني الأسلحة الثقيلة آلات الحصار

لقد جعل لهذا النوع من السلاح جزء خاص به ؛ لأهميته في الميدان ، وبخاصة في حصار المدن ، ولأن أسلحته تمتاز بالضخامة ، بحيث تحمل على الجمال والبغال ، وتحتاج إلى عدة جنود في إدارتها واستخدامها عند القتال بها ، وأهمها : المنجنيق والعرّادة وهي نوع منه مصغر ، والدبابة وهي الضبر وجمعه ضُبُور ، ثم رأس الكبش ، وسلام الحصار .

١- المنجنيق "Mangonel" والعرّادة :

هذا السلاح شديد النكاية بالأعداء ، بعيد الأثر في قتالهم فبحجارتة تُهدم الحصون والأبراج ، وبقنابله تُحرق الدور والمعسكرات ، فهو يشبه في أيامنا هذه مدفعية الميدان الثقيلة ، وعمله كعملها تماماً. والعرّادة نوع منه مصغر ، ولم تذكر المصادر معلومات كافية عنها ، ولكن الذي يُفهم أنها كانت تستخدم لرمي السهام الكبار دفعة واحدة ، إلى المسافات البعيدة والأهداف النائية ، التي لا تصل إليها رميات الأقواس ، فكانت توضع فيها عدة سهام كبار ، ثم يرمى بها مرة واحدة فتبعد وتصيب ، كما ذكر الأستاذ « جرجى زيدان ^(١) » ولعل منها (البالستا) المخصصة لرمي السهام الكبار .

وصفه وكيفية العمل به :

إن الناظر في المصادر المختلفة لا يستطيع أن يرسم في ذهنه صورة واضحة عن المنجنيق ؛ لأنها لم تتعرض له بالوصف التفصيلي ، ولم تذكر كيفية الرمي به ،

(١) تاريخ التمدن الإسلامى له ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٩ .

ولا طرق الوقاية منه ، ولعل أقدم كتاب تعرض له بالتفصيل والتوضيح المناسبين هو كتاب « آثار الأول في تدبير الدول » لصاحبه « الحسن بن عبد الله » ثم ألفت فيه الكتب الخاصة به بعد ذلك ومن أشهرها كتاب « الأنيق في المجانيق » لصاحبه « أرنبغا الزردكاش » كما ألفت كتب في تركيب عبارات النفط التي يرمى بها ، ووصف عناصر تلك العبارات ، وذكر أنواعها ، مما لا شأن لنا به هنا^(٢)

ولقد حاول صاحب « آثار الأول » أن يعطى القارئ فكرة واضحة عن هذا السلاح ، ولكنه لم يوفق تماماً ، لإجمال عباراته واختصارها ، فهو مثلاً يقول^(٣) بعد أن بين أنه أنكى الأسلحة وأشدّها فتكاً بالعدو : « منه ما هو بلوالب ، ومنه ما هو بدائرة وفيه تقالات من الرصاص ، إذا دار فيها الرجال رفعت السهم ، فإذا تركت رمت ، فلا تحتاج إلى رجال كثيرة ، وقد يتخذ بقسى كبار موتورة ، وتُجعل قبضاتها إلى الأرض مشدودة في قواعد المنجنيق ، وفي أوتارها حبال مشدودة إلى حلقة المنجنيق ، وتحرك بزياد قائم حتى تُفتح أوتارها ، ويحرك الحجر بالكفة ، ثم يرمى فيخرج أشدما يكون ، وإذا أراد الرمي بقدر النفط أو العقارب أو ماشاء فعل ، فإن كان ضعيفاً ثقله بالرصاص والأحجار ، وإن كان يرمى بالنفط والنار اتخذ له كفة من الزرد وحبالاً بسلاسل .

وقد حاول أيضاً الأستاذ « جرجى زيدان » وصف المنجنيق ، فما جاء بأكثر مما جاء به « الحسن بن عبد الله » ويبدو أنه نقل عنه وإن لم يُشر إلى مصدره ، فإن نص عبارته في هذا المعنى^(٤) « منها الكبير والصغير ومنها ما يُشد بلوالب وأقواس ، ومنها ما يدار شبه المقلاع ، وهي تستخدم إما لرمي السهام أو الحجارة أو قدور النفط والعقارب أو نحوها من آلات الأذى ، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص ، وإن كانت من السوائل كالنفط وغيره اتخذوا له كفة كالكأس علقوها بسلاسل . »

(٢) انظر المصورات بالجامعة العربية أفلام (٩٧٠ ، ٧٦٢) .

(٣) ص ٣١٤ بهامش تاريخ الخلفاء ، والجنديّة لثابت ص ١٩١ .

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٥٩ .

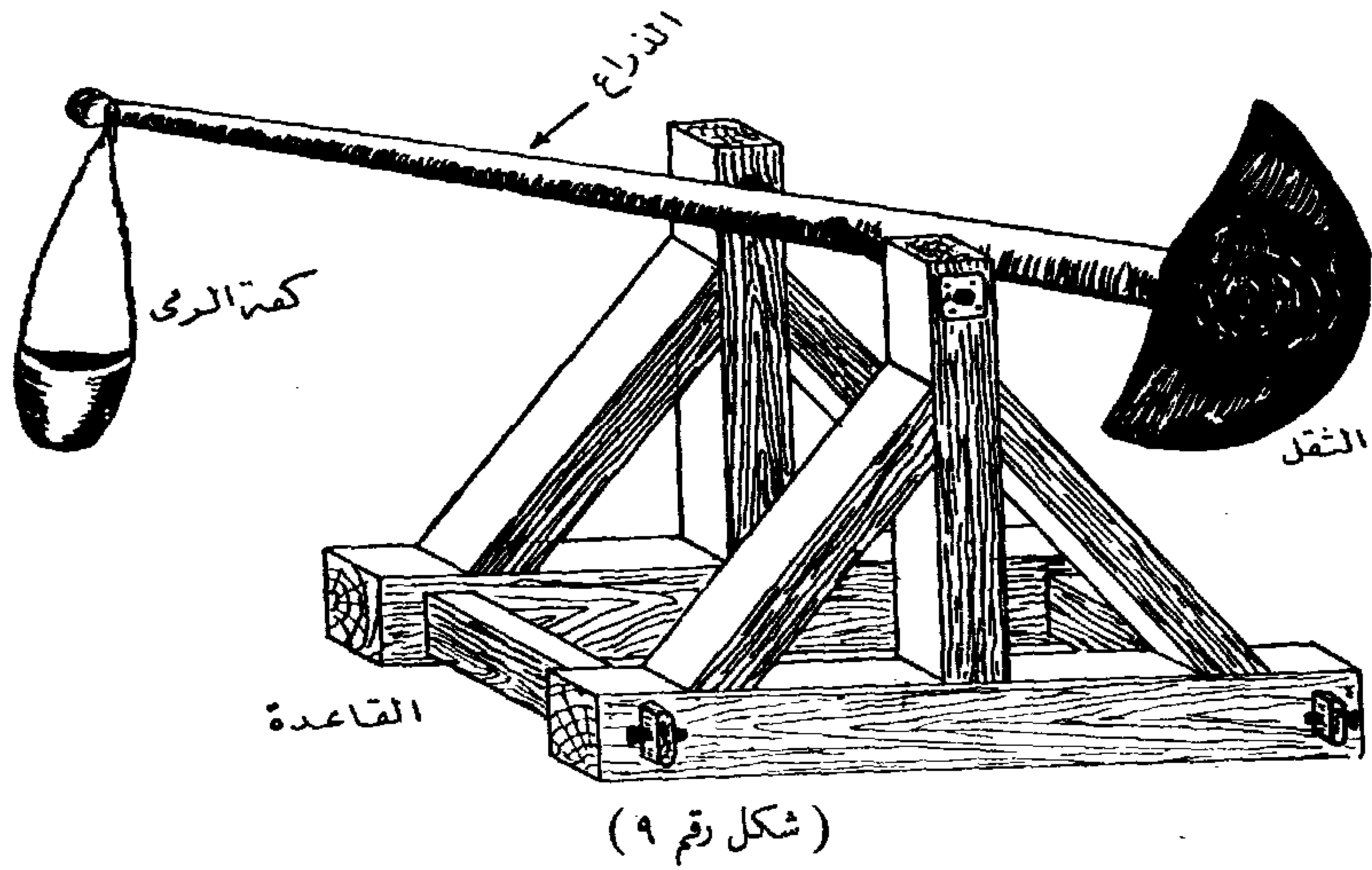
ولكن أوفى كتاب تعرض لهذا السلاح هو « الأنيق في المجانيق »^(٥) وفيه كثير من الرسوم الدقيقة لأجزائه ، واصطلاحات غريبة لأهل الصنعة ، وتفصيلات وافية عن الطرق التي بها يضبط الرامي رميته ، وكيف يُبعد الرمي أو يقربه ، إلى غير ذلك من التفصيلات التي يحتاجها المختص في صناعته .

وفي الإمكان بعد مطالعة الكثير عن هذا السلاح ، ومشاهدة نماذجه عدة مرات بالمتحف الحربى ، تقريبُ صورته للأذهان ، وتوضيحُ أنواعه والتطور الذى لحقها ، والتحسينات التى أدخلت عليها .

كان الإنسان أول أمره يحارب بالحجر يرميه بيده فيصيب ، ثم اتخذ المقلاع بعد ذلك لتكون رميته بعيدة قوية ، ثم فكر فى طريقة لرمى حجارة أكبر ، ولهدف أبعد ، فهداه تفكيره إلى المنجنيق ، فاتخذة أولاً على هيئة « الشادوف » الذى يَسْقَى بعض الفلاحين زرعهم ، وهو عبارة عن رافعة محور الارتكاز فيها فى الوسط والقوة فى ناحية ، والمقاومة فى أخرى ، على أن يكون ثقل الحجارة هو المحرك له ، بحيث إذا هوى الثقل ارتفع الشيء المرمى فى كفته .

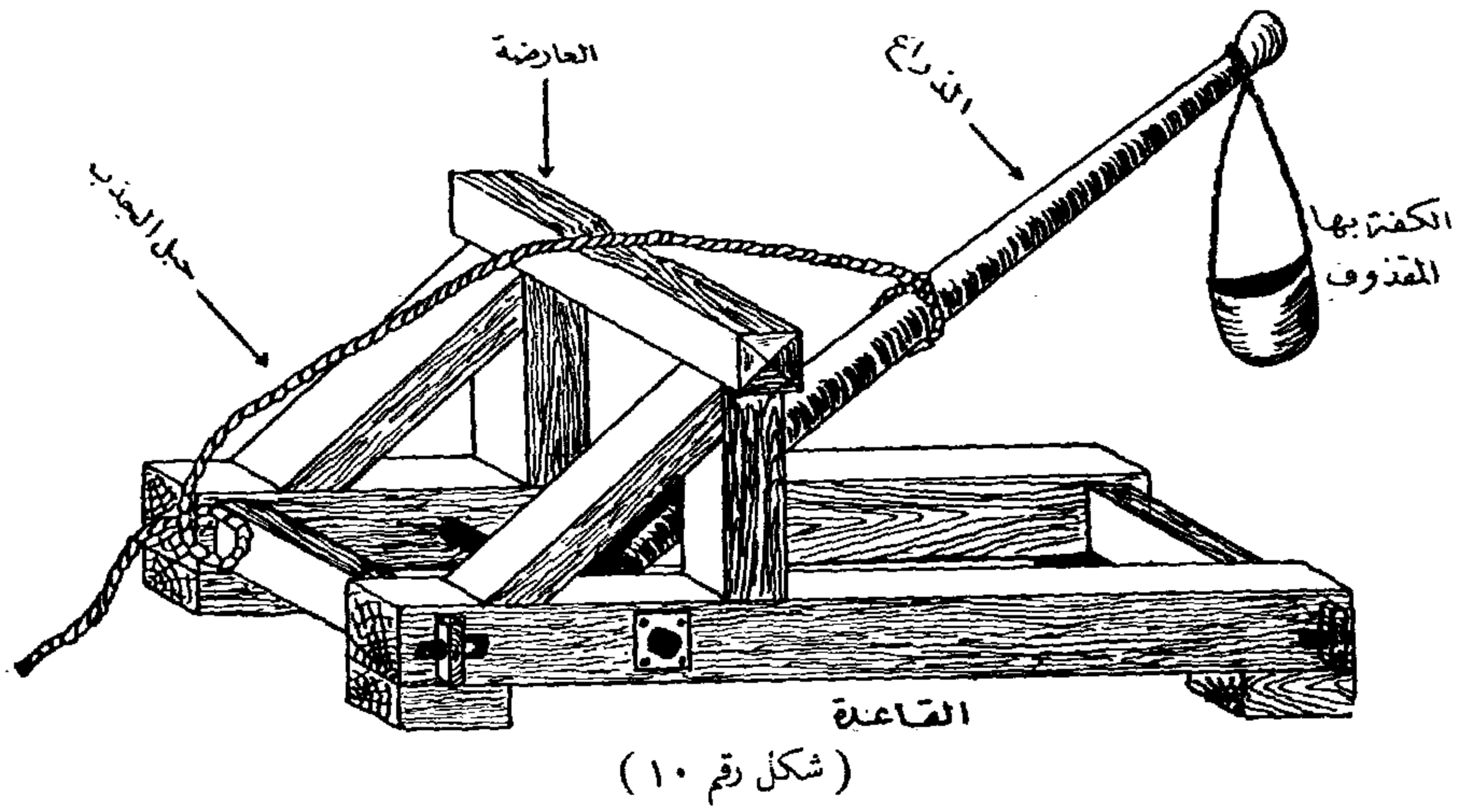
١ - فجعل أول أمره على شكل قاعدة من الخشب السميك ، مربعة أو مستطيلة ، يرتفع فى وسطها عمود خشبي قوى ، ثم يُركب فى أعلاه ذراع المنجنيق قابلاً للحركة كذراع « الشادوف » بحيث يكون ربعه تقريباً ناحية السفلى ، يتدلى منه صندوق خشبي ، مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها ، ويختلف حجمه باختلاف المنجنيق ، وتكون ثلاثة أرباع الذراع من ناحية العلو ، تتدلى من نهايتها شبكة مصنوعة من حبال قوية ، يوضع فيها الحجر المراد قذفه ، وعند القذف به يُجذَب أعلى الذراع إلى الأرض بقوة الرجال ، فيرتفع الثقل المقابل من الحجارة والرصاص والحديد ، الذى بالصندوق ثم تترك الذراع فجأة فيهبى الثقل ، ويرتفع أعلى الذراع بالشبكة قاذفاً ما فيها من الحجارة إلى الهدف المعين (انظر شكل ٩)

(٥) لصاحبه « أرنبا الزرد كاش » أى صانع الزود .

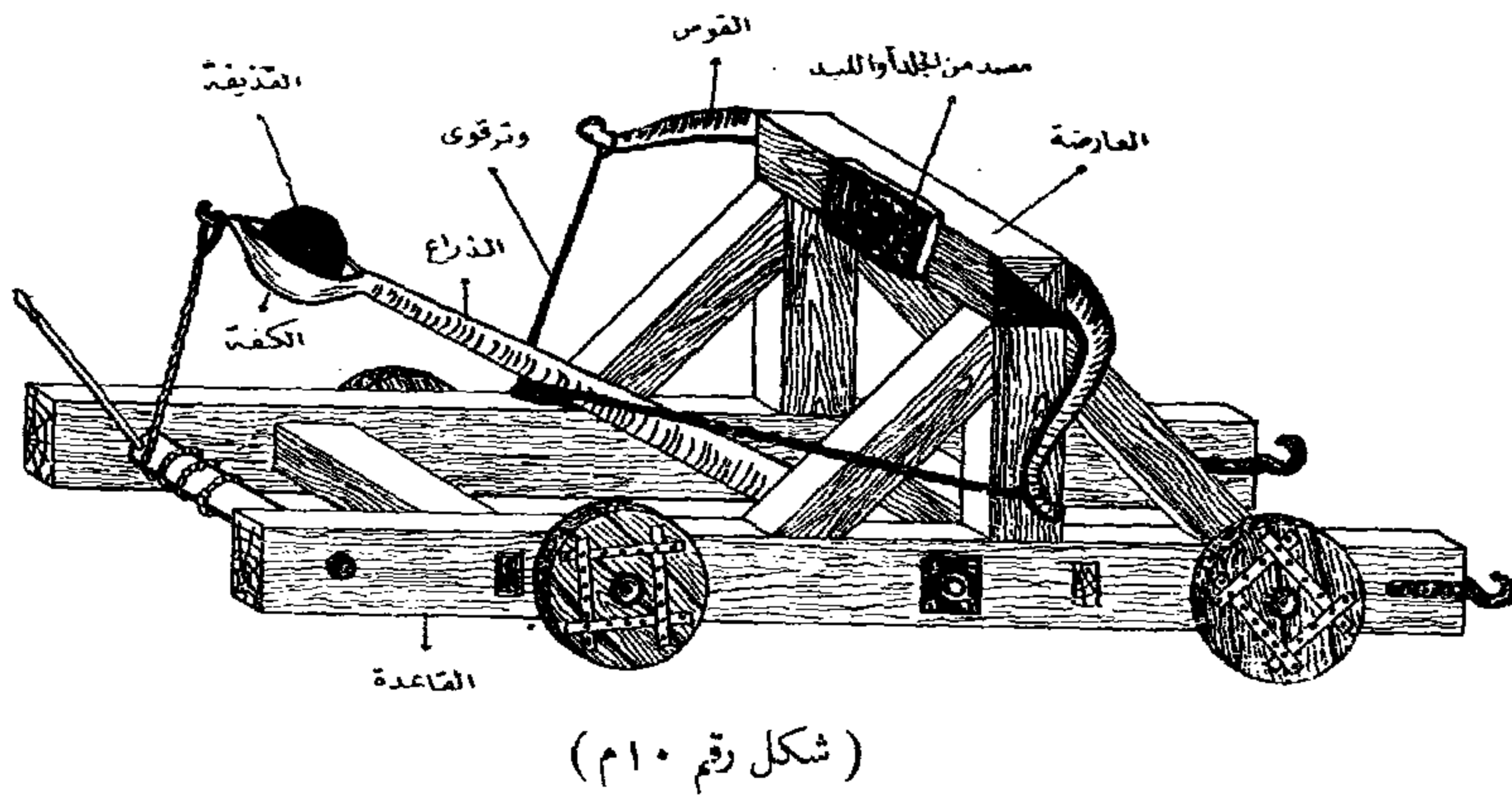


٢ - بمرور الأيام شمل التحسين هذا السلاح ، فصار يُصنع من نفس القاعدة المتقدمة ، وفوقها قاعدة أخرى على شكل مربع ناقص ضلع من أسفل أو على شكل حرف A ، ثم تركب ذراع المنجنيق في وسط السطح العلوي لهذه القاعدة ، بحيث تكون قابلة للحركة ، وبحيث يكون ثقل الرصاص في الناحية القصيرة السفلى ، ثم يُجذب الذراع كما سبق وتترك فجأة فيهرب الثقل بشدة ، وتصدم الذراع بالعارضة السفلى في المربع ، فتقذف الشبكة ما فيها بشدة ؛ لاصطدام الذراع بالحائط الخشبي . (انظر شكل ١٠) .

بعد أن شاع استعمال هذا السلاح ، لحقه كثير من التحسين والتعديل فعُرف منه نوع قوى يعمل بقوة الأوتار ، وهذا يصعب على الباحث تحديد تاريخ ظهوره ، أو تعيين من أدخل عليه هذا التحسين ، ولكن الثابت أن الحجاج قاتل به وهو عبارة عن قاعدة مصنوعة من كتل خشبية ضخمة ؛ تُجر بقوة الرجال على الزحافات ، أو العجلات الصغيرة ، وقد ارتفعت القاعدة من ناحية على شكل جدار خشبي ، وقد تُثبت الذراع في أسفل القاعدة قابلة للحركة ، وخلفها وتر قوى مُستعرض يمنع سحبها للخلف ، بينما ربطت بحبال مثبتة إلى مؤخر القاعدة تجذبها للخلف ، وعند الرمي يُلَف الرجال العمود الخشبي المربوط به حبل الذراع ، فتُجذب الذراع إلى



الحلف، فيمتد الوتر الذي خلفها إلى نهايته، ثم يوضع الجسم المراد رميه في كفة الذراع، ثم تفك الحبال الخلفية مرة واحدة، فيجذبها الوتر بقوة عند انكماشه فتصدم الذراع بالحائط الخشبي المثبت أمامها بقوة، فترمي رميتها كأبعد وأقوى ما يكون الرمي. (انظر شكل ١٠ م).



وهذا النوع هو الذي عناه صاحب «آثار الأول» بقوله وقد يتخذ بقسي «كبار موتورة الخ» وهو آخر تطور وصل إليه المنجنيق في القرن الثاني، وإن كانت

حجمه تختلف باختلاف الحصون المحاصرة وقوة الصانعين ، وقد عمل المسلمون على تكبير الروافع الخشبية لإبعاد المرمى ، وصنعوا المجانيق الضخمة ، لدرجة أن «الحجّاج» جهز بعض جيوشه بعدد كبير من المجانيق ، منها واحد يقال له «العروس» وكان لضخامته يعمل عليه خمسمئة رجل ، يقومون بنصبه وجره ونقل الحجارة إليه ، وما إلى ذلك^(٦) ، وأظن أن هذه المجانيق الضخمة كانت من النوع الذى يعمل بقوة الأوتار الموضّح فى الشكل السابق .

طرق الوقاية منه :

كان أكثر استعمال هذا السلاح فى حالات الحصار ، ولم يكن هناك سبيل للوقاية منه إلا بالبعد عن وحجارتة ، وذلك بأن يحال بينه وبين الحصون بالحنادق الواسعة ، وأحياناً كانت تملأ الحنادق بالمياه ، وتبنى عليها الجدر مما يلى العدو لمنع تقدمه ، فإن تمكن العدو من طم الحندق وعبوره بالمنجنيق ، عمل أصحاب الحصن على رمى الذين يجروّنه ويعملون به بالسهم ، من وراء شرفات حصنهم ؛ ولذا كان القائد المهاجم يصفّ أمام جند المنجنيق جنوداً آخرين ، يحمونهم بتروس طويلة تستر تقدمهم^(٧) ، أو يحمله على عربة لها ستائر واقية من خيش أو قماش غليظ تضعف فعل الحجارة إذا رُمى بها .

وكان من وسائل الوقاية منه عندهم ، أن يكسّى الجزء العلوى من السور بالخشب الصلب^(٨) ، الذى لا تضره الحجارة كخشب العرعر ، لأن خط رمية المنجنيق يشبه قوساً شديداً الانحناء ، على نحو ما هو حاصل فى قنبلة مدفع «الهاون» الذى هو أقرب المدافع شبيهاً بالمنجنيق فى سهولة الرمي به وتقوس مرماه ، فكانت هذه الأخشاب تحمى السور من حجارتة إذا كسى بها .

وأحدث الطرق فى الوقاية منه ، أنهم كانوا يسمرون فى أعلى السور زوايا خشبية مائلة للخارج ، كالتى نراها على أسوار السجون والمعتقلات ، ثم تتدلى من هذه

(٦) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان ج ١ ص ١٦٠ ، والجندية لنعمان ثابت ص ١٥٨ .

(٧) انظر الكلام عن الترس فى الفصل الخامس .

(٨) الجندية لثابت ص ١٥٨ نقلاً عن فتوح البلدان للبلاذرى ، والعرعر شجر السرو كما فى

القاموس المحيط .

الزوايا ستائر من البُسُط الغليظة أو اللبود، أو شباكاً من الحبال الغليظة ، ويشدونها بعيدة عن حائط السور نوعاً ، فإذا رمى بالحجر أصاب تلك الستائر ، فترده عن الحائط ، وإذا وصل كان ضعيف الأثر فاقد القوة^(٩) ، فلا يضره بشيء .

تاريخ ظهوره وتطوره :

يغلب على الظن أن الجاهليين لم يستخدموا هذا السلاح ، فإن أشعارهم التي هي سجل حياتهم ، لم تذكر عنه شيئاً ولو إشارة عابرة ، تفيد أنهم عرفوه أو عملوا به ، ولو قد كان ذلك لتناوله بالوصف ، ونسبوه إلى صانعيه ، وأما كن صناعه ، كما فعلوا بسائر سلاحهم ، وما شاع لديهم من أدوات القتال .

وقد قرر الأستاذ «زيدان»^(١٠) أن العرب لم يستخدموا هذه الأداة إلا في أواسط القرن الأول للهجرة ، بعد مخالطتهم الفرس والروم ، ولكن جمهور المؤرخين على أن الرسول عايه السلام ، قاتل أهل الطائف بها ، وأنه أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق^(١١) ، وذكر «المقرئزي» أنه صُنِعَ بإشارة «سكمان الفارسي» وقبل عمله^(١٢) بيده ، وهي رواية يحيط بها الكثير من الشكوك لأن الرجل غادر بلاده صغيراً ، ونشأ يتنقل في أوساط مسيحية ، لا شأن لها بالقتال ، حتى وصل إلى المدينة عبداً وظل يعمل في مزارعها ، إلى أن قدمها الرسول فلزمه ، وتبع دينه الذي كان يسعى باحثاً عنه .

ومن ناحية أخرى نقل «الحلي عن المقرئزي» أن الرسول (ص) استخدمه قبل حصار الطائف ، فهو يروى أن الحراس قبضوا على يهودي في الليلة السادسة من حصار «خير» فجاءوا به الرسول فطلب منه الأمان ، فأمنه فأخبره بأن اليهود يتسللون الليلة من حصن «النطاة» الذي يحاصره ، إلى حصن «الشق» استعداداً للقتال ، وأخبره بأنهم يخزنون في بيت تحت الأرض منجنيقاً ودبابات وسلاحاً كثيراً ، وأشار عليه باستخراج هذه الآلة بعد فتح الحصن ، كما أشار عليه بنصب المنجنيق

(٩) آثار الأول للحسن بن عبد الله ص ٢١٥ .

(١٠) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٥٩ .

(١١) انظر الطبري ج ٣ ص ١٣٣ ، وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٦ والكامل ج ٢ ص ١١١ .

(١٢) امتاع الأسماع طبعة لجنة التأليف سنة ١٩٤١ ص ٤١ ، ١٨ .

على « الشق » ودخول الرجال تحت الدبابات ، وحفر الحصن على من فيه . وقد نُفذت الخطة التي أشار بها ذلك اليهودى فنجحت .

وقد يقرب للفهم هذه الرواية ، أن اليهود كانوا يعلمون ببعثة نبي جديد وكانوا يهددون به أعداءهم ، فمن الجائز أنهم اختزنوا هذا السلاح ، ليقاتلوا به مع النبي المنتظر الأوس والخزرج كما كانوا يزعمون ، ومن الجائز أن يشتروا هذا السلاح ويكتموا أمره ، كشأنهم في الاحتفاظ بالسرية التامة في تاريخهم كله ، فلما جاء الرسول حاربوه فحاربهم ، وأخرج هذا السلاح من حصونهم ، التي كانوا يُخفونه فيها .

ويمكن التوفيق بين هذه الرواية ورواية «ابن هشام» المتقدمة ، بأن الرسول عليه السلام نصب المنجنيق في خير تهديداً ، ولكنه لم يرم به فعلاً ، كما رمى به حصون الطائف ، ويرجح هذا الرأي أن « ابن خلدون^(١٣) » روى أن الرسول همّ بنصب المنجنيق على « خير » فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح ، ولهذا المعنى استعمل الحلبي في حصار « خير » التعبير « نصب المنجنيق » وفي حصار الطائف استعمل التعبير « رمى أهل الطائف بالمنجنيق » وقد ينصبه الرسول تهديداً ولا يرمى به فعلاً في خير .

ولكن من أين للرسول بهذا السلاح ؟ وإذا كان أخذه عن اليهود فمن أين جاءوا به هم ؟

يرى الدكتور « فون كريمر »^(١٤) . أن العرب نقلوا عن البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرادة ، لرمى الكتل الصخرية ، والأخشاب المشتعلة ، على المدن المحاصرة وأشار إلى أن العرب أدخلوا عليه كثيراً من التحسينات ، بتكبير الروافع وضخامة الآلات ، ويوافقه في هذا الرأي الدكتور « أومان^(١٥) » عند كلامه عن آلات الحصار ، ولم أر داعياً لذكر النص الأخير ؛ لقربه من الأول قريباً يشعر بأنه نقل عنه ، أو أنهما نقلاً معاً عن مصدر واحد .

(١٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٤١ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٤٨ ، ١٣٤ .

(١٤) The Orient under the Caliphs. p. 327.

(١٥) A History of the Art of War. p. 219.

وأما صاحب «الآثار الأولى» فقد نسب اختراع هذا السلاح إلى الفرس ، في أكثر من موضع في كتابه ، فهو يقول عن الفرس^(١٦) : « وأهل مدنهم مثاقفون يرمون بالحجر المصيب ، والمنجنيق من استنباطاتهم ويقال : إنه ظهر في زمن « النروذ » وأعقاب دولتهم . » ويشير في موضع آخر إلى أنه من وضع الفرس ، ولعل في التسمية نفسها (المنجنيق) ما يرجح ذلك الرأي ، فإن اللفظة يبدو عليها أنها فارسية معربة ، وقد نص على ذلك صاحب « القاموس^(١٧) المحيط » فذكر أنها معربة عن العبارة « جه نيك » أي أنا ما أجودني ، كما نص على ذلك صاحب « المعرب » من كلام العرب فقال^(١٨) « والمنجنيق فارس معرب » واختلف في زيادة النون والميم فيه . « ويقوى ذلك أن المخصّص ونهاية الأرب لم يذكره عند الكلام عن آلات الحرب . »

ومن ناحية أخرى يروى « ابن هشام والطبري^(١٩) » أن « عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة » لم يشهدا حينئذ ولا حصار الطائف ، لأنهما كانا « بجَرَش » يتعلمان صنعة الدباب والضبور والمجانيق ، إذن فقد كانت تلك الصناعة معروفة في ذلك العهد ، وشهر بها ناس معروفون ، وبخاصة سادة ثقيف ، كما ذكر « ابن خلدون^(٢٠) » الذين كانوا يتلقون دروسها في « جَرَش » ويتعلمون صنعها هناك .

وبالرجوع إلى « معجم البلدان^(٢١) » ظهر أن « جَرَش » مدينة عظيمة تقع شرقي جبل السواد من أرض البلقاء وحواران من عمل « دمشق » ، وما دامت « جَرَش » من أعمال « دمشق » التي يملكها البيزنطيون ، فمن الجائز أن يكون العرب نقلوا هذا السلاح عنهم ، وقد سبقهم اليهود إليه واحتفظوا به سرياً كعادتهم في السرية ، ليفاجئوا به العرب عند إظهاره .

(١٦) أنظر آثار الأولى ص ص ١٦٧ ، ٢١٤ .

(١٧) باب القاف فصل الجيم والحاء ج ٣ ص ٢١٨ .

(١٨) الجواليقي . المعرب طبعة دار الكتب ص ص ٣٠٥ ، ٣٠٧ .

(١٩) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٩ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٢ .

(٢٠) تاريخه ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢١) مادة (جَرَش) ج ٣ طبعة سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م أما (جَرَش) بضم الجيم فهي من

مخاليف اليمن بجهة مكة وقيل مدينة عظيمة باليمن كما في ياقوت .

وسواء أكان هذا السلاح بيزنطى الأصل أم فارسى الأصل ، فقد ثبت أن المسلمين استخدموه ، وأدخلوا عليه كثيراً من التحسين والتهديب ، وكثر حصارهم به للمدن المحصنة ، ذات الأسوار العالية ، فى حروب العراق والشام زمن الخليفة « عمر » وما بعده ، حتى لقد نصبوا على المدائن « عند حصارها عشرين منجنيقاً فشغلوا أهلها بها ، وكذلك حاصر « أبو عبيدة وخالد » أهل « دمشق » سبعين ليلة حصاراً شديداً ، بالزحوف والترامى بالمجانيق^(٢٢) وقد صنع « عمرو بن العاص » المنجنيق بمصر عند فتحها^(٢٣) ، لأنه كان فى عدد قليل لا يسمح له بحمل آلات الحصار معه ، كما لا تسمح له به سرعته فى السير التى تعمد لها ، ليدخل البلاد المصرية بسرعة ، وقد كان عدد حملته قليلاً ، لا يسمح له بحمل آلات الحصار معه .

ولكن الدكتور « بتلر » قرر فى كتابه : أن العرب الذين فتحوا مصر « كانوا لا علم لهم بحيل الحصار ، وليس معهم من عُدته شئ »^(٢٤) ؛ ثم ذكر فى نفس الصفحة : أنهم غنموا بعض آلة الحرب فى غزاة الفيوم ومنوف ، وأنهم كانوا لا خبرة لهم بأمرها ، ولا طرق إصلاحها إذا اعتراها الفساد ، ثم هو يعود فيقرب بنا من رواية السيوطى السابقة التى تظن فيها المبالغة ، فيقرر أن المسلمين رموا حصن « بابليون » بالحجارة حيث يقول « وكانت مجانيق الروم أقوى أثراً ، مما كان يرميه المسلمون إلى الحصن من حجارة وسهام^(٢٥) » . إذن فالمعقول أنهم كانوا يصلحون الآلات التى تقع فى أيديهم ثم يقاتلون بها ، وهذا هو ما جعل « السيوطى » يفهم أنهم كانوا يصنعون المجانيق بمصر ، وإلا فكيف كانوا يرمون للحصن هذه الحجارة ، إذا لم يكن الرمي بآلات الحصار التى كانوا يستولون عليها بعد إصلاحها ؟ !

وقد لوحظ فى النصف الثانى من القرن الأول ، أن قذائف هذا السلاح ، شملها كثير من التجديد ، وأدخل على كفة ذراعه تعديل كبير ، فبعد أن كانت مهمته مقصورة على رمى الحجارة لهدم الأسوار ، صار يُرمى من كفته بمُشاقة

(٢٢) انظر تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦٨ ، الكامل ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢٣) السيوطى فى حسن المحاضرة ط مصر سنة ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٤) فتح العرب لمصر ص ٢٢١ .

(٢٥) فتح العرب لمصر - تعريب « أبو حديد » ص ٢١٨ .

الكَتَانِ فيها الجمر ، وبالأخشاب المشتعلة ، وبقدور النفط وغير ذلك ، وهذا لا يكون ممكناً بأمان ، إلا إذا كانت كفة الذراع مصنوعة من الحديد ، أو الخشب المبلل بالخل ، أو اللبود المبللة به ، لمنع اشتعال النار فيها ، أو بأن تتدلى القذيفة في الكفة من الذراع ، بسلاسل من الحديد لا تضرها النيران ، فقد روى « الحصين بن النخير » الكعبة بالأحجار والنار والنفط ومشاقة الكتان ، وغير ذلك من المحرقات ، وبسببه صُدِّعت الكعبة واحترقت كما روى « المسعودي » (٢٦) .

ومن المحتمل أن يكون « الحجاج بن يوسف » اتبع نفس الطريقة في حصار الكعبة ، عندما رماها (٢٧) بالمنجنيق من جبل أبي قبيس ، لما لجأ إليها « عبد الله بن الزبير » عند مطالبته بالخلافة ، أيام عبد الملك .

وما إن بدأ القرن الثاني الهجري ، حتى كمان المنجنيق شائع الاستعمال عند المسلمين ، وبخاصة في حصار المدن ، ثم صار في نهاية سلاحاً عادياً ، يتخذه القواد جميعاً ، ويكثرون منه في معاركهم ، يروى « ابن الأثير » أن « مروان بن محمد » حاصر « سعيد بن هشام » ومن معه في مدينة « حمص » عشرة أشهر ، ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً (٢٨) ، يرمى بها بالليل والنهار ، كما يروى أن الأمير « عبد الرحمن » بالأندلس سار إلى « سرقسطة » بنفسه ، فحصر بها « الحسين ابن يحيى » وضايقها ، ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقاً فملكها عنوة (٢٩) .

وأظن مثل هذه الأعداد الضخمة من مدفعية الميدان الثقيلة ، لا تتوافر في الجيش ، ما لم يكن لديه دار لصناعتها ، وفريق تقوم على تجهيزها ، وإعداد القذائف لها ، والعمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال ، وإذا أضيف إلى ذلك أن هذه الأعداد لم تكن كل عتاد الجيش ، فهمنا أن الخزائن ودور الصناعة كانت تخرج من هذا السلاح أعداداً وافرة ، تكفي حاجة الجيش

(٢٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١٨ .

(٢٧) الكامل لأبن الأثير ج ٤ ص ١٤٦ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ١٦٤ ،

٦٨ .

(٢٨) الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٣٤ .

(٢٩) نفس المصدر ج ٦ ص ٢٤ .

في معاركه الكثيرة .

أما العباسيون فقد افتنوا في إحداث قذائف المنجنيق ، فاستخدموا النار الإغريقية فيها ، كما حدث في الفتنة التي كانت بين « الأمين والمأمون » ففي عام ١٩٧ هـ ٨١٣ م حاصر المأمون « بغداد » وتبادل فيها الرمي بالمجانيق بين الفريقين ، حتى دَرَسَت المنازلُ ، وكثر بها الحراب^(٣٠) ، وشبت الحرائق في كل مكان ، وقد تردد على لسان شعراء ذلك العصر، وصف الحراب الذي أصابها، فقال فيه بعضهم:

أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقومُ أحرَقُوا بالنار قَسْرًا ونائحة تنوح على غريق^(٣١)

ولقد شاع أمر هذه النار في أيام « الرشيد » فقد كان « حملة النفط أو (النفاطون) في جيشه ، يتقدمون مشاة نحو رماة العدو الذين في مقدمته ، ثم يرمونهم بتلك النار ، فتشتعل في صفوفهم ، بينما يتقدمون هم فيخترقون تلك الصفوف المحترقة ، وقد لبس كل منهم رداء خاصاً ، يمنع اشتعال النار فيه أو وصولها إليه ، كما ذكر « أبو الفرج الأصبهاني » والعلامة « فون كريمر »^(٣٢)

من هذه النصوص المتقدمة يستطيع المرء أن يفهم ، أن ذلك السلاح كان عاماً عند المسلمين خلال القرن الثاني الهجري ، وأنه كان كمدفعية الميدان الثقيلة ، ومدفعية الحصار ، وأن المسلمين تفتنوا في قذائفه حتى أدهشوا أعدائهم بها ؛ كأنهم كانوا يظنون قصورهم فيها .

وأما العرّادة فهي نوع صغير منه ، كان يستعمل لإلقاء الحجارة والسهام ، فهي أشبه شيء بالمدفعية الخفيفة، التي توجه قذائفها إلى مواقع العدو في الميدان ، وأقرب المدافع منها شبيهاً مدفع « الهاون » كما مرّ ذكره آنفاً ، ولم يكتب لي العثور على صور أو نماذج لها ، وإن كان يغلب على الظن أنها مثل « البالستا » المعدة لرمي السهام الكبار (انظر نموذجها بالمتحف الحربي) .

(٣٠) الكامل في التاريخ ص ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٣١) عصر المأمون لأحمد رفاعي طبعة سنة ١٩٢٨ م ج ٣ ص ٣٠٥ ومحاضرات الحضري الطبعة

الأولى ص ٢٣١ وهذا أول شعر يذكر المنجنيق فيما أعلم .

(٣٢) الأغاني طبعة الساسي ج ١٧ ص ٤٥ .

(ب) الدبابة

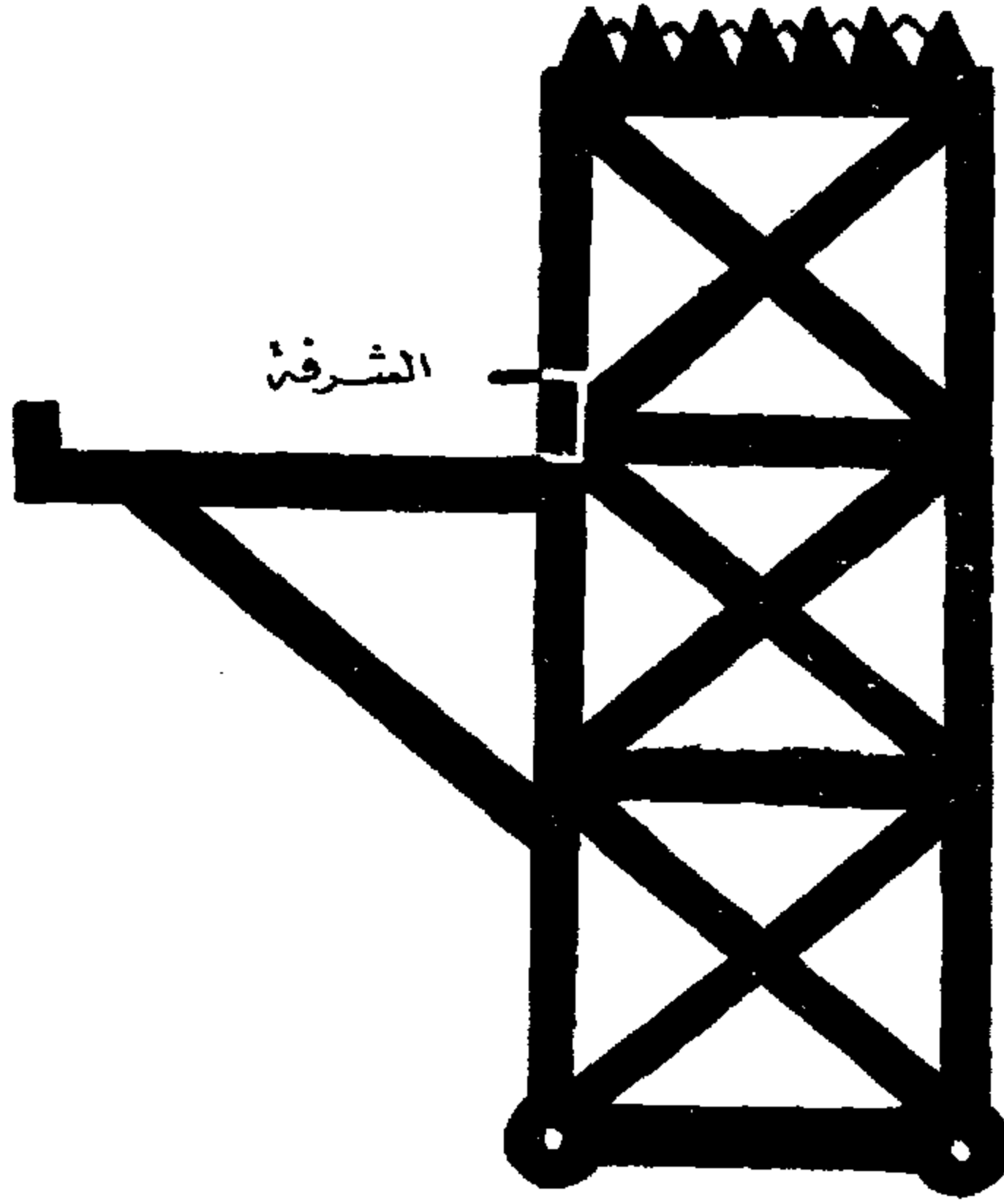
١ - اسم الدبابة لغةً مشتق من (دبّ يدبّ) ديبياً (إذا مشى على مهل ، كما في كتب اللغة ، ولذا نسبوا الدبيب إلى الشيخ المسنّ لأنه يمشى متمهلاً ، وسمّوا تأتّى « امرئ القيس » إلى صواحيبه ديبياً لذلك ، فهي سميت بذلك لأنها تدب حتى تصل إلى الحصون ، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بآلات الحفر ويظهر أن « الضبر » نوع منها ، أو هي الدبابة نفسها مع ترادف الأسماء ، ففي القاموس المحيط أن الضبر جلد يغشى خشباً فيه رجال ، تقرب إلى الحصون للقتال ، والجمع ضبور^(٣٣) وليست الدبابة شيئاً غير هذا ، كما سنعرف من وصفها . وطريقة العمل بها .

وصف الدبابة والعمل بها :

كثيراً ما يذكر المؤرخون اسمها ولا يصفونها ، أو يوضحون أجزاءها ، وذلك إما اعتماداً على أنها كانت معروفة لديهم عن طريق المشاهدة ، وإما لأنهم كانوا لا يحيطون خبراً بتفصيلاتها ، والذي يفهم مما كتبوا عنها ومن مشاهدة نماذجها أنها كانت أول الأمر عبارة عن هودج مصنوع من كتل خشبية صلبة ، على هيئة برج مربع ، له سقف من ذلك الخشب ، ولا أرض له ، وبين كتل البرج مسافات قليلة يستطيع الرجال العمل من خلالها ، وقد ثبت هذا الهودج على قاعدة خشبية ، لها عجلات أربع أو أكثر ، أو بكرات صغيرة كالعجل ، فإذا أراد الرجال العمل بها دفعوها أمامهم على العجل ، متخذين منها درعاً يقيهم سهام الأعداء من فوق الأسوار ، أو دفعوها وهم بداخلها ، فإذا ألصقوها إلى السور عملوا من داخلها بمساعدة آلات الحفر الحديدية ، على نقض حجارة السور ، من الموضع الذي أوهنته حجارة المنجنيق ، وكلما نقضوا منه قدراً علقوه بدعائم خشبية ، حتى لا ينهار السور عليهم ، فإذا فرغوا من عمل فجوة متسعة فيه ، دهنوا الأخشاب بالنفط ثم

(٣٣) القاموس مادة (ضبر) .

أشعلوا فيها النار وانسحبوا إلى الدبابة ، فإذا احترقت الأخشاب انهار السور مرة واحدة ، تاركاً ثغرة صالحة للاقتحام منها^(٣٤) (انظر شكل ١١) .



(شكل رقم ١١)

تعلم المسلمون في القرن الأول صناعة الدبابات^(٣٥) ، ثم أدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، حتى صارت ضخمة كثيرة العجل ، فجعلوها برجاً مرتفعاً بارتفاع السور ، وبدخلها سلام مستعرضة تنتهى إلى شرفات فيها تقابل شرفات الحصن ، فيصعد الرجال في أعلاها^(٣٦) ، ويستولون على السور وينتقلون

من شرفاتها إليه ، ثم يطردون منه رماة الأعداء .

وبمرور الزمن زاد المسلمون في حجم الدبابة ، فصاروا يصنعونها كبيرة بحيث تجر على ست عجلات أو ثمان عجلات ، وتتسع الواحدة منها لعشرة^(٣٧) رجال من المقاتلين أو أكثر ، يعملون بها على نقب السور ، فهي سلاح يتعاون مع المنجنيق ، كما تتعاون المدفعية الحديثة مع الدبابات ، حيث تقوم الأولى بتطهير المواقع وهدم التحصينات ، ثم تقوم الثانية بعملية الاقتحام من نقط الضعف التي فتحتها الأولى فالتمهيد دائماً يكون بالمدافع ، ثم يكون الاقتحام بالدبابات .

السلاح المضاد لها والوقاية منه :

كانت الدبابة تقاوم بأن ترمى بالنار من فوق الأسوار ، أو يُصب فوقها الحديد المصهور المذاب ، فيحرق خشبها ومن فيها ، وكذلك فعلت ثقيف بدبابة الرسول (ص)

(٣٤) انظر آثار الأول للحسن بن عبد الله ص ٢١٤ .

(٣٥) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ٢٣ .

(٣٦) جرجى زيدان . تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٦٠ .

(٣٧) المصدر السابق ج ٦ ص ١٧٩ .

يوم حصارهم ، فخرج رجالها منها فتلقفهم الرماة بنبالهم ، فجرح منهم عدد كبير (٣٨) ومنذ ذلك الحين صار المسلمون يغطون أخشابها باللبود ، أو الجلود المشبعة بالخل ، لأنه يقاوم النار فلا تشتعل فيه .

ومن الأسلحة المضادة لها الخنادق ، فإنها تحول دون تقدمها ، وحتى في حالة ردمها بالرمال ، كانت تغوص فيها عجلاتها ، فلا تخرج منها إلا بشق الأنفس ، ويكون رجالها هدفاً ثابتاً لسهام المدافعين فوق الأسوار من رماة العدو .

وكثيراً ما كانت تُرمى الدبابة بحجارة منجنيق يضبط عليها من فوق السور ، ويرميها حتى عند تحركها ، فكان رجالها يدفعون هذه الحجارة عنها ، بأن يعلقوا عليها الستائر من البسط الغليظة ، بحيث تكون بعيدة عن خشبها ؛ لتضعف فعل الحجارة كما مر ذكره في حماية الأسوار منها (٣٩) ، وفي هذا المعنى يقول « الحسن بن عبد الله » : « وأما الدبابة فدفعها بمنجنيق معين وزنه عليها ، فإن كانت يبرج خسفها ، وإن كانت بستائر فرّق مَنْ خلفها ، وإن غفلوا عن الجلود واللبود المبللة بالخل ، فالنقط يُلقي في جميع ذلك (٤٠) » لإشعال النار فيها وفي رجالها .

كلمة تاريخية عن تطورها :

يحسن هنا الإحالة إلى ما سبق ذكره عن أولية المنجنيق ، فالدبابة أخته في وظيفتها وصنعها ، وهى سلاح ليس بعربي مثله ، لأنه لم يرد لها ذكر في أشعارهم الجاهلية ، وكانوا عند ظهور الإسلام يتعلمون صنعها في « جرّش » كما تقدم وقد استخدمها الرسول عليه السلام مع المنجنيق في حصار الطائف الذى فيه يقول « مولاى محمد على » (٤١) : « وقد استعان المسلمون بالأسلحة الحديثة ، التى أمدتهم بها القبائل الأخرى » . ولعله يقصد بذلك الأسلحة التى استخرجها الرسول من بعض حصون « خيبر » وإلا فما كان لقبائل العرب معرفة في ذلك الحين بآلات الحصار .

(٣٨) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢٩٩ .

(٣٩) انظر الهوامش ٧ ، ٨ ، ٩ من هذا القسم .

(٤٠) آثار الأول ص ٢١٥ .

(٤١) كتابه « محمد رسول الله ترجمة مصطفى فهمى » ص ١٦١ وسيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٢٦ .

وتجرى بعض الروايات بأن «سكمان الفارسي» كان يصنع للرسول بيده الدبابات والمجانيق ، وليس في تاريخ الرجل ما يثبت أنه نشأ ملماً بالشئون الحربية ، بل إنه كان في بلاده سادناً لبيت من بيوت النار ، ثم ظل يتنقل بين الرهبان المسيحيين ، حتى ألقى عصا التسيار في يثرب ، حيث آمن بالرسول الجديد ، وهو في حدود الثامنة عشرة من عمره^(٤٢) ، فكيف لمثل هذا الشاب الراهب بصناعة الأسلحة الثقيلة وآلات الحصار ؟

هذا ولم يتعرض صاحب «آثار الأول»^(٤٣) لأصل الدبابة ، ولم ينسبها إلى قوم بذاتهم كما صنع بالمنجنيق ، واكتفى عند ذكرها بقوله : «أما الدبابة فهي آلة تُتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود أو الجلود المنقعة في الخل ، لدفع النار ، وتُركب على عجل مستدير وتحرك وتجر ، وربما جُعِلت برجاً من خشب ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر .»
وأياً ما كان الأمر فقد عرفها المسلمون ، وأدخلوا عليها كثيراً من التحسينات وأقاموا لها المصانع ، يعمل فيها صناع ماهرون ، تخصصوا فيها ، فكانت تُحمل أخشابها على الجمال ، ثم يتم صنعها في مكان المعركة ، ثم يستخدمونها بمهارة ، فكانت تأتيهم بنتائج فعالة .

(ج) رأس الكبش وسلم الحصار

ظهر رأس الكبش خلال القرن الثاني ، للعمل مع الدبابة على هدم الأسوار وفتح أبواب الحصون ، ولكن بطريقة مباشرة ومجهود أقل ، وقد فهم الأستاذ «جرجي زيدان» أنه نوع من الدبابات حيث يقول : «وقد يستخدمون الدبابة لهدم الأسوار ، فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ، ويجعلون رأسها محددًا (كذا) ويصدمون بها الأسوار حتى تنهدم»^(٤٤) وأثبت في موضع آخر أن رأس الكبش كالدبابة ، منه الصغير والكبير ، ظناً منه أنه كالدبابة الحديثة تصدم الموانع

(٤٢) انظر ترجمة في الإصابة لابن حجر ، ففيها تفصيل كثير .

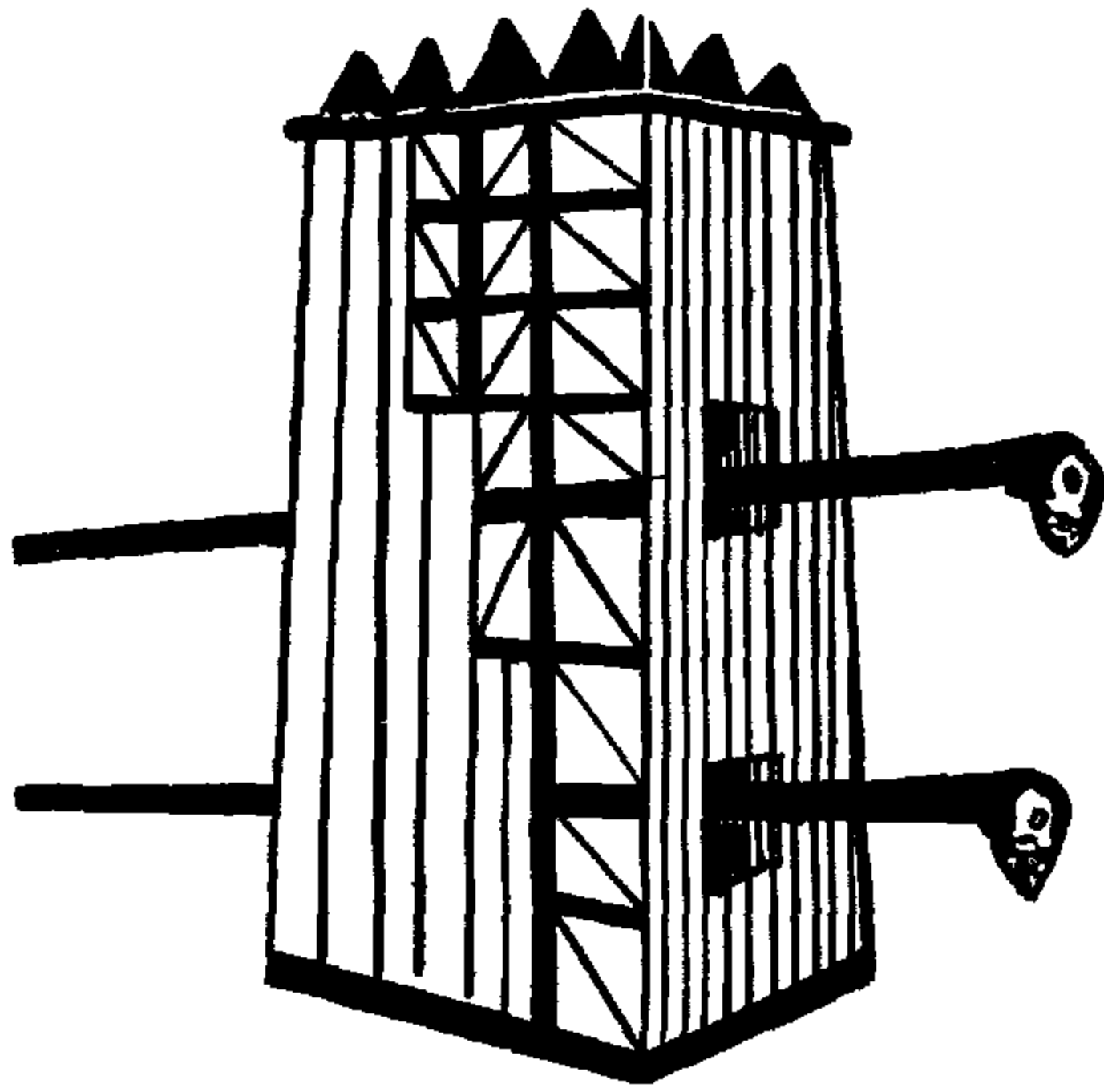
(٤٣) ص ٢١٤ منه ، والخشب المتلزز الملقوق بعضه إلى بعض القاموس مادة لز

(٤٤) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٦٠ .

فتهدمها ، وليس من المعقول أن تهدم الأخشابُ الحجارة وهي أصلب منها ، كما لم يرد في أخبار الدبابة ونماذجها ، أنهم كانوا يصنعون لها رأساً محدداً ، وأنهم كانوا يحركونها للخلف ولأمام لهدم الأسوار .

وحقيقة الأمر أن رأس الكبش يُحمل داخل برج خشبي ، أو داخل دبابة ، وهو عبارة عن كتلة خشبية ضخمة مستديرة ، يبلغ طولها حوالى عشرة أمتار أو أكثر ، قد رُكب في نهايتها مما يلي العدو ، رأس من الحديد أو الفولاذ ، تشبه رأس الكبش تماماً بقرونها وجبهتها ، كما يركَّب السنان الحديدى على الرمح الخشبي ، وتتدلى هذه الكتلة من سطح البرج أو الدبابة ، محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين ، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب قربوا البرج منه ، ثم وقفوا داخله على العوارض الخشبية ، ثم يأخذون في أرجحة رأس الكبش للخلف والأمام ، وهو معلق في السلاسل ، ويصدمون به السوار عدة مرات حتى تنهار حجارته ، فيعملون على نقبه^(٤٥) وهدمه ، وقد استخدمها «الجُنيد بن عبد الرحمن» في هدم حصون الهند^(٤٦)

سنة ١٠٧ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك (انظر شكل ١٢) .



(شكل رقم ١٢)

وفي كثير من الحالات كان رأس الكبش يحمل داخل الدبابة الكبيرة ذات البرج ، في الجزء السفلى منها ، لاستخدامه عند الحاجة إليه ، ولعل هذا هو الذى جعل الأستاذ « زيدان » يقرر أن الدبابة كان لها رأس محدد تُهدم به الأسوار ، وقد عرفنا أن ذلك من وظيفة رأس الكبش الذى تحمله الدبابة .

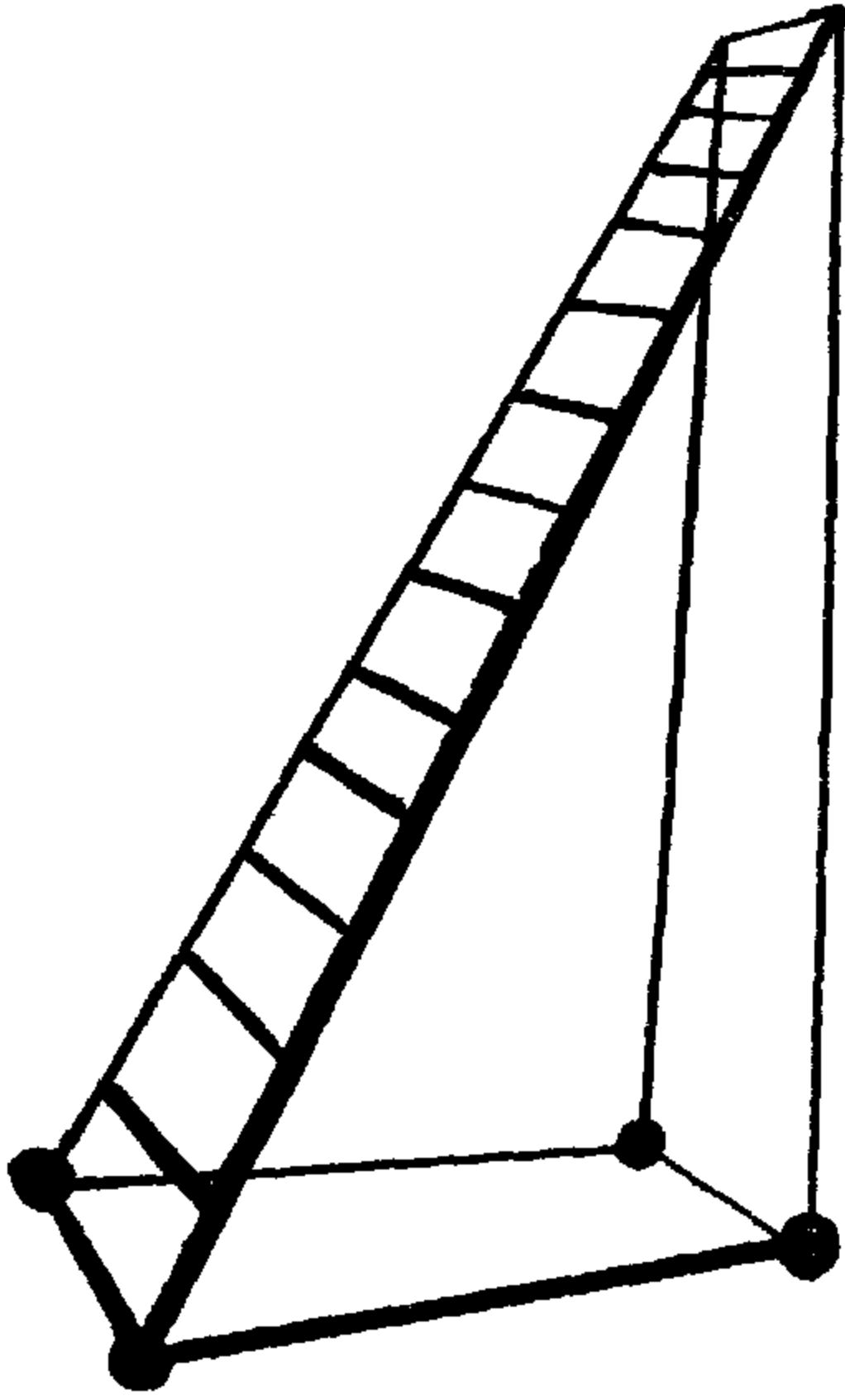
(٤٥) انظر النماذج بالمتحف الحربى .

(٤٦) الهندية لثابت ص ١٩٤ ، ٩٥ ولم يذكر مرجعه .

السلم :

السُّلَم من آلات الحصار أيضاً ، وهو يساعد المحاصِر على اعتلاء الأسوار وفتح مغاليق الحصون ، وأول من استخدمه من المسلمين في الحصار بكثرة هو القائد الفذ «خالد بن الوليد» فإنه كان يتخذ جبالا كهيئة السلالم ، ثم يجعل في طرفها أوهاقا^(٤٧) ويرميها على شرفات السور ، فتعلق بها فيصعد إليها من يثبتها ليصعد الناس بعده ، وبهذه الطريقة اعتلى خالد أسوار «دمشق»^(٤٨) وفتحها ، وبمثل هذه الطريقة نفسها صعد «الزبير بن العوام» سور حصن بابلين عند فتح مصر ، فما شعر به الروم إلا وهو على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده^(٤٩) . فوقع الرعب في قلوبهم ، وتبعه إخوانه في اقتحام الحصن .

وبمرور الزمن صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد ، مرتفعة بارتفاع السور تقريباً ، على نحو ما في سلم فرق الإطفاء والإنقاذ ، يصعد فيها الرجال بعد أن يسندوها إلى السور من مكان أمين ، وكذلك فعل المسلمون في مصر عند فتح حصن «بابلين» فإنه لما طال حصارهم له ، وأبطأ عليهم الفتح ، وضعوا سلماً إلى جانب الحصن ، من ناحية سوق الحمام (ويظهر أنها كانت أضعف نقطة فيه ، من ناحية الحراسة والحذر) فلما سمع الناس «الزبير بن العوام» يكبر فوق السور ومعه السيف ، تحاملوا على السلم صاعدين حتى نهاهم «عمرو بن العاص»



(شكل ١٣)

- (٤٧) الوهق محرّكة ويسكن الجبل يرى في أنشودة فتؤخذ به الدابة والإنسان ، والجمع أوهاق - انقاموس المحيط ، وهو يشبه تماماً عقدة الأنشودة التي يستعملها الكشافون في صيد الحيوان أو غيره .
- (٤٨) انظر الطبري، ج ٤ ص ٥٧ ، ٥٨ ، والكمال لابن الأثير ج ٢ ص ١٨٠ .
- (٤٩) بتلر : فتح العرب لمصر نقلا عن خطط المقرئزي ، والنجوم الزاهرة .

خوفاً من أن ينكسر بهم^(٥٠) (انظر شكل ١٣)

هذه القصة وأمثالها—على ما يقال فيها—تقفنا على الدور المهم الذى كان يؤديه السلم فى ذلك الوقت، من حيث اعتلاء الأسوار واقتحام الحصون، الأمر الذى جعل المسلمين يهتمون به ويحسّون فيه، فقد صار السلم بعد ذلك يصنع على قاعدة خشبية كبيرة، تساعد على إثباته، وأحياناً كان يقام عليها سُلمان يلتقيان فى النهاية العلوية، ليدعم كل منهما الآخر، وجعلوا لهذه القاعدة بكرات من خشب أو عجلات ثابتة، ليسهل بها نقله من مكان إلى آخر، كما يشاهد فى نماذجه ورسومه، ثم أكثروا من أعداد السلم فى الجيوش، وصار من أهم آلات الحصار كالمنجنيق والدبابة وغيرهما.

(٥٠) حسن المحاضرة للسيوطى طبعة مصر سنة ١٢٩٩ هـ ج ١ ص ٦٥ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ١٠ .

الفصل الرابع

وسائل الدفاع وآلاته

كما قسمت الأسلحة في الفصل الثالث إلى خفيفة وثقيلة ، يحسن هنا أيضاً تقسيم وسائل الدفاع قسمين :

أ - آلات متحركة يحملها الجندى الواحد ، لحماية نفسه في المعركة كالدرع والحوذة والترس .

ب - آلات ووسائل ثابتة يشترك الجند في إعدادها ، أو يقوم بها طوائف العمال والفعلة ، كحفر الخنادق ، ونثر حسك الحديد ، وإقامة الجدران والموانع ، وبناء الحصون والقلاع والثغور ، وما إلى ذلك من وسائل الدفاع المختلفة .

القسم الأول

آلات الدفاع المتحركة (الخفيفة)

(١) الدرع وملحقاتها

١ - وصفها وتطورها :

آلات الوقاية كآلات القتال ؛ قديمة بقدم البشرية وقدم الحروب ؛ فالإنسان بطبعه يدفع الخطر عن نفسه مدفوعاً بغريزة حب البقاء ، وقد كانت الدرع مستخدمة عند قدماء المصريين ، وعند اليونان والرومان ، فقد ذكر « البستاني^(١) » أن « هوميروس » نسب إلى أبطال طروادة ، دروعاً من الحديد ونسيج الكتان والنحاس وذكر أنهم كانوا يصنعونها شقّتين : إحداهما للصدر والأخرى للظهر ، وأن « الإسكندر » نزع من جنوده الشقة الظهرية ، منعاً لهم من الهزيمة من وجه العدو

(١) دائرة معارفه : مادة (شقة) مجلد ١٠ ص ٥٢١ .

وذكر عن العرب أنهم لبسوا الدروع ، ولكنهم لم يتزلفوها منزلتها عند اليونان والرومان ، وكانت لهم كمن تقدم دروع مختلفة الألوان^(٢) .

وبما يدل على قدم الدرع ، ورود ذكرها في القرآن الكريم أكثر من مرة فقد علم الله نبيه « داود » كيفية صنعها من الحديد ، محكمة وافية ، قال تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلاً : يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد أن يعمل سبغات وقدّر في السرد . » وقال الألوسي في تفسير الحملة الأخيرة : « أي أحكم حلقها في الوضع والمقدار ، بحيث لا يُنال صاحبها من خيلها^(٣) . » وقد ذكر الله فضلها في الحرب فقال عن داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم^(٤) . » كما امتن بها على عباده في قوله : « وجعل لكم سراويل تقيكم الحر ، وسراويل تقيكم بأسكم^(٥) . »

مما تقدم من النصوص الدالة على قدمها ، يظهر لنا ضعف ما رواه الأستاذ « جرجي زيدان » من أنها من صنع الفرس أو الروم في الغالب^(٦) حيث ظهر لنا بوضوح أنها كانت معروفة لدى سائر الأمم القديمة قبل الفرس والروم ، فإن داود عليه السلام أقدم منهما جميعاً .

ظلت الدروع معروفة منذ القدم ، حتى أدركها الجاهليون فاستخدموها ، وذكروها في أشعارهم على نحو ما تقدم في التمهيد ، ثم استخدمها المسلمون أيضاً ، فكانوا يصنعونها من حلقات الحديد ، ويابسونها فوق قميص من الكتان يقال له « الشليل »^(٧) ولعله هو القباء الوارد في رواية « الطبري » فقد ذكر أن « أبا بكر » استدعى « خالد ابن الوليد » بعد قتله « مالك بن نويرة » فدخل المسجد وعليه قباء عليه صدأ الحديد معتجراً بعمامة له قد غرز فيها أسهماً^(٨) .

(٢) نفس المرجع ص ٥٢٤ .

(٣) تفسير القرآن له . سورة سبأ ، آيات ١٠ ، ١١ .

(٤) سورة الأنبياء آية ٨٠ .

(٥) سورة النحل آية ٨١ .

(٦) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٥٨ .

(٧) انظر الإفصاح في فقه اللغة ، رسالة الدكتور « علي الجندى » عن شعر الحرب في الجاهلية

ص ١٧٠ .

(٨) تاريخه ج ٣ ص ٢٤٣ .

ولندرة معدن الحديد في جزيرة العرب ، واستيراده من بلاد الهند ، كانت الدروع غالية ، والحصول عليها صعباً ، إلا على سادة الناس ومياسيرهم ، أما سائرهم فكان يتخذ درعه من جلود الإبل التي تكثر في جزيرتهم ، ولعل هذا النوع هو الذي كان يسمى « الدَّلَاص » بخلاف ما فهم الأستاذ « زيدان » من أن هذا الاسم كان يطلق على درع الجلد ، أو درع من الكتان الغليظ^(٩) ، فقد علمنا أن الكتان ونحوه كان يلبس تحت الدرع لمقاومة صلابتها ، وذكر « ابن سيده »^(١٠) أنه ربما لبس تحت الدرع العليا، درع صغير داخلية تقوم مقام الشليل ، وجاء في وجمعها دلاص أيضاً .

وقد فهم الأستاذ « البستاني »^(١١) ، أيضاً ، أن من بين الدروع قميص الكتان وقال : « ولعلها (السنور) المذكور في كثير من شعرهم كقول أبي الطيب المتنبي :
ورسائل قطع العداة سحاءها فرأوا قنًا وأسنة وسنورا

ولكن « ابن سيده »^(١٢) يرد عليه هذا الفهم في قوله : « والسنور الدروع ولا يقال للواحد ، وإنما يقال لبس القوم السنور . » وعلى هذا فهو ليس نوعاً خاصاً من الدروع ، وإنما هو اسم جامع لها على اختلافها .

وعلى أية حال لقد لبس العرب الدروع على اختلاف موادها ، وأكثرها ما كان زرداً من الحديد أو النحاس أو الفولاذ ، ولا يزال بعض زعماء العشائر العربية يستعملونها حتى الآن ، مما يدل على تأصل تلك العادة في أجدادهم ، وبعد أن كان عامة المسلمين أول أمرهم يحاربون مجردين ، صاروا بعد اتصالهم بالفرس والروم يلبسون الدروع المعدنية ، ذات الصدور والسواعد والسيقان^(١٣) ، كما قلدهم في كثير في تنظيماتهم الحربية .

والدرع في غالب أمرها قميص ينسج من حلق حديدية رفيعة ، فإن نسجت حلقة داخل حلقة سميت (مفردة) وإن نسجت حلقتين داخل حلقتين سميت

(٩) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٥٨ .

(١٠) المخصص ج ٦ ص ٧٠ .

(١١) دائرة معارفه ، مجلد ١٠ ص ٥٢٤ .

(١٢) المخصص ج ٦ ص ٧٠ .

(١٣) Dr. Oman : A History of the Art of War. p. 209. (١٣)

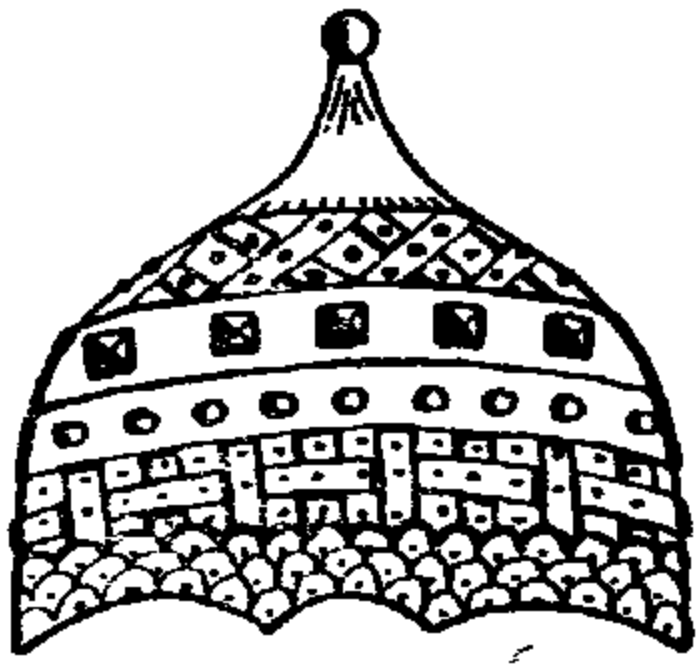


الدرع حلقات منسوجة
شكل (١٤) الدرع البتراء

(مضاعفة) وفي المخصص أنها تسمى (الموضونة) أيضاً ، وحلقاتها توصل بمسامير تسمى (الغلائل) بحيث تشبه الشبكة التي يلبسها رجال الفرسان فوق أكتافهم .

وهي نوعان سابغة وبتراء ، انظر شكل (١٤)

أما الدرع السابغة فهي الفضفاضة التي تغطي البدن ، بأكمامها الطويلة حتى الأنامل ، وحاشيتها التي تصل إلى نصف الساق ، ومعها المغفر الذي يغطي الوجه ،



الخوذة

والبيضة التي تغطي الرأس والقفا ، ولابس هذه الدرع يكون مغطى بالحديد ، لا يبدو منه إلا عيناه ولذا أطلقوا على الكتيبة المغطاة بالحديد (كتيبة خضراء) فقد روى أن الرسول (ص) دخل مكة « في كتيبته الخضراء للبسهم الحديد ، لا يرى منهم إلا الحدق » (١٤).

والدرع السابغة كانت تلازم القاده وحملة الأعلام ، (شكل رقم ١٥)

وأهل الخطر في الحروب الذين تجب المحافظة على حياتهم ، وهي لطولها كانت تعوق صاحبها أحياناً عند المبارزة أو المجاورة ، ولذا جرت عادة صاحبها ، أن يلبس عليها في وسطه نطاقاً من جلد ، ليجمع ذيلها وفضولها فيغرزها فيه عند العمل ، كما يفعل بعض القرويين اليوم ، إذا جمعوا ذبول ثيابهم إلى أوساطهم ، وذكر « الإدريسي » (١٥) أنه « كان للرسول منطقة من جلد مبشور ، فيها ثلاث حلقات من فضة ، والإبريم والطرف من فضة » ويبدو أن هذه الحلقات في النطاق كانت لتعليق فضلات الدرع بها ، لتكون مشمورة خفيفة عند القتال ، يؤيد هذا المعنى

(١٤) انظر الطبري ج ٣ ص ١١٧ والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٩٤ ، وفيها أن العرب تطلق السواد على الخضرة ، كما تطلق الخضرة على السواد .

(١٥) الإدريسي : التراتيب الإدارية طبعة فاس ١٣٤٦ هـ ج ٥ ص ٣٤٤ .

ما رواه « الطبرى »^(١٦) من أن مروان بن الحكم فى يوم حصار « عثمان » خرج من الدار يطلب المبارزة ، وقد رفع أسفل درعه فجعله فى منطقته ، وبمرور الزمن وتطوره صار بعض الفرسان يجعل فى منطقته بدل الحلقات مشابك ، يشبك بها أطراف درعه إذا أراد العمل ، وكان يسميها (ذات الأزمّة) كدرع « خالد بن جعفر البرمكى »^(١٧) التى كان لها عرى تعلق بها .

أما الدرع البترء: فهى القصيرة التى بلا أكمام، بحيث تصل إلى أسفل الركبة أو فوقها بقليل ، وهذه قليلة الحماية لأطراف صاحبها ، ولذا روى فى سبب مقتل الصحابي « سعد بن معاذ » أن درعه يوم الخندق لم تكن سابعة ، قد خرجت ذراعه كلها منها ، فرمى بسهم قطع منه الأكحل فمات به^(١٨) . وكثيراً ما نقرأ فى أخبار الفتوح تلك العبارة : « ضربه ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه ، وقال الطبرى فى الفارس الماهر الذى يتتبع مفاصل المضروب ، « هو أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور »^(١٩) وهذا يذكرنا بذلك البيت الذى سبق فى التمهيد:

فكأنما أقدامهم وأكفهم سرب تساقط فى خليج مفعم

كما يزيل الغرابة عن رواية « ابن الأثير »^(٢٠) التى رواها عن « وقعة الحمل » من أن الناس فى مكة والمدينة ، وفيما بينهما وبين البصرة ، علموا بنجر الوقعة قبل ورود الرسل ، بما كان يُنقل إليهم النور من الأيدى والأقدام ، وما يسقط منها من أطراف الناس يعرفونهم .

ولذا جعلوا من مهارة الفارس أن يتحرى الأماكن المكشوفة والمفاصل من عدوه ، وقد نصح « الحسن بن عبد الله » لكل محارب بقوله : « ولا تضرب الخصم إلا فى المكان الذى لا سلاح فيه ، وعليك بالأطراف فقليل الجراح فيها كثير ، ولا تضيق الضرب فى الدرق أو التروس ، فربما نبا السيف أو نشب أو التوى »^(٢١) . ومع تأمين الدرع لصاحبها ، فإن إصابته قد تكون من نقطة فيها واهية ، أو

(١٦) تاريخه ج ٥ ص ١٢٤ .

(١٧) زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٨ .

(١٨) سيرة ابن هشكام ج ٣ ص ٢٥٢ والأكحل عرق فى باطن الذراع

(١٩) تاريخه ج ٤ ص ١٣٥ .

(٢٠) الكامل ج ص ١١٢ .

(٢١) آثار الأول : مخطوط بالمتحف الحربى ، برقة ١٦١ .

فتحة نسيها أو عند انكشافها عنه فجأة «فحمزة» عم الرسول طعن في ثنّته، لأنه عَشَرَ عند القتال عثرة كشفت الدرع عن بطنه^(٢٢)، فانتهر وحشيَّ الفرصة وقذف حربته فيها فأصابها، وكذلك طعن «الرسول» يومها أبيّ بن خلف في ترقوته، لما أبصرها من وفرجة في سابغة درعه فأصابها^(٢٣)، بعد أن سدد الضربة إليها.

وقد كان بعض الفرسان إذا رأى درع خصمه حصينة، يحاول أن يحدث فتقا بها؛ ليسهل عليه طعنه منه، روى «المسعودي وابن قتيبة» واللفظ للأول خبر مبارزة بين فارسين يوم صيفين، يصح إيرادها هنا لتوضيح المعنى، روى عن بعض الفرسان قوله: «بينما أنا واقف بصفين، إذ مرّ بي العباس بن ربيعة» مُغفراً بالسلاح، وعيناه يبصان من تحت المغفر، كأنهما شعلتا نار أو عينا أرقم، ويده صفيحة له يمانية يقلبها، والمنايا تلوخ في شفرتها، وهو على فرس صعب، فبينما هو يبعثه ويمنعه ويلين من عريكته، إذ هتف به هاتف من أهل الشام، يا عباس: هلمّ إلى النزال قال: فالتزول إذن فإنه إياس من الحياة، فتزل إليه الشامي... ثم عصر فضلات درعه في مخزومه (منطقته) ودفع فرسه إلى غلام له أسود، كأني أنظر إلى فلافل شعره، ثم زحف كل منهما إلى صاحبه... وتصافحا بسيفيهما ملياً من نهارهما، لا يصل واحد منهما إلى صاحبه، لكمال لأمته، إلى أن لحظ العباس وهناً في درع الشامي، فأهوى إليه بيده فهتكه إلى ثندوته (أسفل بطنه) ثم عاد لمحاولته وقد أفرج له مفتق الدرع، فضربه العباس ضربة انتظم بها جوانح صدره، فخر الشامي لوجهه^(٢٤).

هذا، على أن بعض الفرسان الذين عرفوا بالبسالة واحتقار الموت، كانوا يلبسون الدرع صدراً فقط بلا ظهر ولا أكمام، ويسمون هذا النوع (الجوشن)^(٢٥)، وذلك لإظهار بطولتهم، وإياساً لأنفسهم من الفرار، لأن ظهرهم فيه سيكون عرضة للسلاح، وقد كانت درع (على) رضى الله عنه كدروع «الإسكندر»

(٢٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٣٨ والثنة أسفل البطن.

(٢٣) نفس المصدر ص ٢٤٤ والفتوة عند العرب ص ١٤٨.

(٢٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧، ٢٨ وعيون الأخبار ج ١ ص ١٨٠.

(٢٥) الجوشن هو الدرع بالفارسية، ويقال للمتدرع «جوشن ور» كما في المعجم الفارسي للدكتور

هنداوى ص ١١٣.

صدراً لا ظهر له ، فسئل في ذلك فقال : إذا استمكن عدوى من ظهري فلا يُبقي^(٢٦) . ويؤيد هذا المعنى فيه ما رواه « المسعودي^(٢٧) » . من أنه كان يرتب أصحابه يوم « صفين » كأنما يغرسهم غرساً ، وهو على فرس أشقر حاسر الرأس استهانة بالموت واعتداداً بالشجاعة ، ولذا قال فيه بعض أتباع « معاوية » لما رأوه على تلك الحال « من طلب عظيماً خاطر بعظيم » ويظهر أن طريقة الإمام هذه شاعت في الناس بعده فعملوا مثله ، فقد ذكر صاحب « كشف الكروب^(٢٨) » أن بعض الأوائل ممن كان له رغبة في الموت كان يلبس « الجوشن والكبير » صدراً من غير ظهر ولا أكمام ، حتى لا يُطمع نفسه بتولية ظهره .

وباتساع الفتوح وقوة الروح المعنوية ، تطورت فكرة التخفف من الدروع ، وبالع فيها بعض البارزين من الأبطال ، فكان أحياناً يحارب عاري الجسد « كضرار ابن الأزور » الذي عرفه الروم بأنه الرجل العاري ، الذي يهجم مرة برمح ومرة بنبل^(٢٩) كما روى « الواقدي » .

وقد يكون « الواقدي » أضفى على هذا الخبر بعض المبالغة التي عُرِف بها . ولكن الذي يقربُه للفهم ما رواه المؤرخان « ابن الأثير والمسعودي » من اشتها طائفة « ببغداد » في أواخر القرن الثاني ، كانوا يحاربون مجردين ، ولذا سموهم « العراة أو العيارين^(٣٠) » لا سلاح معهم إلا الحجارة في المخالي والمقلاع ، يرمون به أجودَ من رميهم بالسهم .

ومن طريف ما يروى عنهم أن بعض القواد الخراسانيين « لطاهر بن الحسين » خرج يوماً إلى القتال في « بغداد » فنظر إلى قوم عراة لا سلاح معهم ، فاستهان بأمرهم واحتقرهم ، وتقدم إلى بعضهم وفي يده (باريّة مُقيّرة) وتحت بطنه مخلاة فيها حجارة ، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار ، فوقع في باريّته

(٢٦) عيون الأخبار ج ١ ص ١٣١ .

(٢٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠ .

(٢٨) موسى اليوسفي : مخطوطة بالمتحف الحربى ورقة ١١ ، والكبير الطبل كما في القاموس المحيط

والمراد به الجلد هنا .

(٢٩) الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ٣٣ .

(٣٠) الكامل ج ٦ ص ٩٩ ، ١٠٠ ومروج الذهب ج ٣ ص ٤١٤ . والعيار كما في القاموس

المحيط الكثير المحبى والذهاب والذكى الكثير التطواف .

أو قريباً منها ، فيأخذه ويصيح : « دانق » أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه ، فلم يزالا كذلك حتى فنت سهام الخراساني ، ثم حمل عليه العيار ، ورمى بحجر من مخلاته في مقلاع فما أخطأ عينه ، ثم خرّ فكاد يصرعه ، فانهزم وهو يقول : ليس هؤلاء بناس ، وقد روى « المسعودي »^(٣١) أن هؤلاء العيارين كانوا يقاتلون عُرّة ، في أوساطهم التباين والميازير ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص وسموها (الخوذ) ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل . هذه القصة على فرض صحتها تدلنا ، على أن تطور الفكرة كان يميل إلى التحلل من الدروع عند بعض الفرسان ، وإن ظل كثير منهم محافظاً عليها إلى أيامنا الحاضرة .

٢ - أهمية الدرع :

مما تقدم يتضح أن الدرع من أهم وسائل الوقاية الشخصية ، وبها يقاتل صاحبها آمناً قوى القلب ثابتة ، كما قال ذلك الأعرابي الذي رآه - « الإمام على » في بعض المعارك وقد لبس لباساً ثقيلاً ، فسأله : أخشيت الموت يا أعرابي ، فقال : لا ، ولكنني أقي به نفسي ، وأثبت به جناني وأقوى به قلبي^(٣٢) . ومن ثم كان الفرسان يحافظون على اقتناء الدرع ، حيث تساعدهم الخيل على حملها ، أما المشاة والرماة فقليل منهم من كان يلبسها ، لأنها تثقل الراجل ، وتعوق الرامي عن حرية الحركة ؛ ولذا كان بعضهم يقطع أكامها ، وقد ذكر « دكتور أومان »^(٣٣) أن رماة الروم كانوا يتحصنون بها وقت التمرين فقط ، فإذا تحققت مهارتهم نبذوها لأنها لا تتفق وتحريك اليدين بحرية عند الرماية ، وأغلب الظن أن المسلمين كانوا مثلهم .

والدليل على أهميتها عند العرب ارتفاع ثمنها ، فقد غنم بعض المسلمين درعاً يوم « حنين » فباعها بسبع أواق ، اشترى بها بستاناً في « بني سلمة »^(٣٤) على أن

(٣١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١١ ، ٤١٥ ، والبوارى جمع « بارية » وهي الترس ، ويظهر أن اللفظ فارسي نسبة إلى « بار » وهي بلدة بنيسابور أو إلى « باره » بالشام كما في القاموس المحيط (البور) والدانق فارسي معرب وهو يساوي ربع مثقال كما في معجم الدكتور هندأوى ص ١٤٧ . ويظهر أن اسم بارية مأخوذ منها .

(٣٢) اليوسفي : كشف الكروب المخطوط ورقة ١١ .

(٣٣) A History of The Art of War. p. 189 .

(٣٤) القسطلاني : إرشاد السارى ج ٥ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

دروع القادة والسادة كانت أغلى من هذا بكثير ، ففي يوم « بدر » أسر المسلمون « الوليد بن المغيرة » وطال كلامهم في فدائه لغناه ولعداوة أهله للإسلام ، فطلب أسرُه أربعة آلاف درهم ، وأوصى النبي (ص) ألا يقبلوا فدية له غير شبكة أبيه ، وهي درع فضفاضة وسيف وبيضة^(٣٥) وهي لا تقل قيمة — إن لم تزد — عن الآلاف الأربعة ، فلو جعلنا ثمن السيف ألفاً أو نحوها على أنه سيف جيد ، بقي للدرع والبيضة ثلاثة آلاف درهم ، وهو ثمن مرتفع ، لأنه يساوي بالعملة المصرية ١٢٠ جنياً ، لأن الدرهم يساوي فرنكاً تقريباً .

ورغم ارتفاع ثمن الدرع كان الناس يحرصون عليها ، فقد روى « الطبرى »^(٣٦) أن الدارعين يوم « أحد » من المشركين كانوا ٧٠٠ ومن المسلمين ١٠٠ ، ولا رأى الرسول عليه السلام قلة الدارعين في أصحابه يوم « حنين » استعار لهم من « صفوان بن أمية » ١٠٠ درع بما يكفيها من السلاح ؛ ليزيد في تحصينهم^(٣٧) ، وكان المسلمون يقدمون الدارع في الصفوف الأمامية ، ويؤخرون الحاسر ، ولذا قال بعض القادة : « ما رأيت رجلاً في الحرب ملتئماً إلا كان عندي رجلين ولا رأيت حاسرين إلا كانا عندي واحداً ، وعلل « ابن قتيبة »^(٣٨) « لأهميتها بقول بعضهم : « أما تراهم ينادون عند الصريخ : السلاح . السلاح ، ولا ينادون الرجال الرجال ؟ وهذا طبعاً استدلال خطابي ، ولكنه يدلنا على ما للدرع عندهم من قيمة .

ولتحصين الدرع لصاحبها كان بعض الرؤساء ، وبعض القادة وحملة الأعلام يلبسون درعاً فوق الأخرى ، وذلك لجلال خطرهم ، وشدة الحاجة إلى حياتهم ، وكان الرسول عليه السلام يضاعف بين درعين في غزواته . وروى « الطبرى »^(٣٩) أن تلك كانت عادته عليه السلام في حروبه كلها .

(٣٥) العقاد عبقرية خالد ص ٤٢ .

(٣٦) تاريخه ج ٣ ص ١٢ .

(٣٧) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٣ والطبرى ج ٣ ص ١٢٧ .

(٣٨) انظر عيون الأخبار ج ١ ص ١٢٩ .

(٣٩) الديار بكرى : تاريخ الحميس ج ٢ ص ٢١٠ والطبرى ج ٣ ص ١٨٥ .

٣ - ملحقات الدرع :

١ - المِغْفَر : وهو نسيج من الحديد كالدرع ، يلبس تحت البيضة على الرأس ، ليكون واقياً لها إذا وقعت أو انكسرت ، ويتدلى جزء منه على الوجه لحمايته وهذا معنى قولهم « وعيناه تبصان من تحت المِغْفَر » وقد دخلت حلقتان منه في وجنتي الرسول (ص) يوم أحد ، بضربة من المشرك^(٤٠) « ابن قمئة » فلو لم يكن المِغْفَر أمام الوجنة ما أصابها ، وكان للرسول مِغْفَر يلبسه تحت القلنسوة من الزرد^(٤١) وقد يكون المِغْفَر سابغاً من الخلف أيضاً بحيث يغطي القفا ، ويتصل بالدرع بواسطة بعض العُرى ، وكان الفارس يلبس فوق البيضة العمامة العربية أو القلنسوة .

ب - البيضة : وهي الخوذة من الحديد أو الفولاذ ، تبطنها بعض المواد اللينة كالقطن وغيره ، وهي مستديرة باستدارة الرأس لها مقدم يسمى (القونس) ولها مؤخر من الزرد المتصل بها ؛ ليطرحه الرجل على ظهره^(٤٢) ، فيقوم مقام المِغْفَر ، وهي تنتهى من أعلاها بقمة مدببة ، لتنبو السيوف عنها إذا صادفها ويمكن نزعها ولبسها منها .

فلما اتصل العرب بالروم أحدثوا بعض التعديل في خوذاتهم ، فصار لها إفريز محيط بها من أسفل ، وجزء نازل على الصدغين منها ، وكرة صغيرة في قمتها ، وإذا كنا قد علمنا أنه لا يكاد يوجد فرق بين الجندى العربى والرومى ، استطعنا أن نعرف وصف الخوذات العربية ، مما كتبه «دكتور أومان» عن الجندى البيزنطى ، فهو يقول : « أما ملابس الفرسان الثقيلة » في عصر «موريس وليو» فكانت عبارة عن خوذة حديدية محاطة بإفريز صغير ، ودرع طويلة تمتد من العنق إلى الفخذين » ، وذكر أيضاً أن هذه الخوذة كانت مدببة ، ولها إفريز محيط بها عند المشاة^(٤٣) .

(٤٠) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٤١) الديار بكرى : تاريخ الخميس ج ٢ ص ٢١٠ .

(٤٢) ابن سيدة : المخصص ج ٦ ص ٧٠ ، ٧٣ .

(٤٣) Dr. Oman. A History of the Art Of War. pp. 187-91.

ج - الأذرع والسيقان والأكف : يروى الطبرى^(٤٤) . أن المسلمين غنموا من الفرس أسلحة بعد فتح المدائن « فيها درع كسرى ومغفره وساقاه وساعده ، وأدراع قوادهم وسيوفهم » ، ويذكر « أومان^(٤٥) » . عن فرسان الروم أنهم « كانوا يلبسون في أرجلهم أحذية حديدية طويلة ، أما سواعدهم فغير محصنة ، وأما أعضادهم فكان الكثير منهم يقيها بسوار ضيق من المعدن » .

إذن فقد شاهد المسلمون أعداءهم يحصنون أطرافهم بالحديد ، وما لاشك فيه أنهم غنموا دروعاً كثيرة من الفرس ، وعجبوا لسوارى « كسرى » وسيقان أساورته ، ووجدوا مثل ذلك عند الروم ، فمن الطبيعي أن يقلدوهم وقد كثرت الأموال في أيديهم ، وما هم بأقل منهم في أية ناحية من النواحي الحربية ، ولذا صارت الدروع تلبس معها السواعد والسيقان أيضاً يذكر « المسعودى^(٤٦) » أن الفرسان كانوا في الحرب بين « الأمين والمأمون » يلبسون مع الجواشن والدروع السواعد والدرق التبتية ، نسبة إلى بلاد التبت ، وذكر « ابن سيده » ما يفيد أنهم كانوا يستعمون السواعد وغيرها حيث يقول : « الطراق الحديد الذى يعرض ثم يدار ، فيجعل بيضة أو ساعداً أو نحوه^(٤٧) » . ولكن الذى يبدو غريباً أن بعض المسلمين في أوائل القرن الثانى ، كانوا يلبسون فوق أكفهم كفاً حديدية ، ولم ترد لها إشارة في تاريخ الفرس أو الروم على ما أعلم ، ذكر « ابن الأثير » خبر القتال الذى كان بين « مسلمة بن عبد الملك » ، ويزيد بن المهلب « بالأنبار في حوادث ١٠٢ هـ ٧٢١ م ثم قال : « فخرج رجل من أهل الشام فدعا للمبارزة فبرز إليه « محمد بن المهلب » وضربه بالسيف ، فاتقاه الرجل بيده ، وعلى كفه كف من حديد ، فقطع الكف الحديد ، وأسرع السيف في كفه فانهزم^(٤٨) » .

من هذه النصوص المتقدمة نستطيع أن نفهم ، أن الفارس في الصدر الأول ، كان يخرج للقتال وقد أخفى بدنه بالحديد ، وأنه نقل عن الروم والفرس الأذرع

(٤٤) تاريخه ج ٤ ص ١٧٦ .

(٤٥) المصدر السابق ص ص ١٨٠ ، ٩٠ ، ٩١ .

(٤٦) مروج الذهب ج ٥ ص ٣٣ .

(٤٧) الخصاص ج ٦ ص ٧٣ .

(٤٨) الكامل ج ٥ ص ٣٣ .

والسيقان ، وما كان ذلك ليثقله ، لأن فرسه يحمله عنه ، أما المشاة والرماة فكانوا يتخففون من الحديد ، لتحقيق لهم خفة الحركة وحرية العمل .

(ب) الترس وأنواعه

الترس أو المَجَنُّ آلة دفاعية يقي بها المقاتل نفسه ، من رميات الأعداء وضرباتهم سواء أكانت بالسهم أم بالرماح أم بالسيوف ، فلكل سلاح - كما سنعرف - ترس يناسبه ويستعمل ضده ، والترس كالدرع قديم عند كل الأمم ، وكما أن السيف لا يفارق يمين المحارب ، فكذلك الترس لا يفارق يساره عند القتال ، وأظهره عند حمله ، وقد استعمله قدماء المصريين ، وكذلك اليونان والرومان والفرس « ويرجح في الدهن أن أقدم المَجَنِّ ، إنما صنعت من درق السلاحف الكبيرة ، لقيامها بالغرض ، ثم تفننوا فيها ، فصنعوها من ألواح الخشب والجلود القاسية ، ثم من المعادن »^(٤٩).

١ - الترس عند المسلمين :

عرف المسلمون أول أمرهم الدرق والحجف ، جمع درقة وحجفة ، وهي كما في « الإفصاح والقاموس المحيط » ترس من جلد الإبل أو البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب^(٥٠) ، ولكن ورد في شرح البخاري ما يفيد ، أن الدرقة زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تصنع من الخشب ثم تُلصق عليها جلدة مساوية لها^(٥١) ، وقد أيد « ابن سيده » ذلك النص بقوله : « طِراق الترس أن يُقَدَّ جلد على مقداره فيلزق به »^(٥٢). وهذه النصوص تساعدنا على فهم ما رواه (الطبري) من أن بعض الجند « بالقادسية » كان معه حَجَفة من جلود البقر ، إذ أن الجلد لا يثبت وحده أمام طعنات السلاح ، إلا إذا كان مستنداً إلى جريد أو خشب يقويه ، ويشد قوامه .

كان هذا شأن بعض الجند في الترس ، أما عامتهم فكانوا يُترسون بأشياء

(٤٩) دائرة معارف البستاني مجلد ١٠ ص ٥٢١ .

(٥٠) أنظر الإفصاح ط دار الكتب ص ٢٩٨ والقاموس مادة (ترس) .

(٥١) إرشاد الساري للقسطاني ج ٥ ص ١٠٥ .

(٥٢) المخصص ج ٦ ص ٧٥ .

مختلفة ، حسب درجاتهم في اليسار أو الفقر : يقول الطبرى : « وعامةُ جنّ المسلمين يوم (القادسية) كانت براذع الرجال ، قد عرّضوا فيها الجريد يترسون بها عن أنفسهم ، وما عامة ما وضعوه على رؤوسهم إلا أنساع الرجال ، يطوى الرجل نِسع رحله على رأسه يتقى به ، والفُرس في الحديد واليُلامق^(٥٣) . وهذا طبيعي لأن الله لم يكن قد فتح على العرب كنوز العراق والشام ، فكانوا يُعدون آلات القتال مما يجدون . فلما فتح الله البلاد عليهم ، وكثر المال في أيديهم ، رغبوا في تقليد أعدائهم ، فتركوا الجلد والجريد ، وصاروا يصنعون أتراسهم من الحديد والفولاذ ، وتوسعوا في استعمالها باتساع فتوحهم ، وقد ذكر الأستاذان « زيدان وثابت »^(٥٤) أنهم كانوا ينقشون عليها الآيات القرآنية والحكم والأشعار ، مثل (لا غالب إلا الله) ومثل (لا إله إلا الله) وتميزت أتراس كل بلد بشكل خاص بها ، فمنها الترس الدمشقي ، والترس العراقي ، والترس الغرناطي وغيرها . وانفرد « المسعودي » بذكر الترس (التبتية) المنسوبة إلى بلاد التبت في أواخر القرن الثاني^(٥٥) ، وهي جزء من بلاد الهند الواسعة .

٢ - أنواع التروس :

زاد تقدم المسلمين الحربى باتساع فتوحهم ، فجدّدوا في السلاح وآلات الوقاية وصارت التروس عندهم تتميز بالبلد الذى تصنع فيه ، وتنسب إليه ، شأنها في ذلك شأن السيوف والرماح وغيرها ، وجعلوا لكل سلاح ترساً لا يحسن استعماله إلا معه . وأول من تكلم عن التروس بتفصيل ، هو صاحب كتاب « آثار الأول » الذى نقل عنه كثيراً الأستاذان « جرجى زيدان ، ونعمان ثابت » دون أن يشير واحد منهما إليه فإنه بعد أن قال : « لا يتبغى أن يدخل في حرب بسيف إلا ومعه ترس ، إلا عن ضرورة . » قسّم الترس أقساماً : فجعل منه المسطح الذى يُتقى به الرمح ، ويكون النظر للعدو من جانبه ، ومنه المستطيل المخصر الوسط ، وبه يُتقى النشاب لأن رأسه يستر رأس الفارس وطوله يقيه ، والنظر يكون من التخصير الذى في وسطه .

(٥٣) تاريخه ج ٤ ص ١٣٩ والنسج بالكسر سير الجلد عريض تشد به الرجال ، كما في القاموس المحيط ، واليَلامق الحديد اللامع الجيد .

(٥٤) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٥٧ والجنديّة في الدولة العباسية ص ١٨٨ .

(٥٥) انظر الهامش ٤٦ السابق .

ومنه المقبب المنحني الأطراف إلى خارج ، وهذا لا يُتَقَيَّ به الرمح ، لأنه قد ثبت فيه فيصرع حامله ، وإنما يُتَقَيَّ به النشاب والسيف^(٥٦) .

هذه أنواع ثلاثة من التروس ، فهل كانت كلها مستعملة عند المسلمين في تلك الفترة ؟

أما الترس المستدير فكان أهم هذه الأنواع ، وأكثرها شيوعاً ، وقد كان كذلك شائعاً بين الروم ، رماة ومشاة وفرساناً ، وإن كان يختلف في الحجم واللون باختلاف الفرق^(٥٧) ، ويفهم من النصوص العربية أنه كان منحني الأطراف جهة حامله ، وله قمة بارزة إلى الخارج تسهل انزلاق الرمح عنه إذا أصابه ؛ ولذا كان بعض أتراس الرسول صلى الله عليه وسلم يسمى « الزلوق »^(٥٨) وروى في صحيح البخاري أن « الرسول » لما جرح في غزوة « أحد » كان « علي بن أبي طالب » يحمل له الماء في مجنه ؛ ليغسل به جروحه ، وحمل له الماء فيه مرة أخرى ليشربه لما اشتد به العطش^(٥٩) ، فهذا المجن الذي يحمل الماء لغسل الجراح ، أو يحمل فيه العلف للفرس لابد أن يكون له قاع منخفض يجعله أشبه شيء بالإناء « انظر شكل ١٦ » .

وأما الترس المستطيل الذي يستر جسم حامله كله ، فقد ذكر « البستاني » أنه كان مستخدماً عند قدماء المصريين ، ونقل عن « هوميروس » أن اليونان في معاركهم كانوا يحملون القتيل أو الجريح على ترسه^(٦٠) ، وهذا يشعرنا بأنهم كانوا يستخدمون الصنف المستطيل ، وقد يفهم من النصوص العربية أن المسلمين استخدموا ذلك الصنف ، فقد روى أن « الرسول وأبا طلحة » يوم « أحد » كان يحتميان في ترس واحد^(٦١) ، وإذا علمنا أن أبا طلحة كان يرمى بين يدي الرسول ، وأنه أمر الناس أن يعطوه نباهم ، فهمنا أن الرسول كان يمسك بالترس له وهو يرمى من ورائه ،

(٥٦) انظر النسخة المخطوطة ورقة ١٦١ والمطبوعة ص ١٨٥ وتاريخ التمدن لزيدان ج ١ ص ١٥٧ .

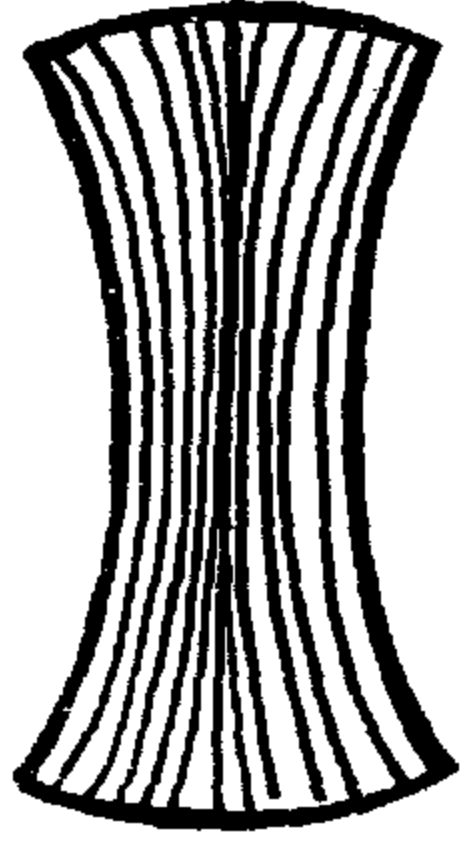
(٥٧) Dr. Oman : pp. 190-91 .

(٥٨) القسطلاني : المواهب اللدنية ج ١ ص ٣٠٢ .

(٥٩) البخاري - شرح القسطلاني ج ٥ ص ٩٥ ، ٩٦ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٥٠٢ .

(٦٠) دائرة معارفه مجلد ٩ ص ٥٢١ .

(٦١) المرجع السابق ص ٩٥ .

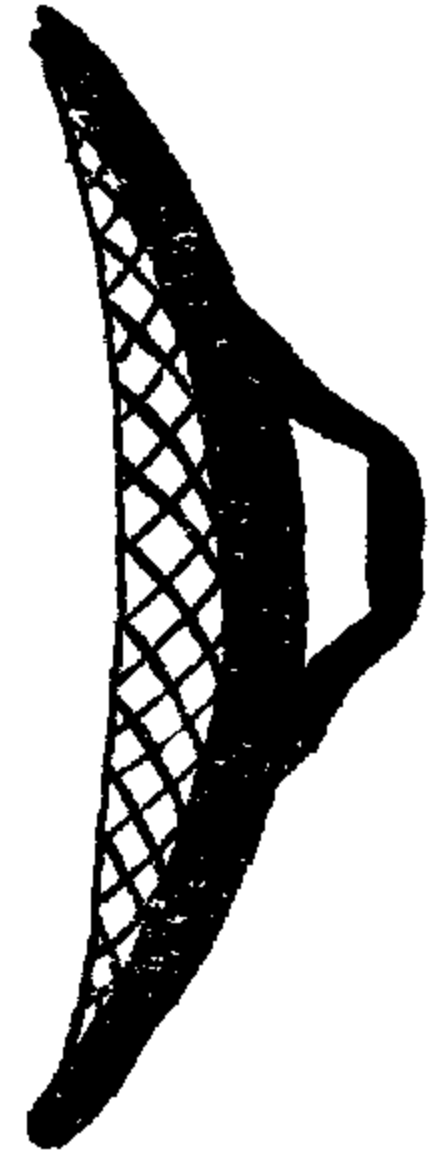


شكل (١٦)

الترس المستطيل

لأنّ الترس المستطيل لا يصلح لستر رجلين متجاورين، وكان أبو طلحة ينهى الرسول إذا أطل من جانب الترس، خوفاً عليه، ويؤيد هذا المعنى أن «الحسن بن عبد الله» ذكر أن فرق الجند التي كانت تكلف بجرّ حبال المجانيق، أو يجر الدبابات أو بردم الخنادق، كان يسير أمامها صف من الجند، يحملون تلك التروس المستطيلة أو الستائر الغليظة^(٦٢)، لتقيهم وتقي من يعملون سهام الأعداء. انظر شكل (١٦)

وأما الترس المحدث - ويسميه الحسن المقيب وهو الذي يكون بروزه جهة حامله، فقد ذكره صاحب «آثار الأول» وبين أنه يُستخدم لردّ السيف والنشاب؛ لأن السيف قد يلتوى أو ينشب فيه إذا صادف أطرافه، ولا يتقى به الرمح لأنه



(شكل رقم ١٧)

الترس المقيب

قد يشتبك فيه فيعطل حامله عن القتال أو يصرعه، وليس عندي نص يثبت استعمال ذلك النوع غير هذا. وهو وإن كان من رجل متأخر يطابق المعقول، ويتسق وطبيعة العرب، لأن معظم قتالهم بالسيوف التي يناسبها ذلك النوع من التروس. (انظر الشكل ١٧).

ويصح الاستئناس هنا بما رواه «البستاني»^(٦٣). من أن التروس الإسلامية تعددت بتمدن المسلمين، وذهبوا في اصطناعها مذاهب شتى، وأكثروا كاليونان من ترصيعها بالقتير (المسامير المضغوطة) فكان عندهم المحجن الكبير والصغير والخفيف والثقيل

والفارس والراجل، وهذا يجعلنا لا نرفض تقسيم «الحسن بن عبد الله» فطبيعة التطور الزمني تجيزه، وإن لم نقف على مراحل ذلك التطور لانعدام النصوص التي تبينه وتفصله، فليس من المعقول أن يوجد التحسين طفرة، قبل أن تسبقه مراحل درج فيها، وتطور على مسارها.

(٦٢) آثار الأول ص ٢١٤.

(٦٣) دائرة معارفه. مجلد ١٠ ص ٥٢٢ والقتير المسامير المعدنية (المبرشمة) في التروس والدروع.

القسم الثاني وسائل الدفاع الثابتة

(١) الخنادق

١ - تاريخها وتطورها :

الخندق من وسائل الدفاع القديمة عند الفرس والروم ، يحفرونه حول مدنها وحصونهم للدفاع عنها من خلفه ، وكان ذلك عندهم كالمبدأ المقرر ، ولكن العرب لم يعرفوه إلا عن الفرس ، بدليل أن اسمه فارس معرب ، فاسمه بالفارسية (كنده) بمعنى محفور^(٦٤) ، وأول من استعمله من العرب هو الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الأحزاب ، فإنه لما علم بخروج قريش وحلفائها من البدو ، جمع أصحابه في مجلس حربي واستشارهم ، فأشار عليه « سلمان الفارسي » بحفر خندق حول المدينة ، جرياً على عادتهم في بلادهم ، فاستحسن الرسول الفكرة وخرج في ثلاثة آلاف من أصحابه ، وارتاد موضع الخندق ، وبعد التدبر استقر رأيهم على أن يُحفر في الجهة الشمالية من المدينة ، وهي الجهة المكشوفة منها ، التي لا تحميها البيوت العالية^(٦٥) ، فجعل الرسول جبل « سلع » خلف ظهره ، وحفر الخندق ممتداً من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية « بعد أن قسم حفره بين أصحابه ، وخصص لكل عشرة منهم أربعين ذراعاً ، وخطّه لهم حتى لا يعدلوا عنه »^(٦٦) .

ولقد تجلت عقلية الرسول الحربية في سرعة إنجازه ، فإنه جعل كل أصحابه يعملون فيه ، وساعدهم بآلات حفر كثيرة استعارها من « بني قريظة » وأخرج الرمال والصخور ناحية المدينة ، ليضمن عدم ردم الخندق بها إذا أخرجها جهة العدو ، وليضمن لأصحابه سائراً كافياً يحاربون من خلفه ، ويرمون عدوهم وهو في أرض

(٦٤) المعجم الفارسي للدكتور هندأوى. مطبعة مصر ، والمغرب من كلام العرب للجواليقي ص ٩٦ .

(٦٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٥ .

(٦٦) نفس المرجع والصفحة والإدريسي في التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٧٦ .

مكشوفة أمامهم ؛ ولذا فوجيء الأحزاب بالخذق لما شاهدوه وقالوا : « هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها » .

ولقد ضرب الرسول يومها أروع الأمثال للقائد القدير الحكيم ، بأن شارك أصحابه في الحفر ونقل الرمال ، استنهاضاً للهمم ، وتشجيعاً على العمل^(٦٧) فآتموا حفره بهمة فائقة ، في مدة متوسطها عشرون يوماً ، مع اختلاف الروايات ، وبعمق خمسة أذرع (ثلاثة أمتار تقريباً) كما روى « الحلبي »^(٦٨) أما عرض الخندق فلم أوفق لنص صريح فيه ، ولكن المفهوم أنه نُعمل ليحول بين الخيل والمدينة ، وأظن أن قفزة الجواد الجيد تقارب الأمتار الستة ؛ ولذا فيرجح أن عرضه كان في حدود ذلك المقياس ، لأن بعض الخيل استطاعت عبوره ، فقُتلت وقتل أصحابها .

وإذا علمنا أن الرجل خصه في حفر الخندق أربعة أذرع ، وأن الجند كانوا ثلاثة آلاف^(٦٩) يومها ، استطعنا أن نعرف أن طول الخندق كان حوالى ١٢ ألف ذراع ، أى حوالى ستة كيلومترات أو يزيد ، حفرت في عشرين يوماً ، بعمق ثلاثة أمتار وعرض ستة أمتار ، ومن هنا نعلم مقدار الجهد الذى بذل فيه .

وقد قام الرسول بتخطيط خندقه ، وعمل فيه بيده مع جنده ، فلم يجعل الحفر قاصراً على العبيد ، كما كان يفعل البيزنطيون ، وبث الحراس حوله بعد الفراغ منه ، وكان هو يحرس بعض النقاط المخيفة بنفسه ؛ لأنه كان يحب أن يكون قدوة لجنده في العمل .

وأول من استخدم الخنادق في خلافة «أبي بكر» وأكثر منها ، هو «العلاء بن الحضرمي» أثناء قتاله المرتدين بالبحرين ، فقد روى «الطبرى وابن الأثير»^(٧٠) وغيرهما أن المسلمين والمرتدين هناك ، كانوا يحفرون الخنادق يتحصنون بها ، ثم يترأفون القتال منها .

(٦٧) ابن أبي جمرة : بهجة النفوس ط الصاوى سنة ١٣٥٣ هـ ج ٣ ص ١١٢ والسيرة الحلبية

ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٦٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٣٤ ، ٣٥ .

(٦٩) انظر الهامش ٦٦ السابق .

(٧٠) أنظر الطبرى ج ٣ ص ٢٥٨ والكامل ج ٢ ص ١٥٥ .

وفي خلافة « عمر بن الخطاب » ومن بعده ، اتسعت الفتوح وكثرت الجيوش الموجهة شرقاً وغرباً ، فكان لابد من العناية بالتحصينات ، التي تكون مانعاً من اليبات والمفاجأة ، وكثيراً ما نصح الخلفاء قوادهم بالتزام الخنادق خشية البيات^(٧١) ، فصاروا إذا نزلوا ليلاً في موقع خندقوا حول عسكرهم بالطريقة الرومية ، تاركين للمرور بايين أو أربعة ، متحصنين بالجسور والخنادق المائية^(٧٢) ، وكانوا إذا حاصروا عدواً مخندقاً على نفسه ، وأرادوا إشعاره بدوام الحصار ، ضربوا خندقاً حول خندقه ؛ ليأسس من فك الحصار ويبادر بالتسليم ، وقد طبقت هذه الخطة في حصار مدينة « هيت » على شاطئ الفرات ، فأسرع أهلها بالتسليم^(٧٣) .

ومن القواد الذين عرفوا بالتزام الخنادق في الميدان « المهلب بن أبي صفوة » في حربه للخوارج ؛ لأنهم كانوا أهل جرأة ومكر في حروبهم . وأحياناً كان القائد يغتر بقوته ويهمل حفر الخنادق فينال منه عدوه و يوقع به لغفلته^(٧٤) .

وبتقدم الزمن لم يقف استخدام المسلمين للخنادق عند هذا الحد ، بل صاروا يحفرونها حول المعسكرات الدائمة ، وحول المدن والثغور المهمة ، فكان الوالى إذا بنى مدينة مهمة ، جعل لها خندقاً يحيط بسورها ، وأحياناً كانوا يحفرون خارج السور خندقين أو أكثر « فالحجاج بن يوسف » لما فرغ من بناء مدينة « واسط » بين البصرة والكوفة حصنها بسور وخندقين ، وأنفق عليهما وعلى قصره والمسجد الجامع ٤٣ مليون درهم^(٧٥) وفرغ من بنائهما بعد عامين .

بل لقد تدارك بعض الخلفاء ما فات أسلافهم ، فحصنوا المدن التي أقيمت في مراكز « استراتيجية » هامة ، قبل شيوع فكرة الخنادق ، التي كانت تستغرق كثيراً من الوقت والمال ، فالحليفة « أبو جعفر المنصور » خندق على الكوفة والبصرة في عام ١٥٥ هـ - (٧٧٢ م) وضرب عليهما سوراً ، وجعل ما أنفق على

(٧١) الكامل ج ٥ ص ١٦٧ .

(٧٢) كريم : الشرق في حكم الخلفاء ص ٣٠٦ .

(٧٣) الطبرى ج ٣ ص ١٨٨ والفاروق عمر لهيكل ص ١٧٥ .

(٧٤) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٦٤ ، ٦٥ .

(٧٥) الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٦٨ ونعمان ثابت : الجندية ص ٣٠ .

ذلك من أموال أهلها^(٧٦) ، وكانتا قد بنيتا في عهد « الفاروق عمر » بلا خنادق ولا أسوار .

وقد بنى بعد ذلك بثلاث سنوات مدينة الرصافة ومسجدها ، وحفر حولها خندقها^(٧٧) ، وكذلك كان الشأن في المدن الهامة ، تحاط بالخنادق والأسوار تحصيناً لها .

استمر العمل بنظام الخنادق أيام الدولتين ، الأموية والعباسية حتى نهاية القرن الثاني ، وأدخلوا على الخنادق كثيراً من التحسين ، فصاروا يبنون عليها الجدر العالية ، وصاروا يحفرون حول المدينة أكثر من خندق ، ويبنون على كل خندق سوراً ، وصاروا في حالة الخوف يحفرون حول الخندق حفائر تغطي بالقصب والقضبان والتراب^(٧٨) ، لتقع فيها قوات الأعداء ، ولقد روى « ابن الأثير » أن « طاهر بن الحسين » كان يخندق في بلاد فارس ، وأنه أثناء حصاره « بغداد » في الحرب الأهلية بين « الأمين والمأمون » كان إذا استولى على درب خندق عليه وأقام الحيطان^(٧٩) .

أما متى أبطل نظام الخنادق : فهذا موضوع تعرض له « فون كريمر » وقرر أنه أبطل في عهد « المأمون » العباسي ، ولا أدري مدى هذا القول من الصواب ، فإن صاحب « آثار الأول » وصاحب « كشف الكروب في أمر الحروب » أكثر من ذكر الخنادق ، وطريقة ردمها بالمخالي المملوءة بالتراب ، وهما متأخران عن القرن الثاني ، مما يدل على استمرار العمل بذلك النظام بعد المأمون .

٢ - طرق اقتحام الخنادق :

ما من أحد يجهل موقف قريش وأحلافها أمام خندق « الرسول » الذي حفره حول المدينة ، فكل محاولاتهم لاقتحامه كانت محاولات بدائية ، كأن يدور حوله

(٧٦) تاريخ الطبري ط المطبعة الحسينية ج ٨ ص ٢٨٥ ، والكامل ط ١ ج ٦ ص ٢ وفي مختصر تاريخ البصرة للأعظمي أنه كتب بذلك إلى الهيثم فقام به ط بغداد ١٩٢٧ .

(٧٧) أنظر الكامل ج ٦ ص ٤٥ ، والمختصر لأبي الفدا ج ٢ ص ٦ الطبعة الأولى .

(٧٨) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ٢١٥ .

(٧٩) الكامل ج ص ص ٨٩ ، ٩٨ ، ٩٩ حوادث سنة ١٩٧ هـ .

أبطالهم « كخالد » وغيره ، ليقترحه بجواده من أضيق أماكنه ، ولم يفكر أحدهم في العمل على ردم جزء منه وعبوره ؛ لأنه كان مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها .

فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول ، أكثروا من استخدام الخنادق ، ومارسوا القتال منها كثيراً مهاجمين ومدافعين ، ففتحت أمامهم سبل الحيل في التغلب عليها ، وعرفوا طرق عبورها ، فكان « خالد بن الوليد » إذا صادف خندقاً للعدو ، يسرع بذبح الإبل المسنة التي معه ، ثم يرميها ومعها رحالها في أضيق مكان منه ، ثم تعبر قواته فوقها ، كما فعل في عبور خنادق الفرس في فتح « الأنبار »^(٨٠) وغيرها ، وكان يهدف من ذلك أيضاً إلى التخلص من تلك الإبل المسنة ، التي كانت تعوق تقدم الجيش بحمل أولادها عليها .

ثم رأينا المسلمين بعد ذلك ، يضمنون بلحوم الماشية أن تضيق في الخنادق ، فكانوا يأكلون لحومها ، ثم يملئون جلودها بالرمال ، ويرمونها في الخندق حتى يمتلئ ويتم لهم عبوره ، وكان بعضهم يطم الخندق بالبراذع والرحال ، والزبل المملوء بالرمال^(٨١) .

وكثيراً ما رأينا « خالد بن الوليد » في فتح دمشق وغيرها ، يصادف الخنادق المملوءة بالمياه ، فيعبرها سباحة على القرب المملوءة بالهواء بعد إحكام غلقها ، فإذا أرادوا أن تعبر القوة الخندق ، ألغوا فيه حزمًا من فروع الأشجار ، بعد ربطها بحجارة تجعلها ترسب في قاعه ، حتى يمتلئ الخندق ، ثم يعبره الجند ، بعد أن يمهّدوا طريقهم فوق الفروع بغرائر الرمال^(٨٢) ، فإن كان الخندق قليل العرض ، طرحوا عليه الأبواب والألواح الخشبية ، وجعلوا منها قنطرة ، يعبرون فوقها^(٨٣) . ولكي نعرف أثر التطور الزمني ، في فكرة عبور الخنادق ، يصح أن نستعرض هنا موقف قريش الذي مرّ آنفاً أمام خندق الرسول ، ثم نقرأ ما رواه — « ابن الأثير » ،

(٨٠) أنظر تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٠ ، والكامل ج ٢ ص ١٦٥ ، وعبقريّة خالد ص ١٨٠ .

(٨١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٦٠ ، ٩٥ ، ج ٦ ص ١٧٩ ومواضع متفرقة والزبل

هي القفف .

(٨٢) آثار الأول ص ٢١٤

(٨٣) نفس المرجع والصفحة .

وأبو الفدا^(٨٤) عن ذلك الخندق نفسه في أواسط القرن الثاني ، فقد ذكر أن « محمد ابن عبد الله المحض » لما خرج بالمدينة عام ١٤٥ هـ - ٧٧٤ م عمل على تحصينها ضد قوات القائد العباسي « عيسى بن علي » فأعاد حفر خندق الرسول حولها ، وبنى عليه جهة العدو جداراً ، وقف عليه حرّاس من أصحابه يدفعون عنه ، فلما جاءت القوات العباسية ، لم تقف حائراً أمام الخندق وقفة قريش ، ولكن بعض قواد « عيسى » تقدم إلى جداره في مئة من جنده ، فهدموه وانتهوا إلى الخندق ، فنصبوا عليه أبواباً خشبية ثم عبروه ، فلما جاء « عيسى » في الجيش بعد قائده المتقدم ، ألقى في الخندق الحقائق وغيرها ، ثم طرح عليه الأبواب الخشبية ، وعبرت فوقها الخيل والرجال .

وأحياناً كان يشتد الدفاع عن الخندق ، فيرمي أصحابه الذين يهاجمونه بالسهم وحجارة المجانيق ، وفي تلك الحال كان المهاجم يبعد عنه ، ثم يحفر تحت الأرض نفقاً يوصله إليه ، فإذا انتهى إلى حائط الخندق عمل على ردمه ، أو ثقب سور الحصن ، ويظهر أن هذه الطريقة استخدمت بعد القرن الثاني ، فإن راويها^(٨٥) لم يحدد تاريخها ، ولم يعين القائد الذي فعلها .

ب - الحسك الشائك

أصل الحسك في اللغة نبات له ورق كورق الرّجلة ، تعلق ثمرته بصوف الغنم ، ويظهر أن هذا الشوك كان كثير الوجود ببلاد العرب ، فقد ضربوا بشوكه المثل في الصلابة ، وله شوك صلب ذو ثلاث شعب ، ويعمل على مثال شوكه أداة للحرب من حديد^(٨٦) ، وأشهره حسك السعدان ، وقد استخدمه المسلمون في حروبهم كما استخدمه الفرس والروم في تحصين خنادقهم وحصونهم .

والرسول عليه السلام أول من استخدمه في الإسلام ، وذلك في حصار « الطائف » فإنه كان يجعله من خشبتين تسمّران على هيئة صليب ، بحيث تتألف منها أربع

(٨٤) الكامل ج ٥ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ والمختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣ ط المطبعة الحسينية .

(٨٥) آثار الأول ص ٢١٤ ، وراجع فكرة القرب الهوائية بالكامل ج ٥ ص ٢٠٩ في فتح دمشق .

(٨٦) القاموس المحيط . مادة (حسك) والإفصاح في فقه اللغة ص ٢٩٨ .

شعب مدبية ، فإذا رُمى في الأرض بقيت شعبة منها بارزة ، تعطب بها أقدام الخيل والمشاة ، روى « ابن سعد والمقرئ »^(٨٧) . أن الرسول حاصر الطائف ثمانية عشر يوماً ، ونصب عليهم المنجنيق ، ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن وحول عسكره .

ولا يبعد أن تكون فكرة الأسلاك الشائكة مأخوذة من هذا الحسك ، فإنَّ عقد السلك بهذا الوصف ، والغرض منها هو الغرض منه ، ولذا رأينا المسلمين فيما بعد يصنعونه من أصابع حديدية مدبية ، لها شعب ثلاث أو أربع ، فيبثونه حول الخنادق لمنع تقدم الخيل والرجال^(٨٨) ، كأنه الألغام في الجيوش الحديثة

ويروى الضابط «نعمان ثابت»^(٨٩) . أنه كان من الحسك ما له ستُّ شعب ، وأن أول ما عرفه العرب كان في معركة (نهاوند) الفاصلة ٢١ هـ - ٦٤٣ م مستنداً إلى ما رواه (الواقدي) من أن قائد المسلمين «النعمان بن مقرن» بعث بعض رجاله يتسمع ليلاً ، فلما دنا من القلعة ، قام فرسه من تحته ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فتزل الرجل ويبحث في أرجله ، وإذا بحسكة من الحديد قد تعلق بيد الجواد فترعها ، ثم رجع للنعمان ، وأخبره أن أرضهم مفروشة بهذا الحسك ، وقد اتضح لنا أنه استُخدم في زمن الرسول ، وإنما كان من الخشب فقط .

وقد ذكر صاحب «آثار الأول»^(٩٠) ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع ، وصار للحسك عندهم صناع يُعدونه ، وعمال ينقلونه على الدواب ، ويبثونه في الطرق التي يحتمل قدوم العدو منها ، وأنه كان يرمى كيفما اتفق ، فحيثما وقع كان منه سن مرتفع ، وقد علمتُ أن هذا النوع نفسه استخدم في حملة «فلسطين» ضد العربات^(٩١) والسيارات المصفحة ، ومن مراجعة المصادر المختلفة ، يستطيع المرء أن يعرف ، أن المسلمين كانوا يستخدمون ذلك الحسك في إحدى حالات ثلاث :

(٨٧) الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١١٤ وإمتاع الأسماع ج ١ ص ٤١٨ .

(٨٨) الكامل ج ٢ ص ٢٢٠ والطبرى ج ٤ ص ١٨٠ .

(٨٩) الجندية ص ١٦٢ نقلاً عن الواقدي .

(٩٠) ص ٢١٥ .

(٩١) حديث شفوي مع بعض الزملاء الذين حضروا حرب فلسطين ١٩٤٨ م .

١ - عندما كانوا ينزلون في أرض العدو ببعض المواقع ، فإنهم كانوا خشية البيات - يحفرون حولهم خندقاً ، ثم يفرشون الساحة التي أمامه بالحسك ، تاركين للمرور طرقاً لا يعرفها سواهم ، ليقوموا منها بالهجوم المضاد إذا دعت الحال ، على نحو ما تفعل اليوم في زرع القنابل وبث حقول الألغام حول المعسكرات ، وفي طرق الاقتراب وغيرها .

٢ - كان يزرع أحياناً خارج خندق الأعداء المحصورين ، ثم يناوشهم المسلمون ويفرون أمامهم ؛ ليخرجوا من خنادقهم ، فإذا بعدوا عنها كروا عليهم ، وضيقوا عليهم المسالك حتى يعودوا من الطريق المزروع بالحسك ، وبذا يقعون فيه ، فتأخذهم سيوف المسلمين من خلفهم ، وبذا يكون سلاحاً معاوناً لأسلحة الجيش .

٣ - كان القائد إذا صف جيشه لمعركة فاصلة ، وأراد أن يحملهم على الثبات زرع الحسك الشائك خلفهم ، فلا تحدثهم نفوسهم بالتراجع ، فكان الحسك يقوم مقام «المجبوذة» وهي القوة التي كانت تكلف برد المهزمين إلى ميدان المعركة^(٩٢) ، وتحضهم على الثبات .

(ج) الحصون والأسوار

كان عامة العرب في الجاهلية رحلاً أهل بدواة ، لا يعرفون الحصون أو الاحتماء بالأسوار ، وإنما حصونهم هي ظهور خيلهم ، وشفرات سيوفهم ، وقد عرف الحصون منهم أهل الحيرة لمجاورتهم الفرس ، وأهل الشام لمجاورتهم الروم ، ثم عرفها أهل الحجاز عن طريقين بعد ذلك .

١ - عن طريق رحلتهم إلى اليمن ذات القصور الشاهقة ، التي من أهمها قصر « غمندان » الذي حدثنا عنه « الهمداني » بأنه كان عشرين سقفاً ، غُرفاً بعضها فوق بعض ، وأنه كان في زواياه الأربع أربعة أسود من نحاس أصفر ... إذا هبت الريح في أجوافها زارت كما يزار الأسد^(٩٣) ، ومما لاشك فيه أن عرب

(٩٢) نعمان ثابت : الجندية ... ص ١٦٤ .

(٩٣) انظر الإكليل ج ٨ ص ١٥ ، ٢ وقد وصف الهمداني به كثيراً من قصور اليمن ، وذكر أنه كان تحت كل قنصر (صهرج) منحوت في الحجر للمياه وأن أعمدة تلك القصور كانت تصل إلى نيف وعشرين ذراعاً ، ولا يحصن الواحدة منها إلا رجلان ، ومن أراد السعة فليرجع إليه .

الحجاز تمنوا أن يبنوا مثل هذه القصور .

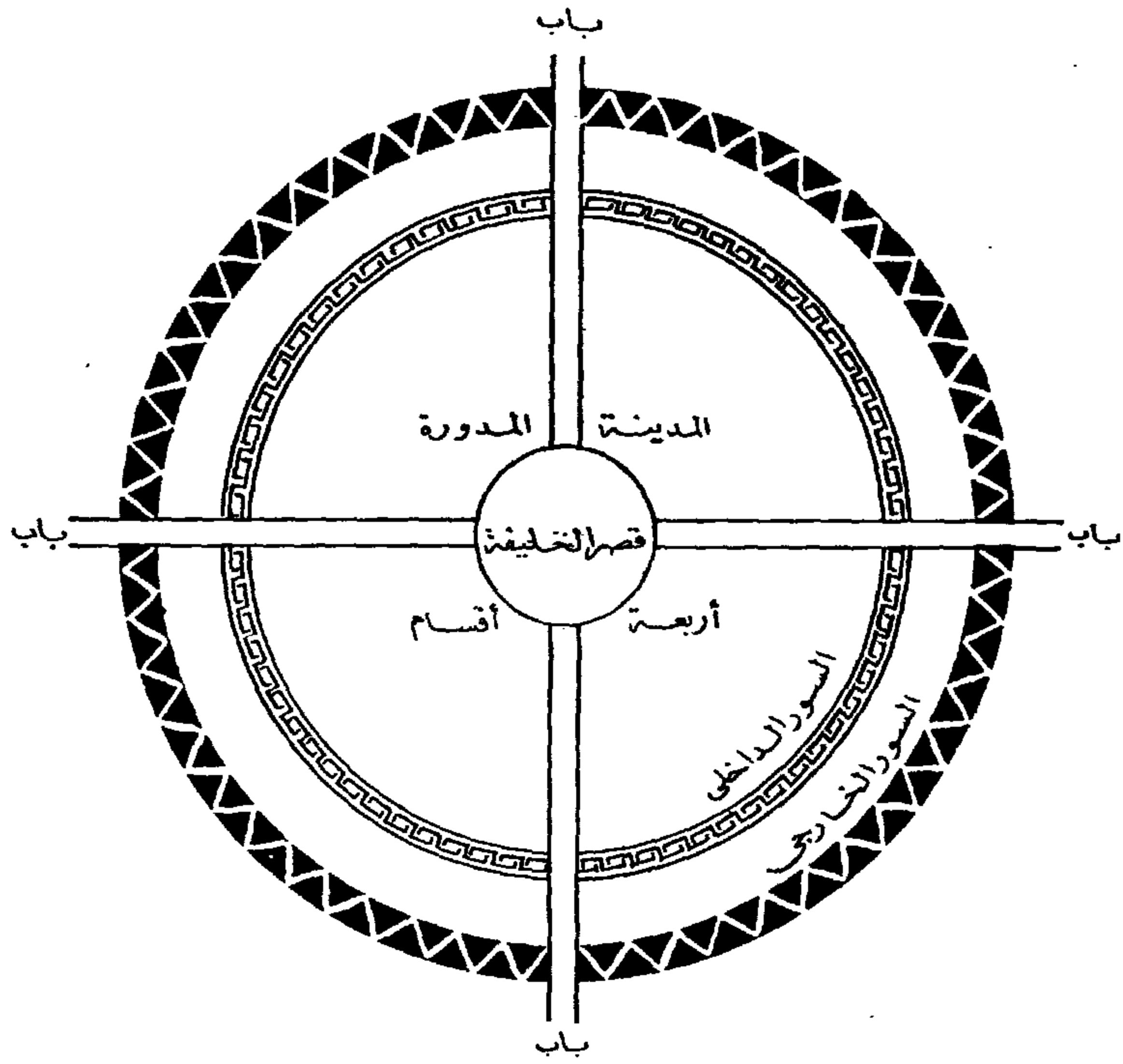
٢ - عن طريق اليهود الذين نزحوا إليها من الشام ، بعد أن طردهم الرومان منها ، فإنهم أدخلوا إليها نظام الآطام والحصون ، التي بلغ عددها نحو سبعين^(٩٤) ورأينا العرب يقلدونهم في ذلك ، فرأينا إلى جانب حصن « كعب بن الأشرف وأبي رافع » اليهوديين ، حصوناً أخرى « لحسان بن ثابت » « وبنى حارثة » وغيرهم من العرب ، وصاروا عند القتال يضعون فيها الذرية والنساء والشيوخ ، كما كان اليهود يحتمون بها من المسلمين ، وكثيراً ما حاصروهم الرسول فيها ، كما حاصر قبيلة ثقيف في حصونهم بالطائف^(٩٥) ، وأظن فتح حصون خيبر السبعة لا يخفى على أحد .

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية ، وأسس المسلمون المدن المختلفة متاخمة للأعداء عملوا على تحصيلها ببناء الأسوار العالية والأبراج كما حصنوها بالخنادق التي سبق الحديث عنها ، وصار للمدن المهمة أسوار عريضة عالية ، بها أبراج لحراسة الجند المدافعين ، نذكر منها « بغداد » على سبيل التمثيل ، فإن الخليفة « المنصور » لما بناها ، جعلها مستديرة وجعل لها سورين ، أحدهما من داخل وهو سور المدينة وارتفاعه ٣٥ ذراعاً ، وعليه أبراج كثيرة ارتفاع الواحد منها خمسة أذرع ، وله شرف تحيط به ، وعرضه من أسفل نحو ٢٠ ذراعاً ، ثم يليه سور خارجي يفصل بينهما أرض عرضها ستون ذراعاً^(٩٦) ، وأغلب الظن أن ترك هذه المساحة الواسعة بين السورين ، كان لاستغلالها في زراعة الخضر التي يحتاج إليها المحاصرون أثناء الحصار ، وقد عمل لها الجغرافي « لاسترانج » رسماً بديعاً نقلته عنه وفيه جعل لها سورين كالخضري ولكن العلامة « طه الراوى » في كتابه « بغداد مدينة السلام » ذكر أن المنصور بنى حول مركز المدينة سوراً داخلياً ثالثاً ، فيتألف من مجموع الأسوار الثلاثة دوائر ذات مركز واحد . وأغلب الظن أنه أقام هذا السور الثالث ، ليبعد بأهله وخدمه عن عامة الناس ، وليكون الدفاع عن قصره أكثر أحكاماً وتحصيناً ، فيما إذا هوجمت المدينة ، (انظر شكل ١٨) .

(٩٤) محمد كرد على الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١١٩ والمراد بالحصون هنا القصور العالية ذات الأبواب .

(٩٥) انظر الطبري ج ٣ ص ٤ ، ٤٩ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٢٢ .

(٩٦) محاضرات الحضري : الدولة العباسية ص ١٠٣ .



شكل ١٨ - بغداد المستديرة

وكيف لا يحصن المسلمون مدنها بالأسوار، وقد وجدوا غيرهم يفعلون ذلك؛ فقد روى العلامة «بتلر» عن حصن «بابلون» أن ارتفاع سورها كان نحو ٦٠ قدماً، وسمكه ١٨ قدماً، وعليه أربعة أبراج بارزة، بينها مسافات متساوية^(٩٧)، وأن بقايا الأسوار القديمة التي يمكن مشاهدتها الآن لدليل على صحة هذا القول، فإن مدن العصور الوسطى كلها كانت تحصن بالأسوار، ومثلها المدن الإسلامية.

(د) الثغور الإسلامية

من المبادئ التي وضعها «عمر بن الخطاب» لجنده، ألا يقيموا داخل المدن التي يفتحونها، وأن يظلوا في ضواحيها، خشية أن يظلموا أهلها إذا اختلطوا بهم، وانتظّل طباعهم العربية نقية سليمة من الشوائب، ولكنه وجد الفتوح قد اتسعت، والمسلمون

(٩٧) فتح العرب لمصر = تعريب أبو حديد ص ٢١٠.

يقيمون فيها طويلاً مع أسرهم ؛ فرأى أن يؤسس مدناً لإقامتهم ، مراعيًا فيها أن تكون مراكز حربية في مواقع استراتيجية ، على الحدود بينه وبين البلاد المفتوحة ، لترد أى عدوان وتخمد أية ثورة ، وقد سمى المؤرخون العرب هذه المراكز « بالثغور » وكان في طليعتها مدينتا « البصرة والكوفة » في مجاورة الدولة الفارسية ، كما أسست ثغور أخرى على سواحل « مصر والشام » لترد هجمات الروم من البحر ^(٩٨) ، الذى كانوا في ذلك الوقت يملكون ناصيته ، وكانوا يغيرون منه كثيراً على الشواطئ الإسلامية .

صار المسلمون بعد ذلك كلما تقدموا في الفتح ، أقاموا في نهاية توسعهم ثغراً يحرس الحدود ، ويُسَّحن بالجنود ، ويتولى أمره قائد من أكفأ القواد ، حتى لقد بلغت ثغور الكوفة » وحدها عام ١٧ هـ - ٦٣٨ م أربعة ثغور كما روى « الطبرى » :

١ - حلوان وعليها « القعقاع بن عمرو » .

٢ - ما سبذان وعليها « ضرار بن الخطاب » الفهرى .

٣ - قرقيسيا ، وعليها « عمرو بن مالك » .

٤ - الموصل ، وعليها « عبد الله بن المعتزم » وكان لكل قائد خليفة ينوب عنه

في ثغره إذا غاب عنه .

وقد ذكر الأستاذ « ثابت » أن الفاروق عمر لما زار الشام عام ١٧ هـ ٦٣٩ م جال فيها كثيراً وزار ثغورها ، وأشرف على « أنطاكية وتيزين وكورس ومنبيج » وغيرها ، ووضع في هذه الأماكن الحاميات من الجنود ، كما وضعها في المدن الساحلية نظراً لوجود الأسطول الرومى ^(٩٩) ، وقد يحيط بهذا الخبر بعض الشك ؛ لأنه لم يُعرف في مراجع التاريخ الموثوق بها ، ولكنه على أية حال يدل على عناية المسلمين بالثغور ، لتأمين حدود دولتهم .

ولقد كثرت هذه الثغور باتساع الفتوح الإسلامية ، زمن الدولتين الأموية والعباسية وقد أفاض « ياقوت » في ذكر تاريخ كل ثغر ، وما تعاقب عليه من الحكام ونقل عنه المؤلفون « كريم » ، وجرى زيدان ، وثابت « ففصلوا كما فصل ،

(٩٨) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٣١ .

(٩٩) ياقوت في معجم البلدان : ترجمة هذه المدن ، وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٧٢ ،

والجندية ص ٢٩ - ٣١ .

ولكن الذى يهمنى معرفته ، أن المسلمين حصنوا حدودهم بالثغور والمسالح ، على تخوم أعدائهم المجاورين لهم ، وكان من أشهر الثغور الأموية هذه المدن « واسط شيراز ، المحفوظة ، الرملة ، عسكر ، مكرم ، جرجان » وغيرها .

ولما آلت الخلافة إلى « الرشيد » جعل لهذه الثغور إدارة مستقلة ، وسماها « العواصم »^(١٠٠) وجعلها تابعة للجيش ، كما ذكر « ابن الأثير » فى حوادث ١٧٠ هـ وقسم الثغور إلى ثغور شامية وثغور جزرية ، فكان أشهرها كالاتى :

١ — الثغور الشامية وهى الواقعة فى شماله الغربى ، وهى من الشمال إلى الجنوب « طرسوس ، أدنة أو أطنة ، المصيصة ، الهارونية » وغيرها .

٢ — الثغور الجزرية المنسوبة إلى جزيرة العراق لتاخمتها لها ، وهى « مرعش ثم الحدث ، ثم حصون متتابعة إلى سميساط وملطية »^(١٠١) .

١ — نظام العمل بالثغور :

جرت عادة الخلفاء منذ عمر بن الخطاب « أن يرسلوا الجنود بعائلاتهم للإقامة بالثغور التى يقيمونها ، وأن يكثروا لهم الأرزاق والمرتبات ، بخلاف من كان يذهب متطوعاً للرباط ، حسيبة فى سبيل الله ، وكان القادة يرتبون لهؤلاء المرابطين ، غزوات دائمة على الحدود (كالدوريات) المنظمة ، وكان أكثرها يتم صيفاً للملائمة الجول للعرب ، وتسمى « الصوائف » وبعضها كان يتم شتاء وتسمى « الشوائى » والغرض منها تأمين التخوم ، وجمع المعلومات عن الأعداء ، ولتمرين الجند الدائم على القتال العملى فى الأراضى المختلفة ؛ لتزداد خبرتهم الحربية ، وهذا معنى قولهم « وشى فلان بأرض الروم »^(١٠٢) ومعنى قولهم : « وكان فلان بأرض الروم مرابطاً بها »

وتدل المراجع التاريخية على أن هذا النظام ، الذى كانت تخرج فيه القوات فى غزوات كشفية منظمة — سواء قاتلت أم لم تقاتل — ظل معمولاً به فى الدولة

(١٠٠) الكامل ج ٦ ص ٤٠ وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٧٣ ونقل الدكتور « العدوى » أن « الرشيد » أسس أقليماً مشابهاً للإقليم البيزنطى على الحدود الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، والمراد بالعواصم المدن الجنوبية التى تعصم من العدو ، والثغور هى الحصون المواجهة للثغرات التى فى أرض العدو ، ويتقدم منها . (الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ط نهضة مصر ص ٩٦) .

(١٠١) الجندية ص ٤٨ ، ٦٦ والمرجع السابق .

(١٠٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ ، ٢٥ .

الأموية، حتى جاء الخليفة الورع «عمر بن عبد العزيز» فأبطلها لكرهيته لإراقة دماء المسلمين، ولأنه كان يفضل اكتساب الأعداء بالملاينة، والاحتفاظ بالحصون في حال جيدة، على المجازفة بالمسلمين، والتوغل في بلاد الأعداء ولذا نراه بعد ولايته يأمر «مسلمة ابن عبد الملك» بالعودة من بلاد الروم، وكان مقبلاً بها للغزو الدائم^(١٠٣)، ويذكر الدكتور «حياتي»^(١٠٤) أنه كان وقتها يحاصر القسطنطينية، فأطاع أمر الخليفة وفك الحصار، وأنه منى أثناء عودته بالعواصف التي أغرقت سفنه، وكانت حسب روايته ١٨٠٠ سفينة، لم ينج منها إلى ثغور الشام إلا خمسة (كذا).

وكما أمر الخليفة هؤلاء بالرجوع، أمر كذلك المرابطين في حصن «طرنده» بالقفول عنها إلى «ملطية» فترك خراباً، بعد أن رابط بها المسلمون ثمانية عشر عاماً^(١٠٥)، وذلك تطبيقاً لسياسته القائمة على الملاينة.

استمر عمل هذه الحملات بعد «عمر بن عبد العزيز» وصارت مبدأ معمولاً به، حتى لقد رتب هشام بن عبد الملك أبناءه للصوئف: واحد منهم لليمنى والآخر لليسرى^(١٠٦)، وكذلك كان يفعل «الرشيد» وخلفاء الدولة العباسية، في الفترة التي عرضنا لها، وما كانوا يقطعونها إلا عند اشتغالهم بالفتن الأهلية، وإخماد ثورات الخوارج، بل كان الخليفة أحياناً يضطر لأن يصالح الإمبراطور الرومي على مال يدفعه له، في نظير كف حملاته الشتوية على المسلمين، كما فعل معاوية «أثناء نزاعه مع «علي» وكما فعل «عبد الملك» أثناء فتنة «ابن الزبير» فإنه صالح ملك الروم، على أن يؤدي ألف دينار كل يوم جمعة^(١٠٧)، وروى «ابن الأثير» أن المهدي في عام ١٦١ هـ - ٧٧٨ م أبطل الصائفة لتجهزه لرد هجمات الروم^(١٠٨).

(١٠٣) ابن الأثير في الكامل ج ٥ ص ١٨.

(١٠٤) تاريخ العرب - تعريب نافع. المجلد ١ ص ٢٥٤ - ٥٥، وروايته تثير بعض الشك، وبخاصة أنه لم يذكر مرجعه.

(١٠٥) أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٤٢.

(١٠٦) الكامل ج ٥ ص ٧١، ٧٢ وتواليها.

(١٠٧) أبو المحاسن: ج ١ ص ١٨٣، ٨٥.

(١٠٨) الكامل ج ٥ ص ٢٢ وما بعدها.

وقد كانت هذه الحملات مناوئة بين المسلمين والروم ، مما جعل الحدود الشمالية في حركة مد وجزر بينهما ، فكان المسلمون يقومون بالصوائف ، فينتزعون من الروم ما أخذوا ، ويبنون ما خربوا ، وكان الروم ينشطون شتاء حيث ينكمش المسلمون ، الذين يكرهون البرودة ، منتهزين فرصة خلو الثغور من معظم قواتها ، لأن المتطوعين منهم كانوا يعودون إلى بلادهم ، إذا نزل الثلج واشتد المطر^(١٠٩) ، وكان هذا التدريب المخرب على الحدود ، منظرًا مألوفًا لدى سكانها من الفريقين^(١١٠) .

ومن هنا يظهر أن المسلمين لم يقضوا تمامًا على قوة الروم ، ولكنهم استطاعوا بدفعهم الحماسية ، ودهشة الأمم لتلك الدفعة ، أن يخرجوهم من الشام ومصر ، ومن إفريقية بعد جهاد شاق طويل ، ولكنهم ظلوا محتفظين بقوتهم بحرًا وبرًا خلف جبال « طوروس » وكثيرًا ما حاولت الدولة الرومية القضاء على المسلمين في أيام ضعفهم ، وظلت قائمة حتى قضى عليها الأتراك العثمانيون ١٤٥٣ م .

٢ - جبال طوروس والتوسع الإسلامي :

إن الدكتور "Oman" ينسب عدم توسع المسلمين في آسيا الصغرى ، إلى مهارة الروم الحربية ، وفهم التكتيكي في استخدام ممرات « طوروس » الضيقة لصعد المسلمين المهاجمين ، وزعم أن المسلمين ما كانوا يقصدون من اجتياز تلك الجبال إلا الحصول على المغنم ، ثم العودة بها بسرعة ، بحيث لا يقيمون محاصرة المدن أو فتحها ، وزعم أن جيوش «هرون الرشيد» ، والمعتصم « التي فتحت « هرقله وعمورية » والتي كانت تعد بعشرات الآلاف ، ما كانت تقصد إلا جمع الغنم^(١١١) ، وقد نسي الدكتور أن المسلمين ما كانوا يقصدون التوسع ذاته ، وأن خليفهم « عمر بن الخطاب » كان يتمنى أن يكون بينه وبين أعدائه جبل من نار ، فلا يخلص إليهم ولا يخلصون إليه ، وقد جعلت الطبيعة بين المسلمين وأعدائهم في الشمال جبال « طوروس » وهي جبال يكسوها الجليد ، الذي هو عند العربي أشد من النار وقعاً

(١٠٩) أبو المحاسن ج ١ ص ٢٤٢ .

(١١٠) Dr. Oman. p. 215.

(١١١) A History of The Art of War. p. 210.

لأن العربي لا يطيب له المقام إلا في مناخ بلاده، ولذا كانوا يتفرقون إذا حل الشتاء إلى بلادهم، وقد عرف تلك العادة لهم الإمبراطور «ليو» والدكتور نفسه، فإنه بعد أن ذكر إعجابه بتفوقهم الحربي، وثباتهم في مراكزهم أمام أشد الهجمات عنفاً قال: «إن الجو البارد المطير كان مكروهاً من الجندى الشرقى، ولذا كان يضعف إذا هجم البرد، فلا يُظهر ثباته وشجاعته المعهودين، فتوجد الفرصة لمهاجمته بكل سهولة» (١١٢).

وإذا كان الدكتور يعرف هذا — والعرب طبعاً يعرفونه — فهل يريد للعرب أن يقاوموا طبائع الأشياء فيقيموا في بلاد لا تناسبهم؟ أو يطلب منهم البقاء شتاءً بها لتضييع شجاعتهم أمام عدوهم؟ إنهم أدركوا الناس بالبلاد والعوامل الجغرافية التي تناسبهم. ويؤيد هذا أن الناظر في خط انتشار الفتح الإسلامي، يظهر له أنه كان يمتد شرقاً وغرباً، في حدود المنطقة الحارة التي تقع فيها بلادهم، فهي تُحد من الجنوب بخط عرض ١٠° شمالى خط الاستواء، ومن الشمال بخط عرض ٣٢° تقريباً، وتوسعهم لم يجاوز تلك المنطقة شمالاً أو جنوباً إلا قليلاً في بلاد الأندلس، حيث وصلوا إلى جبال البرانس التي وقفت أمامهم وقفة جبال «طوروس» ولذا فإن ما يقال عن «عمورية» يقال عن وقعة «بلاط الشهداء». التي يدعى الغربيون أنها أنقذت الغرب من توسع المسلمين، ناسين طبائع الناس وطبائع وطبائع البلاد، فلم يثبت في التاريخ أنهم أقاموا في جهة تخالف كثيراً جو بلادهم، إلا في حالات فردية لا يقاس عليها.

وأما هذه الغزوات التي ذكرت فما كان يقصد بها النهب؛ لأن المسلمين وقتها كانوا أغنى بكثير من الروم، وكان الإمبراطور الروم يكلف نفسه كثيراً من المظاهر، ليقابل سفراء العباسيين في مثل الأبهة التي يقابلون فيها سفراءه، وإنما كان المقصود منها تأديب الروم إذا أغاروا على الحدود، أو نقضوا عهداً أبرموه، أو منعوا جزية كانوا يؤدونها. فما بعث «معاوية» حملته إلى الروم، التي حاصرت عاصمتهم، إلا انتقاماً لمن قتلوه من المسلمين في العام السابق عند حصن «الطَّوَانَة» (١١٣).

(١١٢) نفس المرجع ص ٢١٢، ٢١٤.

(١١٣) المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣.

وكذلك يحدثنا التاريخ أن حملة « هرون » كانت لتأديب «نقفور» Necfoor الذى نقض عهده، وقطع الجزية المتفق عليها، مع الإمبراطورة السابقة له ، وكذلك كانت حملة المعتصم لرد عدوان الروم على الحدود الإسلامية، وانتهاك الحرمات فيها .
 وفوق هذا يحدثنا « المسعودى » ؛ ^(١١٤) ، بأن الرشيد كان يضيق صدرأ بالإقامة فى بلاد آسيا الصغرى ، وأنه لما استطال مدته فى حصار «هرقلة» لجأ إلى الحيلة للإسراع بفتحها ، ونجحت حيلته وتم له فتح المدينة ، ثم عاد إلى بلاده غانماً والحيلة أنه أمر النجارين ببناء مساكن خشبية للجيش ؛ ليعرف المحاصرون أنهم لن يرحلوا عنهم ، فلما رأوا ذلك بادروا بتسليم المدينة للرشيد. ولا يعاب على ظافر أن يغتم من عدوه بعد قيامه بتأديبه ، وتلقينه درساً فى الوفاء بالعهد واحترام الكلمة ، وإنما الذى يعاب هو إخضاع الحقائق العلمية للأهواء والأغراض .

الفصل الخامس تنظيم القوات استراتيجية وتكتيكية

١ - التمهيد للفصل :

يعالج هذا الفصل فن حشد القوات ، وتدبير كل القوى اللازمة للقتال ، سواء أكانت تلك القوى مادية أم معنوية ، وسواء أكان ذلك قبل المعركة بفترة طويلة ، أم في المعركة ذاتها ، ففي كلتا الحالتين تظهر دراية الحكام ، وبراعة القواد ، وعلى مقدارهما يكون النصر أو الفشل في المعارك المختلفة .

ولقد أُطلق في الاصطلاح الحديث كلمة « الاستراتيجية » Strategy ، على فن تحريك القوات واختيار مواقعها المناسبة ، قبل الاشتراك في المعركة ، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب أهميتها ، وإعداد حاجاتها التي تكفيها زمنياً طويلاً ، ومراعاة ذلك حتى في فترات السلام ، كما أطلقت « التكتيكية » Tactics ، على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة ، وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم أو الدفاع أو غيرهما^(١) ، طبقاً للخطة الموضوعية بمعرفة القيادة العامة . أما قدامى المؤرخين من العرب ، فإنهم كانوا يطلقون على كل هذه المعاني المتقدمة كلمة « التعبئة » ويقصدون بها تنظيم الجيوش ، وصف الكتب في المعركة أو قبلها ، فتعبير « عبأ » عندهم مساو لتعبير « نظم » ؛ لأنهم ما كانوا يعرفون هذا التقسيم الحديث ، وإن عملوا بمقتضاه في حروبهم ، فسرى الآن استراتيجيتهم الإسلامية ، وتكتيكهم الإسلامي .

وبهذه المناسبة يصح أن نعرف أن كلمة « التعبئة » في الاصطلاح الحديث ، معناها حصر كل القوى الموجودة في الدولة وقت الحرب ، وعمل مقارنة بين الجيش المقاتل وكفاية المواد اللازمة له ، سواء أكانت تموينية أو غيرها ، استعداداً للقتال ، وتوفيراً لمستلزماته كلها ، وذلك بحصر الكفايات ، وتوجيه كل إلى الناحية الخاصة به بحيث لا ينقص الجيش المحارب شيء .

(١) وكتب الحرب الحديثة Mr. West : Dictionary. Strategy.

القسم الأول التنظيم الاستراتيجي للجيش الإسلامية

١ - توجيه القوات من مركز القيادة :

من المعروف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ « المدينة » معسكراً له بعد الهجرة ، وأقام بها يثّ سراياه فيما حولها ، وعلى الطريق التجارى إلى « مكة » لتهديد تجارة قريش ، وجمع المعاومات الكافية عن تحركاتها ، ولتأمين تخومه بعقد المعاهدات مع القبائل المجاورة لها ، وكان أحياناً يخرج في تلك الغزوات بنفسه ، بعد أن يستخلف على المدينة أحد أصحابه ، فيعقد المعاهدات لتأمين طريق الدعوة ، فما كان يعنيه أن يقاتل في غزوته أولاً يقاتل ، وأحياناً أخرى كان يرسل بعض أتباعه « كعمرو بن العاص ، أو خالد بن الوليد ، أو حارثة بن زيد ، أو أسامة بن حارثة » للغاية نفسها^(٢) ، فقد كان كل همهم أن ينشر أمره في الجزيرة وخارجها ، وأن يظهر بحسن توزيع أتباعه القلائل ، أنه قوى الشوكة مرهوب الجانب ؛ ليفكر أعداؤه في مهادنته ، فتتحقق له أهدافه ، من أقرب الطرق وأسلمها ، وتتحقق لدينه الحديد السيادة ، دون أن تراق في سبيلها الدماء .

أما خليفته « أبوبكر » فقد كان بارعاً في فن تحريك القوات ، وحسن جمعها واستخدامها ؛ فقد فوجئ عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بالثورة على حكومته ، والخروج من البدو على سلطان المدينة المركزى ، ولكنه استطاع أن يعيد الأمر إلى نصابه ، بحسن توزيع القلة التى كانت معه على الجهات العدة .

وذلك بأنه أنفذ إلى الشام جيش « أسامة » الذى جهزه الرسول قبل وفاته ، لتأمين الحدود الشمالية للجزيرة ، ثم فاجأ القبائل التى علم بتجمعها لمهاجمة المدينة ليلاً ، فخرج إليهم ووضع فيهم السيف وهم نائمون وقت السحر ، فهبوا مذعورين ثم ولوا منهزمين .

(٢) تراجع في ذلك كتب المغازى والسير ، وبخاصة « سيرة ابن هشام » فإن بها كثيراً من هذه المعاهدات ، التى تمت بين الرسون والقبائل ، والتي تظهر مهارته في تحريك قواته داخل الجزيرة العربية ، لأغراض استراتيجية هامة .

وقد ظل يحاور القبائل الثائرة بمن معه ، حتى عاد جيش « أسامة » من الشام ففرقه حتى استراح ، ثم ضمه إلى القبائل والقوات التي اجتمعت عنده كطلبه ، وأحكم تنظيمها ، فقسمها أحد عشر لواء ، وجعل على كل لواء قائداً ، وسيرهم إلى جهات الجزيرة المختلفة ، وأظهر هو أنه سائر إلى « خيبر » ليخيف الثوار المجتمعين عندها ، فأدب بعض القبائل ثم عاد إلى المدينة بعد مدة ، وبفضل ذلك التنظيم أعاد مانعي الزكاة إلى حظيرة الإسلام ، وثبت دعائم حكومته ، وقضى على حركات مدعى النبوة في الجزيرة العربية^(٣) .

وكذلك كان «أبوبكر» خلال فتح الشام ، يقيم في مركز القيادة العامة بالمدينة ، ثم يوجه منها الجيوش ويعين لكل قائد مهمته ، ويأمر القادة بالتناصر والتعاون وجعل القيادة العليا لمن يجتمعون في إقليمه منهم ، وكان بالكتب والرسل ، يحرك القوات من جبهة إلى جبهة حسب الحاجة ، وهو في مركز قيادته ، ومن أمثلة ذلك أنه لما رأى طول وقفة المسلمين أمام الروم بالشام ، كتب إلى « خالد » بأن ينتقل بقواته إليها ، فاجتاز بادية الشام بحركته السريعة الخاطفة ، حتى ظهر يوم «اليرموك» أمام الروم ، وقاد بنجاح تلك المعركة الفاصلة ، التي قضت على سلطانهم في «سورية» ثم تبعها جلاؤهم عن مصر أيام عمر .

أما «الفاروق عمر» فإنه يعد من أبطال الفن الاستراتيجي ؛ يشهد لذلك أنه أمر بتأسيس « البصرة والكوفة » في مواقع هامة ، تتحكم في طرق المواصلات المؤدية إلى الجزيرة من بلاد الفرس وغيرها ، وأقام في هاتين المدينتين وغيرهما من الأمصار الإسلامية ، قوات مرابطة ، ترد العدوان عند وقوعه ، وكانت هذه القوات تنتقل بكتب « عمر » بين مختلف الأقاليم ، ويحركها بأوامره وهو مقيم بالمدينة ، ويراقب تنفيذ تلك الأوامر عن طريق الرسل والكتب^(٤) ، بل إنه كان يكلف قواده أن يصفوا له أرض العدو ، وصفاً يجعله كأنه يعاينها ويبصرها ، وأن يذكروا له أعداد أعدائهم ، والقائد الذي يتولى مصادمتهم ، ويكشفوا له وجه الصواب في رسم خطته ، بكثرة التفصيلات التي تهمة ، فكان يبعث الأوامر للقواد بالتقدم أو التأخر

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٨ ، وهيكل في « الصديق أبو بكر » ص ١١٣ وتواليها إلى

ص ١٢٥ .

(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٨٧ ، ٨٨ ، ومواضع أخرى .

ويرسل إلى كتائب عدة، ويأمرهم بالتلاقى في موقع يعينه لهم، ويأمرهم إذا وصلوه أن يعيدوا تنظيم قواتهم^(٥)، فكان هو الجهاز المحرك من مقره.

وقد وضع «عمر» بذلك المثل لمن جاء بعده، فنسج على منواله خلفاء الدولتين من بعده، فراعوا في تأسيس مدنها مواقعها الاستراتيجية، بحيث تكون محصنة بالأنهر ونحوها، وبحيث تتحكم في طرق اقتراب العدو. وبحيث يكون من السهل امدادها بالميرة والطعام وغيرها^(٦)، كما راعوا في تحريك جيوشهم حاجة الميادين المختلفة، وناسبوا بين أعدادها وخطورة المهمة المكلفة بها، والشواهد التاريخية في هذا الباب لا تحصى، وبخاصة في حروب «المهلب بن أبي صفرة» والحجاج ابن يوسف ومروان بن محمد، وعيسى بن علي، وهرثمة بن أعين وغيرهم من مشاهير القواد المسلمين.

هذا وقد عرّف المسلمون أثناء تحركاتهم بالحذر والحيطه، فكان معظمهم إذا سار إلى عدوه، يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقه، ويحافظ على ذلك عند النزول أيضاً للراحة، ومن ثم كثر في كتب المؤرخين قولهم: «وكان خالد لا يسير إلا على تعبئة» وذلك طبعاً ليكون مستعداً لرد أى هجوم جانبي أو خلقي يقوم به العدو، وقد نصح أهل الحزم من المجربين بالتزام نظام التعبئة عند السير للعدو، ولو لم يكن هناك ما يُخاف منه^(٧)، وعدوا تركه - إلا اضرورة - خطأ كبيراً.

وقد عمل المسلمون أيضاً بتحقيق مبدأ «سلامة القوات» الذي يعد حديثاً من أهم مبادئ الحرب، فكانوا إذا نزلوا ليلاً في رحلتهم، أقاموا حول معسكرهم خندقاً تصعب مهاجمته، ويضمن لهم ميزة دفاعية، بحيث لا يؤتى إلا من وجه واحد^(٨)، وقد روى «ابن الأثير» عند ذكر الحرب التي كانت بين «الحجاج وابن الأشعث» أن كلاً من المتقاتلين كان يدني خندقه من الآخر عند الزحف^(٩) للقتال، بل لقد بالغ بعض القادة

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص ٣٠٢.

(٦) انظر ياقوت: معجم البلدان، في بناء بغداد.

(٧) مخطوط الهرثمي، ورقنا ١٣، ١٤ ف ٨٤٤.

(٨) فون كريمير ص ٣٠٦، ٣٣٠، ٣١ والكامل للمبرد طبعة مصطفى محمد ج ٢ ص ١٤٩.

(٩) الكامل ج ٤ ص ٢٢٧ ط ١٣٠١ هـ.

في تطبيق تلك الحطة كما روى « الهريثي » « فقد سار أحدهم من الشام للمحاربة بالهند » فخندق في أول منزلة بالشام ، ثم لم يزل يسير وينزل بالتعبئة والحنادق ، إلى أن أظهره الله بعدوه^(١٠) في الهند .

هذا وقد طبق « خالد بن الوليد » في تحركاته الاستراتيجية ، مبدأ المفاجأة 'Surprise' ، الذي تهتم به الجيوش الحديثة ، فكان يقف بعيداً عن أرض المعركة ، ثم يقسم كتائبه إلى فرق ، ويعين لكل فرقة طريقاً تسلكه ، يؤدي إلى أرض المعركة كما يعين لهم ليلة اللقاء التي سيكون لهم فيها الهجوم ، فعل ذلك عند خروجه من اليمامة إلى العراق ، وعند اجتماعه مع قاداته « بالمضيح » لمهاجمة أعدائه ، في ليلة وساعة محدودة - وكذلك فعل في معركة « الحفير » التي انتصر فيها على « هرمز »^(١١)

وإن اهتمام الرسول وخلفائه ، بالاستيلاء على « دومة الجندل » ليدلنا على دقة فهمهم لأهمية المدن (الاستراتيجية) لأن تلك القرية كانت تتحكم في الطريق إلى العراق ، كما تتحكم في الطريق إلى الشام ، وقد عرف المسلمون أنها لو لم تخضع لسلطانهم ، لبقى أمرهم في العراق تحت رحمة المقادير ، ولما استطاعوا فتح الشام^(١٢).

وإن نظرة واحدة إلى مواقع الثغور الإسلامية ، التي أقاموها على تخوم بلادهم لتقفنا على ما كان لدى المسلمين من فن استراتيجي ، فإنهم كانوا يقيمونها على أبواب الطرق ، متحكمة في أماكن اقتراب العدو ، مراعين أن تكون بعيدة عن البحار ، قريبة من الصحراء التي يحسنون القتال فيها ، وأن تكون محصنة بشيئات الأنهار ، ومنعطفات الجبال ، أو بالحنادق يحفرونها ، أو بغير ذلك من المواقع الطبيعية أو الصناعية ، التي تضمن لمواقعهم ميزة استراتيجية ملحوظة .

مما تقدم يدرك المرء ما امتاز به المسلمون ، من فن حربي في تحركاتهم ، جعلهم ينقلون الجيوش المؤلفة ، بنحيلها ومتاعها عبر الصحراء ، وفي سهول « العراق والشام » ، وخلال ممرات جبال « إيران وطوروس » وغيرها ، في خفة تسترعى الأنظار ، وتحمل الدارس على الاعتراف لهم بالإجادة في ذلك الفن .

(١٠) مختصر في سياسة الحروب ورقة ١٤ .

(١١) انظر الطبري ج ٤ ص ٤ ، ٢٤ ، وهيكال في « الصديق أبو بكر » ص ٢٢٠ .

(١٢) الدكتور هيكال : الصديق « أبو بكر » ص ٢٤٢ .

ب - كتمان السرّ في العمليات الحربية :

جرت العادة قبل خوض المعارك ، أن يهيئ القائد الأذهان إليها ، ولكنه يكتّم عن الناس سرّها ، ويحاول معرفة الكثير من أسرار عدوه ، فبقدر معرفة القائد قوات عدوه ومدى استعدادها ، وستر أسرار قواته عنه ، يكون ظفّره به ، أو هزيمته أمامه .

وقد عرف الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية حفظ السر ، فكتّمه في معظم حروبه حتى عن ألصق الناس به ، ولم يصرح لأحد بقصده إلا في غزوة « تبوك » لبعث الشقة ، وثقل المئونة الداعيان للاستعداد ، ولصعوبة إيصال الأخبار إلى أهل تبوك لبعثها الشديد ، ولكننا نراه يكتّم أمر فتح مكة عن أصحابه ، فقد سأله بعضهم كما روى « الطبري » عن وجهته يومها فأجابته بقوله : « حيث شاء الله » (١٣) .

ويروى « ابن هشام » ما يفيد أنه أول أمره كان يكتّم أمر الفتح ، حتى عن زوجته المفضلة « عائشة » وأبيها « الصديق » (١٤) ، وروى « أبو يوسف » أنه قال لعائشة يومها : « جهزيّ ولا تعلمي بذلك أحداً » (١٥) .

وإن قصة الرسالة التي كتبها « حاطب بن أبي بلتعة » إلى قريش بنجر الفتح لدليل على عناية الرسول بكتّمان الأسرار ، فإنه لما علم بالرسالة ، أرسل من استردها من حاملتها ، وأحضر إليه « حاطباً » ليحاسبه ، فاعتذر له مؤكداً إسلامه فعفا عنه ، ثم قال لأصحابه : « خذوا العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها » (١٦) ، ولعل حاطباً علم بأمر الفتح بعد تمام الاستعداد له وقرب مواعده ، فقد سبق أنه كان سرياً أول أمره ، ويظهر أن خبره عرف بالاستعداد له بعد .

وقد عمل الرسول قبل ذلك بمبدأ السرية ، في العام الثاني من الهجرة ، فإنه لما خرج بأصحابه ودنا من « بدر » أمر أصحابه أن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى لا يعلم بهم أحد (١٧) .

(١٣) الطبري ج ٣ ص ١١٥ .

(١٤) سيرته ج ٤ ص ٣٩ .

(١٥) الخراج ص ١٣١ .

(١٦) صحيح البخاري - شرح القسطلاني ج ٥ ص ١٤٢ وابن هشام ج ٤ ص ٤١ .

(١٧) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٥٨ .

بل إنه قبل «بدر» أبدع مبدأ لم يُشهر إلا في الجيوش الحديثة، وهو مبدأ (الأوامر المختومة) وذلك أنه يحدث أحياناً أن يوجه القائد حملة، ومعها كتاب مختوم، ثم يأمرها ألا تفضّه إلا في مكان معين — في البحر كان ذلك أو في البر — فإذا قرأ القائد الكتاب، وجد فيه الأمر الجديد السرى فقام بتنفيذه، وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في العام الثاني الهجري، فإنه أرسل الصحابي «عبد الله بن جحش» قائداً على اثني عشر مهاجراً في مهمة أخفاها عنهم، ودفع إليه كتاباً وأمره ألا يفضّه حتى يسير يومين في اتجاه معين، فلما مضى يومان قرأ الكتاب فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين «مكة والطائف» فترصد لنا غير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم»^(١٨)، فقام الرجل من فوره بإنفاد الأمر الجديد.

أما خلفاء الرسول فقد ملئت وصاياهم إلى قادتهم، بنصائح كثيرة تحض على كتمان السر، ومعرفة أسرار العدو، وأهمها وصية «أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان» حين أرسله إلى الشام، ووصيته «لخالد بن الوليد» في قتال أهل الردة، ووصية «عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص» وهذه الوصايا مشهورة ومدونة في كتب التاريخ والأدب، فليرجع إليها من شاء^(١٩).

وقد عمل أيضاً بهذا المبدأ خلفاء الدولتين: الأموية والعباسية، وهو مبدأ يطابق الطبيعة البشرية، فلا داعي للاستشهاد عليه بأقوال الخلفاء، ويصح الاكتفاء هنا بما أورده «الهرثمي» في مخطوطه، فهو يعتبر موضحاً لمذهب من كانوا قبله: «قالوا ما استطعت أن تحترس في كتمان سرّك في حربك من ثقاتك فافعل، فإن في ذلك بإذن الله إمضاء تدبيرك، وقطع مكيدة من يكيدك، واكفف لسانك عن فلتة كل منطق، ينكشف به ما تضرمر من أمرك، أو تخفيه من سرّك، واعلم أنه قد يُستدل بلحن المنطق على مَصُون السر ومكنون الضمير، ولا تستهين في

(١٨) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٧٦.

(١٩) ابن عبد ربه في العقد الفريد ج ١ ص ١٥٢ - ١٥٦ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص

١٨٣ وما بعدها.

إظهار شرك بصغير لصغره ، ولا بأعجمي لعجمته ، فربّ سرّ مصون قد أذاعوه واطلعوا عليه (٢٠) .

ج - التجسس والجواسيس :

أعمال التجسس لازمة لكل جيش ، سواء أكان ذلك قبل الاشتباك الحربي أم في خلال الحرب ، فيها يعرف القائد نيات عدوه ، ويحصل على معلومات تفيد في وضع خطته ، وهي مهمة عند الأمم كلها ، والمسلمون بوصفهم أمة من الأمم عرفوا قيمة التجسس في حروبهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قبل خروجه إلى بدر بعث « طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد » إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة ، يأتونه بأخبارها ، ومنهم عمه « العباس » ، وبشير بن سفيان العتكي (٢١) « ولما نزل قريباً من بدر خرج هو بنفسه ومعه صديقه « أبو بكر » يستطلعان الأخبار متكررين ، فلما أمسى بعث « عليا والزبير وسعداً » للغاية نفسها كما روى « ابن هشام » (٢٢) .

وكانت عادته عليه السلام أن يكثر من العيون في غزواته كلها (٢٣) ، لأنه كان يحب أن يعرف عن عدوه أكبر قدر مستطاع من المعلومات ، ولذا أمر « زيد ابن ثابت » أن يتعلم لغة اليهود (٢٤) وكتابتهم فتعلمها ، ولا ريب في أن معرفة لغة الأعداء تخدم صاحبها في الحروب أجل الخدمات .

هذا وتدل الظواهر على أن المسلمين أول أمرهم ، لم يكونوا ماهرين في التجسس رغم تشجيع الرسول له ، فقد رأينا أنه كثيراً ما أرسلهم ، ليعلموا أخبار القوافل التجارية ويحددوا زمان ومكان مرورها ، ولكنها كانت تفلت منهم في كل مرة ، ولو كانت معلوماتهم عنها يوم بدر وافية ما أفلتت منهم كغيرها ، ولكن الله أراد أن تكون تلك المعركة التي غيرت وجه التاريخ .

(٢٠) مختصر في سياسة الحروب ف ٨٤٤ . ورقة ١١ .

(٢١) انظر تراجمهم في الإصابة لابن حجر ، والإدريس في التراتيب الإدارية ج ١ ص ص

٣٦ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٢٢) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٦٥ .

(٢٣) شرح القسطلاني على البخاري ج ٥ ص ١٦٣ .

(٢٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٢ ، وفجر الإسلام ط ٢ ج ١ ص ١٦٨ .

يضاف إلى ذلك أنهم يوم «حنين» فوجئوا بكمين الأعداء، فوقع الخلل في صفوفهم ، ولو أن طلائعهم وعيونهم جدوا في البحث ، لعرفوا مكانه، ولما أصيبوا به ، وقد حاولوا مرة بسّيات عدوهم ليلاً ، فعلم بخبرهم فأعد لهم كميناً، وقعوا فيه وهُزموا به (٢٥) .

أما الرسول نفسه فكان يهتم بأمر الجواسيس ، وقد وضع لهم منهجاً يعد من أحدث المناهج في زماننا، وذلك أنه كان ينهّاهم عند خروجهم أن يحدث أحدهم حدثاً ينبّه إليه، أو يقتل أحداً إلا إذا أُجبر على ذلك ، لأن فوز الجاسوس بالمعلومات النافعة ، أهم في نظر القيادة الحكيمة من قتل عدة فوارس ، ففي يوم الخندق أرسل «حذيفة بن اليمان» عيناً على قريش، ونهاه عن أن يحدث شيئاً حتى يعود إليه (٢٦) ، وأرسل مرة أخرى «عبد الله بن أبي حدرّاد الأسلمي» ، ليقوم متنكراً في «هوازن» حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ففعل (٢٧) .

وقد نهج أصحاب الرسول نهجه، فاهتموا بأمر العيون والجواسيس ، وكان أبرزهم في ذلك «عمر الفاروق» الذي كان يبث عيوناً في كل مكان، وينهى الأعاجم عن دخول «المدينة» خشية التجسس على المسلمين، لأن أيامه كانت أيام حروب مستمرة ، وروى «المسعودي» (٢٨) ، ما يفيد أنه كان يحتاط لذلك ، بأن ينهى الأعاجم عن التشبه بالمسلمين في لباسهم ومركبهم، وزاد القاضي «أبو يوسف» (٢٩) أنه كان يلزمهم بلبس الزنارات في أوساطهم مثل الخيط الغليظ ، وأن يجعلوا قلائسهم طوالاً ، وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرايبس ، مثل الرمانة من خشب وأن يجعلوا شرك نعالهم مثنية ، ولا يحذوا حذو المسلمين ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

وقد صنع ما صنع «عمر» طائفة من المسلمين المعروفين بالخذر، فالقائد «عمرو بن العاص» كان في حروبه مع الروم ، يحتفظ بطائفة من الجواسيس

(٢٥) ابن الأثير في الكامل ج ٦ ص ١٣٨ ومواضع أخرى.

(٢٦) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٥ .

(٢٧) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٢ .

(٢٨) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٩) الحراج ص ٧٢ .

يتكلمون الرومية ، فكان يرسلهم إلى الروم متنكرين ، فيقيمون بينهم ويعودون إليه بأخبارهم^(٣٠) ، وكذلك كان « خالد وسعد » وغيرهما ، وقد نشطت حركة التجسس أيضاً أثناء الحرب الأهلية ، التي كانت بين « علي ومعاوية » حيث كان لكل منهما جواسيس خاصة ، تنقل أخبار صاحبه إليه^(٣١) .

برع المسلمون بعد ذلك في التجسس ، واهتموا بالجواسيس ، واشترطوا فيهم الأمانة وحفظ السر ، وتشدد « عمر بن عبد العزيز » في تنفيذ قانون « الفاروق » على الأعاجم لذلك ، وكان يتهم المتساهل فيه من عماله بالضعف^(٣٢) ، ثم مضى العمل بذلك بعده .

وما أوشك القرن الثاني على نهايته ، حتى كان التجسس من أجل الأمور خطراً عند المسلمين ، فبفضل الجواسيس ومهارتهم ، استطاع بهم أبو مسلم الخراساني أن يثبت الفرقة بين قواد الأمويين ، ويتغلب عليهم ، واستطاع كذلك قائد المأمون « طاهر بن الحسين » أن يوقع الخلاف بين جند « الأمين » ويجعل بعضهم يقاتل بعضاً وينصرفون عنه^(٣٣) ، ثم صار القادة يبالغون في كتمان أمر الجواسيس ، بحيث لا يعرف بعضهم بعضاً ، فكان القائد يلقاهم فرادى في سرية تامة ، فإن شغله شاغل ، جعل لكل جاسوس رجلاً خاصاً يتصل به من أوثق خاصته^(٣٤) ، على الطريقة المتبعة في أحدث الجيوش الآن .

وكان القادة أحياناً يُظهرون لعدوهم ما يجب أن يعلمه عنهم ، ليكيدوا له ويغرروا به ، كما وضّح « الهرثمي » في قوله : « لقد تحتاج في بعض الأحوال ، أن يعرف عدوك ، بعض أحوالك ، وتديرك لما تحاول من مكائده ، فتلطف في ذلك بإظهاره لجواسيسه ، ليوصلوه إليه على ما يظهر لهم فيه^(٣٥) . » وكان بعض القادة يستدعي صدق جواسيسه ببذل المال كما ذكر « الهرثمي » فيعطى من يأتيه منهم بما يكره من الأخبار ،

(٣٠) الطبري ج ٤ ص ١٥٨ .

(٣١) نفس المرجع ج ٥ ص ٢٢٩ .

(٣٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٣ .

(٣٣) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٩٢ .

(٣٤) مخطوط الهرثمي ورقة ١٣ .

(٣٥) نفس المرجع .

أكثر ممن يأتيه بما يحب منها ، ليلزموا الدقة والصدق في الأخبار التي يجمعونها .

معاملة الجواسيس :

اعتاد المسلمون إذا عثروا بجاسوس عدوهم ، أن يعاملوه بلطف ويستميلوه إليهم ، ليحصلوا منه على أخبار تنفعهم ، فقد عثر المسلمون يوم « بدر » ببعض عيون قريش فعذبوه ، فهاهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم استدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم ، فأجابه بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً ، فاستنتج الرسول أن القوم يتراوحون بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ فكان الأمر كما قدر الرسول ، وفي فتح « قيسارية » قتل جنود « عمرو بن العاص » جاسوساً رومياً ، فغضب عليهم وقال لهم « هلا أتيتموني به لأستخبره ، فكم عين تكون علينا ، ثم ترجع فتصير لنا ^(٣٦) » وقد كان بعض قادة المسلمين يصيرون جاسوس العدو جاسوساً لهم ، إما بإعطائه المال أكثر مما يعطيه عدوهم ، وإما بالأمانى الحسان ، وإما باستغلال نزعة خيرة فيه ، تجعله يقبل الإسلام ويخلص في خدمته .

أما في حالة اليأس من الجاسوس ، وعدم الانتفاع به ، فكان المتبع أن يقتل ، خشية أن يصل إلى أصحابه بما حمل معه من أسرار ، فقد رأى الرسول مرة بعض عيون المشركين فقال لأصحابه : « اطلبوه فاقتلوه ^(٣٧) » ففقدوا أمره ؛ وذلك خشية الفرار بالأسرار الحربية . وأصاب عيناً لهم في غزوة « بنى المصطلق » فسأله عليه السلام عن قومه فلم يذكر شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر « عمر » بأن يضرب عنقه ففعل ^(٣٨) ، وروى المبرّد أن « المهلب » كان يقتل جواسيس الخوارج الذين يطلبون غيرته ^(٣٩) وهكذا رأينا المسلمين يستخدمون الجواسيس على نطاق واسع ، ولم يعتمدوا في ذلك أبداً على العنصر النسائي ، ليشتروا النصر في الحروب ، بالهزائم في العروض والأخلاق ، على النحو الذي نراه في الجيوش الحديثة من التجسس الدنس ، الذي يعتمد على السلاح النسائي ، في التغرير برقاق الأخلاق ، ضعاف الوطنية .

(٣٦) الواقدي في فتوح الشام ج ٢ ص ١٠ .

(٣٧) شرح القسطلاني على البخاري ج ٥ ص ١٦٨ .

(٣٨) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٣٩) الكامل في الأدب ج ٢ ص ٢٤٤ .

القسم الثاني التنظيم التكتيكي

١ - نظام الطلائع :

من أُلزم الأمور للجيش المحارب ، إذا نزل بأرض العدو ، أن يقدم بين يديه بعض أفراد طليعة له ؛ ليختبر أرض المعركة ، ويعرف مواقع العدو ويجمع المعلومات الممكنة عنه ، ويضمن سلامة الطريق الذي يسلكه من كمين معد له ، أو أى عائق يعوق تقدمه ، وهذا هو عمل « دوريات الاستطلاع » فى العصور الحديثة ، الذى نصحه الدكتور « أومان » قديماً فى قوله : « إن النجاح يكون فى الغالب مؤكداً ، إذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالأعداء ، وقد تحل الهزائم والكوارث إذا فقد ذلك الاتصال »^(٤٠) ؛ فهى كانت تقوم بعمل الجواسيس تقريباً ، ولكن فى ميدان المعركة فقط ، حيث تباشر القتال إذا لزم الحال .

وفى العصر الحديث تقوم الطلائع بعملها ، مستخدمة السيارات أحياناً ، حاملة سلاحاً خفيفاً ، ليسهل رجوعها للجيش بسرعة إذا دعت الحال ، والقائد يختار أفرادها عادة ، من المعروفين بالثبات والذكاء وسرعة التصرف ، وكذلك كان الوضع عند المسلمين ، فإنهم كانوا يختارون للطلائع ، كل جندي عرف بالشجاعة والنجدة ، ويحملونهم على سوابق الخيل ، جيدة الخوافر والظهور ويرسلونهم متخفين من كل ثقل يعوقهم ، ليس مع أحدهم إلا قوسه وجعبته ، بها عشر نشابات أو عشرون ، وقد سَمَطُوا حقائبهم خلفهم^(٤١) ، وذلك طبعاً لتحقيق لهم خفة الحركة المطلوبة .

وقد عمل الرسول من قبل بهذا المبدأ ، فكان يختار لطلائعه « خالداً » وأمثاله ممن عرف بالنجدة وخفة الحركة ، مع اليقظة وسرعة البديهة ؛ ثم صارت تلك عادة

(٤٠) A History of the Art of War. P. 211.

(٤١) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٤.

المسلمين دائماً، فخالد كان يعطل قوة من جيشه ويوفدها أمامه للاستطلاع^(٤٢)، وكثيراً ما أوصى «علي» أصحابه بذلك في نصائحه الحربية لهم، وقد عرف عنه قوله: «واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم^(٤٣)».

ولقد اتبع قادة المسلمين جميعاً ذلك النظام، جرياً على عادتهم من الحذر والاحتراس أثناء السير، فكانوا لا ينزلون منزلاً إلا بعد إذكاء العيون، ومعرفة المكان كما يعرفه أهله، وتحصينه بالحراس والحنادق^(٤٤)، وكان الجيش لا يتقدم إلى موقع آخر، إلا إذا جاء الخبر من الطليعة بسلامة المنطقة التي سيرحل إليها.

ومما يصح ذكره هنا أنه كان لبعض القادة، حيل مبتكرة يعرف بها صدق الطلائع، ومدى قيامها بواجبها، وهو في مقر قيادته، فكان «قتيبة بن مسلم» إذا بعث طليعة جاء بلوح فنقش عليه نقشاً، ثم شقه نصفين بطوله، فيحفظ نصفه عنده، ويعطى الطليعة نصفه، ويأمرهم بدفنه في موضع يصفه وبعينه لهم في منطقة عملهم، ثم يبعث بعدهم من يستخرجه ليعلم مدى صدقهم^(٤٥)، بعد أن يطابق بين النصفين.

وكان غيره من حكماء القادة يستدعى صدقهم، بالأموال والهبات وحسن المعاملة، فيغدق عليهم العطايا والمنح، ويكرم منزلهم عنده ويقدمهم.

أما عدد الطليعة فلم يشر إليه أحد إلا الهرمي، فإنه نصح ألا تقل الطليعة عن ثلاثة: أحدهم يأتي بالخبر، واثنان يتقدمان إلى العدو، بحيث يكون بينهما مسافة ميل في تقدمهم، ليحفظ كل واحد منهم ظهر صاحبه، ونصح لهم بأن يكون تطلعهم على المرتفعات، وألا يُجروا خيلهم في الأرض التي يثور غبارها، وألا يدخلوا أكثر من ثلث الطريق بينهم وبين عدوهم^(٤٦)، إلى كثير من النصائح التي هي من عمل الجيوش الحديثة، فليرجع إلى مخطوطه طالب الزيادة.

(٤٢) طه الهاشمي ص ١٨٢.

(٤٣) نهج البلاغة - شرح محمد عبده ج ٢ ص ١٣.

(٤٤) الخضرى - تاريخ الدولة العباسية ص ٢٢٣، ٢٤ والطبرى ج ٣ ص ١٥.

(٤٥) الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣، ٤ حوادث سنة ٩٦ هـ.

(٤٦) مخطوطه السابق ورقة ٣٤.

ب - طبيعة الأرض واختيار الموقع :

إن قدراً كبيراً من نجاح القائد يتوقف على مهارته في اختيار مواقعه ، بحيث يكون جيشه في موقع حصين ، يضمن سلامته في حال الدفاع والهجوم ، ولم يغفل المسلمون قديماً عن تلك الحقيقة المهمة فالرسول عليه السلام في «بدر» نزل على أقرب بئر من المشركين ، وردم ما خلفه من الآبار ، ليشرب ولا يشرب المشركون ، وناهيك بفعل العطش في الصحراء القاتلة بحرّها ، وفي يوم «أحد» استغل طبيعة الأرض فأسند ظهر قواته إلى جبل «أحد» وكلف الرماة برد أية حركة التفاف خلفي ، وجعل ميدان المعركة في السفح المنبسط أمامه ، لو طبقت خطته كما وضعها لا انتصر يومها نصراً مبيناً .

ولعل دفاعه عن «المدينة» بأصحابه القلائل ، أمام عشرة آلاف من الأحزاب بطريقة الخندق ، يعد مفخرة حربية له ، لأنه اختار جعل الخندق في الجهة الشمالية المكشوفة ، واستغل الحرتين الشرقية والغربية كوانع طبيعية ، ثم إن إخراج رماله ناحية المسلمين ، أتاح لهم موقعاً دفاعياً ممتازاً ، يرمون من خلفه الأعداء ، وتقع سهام الأعداء فيه في رماله .

وكثيراً ما كان قادة المسلمين يحصنون مواقعهم بالجبال ، يسندون إليها ظهورهم وبالأنهر وفروعها يحتمون بمنعطفاتها ، وبالبحيرات والمستنقعات تحيط بهم ، بحيث لا يقاتلون عدوهم إلا من وجه واحد أو وجهين^(٤٧) ولعل حالة عمر المشهورة «يا سارية الجبل» ليست في حاجة إلى بيان ، للدلالة على العمل بقاعدة الاحتماء بالجبال ، والانحياز إلى المرتفعات لحماية الجيش .

ولعرفة المسلمين بالآثر الذي يترتب على اختيار الموقع ، اعتادوا أن يقاتلوا أعداءهم على أدنى حجر من أرضهم ، كما نصحهم «عمر» فإن انتصروا لم يصعب عليهم التقدم ، وإن كانت الأخرى ، تفرقوا في الشباب والأودية ، التي هم بها

(٤٧) الكامل ج ٣ ص ١٥ ، ج ٤ ص ١٩٠ ، ونهج البلاغة ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ ، ومخطوط الهرثمي ورقة ١٩ ، وفي وصية مروان بن محمد لولي عهده كثير من حقائق الفن الحربي الذي عرف به المسلمون .

أعلم من عدوهم ، فانتشر الجند على جوانب الصحراء فكانوا مسالح ينظر بعضها إلى بعض ، ويغيث بعضها بعضاً^(٤٨) ..

فلما مضت عجلة الفتح في اندفاعها ، حتى بلغت سفوح الجبال التي تفصل سهل العراق عن هضبة إيران ، آمن « عمر » بسلطان الموانع الطبيعية ، واعتقد أن هذه الجبال يصح أن تكون فاصلاً طبيعياً ، يقف المسلمون عندها ، وقال قولته المشهورة « وددت لو أن بيننا وبين الأعاجم سداً وفي رواية جبلاً من نار . فلا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد^(٤٩) . ولكن إرادة الطبيعة كانت أقوى من إرادة « عمر » فإن الفرس بعد هزيمتهم في القادسية تحصنوا في (جلولاء) ذات الموقع الاستراتيجي الممتاز ، لتحكمها في طريق القوافل الممتد بين « العراق وكرمنشاه » وصاروا يفاجئون المسلمين بالانحدار عليهم منها ، مع وديان الأنهر المنحدرة من الجبال ، إلى دجلة وشط العرب وخليج العرب ؛ ولذا أدرك المسلمون أن الاحتفاظ بالسهل ، يقتضيهم انتزاع ذلك المعقل (جلولاء) من أيدي الفرس كما تقضى بذلك تضاريس البلاد ففعلوا ، لعلمهم بأن المتحصن في الأرض الوعرة تصعب مهاجمته فيها^(٥٠) .

ولتقدير العوامل الاستراتيجية عند « عمر » اشترط على قواده أن يعسكروا بمكان فيه ماء حتى لا يهلكوا ، ولا يفصله عن المدينة ماء ؛ ليسهل إمدادهم فيه ، وليسهل رجوعهم منه إلى بلادهم ، بحيث لا يركبون البحار ، وعلى هذا الأساس أقيم معسكر « البصرة » في مواجهة طريق هجوم الفرس من الجنوب ، ومعسكر « الكوفة » في مواجهة طريقهم من الشمال ، وعلى هذا الأساس أيضاً أقيمت الثغور الأخرى في مصر والشام وغيرهما ، بحيث تكون في مواقع استراتيجية هامة نافعة .

هذا وقد كان المسلمون يستفيدون من بعض الأخطاء الحربية التي يقع فيها بعضهم ، ويبنون عليها مبادئ ثابتة يعملون بها ، فقد أخطأ القائد « أبو عبيدة ابن مسعود » بعبوره نهر الفرات للفرس في معركة « الجسر » رغم معارضة مشيريه له ، فهزّم جيشه وقتل هو ، وداسته « الفيلة » وعندها عهد « عمر » إلى أصحابه ألا يعبروا

(٤٨) الأستاذ حسونة : الجغرافية التاريخية الإسلامية . ط لجنة البيان العربي ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٤٩) نفس المرجع ص ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٥٠) الأستاذ حسونة ، وابن الأثير في الكامل ج ٦ ص ١٣٩ .

بحراً ولا جسراً إلا بعد ظفر^(٥١) : ولذا رأينا قاداته يعملون بنصحه ، فلم يعبر « المثني » للفرس في معركة « البُويب » عندما خيروه ، ورفض « خالد » العبور للروم في موقعة « الفِراض^(٥٢) . وكذلك ترك « سعد » أمر العبور لرستم لما خيره ، ثم نهى رستم عن القنطرة لما حاول العبور فوق نهر العتيق^(٥٣) ، فطمّنه هذا وعبر إليه . وما يدل على عناية المسلمين باختيار المكان الصالح للمعركة ، أن « الهرثمي » عقد الباب السادس عشر من مخطوطه « في اختيار موضع المصاف للقاء الزحف » بين فيه كيف يحمي القائد ظهر قواته ، وكيف يختار لقلب الجيش جبلاً أو أرضاً صلبة ، إلى غير ذلك من النصائح التكتيكية ، التي تدل على أن المسلمين كانوا ينظمون قواتهم ، طبقاً لما تمليه عليهم أرض المعركة وتضاريس البلاد .

ويصح أن نتخذ هنا بعض المعارك الإسلامية مثلاً يوضح لنا تقدم التكتيك الإسلامي ، وبراعة المسلمين في استغلال طبيعة الأرض عند اختيار مواقعهم .

(٥١) نفس المرجع ص ٢٨ والهامش ٤ من هذا الفصل .

(٥٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٧٢ .

(٥٣) تاريخ الطبري ص ٢٦ .

دراسة تكتيكية لبعض المعارك الإسلامية

يصح هنا أن نتناول بعض المعارك الإسلامية بالدرس والتحليل ؛ لنقف منها على مدى الفن الحربي ، الذي كان يتقنه المسلمون ، ونوع التنظيم الذي كان مفضلاً عندهم ، سواء في حالة الهجوم أم في حالة الدفاع .

وأول معركة يصح بحق أن تسمى معركة حربية ، هي معركة «أحد» التي أقيمت فيها قريش بأحلافها ، تصول وتتيه في عُدتها وعددها ، تريد التخلص من «محمد» والقضاء على دعوته ، فردهم الله لم ينالوا خيراً ، بعد أن لقن المسلمون على أيديهم درساً قاسياً ، في وجوب طاعة القواد وتنفيذ أوامره .

أولاً - مسرح المعركة في أحد :

خرج المشركون من مكة في ثلاثة آلاف ، على أكمل استعداد وأتم أهبة يحمل لواءهم «طلحة بن أبي طلحة» من بني عبد الدار ، وهم أصحاب اللواء دائماً وكان قائد الميمنة الفارس المحنك «خالد بن الوليد» وكان قائد الميسرة قرنه «عكرمة بن أبي جهل» ومعهم مئتا فارس ، تحت إمرة خالد قد دربوا خير تدريب .

قدم هذا الجيش في خيلاته ، فنزل شمالى المدينة ، على بعد ميلين^(١) عند جبل «أحد» ويلاحظ أن الجيش لم يأت من الجهة الجنوبية مع أنها هي القرية من طريق قدومه ، كما لم يأت من جهة أخرى غير الشمالية ؛ وذلك لأن المدينة تحيط بها الحرات البركانية من تلك الجهات ، فتكوّن سلسلة من الموانع الطبيعية التي يصعب عبورها ، أو مهاجمة المدينة من ناحيتها ، فليس للمهاجم إلا القدوم من تلك الجهة .

علم الرسول عليه السلام بمسير هذا الجيش ، من رسالة بعث بها إليه عمه العباس الذي كان لا يزال بمكة ، وتقول بعض الروايات : إن بعض بني خزاعة هو الذي كاتبه في ذلك^(٢) ، وهنا عقد الرسول مجلسه الحربي المعتاد ، من أشرف الأنصار والمهاجرين ، وجمع بين الشباب والشيب لأخذ الرأي ، ودار نقاش

(١) السيرة الحلبية ج ٢ . ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٠ .

طويل ، تغلبت فيه حماسة الشبان على رزانة الشيوخ وحكمتهم ، فقرروا الخروج للقاء المشركين خارج المدينة ، وبعد الاستعداد للقاء ، سار بهم الرسول حتى وصل أرض المعركة ، فنزل بهم ليلته ، ثم أصبح فصلى بهم الصبح في العتمة قبل القتال ، ثم شرع في تنظيمهم .

الترتيب قبل الالتحام :

ارتاد الرسول أرض المعركة عند نزولها ، فوجد جبل أحد كثير الوديان يؤلف قوساً كبيراً مواجهاً للسهل الذي نزلت به قريش ، فنزل الرسول بقواته على عدوة الوادى ، مسنداً ظهرهم إلى انحدار الجبل ؛ ليكون حماية لهم من الخلف^(٣) ، وجعل وجوههم إلى المدينة ، بحيث يستقبلون السهل الذي به قريش^(٣) ، ويشرفون عليه وهم في سفح الجبل ، وبحيث تكون المدينة تحت أعينهم ، فإن قصدوا أحد بسوء تمكنوا من إدراكه ومنعه من دخولها .

فحص الرسول أرض المعركة فحصى القائد المجرب ، فوجد بجانبه مما يلي الخلف ، بعض التلال المنقطعة عن الجبل ، وخشى أن يؤتى المسلمون من قبل ذلك التل ، بحركة التفاف خلفية ، وبخاصة أن المشركين كانوا يفوقونه كثيراً في الحيلة ، كما كانوا يفوقونه في المشاة ، فبادر بعمل تنظيم محكم .

استدعى الرسول خمسين من الرماة ، وأمر عليهم « عبد الله بن جُبَيْر » وأمرهم بالوقوف على ذلك التل المسمى « جبل عينين » على أن ينضحوا خيل المشركين بنبالهم كلما أقبلت ، وأكد لهم أمره ألا يغادروا مواقعهم ، سواء أفاض إخوانهم أم هزموا .

بعد أن فرغ من ذلك الاحتياط اللازم ، شرع يرتب قواته لتواجه نظائرها من قوات العدو ، فاستدعى « الزبير بن العوام » وقال له : « استقبل خالد بن الوليد فكن بإزائه^(٤) » ، وأمر جماعة أخرى بأن تكون بإزاء خيل المشركين لترقب حركاتهم وتصد هجماتهم .

(٣) ابن الأثير في الكامل ج ٢ . ص ٧٢ - المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ .

(٤) السيرة الحلبية ج ٢ . ص ٢٣٥ .

وإن نظرة فاحصة إلى ذلك التكتيك ، تظهر لنا براعة الرسول عليه السلام في استغلال طبيعة الأرض ، والانتفاع بالجبل ومنحنياته ، وتظهر لنا أيضاً أنه أعد لكل شيء عدته ، ورتب قواته أحكم ترتيب ، بعد أن صفى جنده فرد بعضهم واختار منهم أقوى الأبدان ، أقوى الإيمان الذين يثقون به ويثق بهم .

بدأت المعركة في أول أمرها بالمبارزة ، جرياً مع العادة العربية ، وذلك لما خرج بعض المشركين داعياً للمبارزة ، فخرج إليه « عبد الله بن الزبير » فقتله ثم دعا للمبارزة أيضاً صاحب لواء المشركين ، فبرز له « علي بن أبي طالب » فقطع رجله وسقط على الأرض ، ثم انصرف عن قتله ، لأنه تلقاه بعورته ، وناشده الله والرحيم^(٥) ، فكرم وجهه أن ينظر إلى عورته ، وسيفه أن يريق دمه .

التقى بعد ذلك الجمعان ، وتزاحف الجيشان ، وهم يصيحون صيحة الحرب ، ودارت المعركة على قطبها كأشد ما يكون القتال ، وبُليت الرمال والصخور بدماء القتلى من الفريقين ، وبرقت للمسلمين أولى بوارق النصر بانكشاف أعدائهم ، فوضعوا السيوف في أقفيتهم ، وأخذت نساؤهم تصعد في الجبل هاربات مولولات ، وقد شمرن عن سوقهن ، وبدأت^(٦) خلاخلهن استعداداً للجري الطويل ، ولما رأى المسلمون ذلك رجعوا عن الفارين إلى المغنم يجمعونها ، وإلى الأسلاب يستكثرون منها ، وتعجلوا الحكم على أعدائهم بالهزيمة .

هنا حدثت الزلة الكبرى ، التي كانت سبباً في ضياع النصر من أيدي المسلمين ، ذلك أن معظم الرماة ، لما رأى المسلمين منصرفين إلى جمع المغنم ترك موقفه وبادر لمشاركتهم ، وأنساه إغراء المال نهى الرسول السابق ، ولم يستمع لصوت القلة الذين حافظوا على مواقفهم ، وهنا انتهز « خالد بن الوليد » تلك الفرصة ، فرصة إخلاء الجبل من الرماة ، وأظنه حاول اقتحامه خلال المعركة فردوه بنبالهم ، وأظنه كان ينسحب وعيناه مسمرتان بذلك الجبل ، فلما رأى خلوه من الرماة إلا قليلاً منهم ، أسرع بخيله مستديراً من الوادي المنخفض ، بحيث يستره التل فلا يراه أحد ، وبتلك الحركة البارة فاجأ المسلمين من الخلف ، وهم لا يزالون في نشوة النصر ،

(٥) ابن الأثير في الكامل ج ٢ . ص ٧٣ .

(٦) المصدر نفسه ، والأغانى طبعة الساسي ج ١٤ . ص ١٧ .

فكانت المفاجأة سبباً في اختلال صفوفهم ، وشيوع الرعب بينهم ، ولولا قلة فدائية ، من رجال ونساء ثبتت حول الرسول عليه السلام ، لكانت العاقبة وخيمة ، وبهذه الحركة الخالدية تغيرت نتيجة المعركة ، من نصر للمسلمين كان محققاً إلى تحاجز بين الفريقين ، وتواعد على اللقاء في بدر من العام^(٧) القابل .

من هذا العرض السريع للمعركة ، رأينا أن الرسول عليه السلام فعل من الاحتياط ما يفعله القائد المحنك ، ولو أن قائداً معاصراً كان في مكانه ما زاد على ما صنع شيئاً ، ولو سارت المعركة وفق الخطة التي رسمها ، لكان النصر للمسلمين محققاً ، وقد كان قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الله سبحانه أراد تأديب المسلمين لمخالفتهم أوامر قائدهم الأعلى .

بقي لنا بعد ذلك أن ندرس معركتين ، من معارك الفتوح العمرية التي تعد من أهم المعارك ، لضخامة جيوشها ، ووفرة السلاح المستخدم فيها ، ولأنها من المعارك الفاصلة ، في تاريخ الفتوح الإسلامية ، وهما اليرموك والقادسية .

ثانياً - معركة اليرموك ١٣ هـ - ٦٣٥ م .

نهر اليرموك عبارة عن نهر صغير ، ينبع من مرتفعات (حَوْرَان) ثم ينساب في ممر ضيق متعرج ، وقد حُفِر في هضبة من الحجر الجيري ، مغطاة بطبقة من البازلت ، ثم هو يتصل بنهر الأردن على بعد ٦ ¼ كيلومتر جنوبى بحيرة (طبرية) وهو قبل اتصاله بالأردن ، يدور على شكل نصف دائرة تقريباً ، بحيث يحتضن جنوبىً القوس سهلاً منبسطاً ، له باب واحد من ناحية الجنوب ، أما بقية مدخله فمعلق بخندق طبيعى يسميه الأستاذ «حسونه»^(٨) (وادى الرقاد) كما هو موضح بالرسم المرفق .

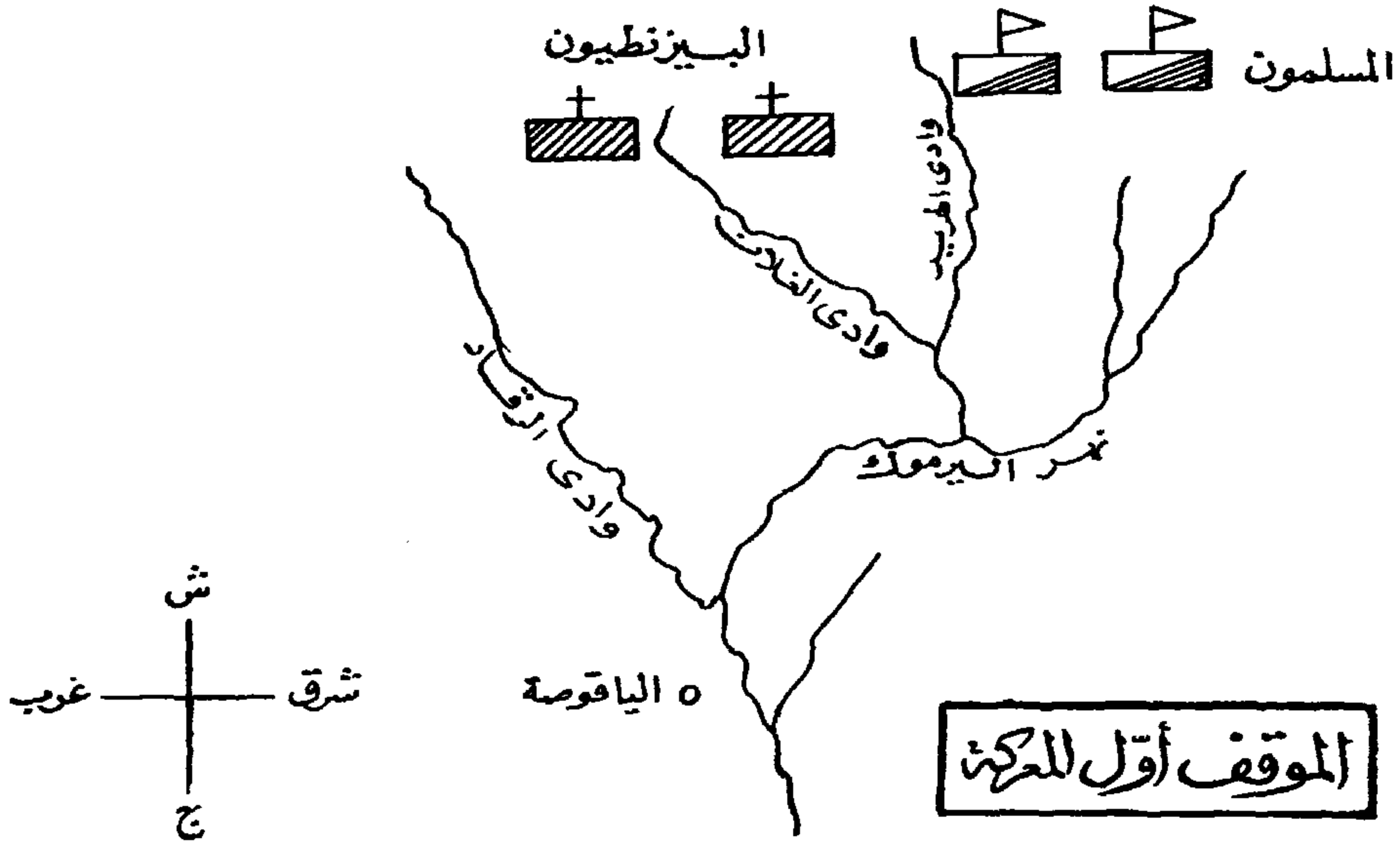
هذا تصوير تقريبي لأرض المعركة ، وفيها نزل الروم بقواتهم شمالى نهر اليرموك ولما رأى المسلمون مواقعهم ، عسكروا هم إلى الشمال الشرقى من النهر ، معتزمين القيام بحركة التفاف وضغط ، بحيث يحصر الروم بين النهر والخندق (وادى الرقاد)

(٧) انظر الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٧٣ ، ٧٤ وكتب السيرة في غزوة أحد .

(٨) الجغرافية التاريخية الإسلامية ص ٣٠ ، ٣٣ طبعة لجنة البيان العربى .

وقعة اليرموك

نقلًا عن الجغرافية التاريخية للأستاذ حسونة

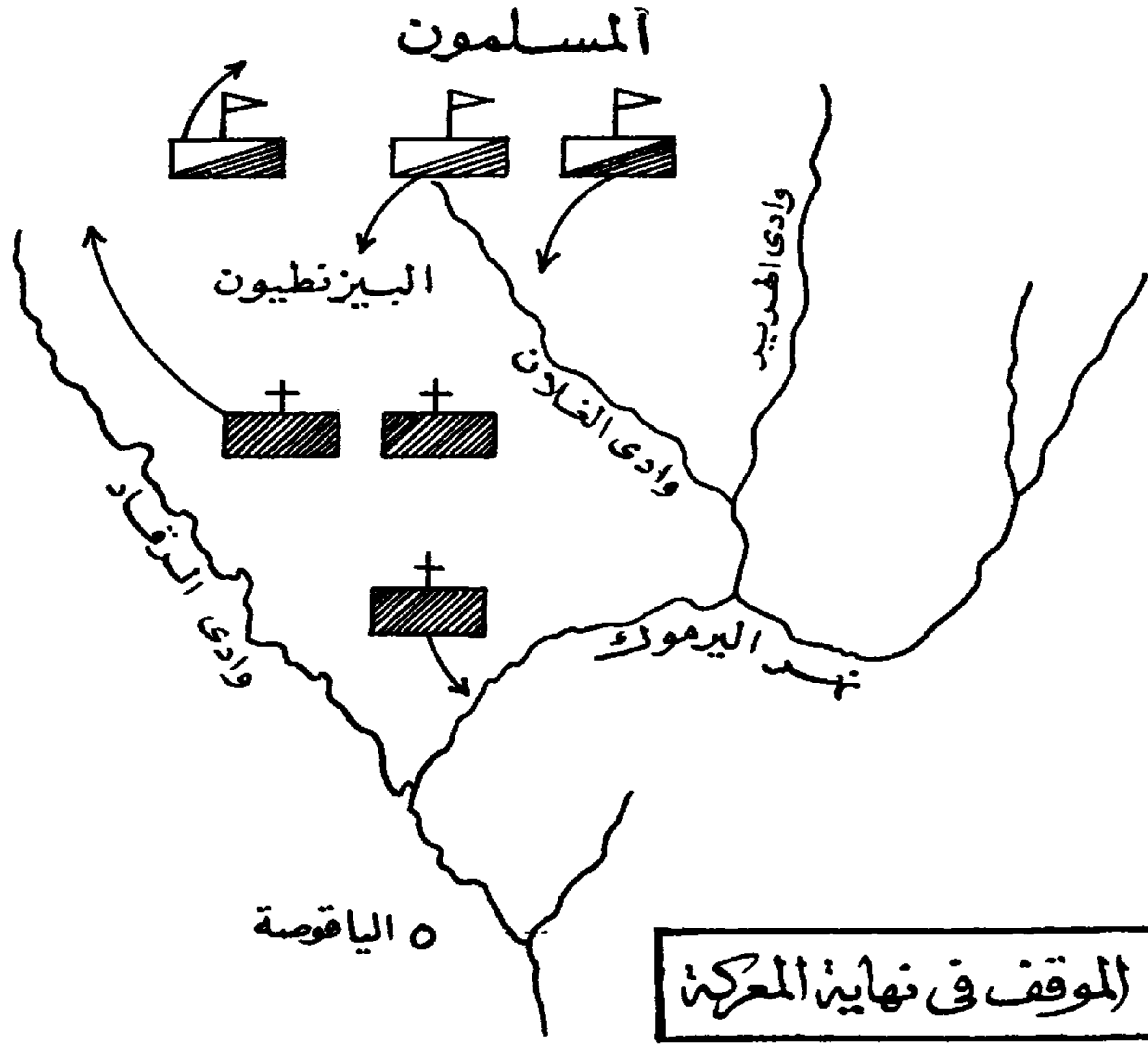


وقد أدرك « خالد بن الوليد » بفطرتة الحربية ، خطأ الروم في اختيار موقعهم لما رآه ، فقال مبشراً إخوانه بالنصر : « حصرت الروم أنفسهم وقلما يأتى محصور بخير » . وقد ذكر الأستاذ « الخضرى » أن المسلمين نزلوا بجذاء الروم وعلى طريقهم ، وليس للروم طريق إلا عليهم ، فصاروا كأنهم محصورون^(٩) .

ظل الجيشان متواقفين هكذا فوق ثلاثة أشهر ، لا يخرج الروم من مواقعهم ، ولا يخلص المسلمون بوسيلة إليهم ، لأن الواقصة تحميهم من ورائهم ، والخذق يحميهم من أمامهم^(١٠) ، حتى قدم « خالد » إليهم بتكليف من الخليفة « أبى بكر » لينقذ الموقف الذى لا تعرف نهايته ، ولينسى الروم به وساوس الشيطان ، على حد تعبير الخليفة نفسه .

(٩) تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ . ص ١٩١ ط ٦ . سنة ١٣٧٠ هـ .

(١٠) محاضرات الخضرى ج ١ . ص ١٩١ .



وجد «خالد» إخوانه يحاربون متساندين، كل منهم يقود جيشه مستقلاً فناقشهم في توحيد الإمارة، بحيث تكون بينهم مناوأة، واتفقوا على أن تكون له إمرة اليوم الأول، فبادر أولاً بتقسيم الجيش إلى كراديس أى كتائب منظمة، وكان مما قال لهم في تعليقه: «لأنه ليس أكثر في رأى العين من الكراديس»^(١١) «ولهذه الكثرة من الأثر النفسى ما لها في الحروب.

أعاد خالد تقسيم الجيش الإسلامى إلى كراديس، وجعل على كل قسم من الجيش بطلا مشهوراً من أبطال المسلمين، وهم الذين يسمون (أمراء التعبئة)، فجعل «أبا عبيدة» أميراً على كراديس القلب، - وجعل «عمرو بن العاص وشُرحبيل بن حُسنه، على الميمنة» وجعل على الميسرة «يزيد»^(١٢) بن أبى سفيان» وكذلك اختار أمراء الكراديس من الأبطال البارزين، أمثال: «الققعاق بن عمرو، وعكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الأزور وغيرهم».

(١١) ابن الأثير في الكامل ج ٢ . ص ٢٠٠ .

(١٢) المصدر نفسه ص - ٢٠١ - .

سير المعركة :

بدأت المعركة كالعادة بالمبارزة، ثم زحفت الجموع إلى الجموع بعد أن خرج الروم من خنادقهم، ودارت المعركة على قطبها، وباب السهل مسدود بجماعة شداد من المسلمين، كان خالد قد رصد لهم لذلك الغرض، ولما حمى وطيس المعركة، هجم خالد بقلب الجيش، وقام بحركة ضغط على الروم؛ ليفصل بين فرسانهم ومشاتهم^(١٣)، ثم طوق الفرسان بحيث لا يستطيعون التقهقر شمالاً نحو باب السهل، فانحازوا أمام ذلك الضغط العنيف إلى الجنوب، حيث اليرموك شرقاً والخندق غرباً.

هنا أدرك الروم حرج مركزهم، فحاولت خيلهم الإفلات من باب السهل الذي تسده قوات المسلمين، فلما رأى عبقرى الحرب في وجوههم الرغبة في النجاة، لم يشأ أن يخرجههم بسد الطريق عليهم، فيحملهم على التضحية، فأشار إلى جنده أن ينحازوا جانباً، ويفسحوا لهم طريق الخلاص، فما إن أفرج لهم المسلمون حتى بادروا بالفرار، تاركين مشاة الجيش يتلقون صدمة المسلمين.

وبعد فرار الخيالة شدد خالد ضغطه على المشاة، فلم يثبتوا له وتفرقوا بدداً، وهوى أكثرهم في اليرموك جماعات، كأنما هدُم بهم حائط — كتعبير ابن الأثير واندقت أعناق الآخرين في الخندق (الياقوصة) كما يكتبها الأستاذ «حسونة» فتهاقت فيها من الروم ١٢٠ ألف جندي، كما في رواية الطبري وابن الأثير^(١٤) وتم النصر للمسلمين، بفضل سلامة تنظياتهم، واستغلال طبيعة الأرض خير استغلال واستخدام نظام الكراديس على خير وجه.

ثالثاً — معركة القادسية ١٤ هـ — ٦٢٦ م.

قبل المعركة : عرف الخليفة «عمر» بتجاربه أن الحدود الشرقية للجزيرة، لن تكون آمنة إلا بفتح العراق، لأنه وكر الفرس الذي لا ينفكون يهجمون منه، فجمع القوات الإسلامية من كل صوب، وأرسلها مع «سعد بن أبي وقاص»

(١٣) المصدر نفسه ص ٢٠١.

(١٤) انظر المعركة في الكامل ج ٢. ص ص ٢٠٠، ٢٠١ ومحاضرات الأستاذ الحضري ج ١.

ص ص ١٩١، ٩٢، ٩٣.

وأمره أن يحيطه علماً بجميع تحركاته ، وأن يصف له المواقع كأنه يراها ، فلما علم برحيله من (زَرُود) كتب إليه : « أن ابعث إلى فرج الهند رجلاً ترضاه يكون بحيله ، ويكون رداءً لك من شيء إذا أتاك من تلك التخوم ، فبعث « المغيرة بن شعبة » في ٥٠٠ جندي ، فكان بحيال (الأُبَلَّة من أرض العرب ^(١٥)) ، وهذا تدبير في غاية الحكمة ؛ لحماية المسلمين من ذلك الطريق الموصل لبلاد الفرس .

أما من ناحية الفرس فقد استقر رأيهم ، على أن يخرج « رستم » للعرب بعد تردد منه طويل ، فخرج في ١٢٠ ألفاً ، كلهم متبوع كما قال الطبري ^(١٦) أي معه خدمه ، ثم جعل رستم يتقدم في بطاء شديد ، ليطاول العرب فيضجروا من الغربة ، فقد روى « الطبري » أنه كان بين خروجه من المدائن إلى أن لقي « سعداً » أربعة أشهر ، ثم جعل لا يتقدم ولا يقاتل ، رجاء أن يضجروا بمكانهم وأن يجهدوا فينصرفوا ^(١٧) .

عرف « عمر » أن الفرس سيطاولون المسلمين ، فأراد أن يفوت عليهم غرضهم وأن يصنع مثل صنعهم ، فأمر المسلمين أن يتركوا حدود أرضهم (العراق) وأن يطاولوهم أبداً حتى يُنغصوهم ^(١٧) ، فنزلوا القادسية وقد وطنوا أنفسهم على الصبر والمطاول ^(١٨) . وقد كانت نصيحة عمر هذه خير نصيحة ، لأنها صادرة عن رجل عارف بطبائع الناس وبخاصة الفرس ، أهل المكر والخديعة ، وليس أدلّ على صدق نظره . مما رواه « ابن الأثير » عن رجل هو أعرف الناس بالفرس ومكرهم لوثق صلته بهم ، وكثرة اشتباكه في المعارك معهم وهو البطل « المثني بن حارثة » فقد أوصى المسلمين عند موته « أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم ، وأدنى حجر من أرض العرب ، ولا يقاتلوهم بعقر دارهم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجراً على أرضهم ، إلى أن يردّ الله الكرة عليهم ^(١٩) » .

(١٥) تاريخ الطبري طبعة ليدن ١٨٩٠ ج ٤ ص ٢٢٢٣ والصفحات مسلسلة في الكتاب كله .

(١٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٥٠ .

(١٧) أي يخرجوهم من أرضهم إلى الحدود .

(١٨) تاريخ الطبري المتقدم ج ٦ ص ٢٢٥٦ .

(١٩) الطبري المتقدم ج ٦ ص ٢٢٥٧ .

وعملاً بدقة التنظيم ، وإحكام التعبئة ، لما كان «سعد بشارف» على مراحل من (القادسية) عباً قواته ، وأمر الأُمراء ، وجعل على كل عشرة عريفاً ، وجعل على الرايات رجالاً من أهل السابقة ، ولم يرحل عنها إلا بكتاب «عمر»^(٢٠) فكان أُمراء التعبئة يُلُون الأُمير ، والذين يُلُون أُمراء التعبئة أُمراءُ الأعشار ، والذين يُلُون أُمراء الأعشار أصحاب الرايات ، والقواد ، ورعوس القبائل^(٢١) .

يؤخذ مما تقدم أن كلاً من الجيشين كان يسير على حذر ، ويتقن النظم ، ويتخذ الحيلة ؛ لعلمه بأنه مقدم على معركة حاسمة ، سيكون لها شأن في التاريخ .

أرض القادسية :

يصح أن نسوق أولاً وصف الأستاذ «حسن» لها ، لينير السبيل أمامنا ، ويعيننا على فهم نصوص الطبري وابن الأثير عنها ، فقد قال في وصف موضعها : « أنها كانت يوم أتاها سعد ، يحف بها من الشرق خور من الفرات ، يسمى (ترعة الحصص) ، ويُطيف بها من الغرب (خندق سابور) وهو إذ ذاك غدير ، وكان يحمي ميمنة المسلمين مستنقع كبير ، لا يمكن عبوره بجيش كثير العدد أما ظهرهم فكانت تحميه الصحراء^(٢٢) .

أما وصفها في مصادرنا القديمة ، فإنه يتجلى في كتاب «سعد» إلى الخليفة بعد أن نزلها حيث يقول : «إن القادسية بين الخندق والعتيق ، وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر ، في جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين : أما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى (الخضوض) يطلع بمن يسلكه بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يسار القادسية إلى (الوَلَجَة) فيض من فيوض مياههم^(٢٣) . » والذي يفهم من المصادر المختلفة ، أن المسلمين نزلوا بالقادسية قبل الفرس ، وكان «سعد» قد جعل على مقدمة جيشه «زُهرة بن عبد الله» فلما انتهى إليها ،

(٢٠) ابن الأثير في الكامل - ج ٢ . ص ٢٢١ .

(٢١) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٢٢) انظر الجغرافية التاريخية الإسلامية ص ٣٣ . وخندق سابور هذا كان قد حفره في برية

الكوفة ، ونظم عليه المسالح ، ليكون حامياً لأهل السواد من عرب البادية ، محاضرات الحضري ج ١ . ص ٢٠٦ . والخضوض في الطبري بضادين لا صادين .

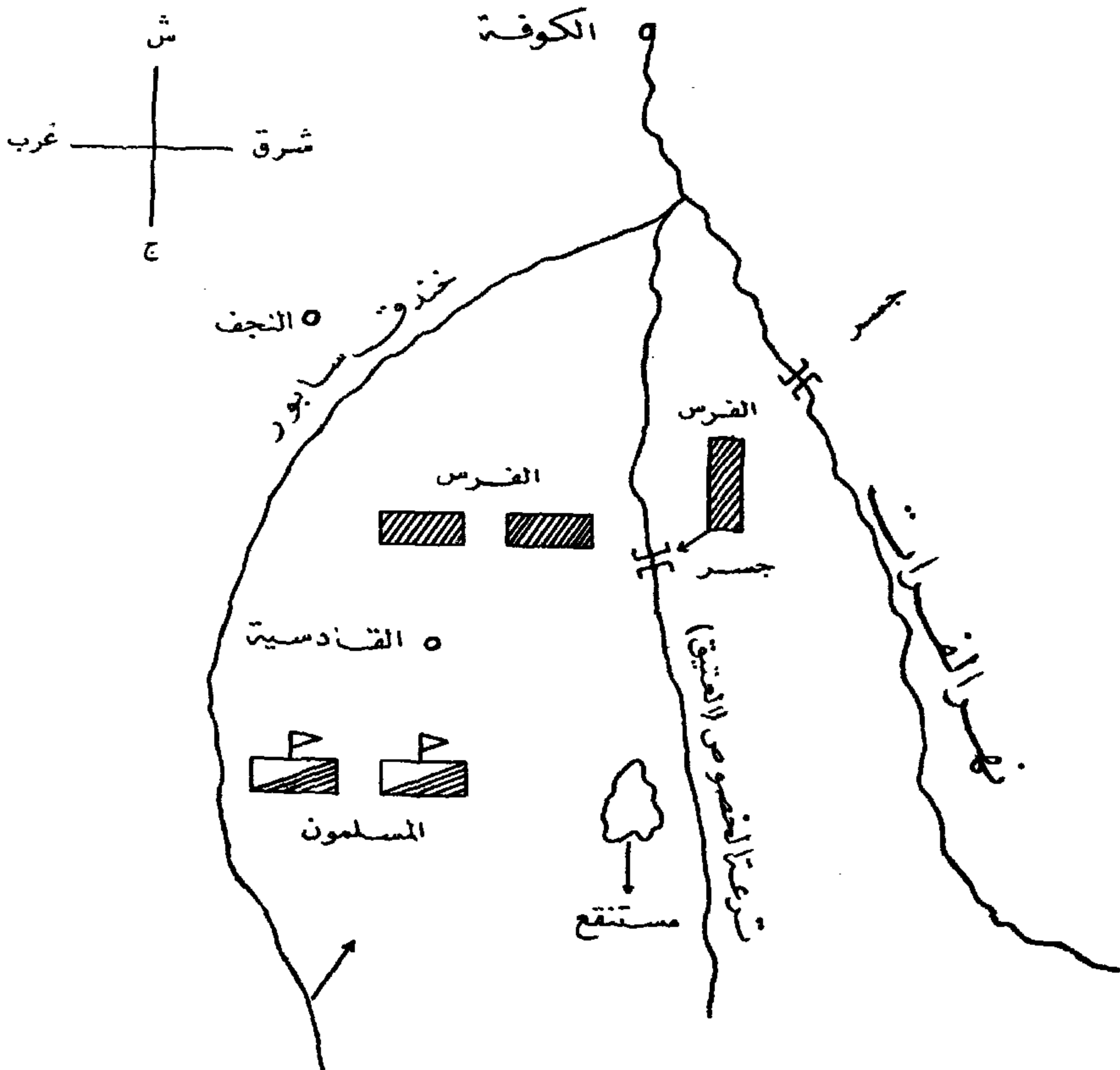
(٢٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٢٣ .

نزل بقواته بين العتيق والخذق ، بجبال القنطرة^(٢٤) ليستولى عليها ، ويضمن عدم عبور الفرس عليها ، ثم توالى نزول الناس وأقام سعد شهراً ، ثم كتب إلى الخليفة ، بأن الفرس لم يوجهوا إليه أحداً ، ولم يسندوا حرباً إلى أحد .

بعد ذلك جاء (رستم) وعلى مقدمته (الجالينوس) فنزل هذا بجبال (زهرة) من دون القنطرة ، فلما وصل (رستم) نزل على العتيق بجبال عسكر سعد ، ونزل الناس

وقعة القادسية

عز الأستاذ حسونة بتصرف قليل



(٢٤) الطبري ج ٤ ص ٢٢٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ والنهر المسمى هنا الخوض أو بالحاء المهمة هو ترعة الخوض عند الأستاذ حسونة كما سبق .

فما زالوا يتلاحقون حتى أعتَمَمُوا من كثرتهم ، فبات بها تلك الليلة ، والمسلمون ممسكون عنهم^(٢٥) .

ويزيد « ابن الأثير » الموقف توضيحاً ، فيذكر أن صفّ المشركين كان على شفير العتيق ، وأن صفّ المسلمين كان مع حائط قُدَيْسٍ والخذق ، ثم يقول : « فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعتيق^(٢٦) » .

فلما أصبح رستم من ليلته التي باتها بالعتيق ، أصبح راكباً في خيله ، ثم صعد نحو القنطرة ، وأرسل للمسلمين رجلاً يقول لهم : إن رستم يقول لكم : أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا^(٢٧) ، فتردد السفراء بينه وبين سعد ، وانتهت السفارات بالموافقة على القتال ، فأمر كل قائد أتباعه بأن يقفوا مواقفهم .

وقبل بدء المعركة أرسل رستم إلى سعد يقول له : أتعبرون إلينا أم نعبّر إليكم ؟ فقال لهم سعد : شأنكم والعبور إلينا ، فأرادوا العبور إلى القنطرة فهاهم عنها سعد قائلاً : لا ولا كرامة ، هذا شيء قد غلبناكم عليه ، فلن نردّه عليكم ، فباتوا يُسكِّرون العتيق ، ويردمونه بالقصب والرمال والبراذع^(٢٨) ، ليعبروا فوق ذلك الجسر المصنوع في الصباح .

وبعد أن عبر الفرس في الصباح نظموا أنفسهم ، وأخذوا مصافهم ، وجلس رستم على سريريه وقد نصبت له مظلة كبيرة ، وعباً في القلب ثمانية عشر فيلاً ، عليها الرجال في الصناديق الخشبية ، وكل فيل يحمل عشرين رجلاً ، والقنطرة بين خيله وخيل المسلمين ، وكل منهما متأهب لخوض غمار المعركة .

أما المسلمون فقد نظموا صفوفهم جنوبي القنطرة ، بحيث تبدأ صفوفهم من أصل حائط (قُدَيْس) وهو القصر الذي كان يشرف سعد من فوقه على الجند ، لمرضه بدمامل كانت تعوق حركته ، ثم جعل القادة يخطبون جندهم استعداداً للقاء .

(٢٥) المصدر نفسه ص ٢٢٣٠ والكامل ج ٢ . ص ٢٢١ .

(٢٦) المصدر نفسه ص ٢٢٦٦ والكامل ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢٧) انظر الكامل ج ٢ . ص ٢٣١ .

(٢٨) تاريخ الطبري ج ٦ . ص ٢٢٦٧ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٢٢٨٥ ، ٨٦ والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٣٠ .

دوران المعركة :

بدأت الحرب مبارزة جرياً على العادة في ذلك الوقت^(٣٠) ثم لما كبر « سعد » التكبيرة الرابعة - وهي علامة الهجوم العام- كانت الصدمة الهائلة، فتقدم الفرسان إلى الفرسان ، ودارت رحى الحرب تطحن الرجال ، وتُنهى الآجال ، واستمرت المعركة أياماً ثلاثة .

ففي اليوم الأول لقي المسلمون من الفيلة عنتاً شديداً ، لأن خيلهم لم تتعود رؤيتها، فكانت تحُجَم عنها، والرماة في الصناديق الحشبية فوق ظهورها، يمحطون المسلمين وابلاً من سهامهم^(٣١) القاتلة ، ويحتمون بها من سهام المسلمين .

كان سعد يشرف على المعركة من أعلى القصر ، ويلقى بالرقاع فيها أوامره إلى نائبه « خالد بن عُرْفطة » وهو يبلغها لمن يليه من القواد، فلما أبصر فعل الفيلة بالناس فتح باب التطوع لقتالها ، فتطوع لذلك « طلحة بن خويلد الأسدي » وأبلى معه بنو أسد خير البلاء في ضرب خراطيم الفيلة بالسيوف ، وتأخير هجومها ، وكذلك صنع « عاصم بن عمرو التميمي » « أخو القعقاع » فإنه جعل الرماة يرمون ركبان الفيلة ، وكلف جماعة أن يستدبروا الفيلة فيقطعوا أحزمها ، ويُلْقُوا الصناديق من فوقها ، وخرج هو يحميها بفرسانه الأشداء^(٣٢) ، فخففت تلك التضحية من وطأة الفيلة على الناس ، لأن توابعها كسرت فلم تزاول عملها كاملاً .

وفي ثاني أيام المعركة استؤنف القتال ، ولكنه لم يكن في عنف اليوم الأول ، لأن الفيلة قد عُطِلت عن العمل ، ريثما يصلحون صناديقها^(٣٣) ، ومما قوى في ذلك اليوم عزائم المسلمين ، وأوهن عزائم الفرس ، أن أمداداً كثيرة قدمت للمسلمين من الشام ، قد غطت بأسنها الشمس ، كما في تعبير المسعودي^(٣٤) ، وذلك أن « هاشم بن عتبة بن أبي وقاص » قدم من الشام مدداً لإخوانه ، وكان على

(٣٠) المصدر نفسه ص ٢٢٨٧ .

(٣١) المصدر نفسه ص ٢٢٩٧ ، ٩٨ .

(٣٢) ابن الأثير في الكامل ج ٢ . ص ٢٣٠ .

(٣٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٣٠١ - والكامل ج ٢ ص ٢٣١ ، ٣٢ .

(٣٤) الكامل ج ٢ . ص ٢٣٣ .

مقدمته «القعقاع بن عمرو» في ألف جندي، وقد صير هذا قوته أضعاف عددها الحقيقي، بأن قسم الألف عشرات، ثم أمرهم بالسير إلى المعركة وكلما بعدت عشرة تلتها عشرة أخرى، وكان الذين يصلون المعركة، يكبرون ويحملون بعنف. ليقوّوا قلوب إخوانهم، ويؤثّموا الأعداء بأن المدد متتابع.

وفي هذا اليوم أخذ المسلمون فكرة الفيلة، فاستبدلوا بها الجمال، وذلك أن أبناء عم القعقاع حملوا على الفرس بإبل عالية، وقد ألبسوها الجلال والبراقع، ثم وجهوها لحيل الفرس التي لم تألفها، فنفرت منها خيلهم، كما نفرت خيل العرب من الفيلة، وركبتها خيول المسلمين^(٣٥).

مضى اليوم الثالث على ذلك المنوال، ثم شدد المسلمون الضغط في الليلة الأخيرة، المسماة في كتب التاريخ (ليلة الهزير) وواصلوا القتال في نهارها، لعلمهم بأن النصر لمن يطول صبره في النهاية، ولكنهم لم يصنعوا هنا ما صنع خالد باليرموك، فلم يفسحوا للفرس الطريق للفرار، وحصروهم بين الخندق والنهر، فأخرجوهم وحملوهم على الاستماتة، ولعل ذلك الإحراج كان هو السبب في إطالة المعركة، ومن هنا نعلم أن الخطة في اليرموك كان أحكم منها في القادسية، ولذا لم يطل القتال هناك كما طال هنا.

فلما طال القتال، ودام الضغط العنيف، اختلفت صفوف الفرس، وكانت فيلتهم وبالا عليهم، ذلك أن الطبري يروي أنه كان أمام الفيلة فيلان يعلمانها، فانبرى لها الأخوان البطلان «القعاق وعاصم» وبعض بني أسد، ففقتوا عينيها، وقطعوا مشفريهما، فصاحاً صيحة الخنزير، ثم ولى أكبرهما فوثب في العتيق فتبعته الفيلة، وخرقت صف الأعاجم، فعبرت العتيق في أثره، فأنت المدائن في توابيتها وهلك من فيها^(٣٦).

وعند الحطمة النهائية طارت مظلة رستم، ف وقعت في نهر العتيق وتنادى الفرس للعبور وتفرقوا، تأخذهم سيوف المسلمين من كل جانب، فهجموا على النهر فغرق فيه عدد كبير منهم، وبخاصة المقرنون بالسلاسل، وتم الأمر بنصر المسلمين

(٣٥) مروج الذهب ج ٢. ص ٣٢١، ٢٢ ومحاضرات الحضري ج ٠. ص ٢١.

(٣٦) الكامل ج ٦. ص ٢٣٣.

نصراً مبيناً ، فتح أمامهم السبيل إلى سواد العراق ، فتقدموا تباعاً حتى فتحو عاصمتهم (المدائن) وقضوا على ملكهم الذي بذلوا في تدعيمه السنين الطوال .
ويحسن هنا أن نختم تلك الدراسة ، بتحليل بعض المعارك في البلاد الجبلية الوعرة ، التي لم يألف المسلمون ارتيادها كثيراً ، ومن تلك الأمثلة بلاد (بخارى) ومكانها الآن (الباكستان) الحديث ، وكان قد اشتد فيها بأس الأعداء ، وكثر نقضهم للعهد مع المسلمين اعتماداً على حصانة جبالهم ، وشدة البرد شتاء في بلادهم ، وبخاصة على من يحاصرهم ، وقد تمكن أخيراً القائد البطل « قتيبة بن مسلم الباهلي » من فتح عاصمتهم ، وثبت قدمه في بلادهم ، وكان العضد الأيمن للحجاج في بلاد المشرق كلها^(٣٧) .

فتح مدينة بخارى

لقد لقي قتيبة في إقليم بخارى كثيراً من المشقة ، وعنيفاً من المقاومة التي كانت تخرجه في كثير من الأحيان ، ولكنه لطول مكثه بتلك البلاد عرف مسالكها ودروبها ، وعرف كيف يتجنب غدر الأعداء فيها ، وعلم القائد بأرض المعركة خير معين له فيها .

يروى « ابن الأثير » أن قتيبة لما أراد حصار المدينة ، كتب للحجاج بنجرها فطلب إليه أن يصورها له رسماً ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه : أن تب إلى الله جل ثناؤه مما كان منك ، واثماً من مكان كذا وكذا ، لنقط عينها له في كتابه ، وكان مما قال له أيضاً محذراً من الجبال ، ومنعطفات الوديان : « وإياك والتحويط ودعني من ثنيات الطريق »^(٣٨) . وذلك لأن العربي يجيد القتال في الأراضي المنبسطة ، أكثر من البلاد الجبلية ، ومع ذلك استطاع المسلمون فتحها بالحكمة والشجاعة .

تقدم قتيبة لحصار المدينة — وليس أمامي من النصوص ما يسعف برسم صورة واضحة لها — فتلقاه أهلها بالمطاولة والصبر ، لأنهم كانوا قد استنجدوا بجيرانهم من الأتراك والصغدي ، فهم على يقين من قدومهم لنصرتهم ، وفك حصار المسلمين عنهم . فلما جاء المدد خرج المحصورون للقتال ، يريدون أن يطبقوا على المسلمين بينهم وبين المدد المعسكر حولهم ، وهنا جال المسلمون جولتهم المعروفة ، وأسرعوا بالانسحاب لتحاشي الإطباق عليهم ، وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم كما يقول « ابن الأثير »^(٣٩) . وظن الأعداء أنهم قد هزموا المسلمين .

ولكن هذا الانسحاب كان براعة حربية ، ومهارة مدبرة ، يُحمد عليها قتيبة فبه يستطيع أن يعيد تنظيم صفوفه ، ويعدل خطته لتناسب الحال الطارئة ، وفعلاً عدل خطته ، وركّزها في أن يترك الحصار ، ويطوق الترك بجناحي جيشه ، في الوقت الذي يضغط قلب الجيش عليهم ، فلما فعل ذلك انهزم الترك ، وارتدوا على مواقعهم الأولى ، ثم ثبتوا على مرتفع من الأرض ، يفصله عن « قتيبة » نهر صغير ، ووقفوا

(٣٨) انظر الكامل ج ٤ . ص ٢٥٧ .

(٣٩) الكامل ج ٤ . ص ٢٦٠ ومحاضرات الحضري ج ١ . ص ١٧٣ ، ٧٤ .

يتحينون الفرصة للهجوم ، ومعاودة الكرة مرة أخرى .

هنا تجلت شجاعة بنى تميم ، وكانوا طليعة قتبية ، وتجلت مهارة زعيمهم « وكيع » وسرعة بديته ، وإحكام خطته ودقتها ، وأعاد للأذهان موقف القعقاع يوم عبور دجلة .

فإنه أمر فرقة من أبطاله الفدائيين فاقتحموا النهر سباحة بنحيوهم ، ليعرفوا الطريق المؤدى إلى الترك في غفلة منهم ، ثم عقد للباقيين جسراً خشبياً عبروا عليه ، وبعد أن عبر الجند واستراحوا قليلاً ، تقدموا للعدو وهو في غفلة عنهم .

ثم كانت خطة قتبية في قتال الترك تتلخص ، في أنه أمر قائد الخيالة بأن يناوشهم القتال ليشغلهم عنه ، في الوقت الذي يتقدم فيه بالجيش كله ، وهم عنه مشغولون ، فيصدمهم الصدمة القاضية في هجومه الخاطف ، وقد تم له ذلك فعلاً فهجم عليهم من حيث لا ينتظرون ؛ لأنهم كانوا يحاربون خيالاته ، وأخذتهم رماح المسلمين وسيوفهم ، فلاذوا بالفرار بعد أن جرح ملكهم وجرح ابنه ، وأخيراً تم لهم فتح المدينة^(٤٠) بفضل حسن القيادة ، وسرعة تعديل الخطة ، حسب ما تمليه ظروف المعركة .

ومهما يكن الأمر فالتنظيم الحربي ، وتخطيط المعارك ، ليس له قاعدة مطردة يسير القائد عليها ، ولا يتجاوزها إلى سواها ؛ وإنما هي قواعد اجتهادية ، يغلب تطبيقها ويكثر دورانها في المعارك ، والواقع أن الموقف قد يوحى للقائد أحياناً بخطة لم تكن في حسابه ، وقد توجهه المصادفات وجهة غير التي كان يقصدها ، بل إنه قد يدع خططه جانباً ، ويعمل بوحى من ظروف المعركة وطبيعة الحال ، وقد يربح قائد بالمصادفة ، ويخسر إذا طبق عملياته الحسابة الدقيقة .

وعلى هذا فالتكتيك الإسلامي عبارة عن عادات حربية متعارفة ، كانت تفضل في كثير من الحالات ، وكان يفضل عليها غيرها في بعض الحالات ، وقد أثبتت الأيام أصالتها ونجاحها ، لأن نجاح الدولة يعنى نجاح النظم التي اتبعتها ، وسلامة الوسائل التي طبقتها ، وقد لمسنا نجاح المسلمين في إقامة دولتهم الخالدة ، فدل ذلك على سلامة ونجاح تنظيماتهم الحربية وغيرها .

(٤٠) المصدر الأول نفسه .

(٤١) نفس المصدر والصفحة .

ج - نظام الصف للمعركة :

ورث المسلمون عن المناذرة والغساسنة ، تقسيم الجيش إلى خمسة أقسام : المقدمة والجناحين والقلب والساقة ، ولذا قال أهل « خير » لما فاجأهم الرسول بجيشه « محمد والحميس » لتألفه من خمس فرق ، وكان القائد في العادة يتخذ مركزه في القلب ، لا يتركه إلا عند المرور على المقاتلين لتحريضهم ، أو عند اختلال صفوفه حيث يباشر القتال بيده ، وعلى هذا النظام رتب الرسول أصحابه في فتح مكة (٤٢) أما في « بدر » حيث كانوا قلة ، فقد سواهم صفوفًا ، وجعل لهم ميمنة وميسرة (٤٣) فقط ، بلا مقدمة ولا مؤخرة .

وكان النظام المتبع عند المسلمين ، أن يصفوا كل جزء من أجزاء الجيش صفوفًا منتظمة ، كأنها صفوف الصلاة ، بحيث لا يتقدم أحد من مركزه أو يتأخر إلا بأمر القائد ، فإن فعل عرض نفسه للعقاب البدني وغيره (٤٤) ، وقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمسك بيده عصا قصيرة ، يسوى بها صفوف أصحابه ، وكان « على » يرتبهم في الصفوف كأنما يغرسهم في الأرض غرسًا ، فيثبتون كأنهم بنيان مرصوص (٤٥) . وينبغي أن يتدبر المرء هنا التشابه التام بين نظام المقاتلين في الميدان ، ونظام صلاة الجماعة بالمسجد ، ففي كلتا الحالتين تسوى الصفوف بدقة ويسود الصمت ، ولا يرتفع الصوت إلا بالتكبير ، وتسد ثغرات الصف الأول من الصف الذي يليه ، وينحضع المصلون لإشارة الإمام خضوع الجند لأمر القائد ، إلى غير ذلك من غض النظر ، وذكر الله واستشعار خشيته ، وهي أمور تبيح للمرء أن يفهم ، أن المشرع قد يكون راعى فيما راعى عند فرضية الصلاة ، أن تكون تمرينًا يوميًا مستمرًا على وقفة الميدان ونظامه ، وإذا كانت الصلاة أساس القوة الروحية فالقتال أساس القوة المدنية ، وبهما معا تقوم وتتقدم الحكومات الإسلامية .

هذا ، والذي يفهم من المراجع المختلفة ، أن نظام القتال بالصفوف كان

(٤٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٩ .

(٤٣) حتى - تاريخ العرب تعريب نافع ص ٢١٣ .

(٤٤) فون كريمير : ص ٣٢١ ومخطوط الهرثمي ورقة ٤ .

(٤٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٠ .

مفضلاً عند المسلمين ، وأنهم ظلوا يعملون به إلى أن أبطله «مروان بن محمد» واستبدل به نظام «الكراديس»^(٤٦) ، ويكفى أن الله امتدح الثابتين في صفوفهم ، وسمى بعض سور القرآن «سورة الصف» وقد خص «ابن خلدون» في مقدمته العرب والبربر بطريقة (الكر والفر) وخص العجم جميعاً بطريقة (الزحف صفوفاً) وهي الطريقة المفضلة عنده^(٤٧) ، ولكنه اعترف في موضع آخر^(٤٨) بأن المسلمين أولاً كانوا يقاتلون زحفاً ، وعلل ذلك بأنهم أرادوا أن يقاتلوا أعداءهم بمثل نظامهم ، وأنهم كانوا مستميتين في جهادهم ، والزحف عنده إلى الاستماتة أقرب ، وقد جعل هذا الغموض الدكتور «كريم» ينقل عنه ، أن العرب اتبعوا في القتال طريقتين : طريقة الكر والفر وطريقة الزحف جميعاً^(٤٩) . أى أنهم عملوا بالنظامين ، ولكن كيف يعملون بهما ؟

ويمكن إزالة هذا الغموض ، إذا فهمنا أنه يقصد بالعرب العرب الجاهليين ، أو عرب (بنى هلال) الذين حاربوا البربر في زمانه ببلاد المغرب ، كما يمكن فهم عبارة «كريم» على أن الطريقتين كانتا تستخدمان في المعركة الواحدة ، بمعنى أنهم كانوا يزحفون صفوفاً ، وقد صفوا خلفهم أمتعتهم ورواحلهم ، فإذا اختلت الصفوف لأى سبب ، انسحبوا إلى رحالهم ، فأعادوا تنظيم صفوفهم للقيام بهجوم جديد ، وهذا ما كان يسمى عندهم (الكرة بعد الكرة) أو (الرجعة بعد الجولة) والغرض من الجولة ، أن تُعرف القبيلة المتسببة في الفرار ، لأنهم كانوا يصفون جندهم على أساس قبلى ، فيعين القائد لكل قبيلة مركزها ، ويجعل زعيمها قائدها ، لتبارى القبائل في إظهار بطولتها^(٥٠) ، وتخزى أن يهزم الجيش بسببها .

وإذا عرفنا أن المسلمين كانوا يفضلون نظام الصف ، فيحق لنا أن نعرف عدد هذه الصفوف ، والسلاح الذى كان يستخدم فى كل صف .

(٤٦) حتى تعريب نافع تاريخ العرب : الكتاب ٣ ص ٤٨ ، ٤٩ ، وابن خلدون ج ٢ ص ٢٢٩ وقد ذكر أنه أبطل زمن «مروان بن الحكم» فى قتاله «الضحاك بن قيس» ولعله خطأ مطبعى والمقصود «مروان بن محمد» .

(٤٧) المقدمة ص ٢٢٦ ، ٢٧ .

(٤٨) نفس المرجع ص ٢٢٨ ، ٢٩ .

(٤٩) V. Kremer. p. 321.

(٥٠) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٩ ، والكامل ج ٢ ص ١١٩ .

يذكر الدكتور «أومان» أن البيزنطيين كانوا يرتبون قواتهم في صفين ، خلفهما صف ثالث لحراسة الجانبين ، بينما تعود العرب أن ينظموا أنفسهم في صف واحد طويل^(٥١) ، ولكن الذى يفهم من المصادر العربية ، أن المسلمين كانوا يستخدمون صفين أو ثلاثة فكثيراً ما نجد فيها قولهم « وسوى الرسول أصحابه صفوفاً » وكذلك « ومشى خالد بين الصفوف يحرض القوم » فذكرها بصيغة الجمع قد يشير إلى أكثر من صف واحد في المعركة .

يضاف إلى ذلك ما صرح به « الطبرى »^(٥٢) من أن كل قسم من أقسام الجيش بالقادسية نظم في ثلاثة صفوف : فى الأول وقف الفرسان ، وفى الثانى وقف الرّجال أصحاب الرماح والسيوف ، وفى الثالث وقف الرماة ، ويفهم من هذا الترتيب أن الفرسان كانوا يقفون أماماً وإلى الجانبين ، وذلك لتمكين الرماة من مزاوله عملهم ، وللقيام بحماية الجانبين ، فقد روى « البلاذرى » أن المسلمين اعتادوا أن يجعلوا على الخيالة أميراً خاصاً ، يعهدون إليه بحماية الجانبين^(٥٣) . بينما كان يقوم بحراسة فرسانه رماة من العدائين الإفريقيين أشباه العراة ، الذين يلازمونهم فى الجولات القصيرة جرياً على الأقدام ، وفى الحملات البعيدة على الخيل يركبونها ، متخفين من السلاح إلا من القوس^(٥٤) .

وقد نظم «أبو عبيدة» جنده يوم اليرموك فى ثلاثة صفوف أيضاً ، ولكنه لم يجعل الفرسان فى صف واحد كما صنع « سعد » وإنما فرقهم على الصفوف الثلاثة^(٥٥) ، بحيث يقفون على الأجانب ؛ لمنع أى حركة التفاف من العدو ، أو ليقوموا هم بحركة التفاف سريعة عليه ، عند سnoch الفرصة لذلك ، وكذلك اعتاد القائد الأموى «عتاب ابن ورقاء» عندما كان يحارب « شيبيا » الخارجى ، أن يصفّ جيشه ثلاثة صفوف ، فيجعل أصحاب السيوف فى صف ، وأصحاب الرماح فى صف ، والرماة فى صف ، ولكن «ابن الأثير» الذى روى هذا الخبر فى حوادث ٧٧ هـ ، لم يوضح لنا من كان

(٥١) تاريخ فن الحرب ص ٢١٣ .

(٥٢) تاريخه ج ٤ ص ١٣٠ .

(٥٣) فتوح البلدان ص ٣٦٤ .

(٥٤) V. Kremer pp. 330-33 .

(٥٥) الواقدي : فتوح الشام ج ١ ص ١٣٥ .

من القوات في الصف الأول ، ومن كان في الصفوف التالية ، كما وضع الطبرى في روايته السابقة .

هذا ، والذي عليه المؤرخون قديماً وحديثاً ، أن العرب لم يبطلوا نظام الصف إلا في عام (١٢٨ هـ - ٧٤٦ م) حيث أمر « مروان بن محمد » باتباع نظام الكراديس ، الذى كان متبعاً عند الفرس والروم ، ولكن النصوص تدل على أن المسلمين اتبعوا ذلك النظام قبل ذلك التاريخ ، لأنهم كانوا يحاربون أعداءهم بنفس نظامهم « فخالد بن الوليد » يوم اليرموك قسم جيشه إلى كراديس ، معتقداً أنه ليس أكثر في رأى العين منها ^(٥٦) ، لأن الكراديس تقف في صفوف ، بينها مسافات متباعدة ، وقد عمل بهذا النظام أيضاً ، « خالد بن سعيد » في فتح الشام ، مقلداً فيه الروم كما عمل به « سعد بن أبي وقاص » يوم القادسية ^(٥٧) .

ولعل تفصيل « الهرثمى » وشرحه لنظام الكراديس ، ومطابقة ذلك للنظام البيزنطى ، يدلنا على أنه كان تكتيكاً شائعاً بين المسلمين في القرن الثانى ، فقد ذكر أن كل كردوس كان ينظم صفوفاً ، بحيث يكون بين جناحى الميمنة والميسرة ، طريقان لمرور الخيل ، ولرور أصحاب المبارزة ، فيكون بين الصفوف فرجة عند صاحب الميمنة ، وفرجة عند صاحب الميسرة ، وفرجة عند صاحب القلب ^(٥٨) .

ويمكن التوفيق بين هذه النصوص وإجماع المؤرخين السابق ، بأن المسلمين ظلوا يستخدمون نظام الصف ونظام الكراديس معاً ، يفضل بعض القادة هذا ، ويفضل بعضهم ذاك ، إلى أن جاء « مروان بن محمد » فأبطل نظام الصف رسمياً وبصفة عامة ، وصار إلى الكراديس ، وهو النظام الذى كان شائعاً في زمنه .

ومع هذا ، وبعد أن عرف المسلمون فضل نظام الكراديس ، وتناسى كثير منهم نظام الصف وحمل النساء معه ، رأينا بعض القادة يلتزم الصفوف ولا يهملها ، فإبراهيم الإمام « كان في حروبه يلتزم ذلك ، ويعتد نظام الكراديس بدعة ، ويقول : « لا نصف إلا صف الإسلام » وكانت النهاية طبعاً هزيمته أمام نظام الكراديس ^(٥٩) .

(٥٦) الطبرى ج ٤ ص ٣٣ والكامل ج ٢ ص ١٧٢ .

(٥٧) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٥ وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٦٧ .

(٥٨) أنظر مخطوط الهرثمى ورقة ٢٠ والدكتور « أومان » ص ١٧٩ .

(٥٩) الكامل ج ٥ ص ٣٢٩ وتاريخ التمدن ج ١ ص ١٦٨ .

وكذلك كان قواد « الأمين » يرتبون قواتهم صفوفًا ، بحيث تقف الكتائب بين كل منها والأخرى رمية قوس ، فأخفق نظامهم هذا أمام نظام الكراديس ، الذي كان يلتزمه « طاهر بن الحسين » قائد المأمون ، وبذا ساد هذا النظام في الجيوش الإسلامية خلال القرن الثاني بوجه عام ، وإن كان نظام الصف ظل معمولًا به قليلًا .

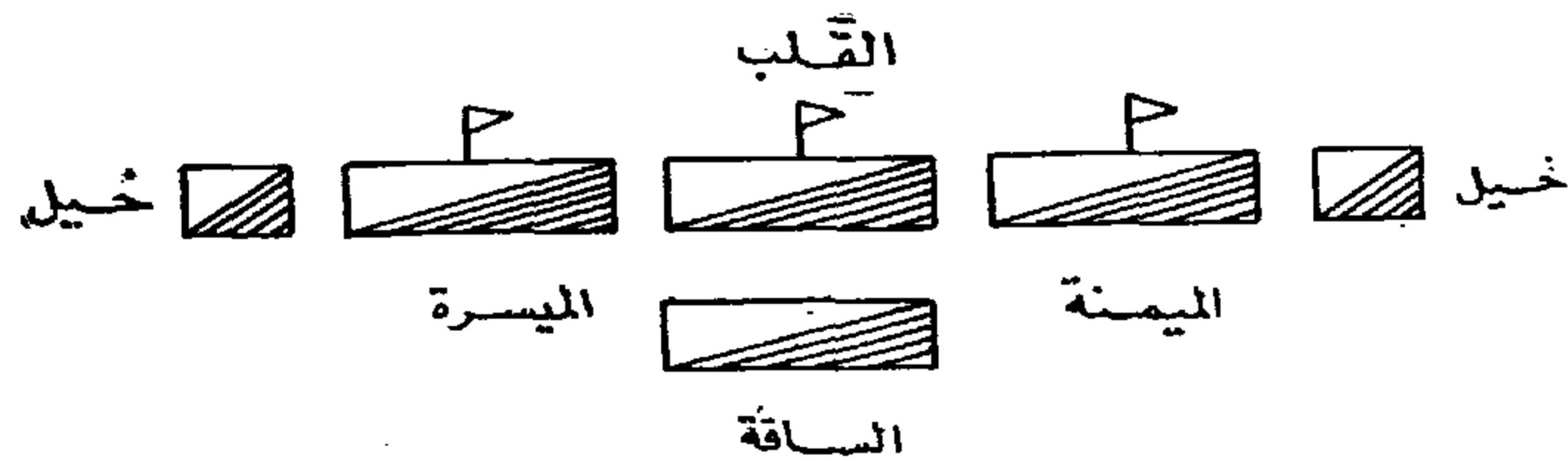
التشكيل العام للكتائب :

إنما تعرف مهارة القائد التكتيكية ، بحسن توزيعه لقواته في الميدان ، واختيار نوع الصف المناسب لأرض المعركة ، وفي الحروب الحديثة يصف بعض القادة جيشه على شكل حرف (T) وبعضهم يصفه على شكل هلال (ب) وبعضهم يصفه على شكل رأس السهم (↑) وهي تشكيلات لا تعتبر في الواقع حديثة ، فإن المسلمين استخدموها في القرن الثاني الهجري ، بدليل أن « الهرثمي » وهو من قواد ذلك القرن ، شرحها في كتابه المخطوط (٦٠) ، فقسمها ثلاثة أنواع ، سماها صفوفًا .

١ - الصف المستوى

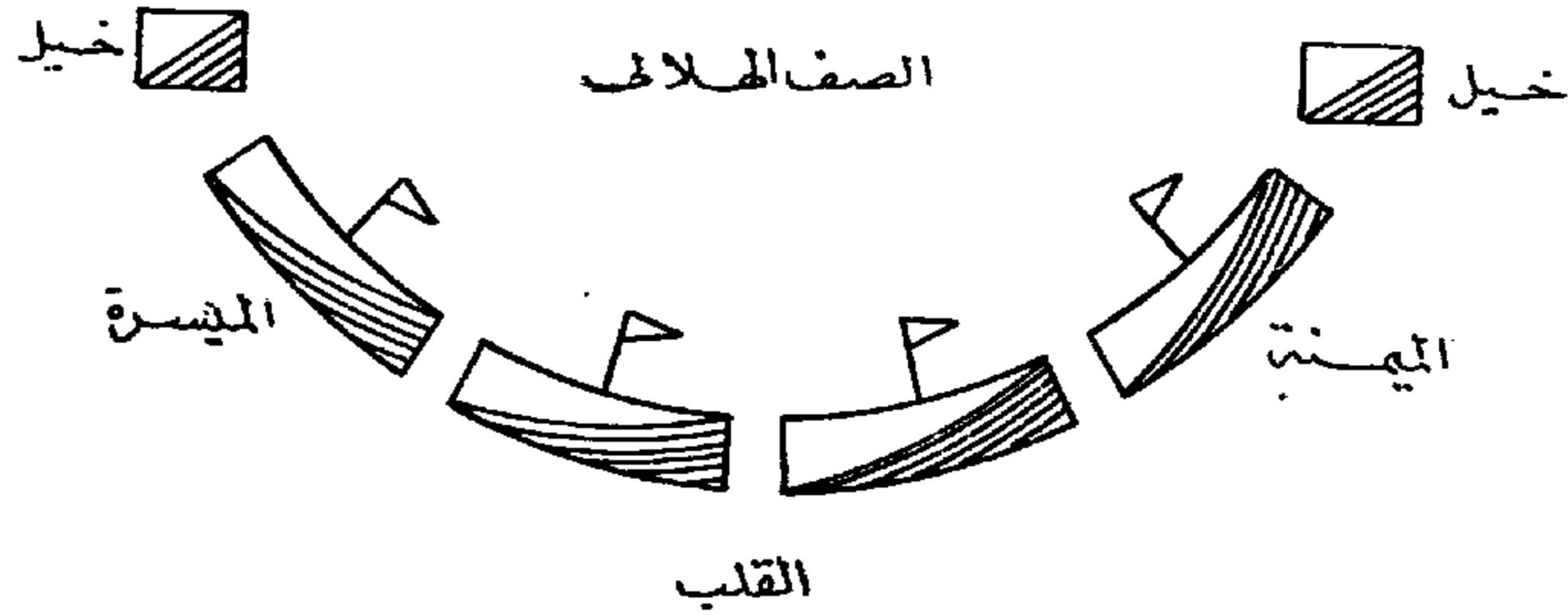
وهو الذي يكون فيه الجناحان والقلب في خط مستقيم ، وهذا أوفق الصفوف وأنسبها للعرب ، ولم يذكر فيه قوات احتياطية خلفية ، كالتشكيل الحديث ، وإنما تقف فيه القوات بعضها بجانب بعض .

الصف المستوى



٢ - الصف الهلالى :

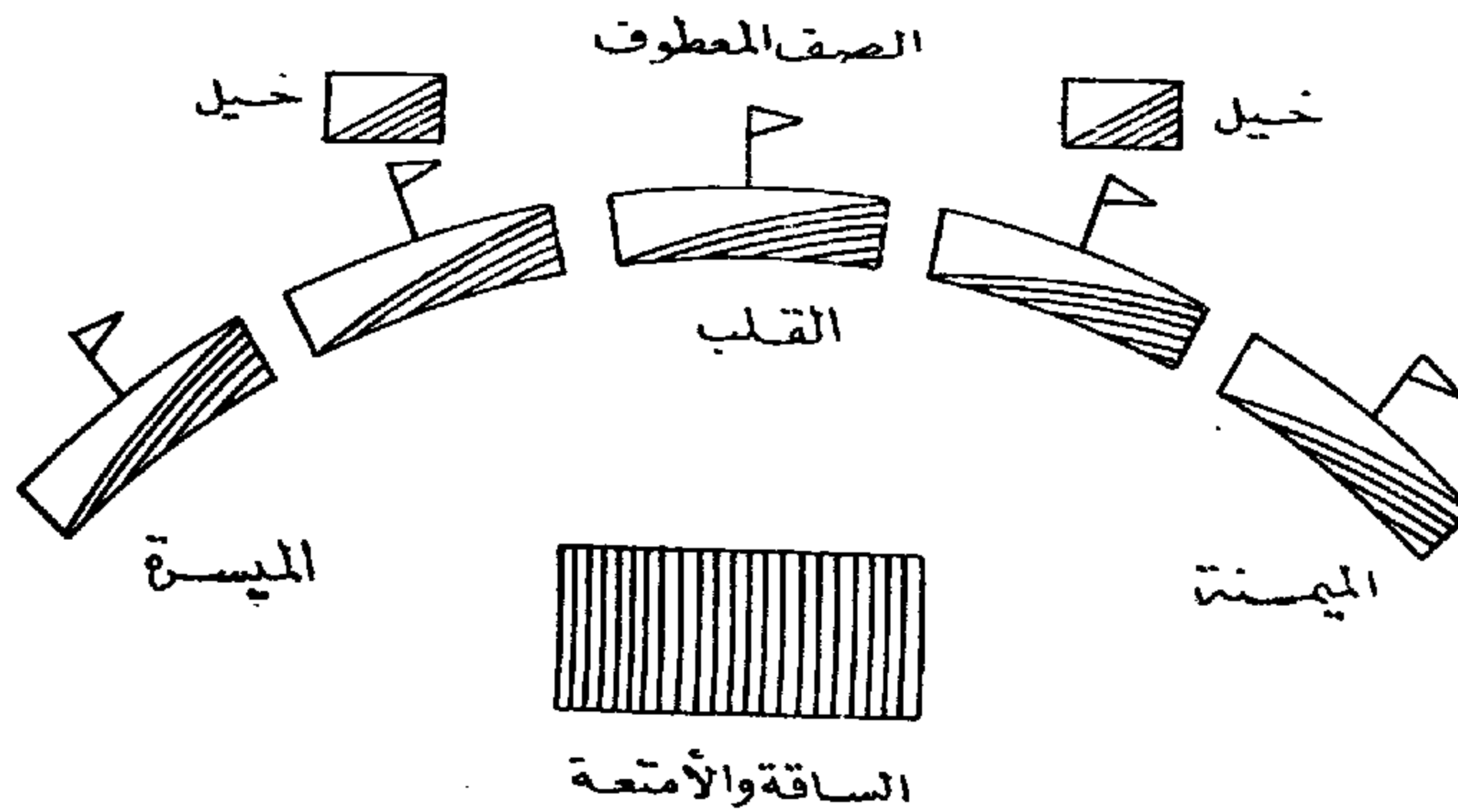
وهو الخارج الجناحين الداخلى الصدر ، وهو أوثق للقلب وأضعف للجناحين ، ولذا كانوا يُصَيرون مع كل طرف من الجناحين الخارجيين ، كردوسا من الخيل المقوية له ، تساعد وتحميه .



٣ - الصف المعطوف :

وهو الداخلى الجناحين الخارج القلب ، وهو أضعف للقلب وأقوى للجناحين (وهو رأس السهم الحديث) ولذا كان يكرهه العرب ، ولا يتخذونه إلا عن ضرورة ، وفى هذا النظام يجعلون أهل البأس والنجدة ، فى الميمنة والميسرة ؛ ليكون ذلك تقوية للقلب ، فإن لم يمكن ذلك ، عمدوا إلى تقوية القلب بكردوسين من الخيل ، بحيث يكونان أمامه قليلا ، يرُدان عنه أى هجوم .

وكان يخصص فى مؤخرة كل تشكيل من هذه التشكيلات ، مكان للأمتعة ، ومكان للصلاة ، عليها حراس أشداء فى العدة والسلاح ، وجماعة من الفرسان لا فتراص غير العدو ، أو سدّ الخلل إن كان عند الجولة .



د - العمل عند اللقاء في المعركة :

اعتاد المسلمون في معاركهم ألا يبادروا بالهجوم ، عملاً بنصح الرسول في قوله « لا تمنّوا لقاء العدو فعسى أن تُبْتَلَوْا بهم » وكان الخلفاء يعاقبون من يتسرع في الحرب ، فقد غضب « أبو بكر » على « شرّ حبيل وعكرمة » لتسرعهما في حروب الردة ، كما غضب على « خالد بن سعيد » لتسرع في حرب الروم والشام وهزيمته بسبب هذا التسرع ، ووجه إليهم لوماً قاسياً ، ونهاهم عن القدوم عليه^(٦١) لئلا يضعفوا روح الجند ، وكان « عمر بن الخطاب » يَحْذَرُ المتسرعين إلى القتال من الإمارة ، وكان يقول : « إن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيّث ، الذي يعرف الفرصة والكف^(٦٢) » فالمراد بالثريث هنا انتهاز الفرصة لا التواني والغفلة .

فإذا اضطر القائد إلى القتال ولم يجدْ عنه مندوحة ، نظم قواته طبقاً لحالتي الشمس والرياح ، فلا يجعلهم يقاتلون والشمس في عيونهم ، أو حين هبوب الرياح في وجوههم ، فإن استطاع أن يجعل موقعه بحيث تهبّ الرياح من خلفه ، وإلا استدار منحرفاً بحيث تهب على جانبه^(٦٣) .

وفي المستطاع تقديم وصف إجمالي للمعركة الإسلامية ، على ضوء ما يؤخذ من المصادر المختلفة وصفاً يبين كيفية الزحف ، وإلقاء الأوامر ، والعمل عند الهجوم والعمل في حالتي النصر أو الفشل :

١ - إلقاء الأوامر المختلفة :

كان قائد المعركة يتخذ موقفه في قلب الجيش ، فيقيم في عريش أو خيمة على مرتفع من الأرض ، منه يلقي الأوامر ، ويراقب سير المعركة ، ويصلح الأخطاء التي يراها ، ولا يشترك في القتال إلا عند الضرورة ، ولم يعرف قادة المسلمين الأسرّة يجلسون عليها ، إلا عن طريق « معاوية » الذي كان يتشبه بالفرس والروم ، حيث كان يصفّ حول سريره حراساً معقّلين بالعمائم ، كما كان يصفهم كسرى مقرّنين بالسلاسل^(٦٤) ، وكما كان يفعل رستم إذا جلس في طيارته ، يحيط به الفرسان لحراسته .

(٦١) أنظر الكامل ج ٢ ص ١٧٠ والصدّيق لهيكل ٢٦٥ .

(٦٢) الطبري ج ٤ ص ٥٧ والكامل ج ٢ ص ١٨٢ .

(٦٣) الكامل ج ٤ ص ٢٠١ والهرثمي ورقة ٢٥ .

(٦٤) الكامل ج ٥ ص ١٨٩ .

أما الأوامر فكان القائد يلقيها بصوته المرتفع ، إذا كان أصحابه يسمعون صوته ، وإلا أناب عنه من يبلغها لهم ، كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يصنع في بدر وغيرها^(٦٥) ، فلما كثرت جنود المسلمين ، صار القائد أو نائبه يلقي الأوامر في صورة تكبيرات ثلاث ، بينها فترات زمنية متباعدة لإصلاح الشأن ، والاستعداد بالسلاح وغيره ، وعند التكبيرة الرابعة يكون الهجوم العام^(٦٦) للجيش ، وساد العمل بالتكبير فترة من الزمن .

فلما كثرت الجيوش ، وصارت الأصوات لا تسمعها كلها ، اصطاح بعض القادة ، على أن يهزّ اللواء العام للجيش ثلاث هزات : في الهزة الأولى يقضى الرجل حاجته ويتوضأ ، وبعد الثانية يعدّ الجندي سلاحه ويصلح من شأنه ، وبعد الثالثة يكون الهجوم العام^(٦٧) ، والتقدم للعدو .

أما الأوامر الوقتية التي كان يصدرها القائد ، بتقدم طائفة أو تأخر طائفة ، أو إصلاح خطأ ، فكان القائد يلقيها إلى رسله ونوابه شفوية ، أو مكتوبة في بعض الرقاع ، ليبلغوها إلى قواد الكتائب ، فكانت الرسل لا تفتّر بينه وبينهم طول المعركة ، ومراقبته لهم لا تنهى إلا بانتهاءها^(٦٨) .

٢ - بدء المعركة وإدارتها :

إذا ظهر العدو متقدما في أرض المعركة ، أمر القائد المكبرين بالتكبير ، وأمر أصحاب الطبول بالضرب^(٦٩) عليها ، ليعدّ كل إنسان نفسه ، ويأخذ مكانه من الصف^(٧٠) ، فإذا تواقف الجيشان للقتال ، بدأت المبارزة كالعادة بين الأبطال من الجانبين ، تحميسا للقلوب وتشويقا للقتال ، فإذا زحف العدو أمهله رماة المسلمين ، حتى يكون في متناول السهام ، ثم أمطروه وابلا من سهامهم ، وهم جاثون على ركبهم جماعات جماعات ، بحيث تخرج سهامهم مجمعة ، كأنها صادرة

(٦٥) البخارى - شرح القسطلانى ج ٧ ص ١٣٧ .

(٦٦) الطبرى ج ٤ ص ٧٤ ، ١١٦ ، ٢٣٢ والكامل ج ٢ ص ١٨٥ ، ٨٦ .

(٦٧) البلاذرى ص ٣٠٣ والطبرى ج ٤ ص ١١٦ .

(٦٨) الطبرى ج ٤ ص ١١٣ والكامل ج ٥ ص ١٨٩ .

(٦٩) V. Kremer. p. 333 .

(٧٠) مخطوط الهرثمي ورقة ٢٦ .

عن قوس واحدة^(٧١) .

فإذا أكثبهم العدو وقرب منهم ، أشرعوا رماحهم في صدره ، بحيث تؤلف سوراً شائكا يمنع تقدمه ، وهنا تشتبك الرماح ، فيشرع الرجال الرماح في صدور الرجال ، وقد حُصِنُوا بالدروع الواقية ، ثم يعتلجون ويتدافعون فلا ، يزحزح أحدهم الآخر إلا إذا تغلب قوى على ضعيف ، أو ثقیل على خفيف ، أو تقصفت الرماح من شدة الضغط عليها ، ولقد روى شاهد عيان ، أن الرماح كانت لصلابتها ، تكون جسرًا بن الصفيين ، يحمل الخيل لو سارت عليه .

ثم عند صدور الأمر بالهجوم العام ، يصير الجند إلى التصافح بالسيوف يتعقبون بها الرؤوس والأطراف والمفاصل ، في حين تُرفع أمامها التروس والدروع الحديدية فتسمع لوقع الحديد على الحديد صوتا كأنه صوت الحدادين^(٧٢) ، فإذا دام الالتحام واختلط المتقاتلون ، طلب كل جندي أية وسيلة ، يتغلب بها على خصمه ، فقد يضربه بالدبوس أو البلطة ، وقد يطعنه بالخنجر ، وقد يصير بهما الأمر إلى المعانقة ، والضربات المعجزة ، حتى يصرع القوى الضعيف ، فيقتله أو يأسره^(٧٣) . وعمل الخيالة عند البدء في المعركة ، يكون بالقتال والكر ، عن طريق المبارزة أو غيرها ، فإذا حمى الوطيس ، فوظيفتها حماية جانبي الجيش ، أو تهديد أجناب العدو ؛ لأن الخيل لا عمل لها مع الرجالة كما روى « ابن الأثير »^(٧٤) ومن عملها أيضاً محاولة القيام بحركة التفاف حول العدو ، أو إحباط تلك الحركة من فرسانه إذا حاولوا القيام بها ، ومن عملها أيضاً التقاط الفارين ، وتتبع المهزومين في نهاية المعركة ، حيث تكون سرعة الخيل عاملاً فعالاً ، لا تقابل به سرعة الرجالة ، التي لا تُسعف الفارين .

أما كُتائب المشاة في المعركة فهي بن كَرّ وفرّ ، ومدّ وجزر ، يتقدم أحدهم في ثبات ، سيفه في يمينه وترسه في شماله ، وقد كشر عن أنيابه وعض على نواجذه ، وقطب عن جبينه ، ونظر ببعض عينه ، وأخفى صوته إلا همهمة في الصدر ، أو تلمظاً

(٧١) شرح القسطلاني ج ٥ ص ٩٤ وعيون الأخبار ج ١ ص ١٠٧ .

(٧٢) الطبري ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٧٣) نفس المرجع ص ٢١٠ ، ج ٤ ص ١٢٥ ، ٩١ ، كريم ص ٣٣٠ .

(٧٤) الكامل ج ٥ ط ١ ص ٢٥٨ .

بالشفاه ، أو تهامساً بالحديث ، فكثرة الضجة عندهم من أسباب الفشل^(٧٥) ، ولأن الصمت يساعد على الضبط ودقة التنفيذ ، فإذا أُجبرت القوات على الرجوع ، أو أمرها به قائدها ، رجعت بانتظام بحيث تكون صدور الجند إلى العدو ، منحرفين بأجسامهم ، مختلسين النظر إلى الخلف ، حتى يعودوا إلى مواقعهم^(٧٦) ، يشملهم الوقار والسكون ، ولا ترتفع أصواتهم بالتكبير إلا عند حدوث حدث جلل ، كهجمة عنيفة ، أو قتل قائد الأعداء ، أو فرارهم نهائياً ، أو فتح حصنهم ، حيث يكون للتكبير أثره في خلع القلوب ، وإضعاف روح المقاومة ، فلا يكون كأصوات الفرس الدائمة التي تفرع من يجهلها ، ولا تضير من تعودها^(٧٧) ، لأنها لا غاية لها ، ولا هدف منها .

٣ — خاتمة المعركة :

فإذا دنت المعركة من نهايتها ، زاد ثبات المسلمين ، واشتد ضغطهم على عدوهم متحليين بالصبر الطويل ، فإن انهزم أمامهم ، أسرع فرقة (المجرّدة) بتعقب الفارين بالرماح والسيوف ، وقد تخففت من الدروع وكل ما يثقلها ، وبقيّة الجيش يأخذ في جمع الغنائم والسبايا وتسليمها إلى صاحب الأقباض ، فإذا لجأ الأعداء إلى حصونهم ، فلا يشغلون أنفسهم بحصارها ، إلا بعد التقاط الخارجين عنها ، ليأمنوا جانبهم وقت الحصار^(٧٨) وقد كانوا يجدون صيدا ثميناً عند المطاردة ، في المقرّنين بالسلاسل من الفرس أو الروم ، حيث يقتلون منهم ما شاءوا ، لأن الواحد منهم كان إذا هوى عند الفرار ، هوى بإخوانه المربوطين معه في سلسلته ، فقد جرت عادة الفرس والروم أن يربطوا رماثهم جماعات في سلاسل حتى لا يفروا ، وكان هذا النظام وبالا على الجيش وعليهم عند الهزيمة ، لأنهم كانوا يعوقون حركته وحركتهم^(٧٩) .

(٧٥) عيون الإخبار ج ١ ص ١٠٨ ، ١٠ والطبرى ج ٤ ص ٧٣ ، ج ٥ ص ٣٠٢ ، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠ ومقدمة ابن خلدون ص ٢٣٠ .

(٧٦) مخطوط الهرثمي ص ٢٨ ، نهج البلاغة ط الحلبي ج ٢ ص ١٦ .

(٧٧) الكامل ج ٥ ص ٧٦ .

(٧٨) الطبرى ج ٣ ص ١٣٣ ، ج ٤ ص ٦٤ ، ٢٤٠ .

(٧٩) البلاذري ص ٣٣ ، ٣٠٣ ، وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ٥ ، ٦ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ويبدو أن ذلك النظام كان يستعمل بكثرة عند الروم ، لضعف الوطنية في جنودهم ، الذي كانوا يجلبون

أما إذا شعر المسلمون بِرُجْحَانِ كفةِ عدوهم ، لكمين من جنده فاجأهم ، أو لمفاجأتهم بسلّاح جديد لم يألّفوه كالقبيلة يوم القادسية ، أو لخطأ حربيّ وقع منهم ، كما حدث في معركة (الجسر) فإنهم كانوا في تلك الحال يقدمون الفدائيين الانتحاريين منهم ، فيعقرون دوابهم ويتّرجلون عنها ، ويكسرون أعماد سيوفهم حتى لا تُحدثهم نفوسهم بالعودة ، ثم يبحثون على ركبهم^(٨٠) ، وقد أشرعوا الأسنة في نحور أعدائهم ، ليغطوا انسحاب إخوانهم ، حتى لا تكون هزيمتهم منكراً ، وكانوا يطلقون على هذه الجماعة « كتيبة الموت »^(٨١) المعدة لعظائم الأمور ، كأنهم الفدائيون حديثاً ، وقد فعلت هذه الجماعة الفدائية الأعاجيب في معركة (الجسر) عند تغطية انسحاب المسلمين ، وفي عبور نهر دجلة بالخيال لفتح (المدائن) .

فإذا انسحب كل من الفريقين بانتهاء المعركة ، انصرف كل منهما ما أمكنه إلى نقل الجرحى ، ودفن الموتى ، وإحصاء المفقودين في المعركة ، وقد ذكر « المسعودي »^(٨٢) طريقة كانوا يتبعونها في الإحصاء إذا كثر قتلاهم ، وهي أن يبحثوا عن القتلى ، ويغرسوا بجوار كل قتيل قصبة من القصب الفارسي (الغاب) ، ثم يجمعون القصب بعد ذلك ويعدّونه ، فإذا كان اسم القتيل مسطوراً في الديوان عرفوه ، وإلا لم يُعرف ضاع اسمه كغيره من المتطوعين ، الذين كثيراً ما كان يجهل الناس مصيرهم .

وهنا يصحّ التعرض إلى تهمة ، وجهها للعرب « الدكتور أومان »^(٨٣) فإنه زعم : أن العربي إذا لم يلتحم في قتال عادي ، فإنه يفعل كل ما يستطيع ليقوّ فرسه من الضرر ، وأنه لا يثبت لحظة واحدة ، إذا رأى حصانه - الذي يعتز به فوق كل شيء - يرمى بالسهم من مسافة بعيدة ، وفي الحق أن العربي كان يعتز بفرسه ، وقد يزيد اعتزازه به إذا رأى الروم يرمونه بسهم مسمومة غادرة ، كما كانوا يفعلون في

من مستعمرات مختلفة ، فهم لا يدافعون عن وطنهم الأصلي .

(٨٠) مخطوط الهرثمي ورقة ٣٠ .

(٨١) الطبري ج ٣ ص ٦٧ ، ج ٤ ص ٦٨ ، ٦٩ والكامل في التاريخ ج ٢ ص ١٨٤

والكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٨٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٤٦ .

(٨٣) Dr. Oman p. 214 .

معاركهم ، وكما نقل المستشرق « كريمر »^(٨٤) عن الإمبراطور الرومى (« ليو ») ولكنهم كانوا عند الشدة يضحون بأرواحهم فضلاً عن خيلهم ، التى كثيراً ما كانوا يقتلونهم بسيوفهم مع اعتزازهم بها ؛ لأنهم يعتزون بالجهاد أكثر منها ، راجين الفوز بالنصر أو الشهادة ، فكيف نقول بعد هذا إن حفاظهم على خيلهم ، كان يحملهم على الفرار من وجه عدوهم ؟

هـ - بعض الحيل لكسب المعركة :

إنما تظهر مهارة القائد الحربية بسرعة خاطرة ، وحسن تصرفه فى حل المشكلات ، وقد كان كثير من قادة المسلمين يصنع العجائب إذا اختلت صفوفه ، أو أراد أن يستعجل النصر ، ويصح أن نكتفى هنا ببعض الأمثلة الإسلامية ، حيث لا يتسع المجال للكثير منها : فمن ذلك موقف « خالد بن الوليد » فى معركة « مؤتة وعقرباء » ذلك الموقف الذى يشهد له بالبراعة الحربية ، والفن التكتيكى الناجح ، فإن المراجع تذكر أنه لما آلت إليه القيادة فى معركة « مؤتة » بعد أن قُتل ثلاثة قواد قبله ، ورأى قلة أصحابه أمام جموع الروم الزاخرة ، بنى خطته على الانسحاب المنظم ، فثبت بقواته أمامهم حتى المساء ، ثم بات يعدل مواقف الجند ليلاً ، فنقل الميمنة إلى اليسرة ، واليسرة إلى الميمنة ، وجعل الساقة فى موضع القلب ، والقلب فى موضع الساقة ؛ ليظن الروم من تغير الأشكال أن مدداً أتى المسلمين ليلاً ، ثم إنه رصد جماعة خلف الجيش ، يجرون بخيلهم فى دائرة واسعة ، ويكثرون الجلبة ويشيرون الغبار ، ليوهنوا العدو بأنهم مدد قادم للمسلمين . ثم اندفع هو فى « فرقة الموت » إلى صفوف الروم ، بينما كان بقية المسلمين ينسحبون ، معتمدين على أنه يغطى انسحابهم ، فخاف الروم الكمين ولم يتعقبوه ، ونجا بأصحابه بفضل ذلك التكتيك الرائع^(٨٥) الذى استحق به أن يعدّ منتصراً ، ولذا قال الرسول فيه وفى أصحابه لما اتهمهم الناس بالفرار : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار » ، وهذا القول يذكرنا

(٨٤) V. Kremer. p. 331.

(٨٥) العقاد عبقرية خالد ص ٨٤ ، وطه الهاشمى فى خالد ص ٦٥ ، وهنا يصح أن يقارن بانسحاب خالد ، انسحاب المارشال « ناي » بالجيش الفرنسى فى أوائل القرن ١٩ أمام الجيش الروسى وبانسحاب الإنجليز أمام الألمان فى معركة « دنكرك » فى الحرب العالمية الثانية الذى يعدونه نصراً لهم .

بانسحاب القائد الألماني « روميل » أمام قوات الحلفاء في الحرب الثانية ، بشمال إفريقيا ، فإنه كوفئ على انسحابه البارع ، ونجاته بقواته .

١ - الكمائن :

هذا وقد أتقن قادة المسلمين استخدام الكمين في حروبهم ، وأول من أجاد استخدامه وعمم استعماله هو القائد العبقري « خالد » وبخاصة في معركة « الوبلة » بالعراق^(٨٢) ، وقد أجاد استخدامه أيضا « عمرو بن العاص » وبخاصة في معركة « عين شمس » بمصر ، حيث خدع الروم بأن خبأ لهم كميناً في جبل المقطم ، وخبأ كميناً آخر إلى يسارهم عند « أم دنين » (الأزبكية الحالية) فلما حمى وطيس المعركة ، انقض كمين الجبل على ميمنة الروم ، فانهازوا يسارا ، فلقبهم كمين اليسار ، فحُصروا بين قوات العرب الثلاث ، فاختل نظامهم ، وحلت بهم الهزيمة^(٨٣) . وكان ممن يجيد الكمين أيضا « مروان بن محمد » الأموي ، وتبعه في ذلك كثير من قادة المسلمين^(٨٤) ، وكان لهم شروط في جندى الكمين ودابته ، فهم يشترطون أن يكون بمنخفض من الأرض منيع ، وألا يكون بفرسه علة ، أو خلق يستدل به العدو على مكان الكمين^(٨٥) ، وهذا يدل على أنه كان من تكتيكات المسلمين المهمة ، التي كانوا يتبعونها في حروبهم ، ويعتمدون كثيراً عليه .

٢ - الإيهام بالمدد :

وقد كان كثير من قادة المسلمين يخترعون الحيل ، لتقوية الروح المعنوية في جندهم ، كإيهامهم بقدوم الأمداد لهم ، وهو أمر مرعى في الحروب الحديثة ، ويكفيها هنا مثل إسلامي عن « القعقاع بن عمرو » فإنه كان على مقدمة « هاشم بن عتبة ابن أبي وقاص » لما جاءه الأمر بعد اليرموك بالانتقال إلى العراق ، مددا للمسلمين هناك ، فلما دنا من العراق في الألف الذين كانوا معه ، علم بأن معركة القادسية في

(٨٢) الطبرى ج ٤ ص ٨ والكامل ج ٢ ص ١٦٢ .

(٨٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨ ، وبتلر في فتح العرب لمصر - تعريب أبو حديد ص ٢٠٤ .

(٨٤) الكامل ج ٥ ص ١٣٩ ، ٣٤ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ج ٦ ص ٨٩ .

(٨٥) مخطوط الهرثمي ورقة ٣٥ .

ثاني أيامها ، فلجأ إلى حيلة حربية تقوى روح المسلمين ، وتضعف روح الفرس ، وذلك بأن قسم أصحابه أعشاراً ، وسرحهم أمامه ، فكان كلما بلغ عشرة مدّ البصر ، أرسل في أثرهم عشرة أخرى ، وكلف كل جماعة منهم تصل إلى المعركة أن يكبروا ويحملوا على العدو ؛ ليعلم الفرس تتابع الإمداد فيضعفوا ، بينما يقوى بذلك المسلمون ، ثم إنه لم يكتف بهذا ، بل بات طول ليلة اليوم الثالث ، يعيد أصحابه ليلاً ، إلى المكان الذي قسمهم فيه أمس ، وقال لهم : « إذا طلعت الشمس فأقبلوا علينا مئات ، كلما توارت عن الأنظار مئة تبيعها الأخرى ، فإن أدركنا « هاشم » برجاله فذاك ، وإلا جدّ دتم للناس رجاء في المدد ، فإن الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب ، وإيماناً بالفوز ^(٨٦) : وقد نفذت فكرته وجاءت بأبلغ النتائج .

ومن عرف بهذه الحيل في العصر الأموي « المهلب بن أبي صفرة » لدرجة أن جنده كانوا إذا رأوه قادماً ، قال بعضهم لبعض : « لقد غدا عليكم المهلب ليكذب لكم ، وذلك لما شهر به من تلك الحيل .

٣ - تضليل العدو :

يحدث أحياناً في الحروب الحديثة ، أن يجمع القائد قوات كثيفة في جبهة ما لينخدع بها عدوه ، فيظن أن الهجوم سيبدأ منها ، فيحشد قوات كبيرة تقابلها ، ويهمل نوعاً ما مواقعه الأخرى ، فيسرع هذا بالهجوم على تلك النقط الضعيفة في سرعة خاطفة ، فيتم له النصر في غفلة من عدوه ، وكذلك كان يصنع الألمان بكثرة في الحرب العالمية الثانية ، وقد عمل بهذا التكتيك من قبلهم بقرون طويلة ، القائد الإسلامي « أبو مسلم الخراساني » في حروبه مع الأمويين ، فقد روى « ابن الأثير » أنه أمر قائده في بعض معاركه - مع عبد الله بن علي الخارج على المنصور - أن ينقل أكثر الميمنة إلى اليسرة ، تاركاً في الميمنة جماعة أصحابه وأشداءهم ، فلما رأى ذلك أهل الشام ، أعروا ميسرتهم وانضموا إلى ميمنتهم ، بإزاء ميسرة أبي مسلم ، فانهز هو هذه الفرصة ، وحمل بالقلب ومن بقي معه في ميمنته على ميسرتهم ،

(٨٦) الطبري ج ٤ ص ٢٠ ، ١٢٥ والكامل ج ٢ ص ١١٩ ، ٢٠٤ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٣٢٣ . ويقول المختصون إن الجنرال « ويفيل » طبق هذا التكتيك في الحرب الأولى بفلسطين فنجح نجاحاً باهراً .

فهزمهم^(٨٧) ، ونجح في تضليلهم .

وكان يكثر استخدام القادة لهذا التكتيك ، في حصار الحصون ، وقد طبقه الخليفة «هرون الرشيد» فكان يأمر البنائين بالبناء خارج الحصن ؛ ليوهم من بداخله أنه مقيم دائماً ، وأنه لن يبرح إلا إذا سلموا فيبادروا بالتسليم ، وكان بعض القادة يطوف بالحصن مع بعض جنده ، في كل يوم أو اثنين ، ويكثر الإشارة إلى بعض المواضع في الحصن ، ويتكلم بما يرغب أهله في التسليم ، ويظهر لهم بعض ما يعمله الصانع من آلات الحصار^(٨٨) وغيرها ، ليكون ذلك أسرع في تسليمهم .

٤ - الاستطراد :

وهو أن يُظهر القائد الهزيمة أمام عدوه ليتبعه ، فيبعده عن حصونه ، وتطول خطوط مواصلاته ، ثم يكرّ عليه مرة واحدة ، ويصدمه بكل قوته فيهزمه^(٨٩) .

وكان قادة الروم قديماً يتبعون ذلك الأسلوب ، قبل المجازفة بالاشتباك الحربي ، كما قرر « نورمان بيتز » الذي يقول عنهم : « فالهرب المصطنع والمباغطات ، والهجمات الليلية والكمائن ، والمفاوضات التي لا يُقصد بها إلا كسب الوقت ، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة في الحرب عندهم ، وكان الجندى الذي يعتمد على القوة ، حيث كان الدهاء كافياً لكسب النصر ، لا يعتبر إلا مغفلاً^(٩٠) » .

ولم يكن المسلمون في القرن الأول ، بأقل شأناً من الروم في ذلك الأسلوب ، بل إنه كان عندهم مبدأ حروبياً معمولاً به ، فقد استخدمه بعض قادة المسلمين ، في الربع الأول من ذلك القرن ، كما يروى « الطبري وابن الأثير والواقدي » فقد ذكروا أن « النعمان بن مقرن » حارب الفرس في وقعة « نهاوند » ٢١ هـ - ٦٤٢ م فاعتصموا منه في خنادقهم ، وطال مُقامه عليهم ، لأنهم كانوا لا يخرجون إلا إذا سنحت لهم الفرصة ، فلما أراد أن يستعجل النصر لئلا يطول مُقامه في برد الشتاء ،

(٨٧) . الكامل حوادث سنة ١٣٧ هـ ج ٥ ص ١٨٩ .

(٨٨) مخطوط الهرثمي ورقة ٤٣ .

(٨٩) بهذا التكتيك قهرت « روسيا » نابليون قديماً والألمان في الحرب العالمية الثانية .

(٩٠) الإمبراطورية البيزنطية - تعريب حسين مؤنس ويوسف زايد ص ١٧٩ .

جمع قواده في مجلس حربى وناقشهم ، فكان فيما قال لهم : « إنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم^(٩١) » . وبعد التداول أمر « القعقاع بن عمرو » قائد الفرقة الخفيفة الفدائية (المجردة) أن يُنشب القتال معهم ، ثم يظهر الفرار أمامهم ، ليطمعهم فيه ويُخرجهم من خنادقهم ، ففعل ما أمر به وخرج الفرس وراءه من خنادقهم وقد قرنوا كل سبعة في قران ، فلما انقطعوا عن حصونهم ، أمر النعمان جنده بالثبات وأن يلزموا الأرض ، ويستروا من الرمي بالتروس ، ولا يقاتلوهم حتى يأمرهم . فلما كان وقت الزوال ، وقف على الرايات يحرضهم ، ثم أمرهم بالهجوم العام ، فحملوا عليهم مرة واحدة ، ودار القتال عنيفاً حتى أبادوهم ، وتبالغ بعض روايات الطبرى ، حيث تذكر أن الفرس كانوا يومها مئة ألف وزيادة ، قتلوا جميعاً .

والذى يدل على أن الاستطراد كان معروفاً لديهم ، قول النعمان لقواده « إنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم » كما يدل على ذلك أيضاً أن « عمرو بن العاص » استخدمه في حصار حصن « بابليون في مصر » فقد ذكر الدكتور « بتلر^(٩٢) » أن خطته في الحصار ، بنيت على أنه يجعل الروم يخرجون إليه ، فيقاتلونه في السهل ، وهم بعيدون عن الحصن ، وذلك طبعاً لا يكون إلا بالاستدراج ، والتظاهر بالهزيمة ، ومناوشتهم بالرمي ومداومة القتال .

ويقوى هذا المعنى أن « الهرمي » نصح لقواد المسلمين بأن العدو إذا استطرد لهم فلا ينحذعوا ويحملوا عليه ، بل ينتظروا حتى يسكن الوهج ويثبت لهم^(٩٣) . مما تقدم يتضح أن المسلمين لم يكونوا دون غيرهم في تكتيكاتهم الحربية ، وأنهم كانوا يخترعون الحيلة ، يرفعون بها روح جندهم ، ويحطمون بها روح عدوهم ، بإظهار كثرة عددهم ونحو ذلك ، فكما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من إشعال النيران ليلاً لهذا الغرض ، في فتح مكة وغيره ، كان كثير من قادة المسلمين يفعلون ذلك أيضاً ، وقد أكثر من استخدام تلك الطريقة « طاهر بن الحسين » أثناء حربه مع قواد « الأمين » فإنه كان يجمع الفلاحين ، وأهل القرى

(٩١) انظر التفصيل في الطبرى ج ٤ ص ٢٤١ والكامل ج ٥ ص ١٢٩ وفتوح الشام ج ٢

ص ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٩٢) فتح العرب لمصر ص ٢٠٢ .

(٩٣) مختصر في سياسة الحروب ورقة ٣٠ .

من المدنيين ، فيضربهم على المرتفعات ، وقد نشروا أعلامهم ، وأوقدوا بالليل نيرانهم ، ليسكثروا في عين عدوهم^(٩٤) .

بل لقد كانت الحيلة الحربية ، تدعو القائد أحياناً إلى القيام بأعمال تشبه المعجزات ، فقد روى «أبو المحاسن»^(٩٥) أن القائد «أسد بن خالد القسري» غزا جبال الطالقان في أوائل القرن الثاني ، وكان أهلها قد خرجوا بأموالهم ، إلى منخفض يحيط به جبل شامخ ، ليس إليه طريق مسلوكة ، فأعمل القائد حيلته ، فأحضر بعض صنادين الخشب ، ووضع بها الجند ، ثم ربطها بسلاسل قوية ، ودلاها عليهم من فوقهم ، فظفر بهم وعاد سالماً غانماً .

وهذه الرواية على ما يبدو عليها من مسحة قصصية ، تقفنا على ما عرف به المسلمون من اقتنان في الأساليب الحربية ، وطرق أبواب الحيل لاستعجال النصر والفوز .

و - الشارة والشعار في المعارك :

عرفنا أن الجيش الإسلامي كان يُبنى على الأساس القبلي ، وكان لهذه القبائل شعار تميز به ، ويتعارف به أفرادها : والشعار قسمان : شعار فعلي وهو الشارات للفرد والجماعة ، وشعار قولى وهو ألفاظ خاصة كانوا يتصايحون بها عند القتال ، ويتعارفون بها في المعارك ، وتقوم مقام (كلمة السر) في الجيوش الحديثة^(٩٦) ، التي بها يعرف الجندي أخاه .

يروى «ابن هشام»^(٩٧) أن شعار المهاجرين كان «يا بني عبد الرحمن» وشعار الخروج «يا بني عبد الله» وشعار الأوس «يا بني عبيد الله» وروى «الطبرى»^(٩٨) أن شعار خالد وأصحابه يوم (عقرباء) كان «يا محمداه» وذكر «الإدريسى»^(٩٩) أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان شعاره «يا كل خير» ،

(٩٤) الحسن في آثار الأول ص ١٩٧ .

(٩٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٦١ .

(٩٦) كلمة السر اصطلاح يضعه قائد الجيش ليليا ليكون رمز التخاطب بين قواته ، ويبلغه لهم

في حينه .

(٩٧) سيرته ج ٤ ص ٥١ .

(٩٨) تاريخه ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٩٩) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٢٧ .

كما كان نداؤه « يا خيل الله اركبي » وكان نداؤه للمتأخرين « يا أصحاب سورة البقرة » وروى «الواقدي»^(١٠٠) أن شعار أبي عبيدة يوم اليرموك كان كلمة «أمت أمت» كما ذكر شعاراً آخر لعبس وشعاراً لليمن ، وشعاراً لحمير والدارم وغيرها من القبائل المختلفة .

وهكذا كان لقبائل المسلمين صيحات خاصة ، يتنادون بها ويتعارفون في الظلام ، وعند الاختلاط ، بحيث تكون عندهم معروفة^(١٠١) ، وعند غيرهم مجهولة بالإضافة إلى شعارهم العام وهو التكبير ، الذي كان شعار كل مسلم .

هذا وقد عرف المسلمون الشارات في أول حروبهم ، فقد كان شعارهم يوم بدر (الصوف الأبيض) يعلقونه في نواصي الخيل وأذنانها ، وذكر « ابن هشام »^(١٠٢) أن بني سليم كانوا يُعرفون بأنهم إذا خرجوا للقتال وضعوا رماحهم بين آذان خيلهم ، وأن الأوس والخزرج كانوا يعرضونها على خيلهم ، أغفالا من العلامات ، وهذه العبارة الأخيرة تفيد أن — التسويم بالعلامات كان معروفا لديهم ، وأن بعضهم كان يعتبر ترك العلامة علامة .

ويؤيد هذا المعنى أن وفد « بني سليم » لما جاءوا لعرض إسلامهم على الرسول ، اشترطوا عليه أن يجعل لواءهم أحمر ، وأن يجعل شعارهم مقدما ، فأجابهم إلى طلبهم^(١٠٣) . .

أما الشارات فقد كانت كذلك تميز القبائل بعضها عن بعض ، كما كانت تميز الفرق الإسلامية المختلفة ، روى « ابن الأثير »^(١٠٤) أن الشيعة كانوا يتميزون بالعمائم الخضراء ، ومثلهم أتباع « عبيد الله بن عمر » الذين كان يسميهم (المخضرة) كما اختار الخوارج اللون الأحمر في أعلامهم ، واختار الأمويون اللون الأبيض والعباسيون اللون الأسود .

(١٠٠) فتوح الشام ج ١ ص ١٣١ .

(١٠١) انظر مخطوط الهرثمي ورقة ٣٦ .

(١٠٢) سيرته ج ٤ ص ٩٨ ، ٩٩ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٧ .

(١٠٣) طبقات ابن سعد بنقل الإدريسي في التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٢٣ .

(١٠٤) الكامل ج ٥ ص ١٣١ ، ج ٦ ص ١٢٠ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ومروج الذهب ج ٢

ص ٣٩٠ أما الأعلام والرايات وألوانها فقد سبق الحديث عنها . انظرها من ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ص ٦٥ من هذا الكتاب .

ولم تكن الشارات قاصرة على القبائل أو الفرق الإسلامية فحسب ، ولكن كان بعض الأفراد يجعل لنفسه شارة يعرف بها ، على خلاف عادة الجاهليين ، من الاختفاء بالقناع ، حتى لا يعرف أحد مكانهم ، وكان اللون الذى يغلب على شارة الأفراد هو اللون الأحمر ، الذى يشير للدماء ويهيج النفوس للقتال ، فقد عُرِف « الزبير بن العوام » بأنه كان يلبس عمامة حمراء أو صفراء ، ويحمل رمحاً على عاتقه^(١٠٥) ، وقد اتخذ العمامة الحمراء شعاراً له فى الحرب كثير من الأبطال مثل « خالد بن الوليد وأبى دُجانة والفضل بن العباس »^(١٠٦) وغيرهم .

وكان بعض الفرسان يجعل شاراته فى طريقة لفّ العمامة أو غيرها ، فقد عرف « مُصعب بن الزبير » بأنه كان يعمّم (العقداء)^(١٠٧) أى يعقد عمامته فى قفاه ، كما كان يعرف البطل « حمزة بن عبد المطلب » بريشة نعام حمراء ، كان يغرزها فى صدره دائماً^(١٠٨) ، وقد كان « عبد الله بن جبير والنعمان بن مقرن » يعلمان نفسيهما ببياض ثيابهما^(١٠٩) ، ويروى « ابن الأثير » أن بعض الفرسان قال يوماً لقباء عليه أبيض : « ما أحسن حمرة الدماء على بياضك » فأصيب بجراح صيرته إلى ما يُحب وهى الشهادة^(١١٠) .

والخلاصة أنه كان للقبائل والفرق الإسلامية شارات مميزة ، وصيحات خاصة يتعارفون بها ، أما التكبير فكان المسلم يجهر به عند فتح الحصون ، أو ظهور بارقة النصر ، فإذا صاح بثلاث تكبيرات متواليات ، فمعنى ذلك هجوم ليلى من الأعداء^(١١١) ، وتقابلها فى هذه الأيام (نوبة كبسة) وهذه الشارات بطبيعة الحال ، لم تكن دقيقة شاملة لكل فرقة ، كما كانت الحال فى جيش الروم ، وكما هى الحال فى جيشنا الحديث ، ولكنها على أى الحالات كانت شارات مميزة ، يتعارفون بها فى غالب أمرهم عند الاختلاط ، كما أنه لم يكن لكل فرقة شارة خاصة ، أو لون مميز لها ، ومن الجائز أن يكون ذلك قد حدث فيما بعد ، كما هو حاصل فى الجيوش الحديثة .

(١٠٥) نفس المرجع ج ٢ ص ١٧ والبيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٩٩ .

(١٠٦) الطبرى ج ٣ ص ١٦ ، ٢٤٣ والكامل ج ٢ ص ٦٣ .

(١٠٧) الجاحظ فى البيان ج ٣ ص ٧١ .

(١٠٨) نفس المرجع ص ٧٠ .

(١٠٩) الأغاني ج ١٤ ص ١٤ . ١٣٣ الكامل ج ٣ ص ٥٥ .

(١١٠) الكامل ج ٣ ص ٥٥ . (١١١) مخطوط الهرثمى ورقة ٣٧ .

الختامة

ويصح قبل الفراغ من هذا البحث ، بيان بعض العادات الحربية ، التي كان يُفضلها المسلمون :

فمنها أنهم كانوا لا يسارعون بالهجوم على عدوهم ، فإذا بدأهم هو اندفعوا إليه بكل قوتهم صابرين ، فإذا أفلحوا في اندفاعهم ، وإلا تراجعوا قليلا ، لإعادة تنظيمهم واستئناف القتال . ومنها أنهم كانوا يفضلون القتال في الصباح الباكر ، أو في آخر النهار حيث يعتدل الجو ، وهي عادة تقضى بها طبيعة بلادهم الحارة : وتمسكهم بعادة رسولهم عليه السلام ، الذي كان لا يغزو حتى يُصبح ، فإن فاتته أول النهار ، انتظر حتى تحضر صلاة العصر ، وتهب الأرواح ويطيب القتال^(١١٢) . ومنها أنهم كانوا يتجنبون القتال ليلا ، ويقولون إذا دخل الليل « جاءكم المدد » فإذا نزلوا فيه بأرض الأعداء ، أمضوا ليلهم في موقع حصين إلى أن يطلع الفجر^(١١٣) ، وذلك بأن يستديروا ، بحيث تتصل الميمنة باليسرة ، في شكل دائرة تحيط بالنساء والأثقال ، وتحيط الخنادق والحراس بالدائرة^(١١٤) ، بينما يسمر الجند في تناقل الأشعار والقصص حتى يناموا ، وما كانوا يقاتلون ليلا إلا إذا أجبروا على ذلك ، كأن يستمر الأعداء في قتالهم ، كما حدث (ليلة الهرير) بالقادسية ، وكما حدث كثيرا في قتال الخوارج^(١١٥) ، كما كانوا يُجبرون عليه إذا بيّتهم عدوهم أو عملوا هم على بياته ليلا ، لإنهاء المعركة بسرعة . وكثيراً ما صنع خالد ذلك . ومنها أنه كان لهم في أول القتال جولة ، ثم يصبرون بعدها ويضمون صفوفهم ، ويثبتون في شجاعة نادرة ، كانت تستدعي إعجاب أعدائهم ، والنصر في النهاية للصابرين ، كما كانوا يرددون في نصائحهم .

وفي النهاية لا يسع المرء إلا الإعجاب بهذه التكتيكات الإسلامية ، التي لا تبعد كثيراً عن التكتيكات الحديثة ، والتي حققت لهم النصر في فتوحهم المختلفة ، فأثبتت بذلك صلاحيتها ونجاحها ، وسلامة الأسس التي بُنيت عليها ، ولو كانت نظم أعدائها أدق منها ، ما انهارت أمامها بتلك السرعة المدهشة النادرة .

(١١٢) انظر البخاري شرح القسطلاني ج ٥ ص ١١٥ ، ٢٢ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٢

٢٣٢ ، ٣٥ ، ٤١ ومروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٢ .

(١١٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٧٧ وفون كريم ص ٣٣٠ .

(١١٤) مخطوط الهرثمي ورقة ٢٥ . (١١٥) الكامل ج ٤ ص ٦٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ .

القسم الثالث

الحروب البحرية في الإسلام

هذا الموضوع يستحق أن يكون لتفرعه بحثاً مستقلاً بذاته ، وقد وُضعت فيه الرسائل العلمية فعليا ، وألفت فيه الكتب ، التي تذكر تطورات الأسطول الإسلامي وأعداد سفنه وما يتعلق بها ، في تفصيل يروى الأوام .
ولما كان الغرض هنا توضيح معالم الفن الحربي فيها ، ولما كان ذلك الفن لا يختلف كثيراً عن الحروب البرية ، كان من المناسب - إتماماً للفائدة - ذكر كلمة موجزة ، عن البحرية الإسلامية ، بعد التمهيد بكلمة عن تاريخها في الفترة التي تتعرض لها الرسالة .

١ - نشأة البحرية الإسلامية وتطورها :

لم يعرف المسلمون ركوب البحر إلا قليلاً ، أيام كانوا يتقلبون فيه للتجارة على سفن الروم ، التي كانت تمر ببلادهم في الجاهلية ، ثم تكرر ركوبهم البحر في زمن الرسول ، أيام أن هاجروا على ظهره من الحجاز إلى الحبشة مرتين ، هاربين بدينهم الجديده من عسف قريش وتعنهم .

أما الغزو في البحر فلم يحدث في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت بعض الآثار تذكر أنه تنبأ للمسلمين بركوبه ، ولم يحدث كذلك زمن صاحبيه من بعده أبي بكر وعمر ؛ لأن العرب بدو بطبعهم يهابون البحار ، ويفضلون سفينة الصحراء على سفينة الماء ، ولذا كان « عمر بن الخطاب » ينهى قواده عن ركوب البحر ، ويَعده حصناً طبيعياً بينه وبين أعدائه ، ولم يخالف نهيه هذا إلا رجلاً ، لقياً منه العقاب على مخالفتهما بركوب البحر للقتال .

أما أحدهما فهو « العلاء بن الحضرمي »^(١) الذي كان يحارب المرتدين بالبحرين ، ثم بقي بها مجاهداً ، فلما تقدم عليه في فتح فارس منافسه « سعد ابن أبي وقاص » أراد أن يصنع في الجهاد صنعته ، وأنسته المنافسة وثقته بالنصر نهى الخليفة السابق ،

(١) يسميه الأستاذ نعمان ثابت « أبو العلاء الحضرمي » في كتابه الجندي . . . ص ١٦٧ ؟ ؟

فندب أهل ولايته (البحرين) وعبر بهم خليج العرب لقتال الفرس^(٢) فما كان منهم إلا أن أحاطوا به بعد عبوره، وحالوا بينه وبين سفنه وحصلوه، فلما علم الخليفة بالحصار الذي ضرب حوله، أسرع لنجدة المسلمين، الذين كان أحدهم أحب إليه من ١٠٠,٠٠٠ دينار^(٣)، فأرسل إليه وإلى العراق سريعاً، فأنقذه من مركزه الحرج، ثم عاقبه الخليفة على مخالفته تلك، بأن عزله من الولاية وتوعده، وأمره بأثقل الأشياء عليه، وهو أن يتوجه إلى منافسه سعد ليعمل تحت قيادته، وكان يطمع أن يكون مقدماً عليه^(٤)، ولكن تسرعه قعد به عن ملاحقته.

وثاني الرجلين كما يروى «ابن خلدون»^(٥) هو القائد «عرفجة بن هرثمة» سيد قبيلة بجيلة، فإن الفاروق أغراه بلاد عُمان، فبلغه أنه ركب البحر، فأنكر عليه ذلك وعَنَّفَه.

وروى لنا (الكامل)^(٦) أن المسلمين ركبوا البحر في عام الرمادة (١٨ هـ - ٦٣٩ م) حيث أصيب أهل المدينة بمجاعة، فاستنجد الخليفة بوالي مصر «عمرو ابن العاص» فقام بإصلاح خليج أمير المؤمنين، وكان يرسل فيه الطعام من مصر إلى المدينة وداوم ذلك حتى كان سعره بالبلدين واحداً.

هذه هي المرات الثلاث التي ركب فيها المسلمون البحر زمن «عمر» وقد طلب منه «معاوية» أيام ولايته له على الشام، أن يأذن له في الغزو بحراً، ليرد هجمات البيزنطيين، التي كانت تتوالى على السواحل الشامية، فهاه الخليفة نهياً مشدداً، وأنذره بعقاب أشد من عقاب سابقه من المخالفين، وكان مما قال له: «تالله، لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما اتى العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك»^(٧).

أمام هذا النهي الحازم، لزم «معاوية» جانب الصمت، فلما آلت الخلافة

(٢) الإدريسي في التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٧٠.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٢.

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢١٢، ١٣، والكامل ج ٢ ص ٢٢٧، ٢٨.

(٥) المقدمة ط المهدى ص ٢١١.

(٦) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٣٥.

(٧) الطبري ج ٥ ص ٥٢، والدكتور بتلر ص ٤٠٧.

إلى قريبه الأموى « عثمان بن عفان » أعاد الإلحاح عليه ، وظل يزير له اقتناء السفن ، ويبينُ شدة الحاجة إليها ، حتى أذن له فى استخدامهما ، ولكنه اشترط عليه أن يجعل الغزو فى البحر اختياريا ، فمن اختار ركوبه حملة وأعانه ، فبنى « معاوية » السفن بأيدى صناع من الروم فى الغالب ، وصار يردُّ بها على الأسطول البيزنطى ، فغزا جزيرة قبرص (٢٨ هـ - ٦٤٩ م) فصالحه أهلها على جزية قدرها ٧,٢٠٠ دينار كل عام ، وكانت هذه أول غزوة بحرية للمسلمين ، وكان نصرهم فيها مشجعا لهم على متابعة الغزو بحرا^(٨) فى غيرها .

وهنا يذكر « نعمان ثابت » رواية ، تبدو عليها مسحة المبالغة ، ومؤداها أن جزيرة قبرص منذ ذلك الحين ، أصبحت قاعدة المسلمين فى البحر الأبيض ، تمون أساطيلهم (كذا) وتبلغ إليهم أخبار عدوهم ، إلى أن نقض أهلها عهدهم مع المسلمين ، بأن أعاروا الروم بعض سفنهم (٣٢ هـ - ٦٥٣ م) فأعاد « معاوية » غزوها فى ٥٠٠ مركب ، وفتحها عنوة ؛ وبذا سيطر على البحر سيطرة كاملة^(٩) . وفى هذا نظر ، فإن معاوية فى ذلك الوقت ، لم يكن قد بنى بعد أسطوله ، فضلا عن الأساطيل الضخمة ، كما تذكر الرواية .

ولكن الأمر الذى يجعلنا نقبل دلالة مثل هذه الرواية ، ما رواه المؤرخون من انتصار الأسطولين الشامى بقيادة « معاوية » والمصرى بقيادة « عبد الله بن سعد » على الأسطول البيزنطى بقيادة « قسطنطين بن هرقل » فى المعركة المشهورة « ذات الصوارى » (٣٤ هـ - ٦٥٥ م) التى كانت ضربة قاضية للأسطول البيزنطى^(١٠) فى البحر المتوسط ، وإنهاء لسيادته فيه .

ومما يزيد هذه الروايات قوة ، أن العلامة « نورمان بينز » ذكر تاريخ الأسطول البيزنطى ، فبين أنه كان قويا أيام الإمبراطور (جستنيان) لدرجة أنه كان يعتبر البحر المتوسط بحيرة رومية (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ثم بين أن الأسطول اعتراه الضعف فى عهود الأباطرة الذين خلفوا جستنيان ، وأن الغزوات المسلمين البحرية للسواحل

(٨) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٧٤ .

(٩) الجندية ٠٠٠ ص ١٦٩ .

(١٠) انظر الطبرى ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ والتراتب الإدارية ج ١ ص ٣٧١ وحتى تعريب

نافع مجلد ١ ص ٢٥٠ .

البيزنطية ، كانت من أسباب اهتمام الروم بإعادة تقوية أسطولهم ، وهو يقول في هذا المعنى : « ولم تبدأ روما في بناء أسطولها ثانية ، إلا حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية واضطرت روما بسبب السياسة العدوانية التي انتهجها « معاوية » إلى الشروع في بناء الأسطول ، بكل ما لديها من جدّ وعزيمة^(١١) » .

وعلى هذا فليس من الغريب جدا ، ما نقله بعضهم عن « خِطَط الشام » من أن البحر المتوسط كان أمام المسلمين كاليابسة ، وأن أسطول « معاوية المؤلف من ١٧٠٠ سفينة ، وأسطول مصر الذي كان يقاربه في العدد^(١٢) صارا يؤلفان أسطولا ضخما ، يجوس خلال ذلك البحر في صوائفه وشواتيه المعروفة ، التي كانت تقلق بال الروم ، وتُقَضِّض مضاجع أهل الجزر الواقعة فيه .

ويساعد هذا ما رواه «أبو المحاسن»^(١٣) من أن الأسطول الإسلامي كان يضيق الخناق على الأسطول البيزنطي ، لاستيلاء المسلمين على المراكز البحرية المهمة ، وهي جزر « قبرص ، وصقلية ، ورودوس ، وكريت » التي منها تحرك الأسطول الإسلامي لغزو « القسطنطينية » في حرب السنوات السبع (٥٣ - ٦٠ هـ ٦٧٤-٦٨٠ م) ولم ينسحب من مياه البسفور وبحر إيجه ، إلا بعد موت الخليفة « معاوية »^(١٤) (٦٠ هـ - ٦٨٠ م) .

بعد معاوية ظل الأسطول الإسلامي في نموّ مطرد ، وظلت صوائفه وشواتيه تُقلِّق الروم في كل عام ، وتهدد سواحلهم كما يهددون سواحل المسلمين ، ثم عاد لمحاصرة عاصمتهم أيام « سليمان ابن عبد الملك » متعاوناً مع الجيوش البرية ، بقيادة أخيه « مسلمة » الذي فك الحصار عنها بأمر الخليفة « عمر بن عبد العزيز »^(١٥) الذي كان يفضل السلام ويرى الخير فيه .

وقد يكون من المفهوم أن انتشار سلطان المسلمين ، كان عاملاً على التقرب إليهم ، من أصحاب الحرف الصناعية ، في الأمم المغلوبة ، ومن الطبيعي أن يستغلّ

(١١) الإمبراطورية البيزنطية تعريب مؤنس وزايد ص ١٨٤ .

(١٢) خطط الشام بنقل ثابت في الجندية ص ١٦٧ .

(١٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٤٤ .

(١٤) نورمان بينز ص ١٨٤ ، وحتى تعريب نافع مجلد ١ ص ٢٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .

(١٥) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٠٠ ، وحتى السابق .

المسلمون أصحاب الصناعة البحرية في بناء السفن ، وبخاصة عمال الروم الذين كانوا خبراء فيه ؛ فهذا « حسان بن النعمان » عامل إفريقية من قبل « عبد الملك » بنى بتونس داراً لصناعة السفن ، والآلات البحرية^(١٦) ، وقد صنع صنعه أيضاً بتونس « موسى بن نصير » فبنى بها داراً لصناعة السفن^(١٧) ، ثم اهتم حكام الأقاليم الإسلامية بالسفن ، اهتم هذين القائدين ، حتى شملت أساطيل المسلمين ، ولم يعد للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم ، على حد تعبير « ابن خلدون »^(١٨) المعروف بتعصبه على العرب .

هذا ، ولقد كان النمو السريع للأسطول الإسلامي ، من أسباب سيادته في البحر المتوسط زمناً طويلاً ، كما قرر العلامة « جوستاف لوبون »^(١٩) في قوله عنه : وظل يغزو شواطئه وجزره ، في نشاط دائم ، وما كان يفتُر إلا أيام الفتن ، والحروب الداخلية ، حيث يشتغل الخلفاء بحماية سلطانه^(٢٠) .

والذي يفهم من كلام « نورمان بيتز » أن نشاط الأسطول أيام العباسيين ، كان أقل منه أيام الأمويين ، فهو يقول : « وقد لا يظهر خطر هذه السياسة (أى السياسة البحرية) في القرن الثامن ؛ لأن الخليفة في بغداد ، لم يواصل النشاط البحري الذي كان لخلفاء دمشق^(٢١) . ولكن هذا الهدوء النسبي لم يمنع الأسطول العباسي ، من حمل الجيوش عبر البحر المتوسط ، لتأديب ناقضى العهود في جزره ، فقد نقضت « صقلية » عهدها (١٣٢ هـ ؛ ٧٥٠ م) فسار لتأديبها « عبد الله بن حبيب » وظفر منها بما لم يظفر به أحد قبله^(٢٢) ، وفي عهد « الرشيد » نقض أهل قبرص عهدهم ، فغزاهم عامله على سواحل مصر والشام « معتوق بن يحيى » - فأدبهم وغنم منهم ، وسبي^(٢٣) سبياً كثيراً ، ومن قبل الرشيد سبى « المهدي » جيشاً

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١١ .

(١٧) نعمان ثابت ص ١٧٠ ولم يشر إلى مرجعه .

(١٨) المقدمة ص ٢١٢ ونعمان ثابت ص ١٦٨ .

(١٩) حضارة العرب - تعريب زعير ص ٢٩٥ .

(٢٠) ابن الأثير في الكامل ج ٥ ص ٥٦ ، ٥٧ ، ١٩٥ .

(٢١) الإمبراطورية البيزنطية ص ١٨٥ .

(٢٢) ابن الأثير في الكامل حوادث سنة ١٣٢ هـ ج ٥ .

(٢٣) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٨ .

فى البحر إلى بلاد الهند ، كما روى « ابن الأثير » فى جمع كثير من الجنود والمتطوعة^(٢٤) ، غازيا فى سبيل الله .

من هذا العرض السريع نفهم ، أن الأسطول الإسلامى ، انتزع من الأسطول البيزنطى معاقله فى البحر المتوسط ، وأنه كانت تُبنى الدور لصناعة سفنه وصيانتها ، وأنه كان من القوة بحيث جعل الذين كانوا يسمون جنده قراصنة ، يعترفون بقوته ونشاطه ، ويقررون أنه « اضطر البابا أن يلتجئ إلى « شارلمان » ليحمى قورسقه من العرب^(٢٥) » كما قرروا أن المسلمين كانوا يقومون إلى جانب الحملات البحرية بحملات برية عليهم ، وأنه « لم يكن لدى أمراءهم — على ما يظهر — قوى كافية ، للقيام بهجوم بحرى وبرى على بلادهم^(٢٦) » كما كان المسلمون يفعلون بهم .

ب — المعركة البحرية وسلاحها :

لا يكاد المرء يجد كبير فرق ، بين معارك المسلمين البرية ومعاركهم البحرية ، لأنهم أمة صحراوية الأصل ، يعيشون فى بحر زاخر من الرمال ، سفينتهم المفضلة فيه الجمال ، ويحسبون فيه حساب الرياح والعواصف والأنواء ، وقد أتقنوا فى رحبات صحرائهم طريقة الكر والفر ، والمبارزة بالرماح من فوق صهوات الحياد ، ولذا كانوا يحولون كثيراً من معاركهم البحرية إلى معارك برية ، بأن يقرنوا سفنهم بسفن الأعداء كما سنرى ، ويجعلوا من ظهورها ميدانا للتراشق بالسهام ، والتطاعن بالرماح ، والتصافح بالسيوف .

وقد كانت الحروب البحرية عند المسلمين أشق وأصعب ، لأن حاجتها للفن الحربى أكثر ، وذلك لأمر أجملها « الحسن بن عبد الله^(٢٧) » فيما يلى : —
١ — أن المجال فى البحر ضيق ، ولا تكاد السهام أو الحجارة تخطئ ، وكل رشق فيه يُنكى ويصيب .

(٢٤) الكامل ج ٦ ص ١٧ ، ١٤٧ .

(٢٥) نورمان بينز ص ١٨٥ .

(٢٦) نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٢٧) آثار الأول ص ٢١٥ ، ١٦ .

٢ - قد تنقلب الرياح بما لا يهوى القائد ، فتغلبه على امره ، وقد تسكن عند حاجته إليها ، فيكون الضرر والإحراج ، على خلاف البر الذي يكون القائد فيه حرّ الحركة .

٣ - أن القائد لا يمكنه في البحر الهرب أو الفرار ، والا الاستتار بالحصون والأسوار ، إن اقتضت المصلحة ذلك .

٤ - لا يستطيع القائد البحري استخدام الأسلحة الثقيلة بكثرة ؛ لأن المنجنيق والعرّادة ثقيلة الحمل على السفن ، وهي فوق ذلك تحتاج أعداداً كثيرة من الجند لإدارتها ، فيزيد عدد السفن بزيادة الجند .

ولهذه الاعتبارات المتقدمة ، كان يشترط في أمراء البحار ، أن يكون أحدهم عارفاً بمسالك البحر ومذاهبه ، وعلامات الرياح وتغيرات الأنواء ، ملماً بالحركات البحرية من المدّ والجزر وغيرها ، كما يجب عليه أن يكون خبيراً بالسفن ليختار الجيد منها ، ويكثر تقويتها ، ويدّخر فيها آلاتها ، حتى إذا تلف شيء منها وجد ما يخلفه ، كما يجتهد في تغييرها ، وإحكام ما يلاقى الماء منها ، فإنه الأصل الذي يعوّل عليه في البحر^(٢٨) ، وإلا كانت سفنه عرضة للغرق .

وقد لا يكون في هذه الحقائق مبالغة ، إذا علمنا أن أمراء البحار البيزنطيين المعاصرين للمسلمين ، كانوا كما قرر « نورمان بيتر » يدرسون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر ، وخصائص الرياح والمد والجزر ، وكانوا يهتمون بالخطط والحركات البحرية ، وفن الاستطلاع والإشارات ، اهتماماً يعادل اهتمام زملائهم المحاربين في البر^(٢٩) .

١ - إدارة المعركة :

لا تكاد المراجع التاريخية تذكر تفصيلات للمعارك البحرية وإن أوفى تفصيل لها على إجماله ، هو ما ذكره « الطبرى وابن الأثير »^(٣٠) عن وصف المعركة

(٢٨) المرجع نفسه .

(٢٩) الإمبراطورية البيزنطية ص ١٩١ .

(٣٠) انظر تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ والكامل ج ٣ ص ٥٧ .

المشهورة « ذات الصواري » ٣١ هـ - ٦٥٣ م ، وهي المعركة البحرية الحاسمة ، التي انتزع بها الأسطول الإسلامي السيادة من الأسطول البيزنطي في البحر المتوسط ، كما وردت تفصيلات أخرى في كتاب « آثار الأول » الذي أشار فيه صاحبه ، إلى مؤلفات للأوائل في هذا الفن ، ولكنه للأسف لم يذكر أسماءها ولا أسماء مؤلفيها ، ولعل الزمن عفى عليها فيما عفى ، ولم أوفق في الحصول عليها ، وأرجو أن يدلنا عليها بعض الباحثين إن وجدها .

والذي يفهم من الوصف الذي ذكره هؤلاء المؤلفون ، أن كل قائد في الأسطولين المتحاربين ، كان يقوم بالاستطلاع البحري ، فيرقب في البحر حركات صاحبه ، ويحدد مكانه أولاً ، ثم يدنو منه بحذر ، متحسناً هدوء الرياح ، ليصرف سفنه حسب خطته ، ويجتهد ألا تهب الرياح عليه فتوقع الخلل في سفنه ؛ ليتمكن من تدبير ما يجري منها بالرياح ، وما يجري بالمجاديف ، وينسق العمل بينهما^(٣١) ، فإذا دنت السفن من السفن ، حاول المسلمون بقدر المستطاع أن يحولوا المعركة إلى معركة برية ، وقد ظهر قصدهم هذا واضحاً في أول معاركهم « ذات الصواري » فإنهم خيروا الروم بين البحر والبر ، فاختر الروم البحر ، ولا مجال هنا للتخير ، ما دامت سفن الفريقين فوق صفحة الماء ، ولذا رأيناهم لما اختار الروم البحر ، يُدنون سفنهم من سفن الروم ، ويربطونها بها بالقوة ويصلون بينها بالألواح ، ثم يتقاتلون على ظهورها ، كقتالهم على البر بالسيوف والخنجر وغيرها ، وحسبنا أن نقرأ ما كتبه « الطبري »^(٣٢) في وصف المعركة ، بالرواية عن شاهد عيان فقيه غناء : « قال بعض من حضر المعركة : التقينا في البحر ، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط ، وكانت ٥٠٠ مركب ، وكانت الرياح علينا ، فأرسينا ساعة وأرسوا قريباً منها^(٣٣) وسكنت الرياح علينا . . . فقلنا ، إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ، وإن شئتم فالبحر ، فاختاروا البحر ، فدنونا فربطنا السفن بعضها إلى بعض ، حتى كنا يضرب بعضنا بعضاً على

(٣١) ابن خلدون في المقدمة ص ٢١٢ .

(٣٢) تاريخه السابق .

(٣٣) في الكامل ج ٣ ص ٥٧ أنهم باتوا أمام أعدائهم ليلة .

سفنهم وسفننا ، وتقاتلنا أشد القتال ، ووثبت الرجال على الرجال ، يضطربون بالسيوف على السفن ، ويتواجهون بالخنجر ، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج ، وطوحت الأمواج جثث الرجال ركاما ، وتم النصر فيها للمسلمين .

فهذا الوصف على ما قد يكون فيه من مبالغة ، تظهر في تحول مياه البحر إلى دماء ، يوضح لنا ميل المسلمين إلى مزاوله الحروب البرية التي يجيدونها ؛ ولذا رأيناهم فيما بعد يزودون سفنهم بكلايب أو (باسليقات) وهي سلاسل من الحديد ، في رموسها كرات حديدية أيضا ، يرمونها على سفينة العدو ، ثم يجذبونها إليهم بقوة الرجال ، ليتصل الجنود بالجنود ، ويتقاتلون على ظهرها بالطريقة السابقة (٣٤) .

٢ - أسلحتها :

أما سلاح المعارك البحرية ، فمعظمه من السلاح الخفيف ، ولم يُستخدم المنجنيق فيها إلا بعد أن ضخمت حجوم السفن ، وزادت أعدادها ، فكانت تخصص له مركب لحمله وحمل حجارته ، وحمل الجنود الذين يعملون عليه ثم ، يقوم برمي مراكب العدو بالحجارة ، والقوارير المملوءة بالنفط (٣٥) ، أو الجرار المملوءة بالجير الحي المدقوق ، الذي يُعميهم إذا أصاب عيونهم ، ويلتهب عليهم في هواء البحر المشبع بالبخار (٣٦) ، كما كان يرمى القذور المملوءة بالصابون ، التي كانت تجعل أقدامهم تزلق فوق خشب السفن ، فلا يستطيعون القتال ، ويكونون عرضة لسلاح المسلمين (٣٧) .

هذا ولم يحدد صاحب (آثار الأول) التاريخ الذي استخدم فيه المنجنيق بحرا ، ولكن المفهوم من تطبيق الحروب البرية في البحر ، يفيد أنه استخدم في أواسط الدولة الأموية ، حيث زاد الحجاج في حجوم آلات القتال ، واهتم بها وبينائها ، كما صنع كثير من الخلفاء الأمويين فيما بعد .

ومن الأسلحة البحرية الفتاكة ، التي ذكرها صاحب (آثار الأول) سلاح

(٣٤) آثار الأول ص ٢١٦ .

(٣٥) كأنها زجاجات مولوتوف المستعملة في الجيوش الحديثة .

(٣٦) وهذه تشبه قنابل الغازات المسيلة للدموع وغيرها .

(٣٧) انظر « الحسن بن عبد الله » في آثار الأول ص ص ٢١٥ ، ١٦ .

يسمى « اللجام أو الفأس » وهو عبارة عن كتلة طويلة من الحديد مدببة المقدم كسنان الرمح ، يحملها الجند في سفينتهم ، ثم يدفعونها على سفينة العدو ، لتصدمها به في مقدمها فتخرقها لتغرقها ، أو يحمله الرجال بينهم ، وينطحونها به نطحة قوية كما هو الحال في استعمال رأس الكبش - المستعملة في حصار الحصون فيخرقونها ويتسرب الماء إلى جوفها ، فتغرق ويطلب الأمان من بها^(٣٨) .

وإن الشبه التام بين هذا السلاح ورأس الكبش ، الذى كان يستخدم في حصار الحصون وخرق الأسوار ، يجعل المرء يميل إلى أن كلاً من السلاحين ، ظهرا على مسرح التاريخ معا ، أو أن اللجام تأخر قليلا عنهما ، فإن الراوى لم يحدد تاريخ ظهوره أو استعماله .

٣ - طرق الوقاية منها :

مما لا جدال فيه أن كل محارب ، يعمل جاهدا على حماية نفسه من طعنات عدوه ، وقد سبق أن عرفنا الآلات ، التى تقاوم بها السهام والرماح والسيوف ، ولكن السلاح الذى يخشى خطره فى البحر هو النفط (زيت البترول) ؛ وذلك لسرعة اشتعاله فى القار الذى كانت تطلّى به السفن ؛ ومن ثم كان المحاربون يجتهدون فى دفعه بوسائل عدة : إما أن يعلقوا حول سفنهم اللبود المبللة بالخل والماء ، فلاتشتعل النار فيها ، وإما بأن يبللوها بالخل المزوج بالشب والنظرون ، وإما بأن يطلوا سفنهم بالطين المعجون بالنظرون^(٣٩) .

كما كانوا يقاومون (الكلاب) إذا رُمى إلى سفنهم ، بفأس حادة من الفولاذ ، يضربون بها سلسلته فتقطعها ، فلا يستطيع الأعداء الوصول إليهم^(٤٠) ، وهذا يحدث طبعاً إذا علموا ضعفهم أمام عدوهم ، وفضلوا الترامى عن بعد بالسهم والحجارة ، وإلا فإنهم يحاولون جذبهم إليهم .

ومن عجيب أمرهم أنهم عرفوا وسائل التمويه والإخفاء Camouflage التى

(٣٨) نفس المرجع ص ٢١٦ .

(٣٩) انظر الحسن بن عبد الله فى آثار الأول ص ٢٣٦ .

(٤٠) نفس المرجع ص ٢٣٦ .

تستخدمها الجيوش الحديثة ، في طلاء السيارات ومواقع المدافع بلون يوافق لون أرض المعركة ، حتى تخفى على الأعداء رؤيتها ، فكان القائد البحري إذا اشتد به الخوف ، لجأ إلى الاختفاء ، بأن يصنع لسفنه قلوفا زرقاء توافق لون الماء ، كيلا يظهر من بعد^(٤١) ، فيتم له مبدأ (المباغطة) .

وبعد فهذه كلمة عابرة ، عن الفن الحربى فى الحروب البحرية ، ذكرتها فى هذا الفصل إتماماً للفائدة ، وليبان أن المسلمين كانوا يعتمدون على القوة البحرية ، اعتمادهم على القوة البرية ، ولا أدرى أى السلاحين كان عندهم مفضلاً ؟ فإن النصوص لا تسعف بهذا ، ولكن الذى يفهم من كلام « نورمان بينر » عن الروم ، أن الخدمة البحرية عندهم ، كانت أقل امتيازاً من الخدمة البرية ، وكان الجندى البرى عندهم يتقدم البحار دائماً ، ويغلب على الظن أن الأمر كان بالعكس عند المسلمين ؛ لمشقة الحروب البحرية بالنسبة لهم ؛ ولأنهم كانوا لا يجندون فى الأسطول ، إلا من يختار الخدمة فيه ، فى الوقت الذى كانوا يجندون فيه الجندى البرى على وجه الإلزام .

الفصل السادس غنائم الجند ورواتبهم

تمهيد - الجهاد والعامل المادى :

شُرِعَ الجهاد أصلاً لإعلاء كلمة الله ، ونشر مبدأ التوحيد فى العالمين ، وقد كان بعض المسلمين يطالب به أيام قلتهم ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرهم بكف أيديهم ، فلما كتبه الله عليهم لقدرتهم عليه ، سارعوا إلى بذل النفس والمال فى سبيله ، ينفق سرايتهم من أموالهم ، ويجود فقراؤهم بدمائهم ، فلما شغلهم أمر الجهاد عن أمور دنياهم ، أباح الله لهم المغنم التى ينالونها من أعدائهم ، ليقووا بها على الجهاد ، وليضم إلى ثوابهم الأخرى الآجل ، ثوابهم الدنيوى العاجل ، روى « البخارى » مرفوعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثي أجرهم ، ويبقى لهم الثلث ، فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم ^(١) » .

إذن فالجهاد فى الإسلام واجب شرعى ، مقدم على الغنائم والمكاسب ، وهذا هو ما عناه الرسول ، عندما سأله سائل عن عمل يعدل الجهاد فقال له : « لا أجده » ^(٢) وإنما أبيحت المغنم ، لإعداد السلاح والخيول للعدو ، والتقوية بها على حربه ، يوضح هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مثل الذين يغزون من أمتى ، ويأخذون ما يتقوون به على عدوهم ، كمثل أم موسى ؛ ترضع ولدها وتأخذ أجرها ^(٣) » . ولا شك أن الإرضاع واجب طبيعى ، فيكون الأجر منحة زائدة عن أصل الواجب . ولا يصح لمنصف أن يغفل إغراء العامل المادى فى جهاد المسلمين ؛ فما كانوا جميعاً فى درجة واحدة من الإيمان واليسار ، حقاً إن بعضهم كان يبغى الجهاد رغبة فى الثواب الأخرى فقط ، غير ناظر إلى عَرَض الدنيا ، ولكن منهم من كان يبغى

(١) إرشاد السارى ج ٥ ص ٣٣ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن قتيبة فى عيون الأخبار ج ١ ص ١٣٤ .

ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، وهؤلاء هم الذين عجب « ابن مسعود » لأمرهم، لما رأى تسابقهم للغنائم يوم أحد، ذلك التسابق الذي كان سبباً في كسرتهم فإنه قال : « ما شعرتُ أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها، حتى كان يومئذ^(٤) ». والقرآن نفسه ينطق بهذا المعنى، في قوله تعالى من سورة آل عمران : « وعصيتُم، من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة ».

بل لقد كان فيهم ضعيف الإيمان، الذي يجعل المال همّة الأول، فلا يخرج للغزو إلا إذا أخذ أجره مقدّماً، غير ناظر إلى ثواب الآخرة، يروى « ابن رشيد » أن الصحابيَّ « عبد الرحمن ابن عوف » كلفه الرسول بالخروج في بعض السرايا، فطلب بعض فقراء المدينة للخروج معه، فاعتذر له بأمر عياله وحاجتهم، فأعطاه ثلاثة دنانير لقاء الخروج معه، فلما عادوا من غزوهم سأله نصيبه من المغنم، فاستفتى « عبد الرحمن » الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر الرجل، فأفتاه بقوله : « تلك الثلاثة دنانير، حظُّه ونصيبه من غزوه، في أمر دنياه وآخرته^(٥) ».

مما تقدم نعلم أن الأجر المادي للمحارب، كان ممثلاً في الغنائم، وسلَب القتلى الذين يقتلهم، عملاً بقول الرسول : « من قتل قتيلاً فله سلبه »، وظلت الحال كذلك إلى أن وضع « عمر » الديوان، وحدّد الأرزاق والأعطيات للناس بوجه عام، وللجند بوجه خاص إلى جانب مغانمهم، ثم وُضعت بعد ذلك للجند المرتبات الشهرية، زمن الدولتين الأموية والعباسية، على زيادة فيها ونقص منها، حسب الحالة الاقتصادية، كما سيفصل في هذا البحث، ولكن الذي يعيننا الآن، معرفة مصادر المال للجندى قبل وضع الديوان.

توزيع الغنائم بين الجنود والدولة

لم يكن لتوزيع الغنيمة قبل « بدر » قاعدة ثابتة، فقد وزعت غنائمها بالتساوى بين الجند، بعد أن تنازعوها، والرسول نفسه أخذ كواحد منهم، وكذلك أخذ الثمانية

(٤) أبو الفرج في الأغاني ط الساسي ج ١٤ ص ١٥ . سورة آل عمران آية ١٥٢ .

(٥) ابن رشد في بداية المجتهد ج ١ ص ٣١٣ .

الذين تخلفوا عن المعركة^(٦) بإذنه، ولا يصح أن يكون قاعدة إسلامية رأى « عبد الله بن جحش » الذي غنم مالا قبل بدر في بعض سراياه فقال لأصحابه : « إن لرسول الله خمسَ ما غنمتم^(٧) » قبل أن يفرض الخمس، فقد يكون ذلك موافقة من رآه للتشريع، الذي نزل به القرآن، لبيان أمر المغنم التي تنازع الصحابة فيها، فقد حدد القرآن نصيب الدولة التي يمثلها الرسول، ونصيب المقاتلين في قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خمسَه وللرسول، ولذي القربى، واليتامى والمساكين وابن السبيل^(٨) ». فالآية نصت على أن الخمس حق الدولة، ولم تنص على الباقي.

ولكن سكوتها عن الأخماس الأربعة الباقية، دليل على أنها من حظ المقاتلين، كما أن تفصيل الجواب، هنا يعد إجمالاً لما ذكر في أول السورة « يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول ». وهو يفيد بأن الأنفال هي المغنم، وأن الاختلاف في الأسماء فقط.

ومن هنا نرى أن الإسلام وضع لتقسيم الغنائم قواعد ثابتة سيأتى تفصيلها، ونفذها بحكامه بدقة فائقة، في الوقت الذي كان الروم يجهلون فيه تلك القواعد، كما صرح بذلك الدكتور « فون كريمير^(٩) » عند مقارنته بين النظامين، العربي والرومي.

١ - حظ الدولة من الغنيمة :

كان نصيب الدولة الممثلة في الرسول أو خلفائه، يكاد ينحصر في نوعين يتصرف فيهما الحاكم كما يشاء، وهما : خمس الغنيمة والبقية.

١ - أما الخمس فقد بينت آية الأنفال توزيعه، وجرى العمل بذلك التوزيع أيام الرسول، فكانت الغنائم تجمع ثم تقسم خمسة أقسام : للجنود أربعة منها، ثم يقسم الخمس الباقي خمسة أقسام أيضاً كما في الآية : (١) - الله والرسول. ٢ - ولذي القربى

(٦) البخارى شرح القسطلانى ج ٥ ص ١٨٩، وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٢.

(٧) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٤٦.

(٨) سورة الأنفال : آية ٤١.

(٩) The Giant. p. 332.

٣ - واليتامى ٤ - والمساكين ٥ - وابن السبيل) وروى « أبو يوسف » أن العمل جرى بذلك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم^(١٠)، وبعضهم قال بتقسيمه (الخمس) أربعة أقسام، باعتبار اليتامى والمساكين قسماً واحداً، وبعضهم عدّ هذين مع ابن السبيل قسماً واحداً، وقصره بعضهم في حال الغنى على اليتامى والمساكين وابن السبيل^(١١)، ومن هنا نعلم أن حظ الدولة من الغنيمة، هو خمس الخمس أو رבעه حسب الخلاف المتقدم في تقسيمه، وهو قدر متواضع جداً، إذا قيس إلى مرباع الجاهلية الذي كان يأخذه القائد، ومع هذا كان الخمس يُنفق في حاجات المسلمين، بعد اكتفاء الرسول بالضرورة منه لمعاشه وأهل بيته، يفسر ذلك لنا قوله عليه السلام عندما طالبه أصحابه بأن يُقسم غنائم حنين. « والله ليس لي من فيثكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس (لشعة بغير كانت في يده) والخمس مردود عليكم^(١٢) ». أى ينفق في مصالحهم العامة.

٢ - وأما النية : فهو ما يقع في أيدي المسلمين بلا قتال أثناء طريقهم للغزو، ولم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كما بينت الآية السادسة من سورة الحشر^(١٣)، وهذا حق للدولة ليس للجند فيه نصيب، يرصده الرسول لإغاثة الملهوفين، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، بعد أن يحجز منه نفقة أهله سنة، روى كثير من المؤرخين وأصحاب السير. أن أموال « بنى النضير » التي جلوا عنها، كانت فيثاً خالصاً للرسول فكان يبيع نخلها، فيعزل منه نفقة أهله سنة، ثم يجعل ما بقى في شراء الخيل والسلاح عُدّة في سبيل الله^(١٤)، وجاء كذلك في المصادر الموثوق بها، أنه مما كان خالصاً للرسول، ثلاثة حصون من « خير » وقرية « فدك » التي قاسم اليهود على ثمارها لقاء زراعتها، لعدم توافر الزراع عنده، ولاشتغال أصحابه بالجهاد، وكذلك كانت

(١٠) الخراج ص ١١ .

(١١) نفس المرجع .

(١٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٦ .

(١٣) قال تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم ، فإِ أَوْفَرْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » . وقد عرفه « الماوردي » في الأحكام السلطانية ص ١٢ بقوله : « مال النية ما أخذ عفواً ، ومال الغنيمة ما أخذ قهراً » .

(١٤) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٤١ والطبري ج ٣ ص ١٦٣ والإدريسي .

أموال « بنى قينقاع » فيئاً خالصاً له عليه السلام^(١٥) ، يضعه حيث يشاء ، ولكن « الحلبي »^(١٦) يروى أن الرسول خمسها كالغنيمة تماماً ، لأن آية الحشر التي نزلت في « بنى النضير » لم تكن قد نزلت بعد ، وهذا هو الأقرب للمعقول ، ويظهر أن الذي عدّها في الفء ، نظر إلى أن قاعدته تنطبق عليها ؛ لأن المسلمين لم يقاتلوا فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أعداؤهم من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم^(١٧) ، ولم يعتبر الحصار ومتاعبه قتالاً ، وهل الحصار إلا قتال شديد ؟

ويظهر أن اختصاص الرسول بالفىء ، كان مقصوداً عليه خاصة دون خلفائه ، لأنه لم يكن يتقاضى من بيت المال مرتباً مثلهم ، ولأن حكمته في التصرف كانت فوق حكمتهم ؛ ولذا رأيناه يعمد إلى أموال « بنى النضير » التي جعلها الله له ، فيقسمها على إخوانه المهاجرين ، الذي ضحّوا في سبيله بأموالهم وأرواحهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا من اشتكى منهم فقرا « كأبي دُجّانة » مثلاً ، وإن كان قد استرضى نفوسهم أولاً بقوله لهم : « إن إخوانكم المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن شئتم قسمت هذه الأموال ، التي أفاء الله علىّ مع أموالكم بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتكم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة ، فقالوا : بل اقسم هذه فيهم ، واقسم لهم من أموالنا ما شئت^(١٨) » . وكان قد سئل في تخميسها من قبل فقال : « لا أخمس شيئاً جعله الله لى دون المؤمنين ، وذلك عملاً بآية الحشر السابقة .

وبهذه المناسبة يصح التنبيه ، إلى أن الفىء بهذا المعنى السابق ، من تحديد المفسرين والمؤرخين ، وإن كان يستعمل أحياناً في معناه الأعم ، فيشمل كل ما يكسبه المسلمون من عدوهم ، ما عدا الأرضين ، يروى صاحب « الحراج »^(١٩) أن « عمر بن الخطاب » كتب إلى قائده سعد : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر ، ومن كُراع أو مال ، فقسّمه بين

(١٥) انظر الكامل ج ٢ ص ٩٣ ، وإرشاد السارى ج ٥ ص ٢٢٨ وطبقات ابن سعد ج ٢

ص ٢٠ .

(١٦) السيرة الحلبيّة ج ٢ ص ٢٨٣ .

(١٧) تفسير « ابن كثير » ط ١٣٥٦ هـ - ١٩١٧ ص ٣٣٥ .

(١٨) الطبرى ج ٣ ص ٩٣ والسيرة الحلبيّة ج ٢ ص ٢٨٢ ، ٨٣ .

من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار بعمالها ، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين » . ولعله قد لوحظ في اسم النوى معنى الرجوع للمسلمين ، أو التفيؤ بنعمة الإسلام ، كما ذكر الدكتور « الرئيس » في كتابه عن الخراج^(١٩) .

بل إن النوى عند « أبي يوسف » يشمل خراج الأرض أيضاً، حسب المفهوم من قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل^(٢٠) » ولأن هذا التوزيع نفسه ، هو توزيع خمس الغنائم ، الذى فُصل في سورة الأنفال « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسَه وللرسول ولذى القربى^(٢١) » الآية ، مما يشعر بأن النوى أعم من الغنيمة ، وأوسع منها مفهوماً .

وقد سميت المغنم أيضاً بالأنفال ، وبها سميت سورتها ، ولكننا نعرف أن النفل في اللغة الزيادة في كل شىء ، والنفل الزائد عن الفرض ، ويقال : نفلته القائد كذا ، أى أعطاه مالا زائداً على سهمه لإجادته القتال ، ومن هنا يصح أن نفهم أن الله سماها الأنفال في السورة ، للإشارة إلى أنها زائدة عما فرض الجهاد لأجله ، من إفساح الطريق لكلمة التوحيد ، فلا ينبغي أن يتنازع فيها المجاهدون ، ويصح أن نستأنس هنا بما نقله « ابن رشد » من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعث سرية إلى نجد فغنموا إبلا كثيرة ، فكانت سهمانهم اثني عشر بعيراً ، ثم نقلوا بعيراً بعيراً^(٢٢) ، أى أخذ كل منهم بعيراً زيادة على سهمه من الغنيمة .

هذا وتشير بعض المصادر ، إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان يصطفى لنفسه بعض أشياء من الغنيمة ، فيذكر « ابن سعد »^(٢٣) أنه اصطفى من غنائم بدر سيفه المسمى « ذا الفقار » وجملًا كان لأبي جهل ، ويذكر صاحب « تاريخ الخميس »^(٢٤) وغيره ، أنه اصطفى من غنائم خيبر السيدة « صفية بنت حيي » فلما

(١٩) أبو يوسف ص ص ١٣ ، ١٤ .

(٢٠) سورة الحشر : آية ٧ .

(٢١) الأنفال : ٤١ .

(١٩) التاريخ المالى للدولة الإسلامية ص ١١١ ط مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ وفيه بحث قيم

عن الغنيمة والنوى والخراج والجزية .

(٢٢) بداية المجتهد ج ١ ص ٣١٦ .

(٢٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١ .

(٢٤) الديار بكرى ط ١٣٠٢ ج ٢ ص ٦٢ .

أسلمت أعتقها وتزوجها ، وجعل عتقها صداقها ، وتُغالى بعض المراجع فتذكر أن ذلك كان يؤخذ من الغنيمة قبل قسمها ، فقد روى « النويرى »^(٢٥) « أن « خالد ابن الوليد » لما أرسل من تبوك إلى دومة الجندل ، غنم أموالا كثيرة » فعزل للنبي صلى الله عليه وسلم صفيا خالصا ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ما بقى بين أصحابه . وهذا نص يخالف روح التشريع الإسلامى ، الذى يحرم على المسلم أخذ شيء من الغنيمة قبل قسمها ، فى قوله تعالى : « وما كان لنبى أن يغُلّ ومن يغُلّ يأت بما غُلّ يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون »^(٢٦) .

وليس من المعقول ولا من العدل ، أن يحرم الرسول شيئا على أتباعه ثم يُجلبه لنفسه ، وإلا فما استأهل الرسالة ، وإنما المعقول إن صحت روايات الصفايا ، أنه كان يختار ذلك لنفسه ، من سهمه الذى يخصه ، بحيث يُحسب فيه عند التوزيع ، فقد كان كواحد من أصحابه ، وعلى هذا الأساس وزع غنائم بدر ، قبل نزول سورة الأنفال ببيانها .

ب - حظ الجندى من الغنيمة :

كان نصيب الجندى الإسلامى قبل وضع الديوان ، ينحصر فى ثلاثة أنواع :

- ١ - أسهمه التى تُقسم له من الغنيمة .
 - ٢ - النفل الذى يُخصّ به إذا أجاد القتال .
 - ٣ - السلب الذى يأخذه من قتيله .
- ١ - أما عن توزيع الأسهم : فإن الغنائم كانت تجمع بعد تتبع المهزمين ، ثم توضع فى يد شخص أمين حاسب ، يسمى « صاحب الأقباض ، أو صاحب النفل »^(٢٧) وجرى العمل بذلك منذ عرف المسلمون القتال ، وكانت أمانة الجند وخشيتهم للغلول من المغنم ، تدفعانهم إلى تسليم كل ما جمعتهم أيديهم إلى « صاحب الأقباض » حتى الإبرة ، بخلاف ما عُنى لهم فيه ، كالأكل بالمعروف وعكف الحيوان ، قال القاضى « أبو يوسف » : « ولا بأس بأن يأكل المسلمون مما يصيبون من المغنم

(٢٥) نهاية الأرب ج ١٧ ص ٣٥٦ ، ٥٧ .

(٢٦) سورة آل عمران : آية ١٦١ .

(٢٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٧ والإدريسى فى التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٨٠ .

من الطعام ، ويعلفون دوابهم . . . وإن احتاجوا أن يذبخوا من الغنم والبقر ، ذبحوا وأكلوا ، ولا خمس فيما يأكلون ويعلفون ، كذلك كان أصحاب الرسول يفعلون^(٢٨) . وبسبب هذا التيسير بلغت أمانة الجند زمن الفتوح ، حدًّا استدعى إعجاب الخليفة « عمر » لما رأى نفائس الفرس التي أرسلوها إليه ، يروى « الطبرى » أن بعض الجند جاء لصاحب الأقباض ، بحقّ فيه أحجار كريمة لا تقدّر بمال ، من غنائم عاصمة الفرس (المدائن) فسأله : هل أخذت منها شيئاً ! فقال : « والله لولا الله ما أتيتكم به »^(٢٩) وهي إجابة تحمل في طيها الأمانة وتقوى الله في أسمى صورهما . ولقد دعت أمانة الجند بعض من شهد (القادسية) أن يبالغ في تقديرها فيقول : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية ، أنه يريد الدنيا مع الآخرة^(٣٠) » . وهذا قسم بطبيعة الحال فيه ما فيه ، لأن التاريخ نفسه لا يؤيده ، وطبائع البشر تعارضه .

وأيا ما كان الأمر ، فإن الغنيمة كانت تجمع ، ثم يقوم المكلف بها بتقسيمها خمسة أقسام ، فيحجز قسماً لبيت المال وهو حق الدولة ، ثم يقسم الأربعة الباقية بين الجند المقاتلين أسهما ، والذى عليه إجماع الأئمة « مالك والشافعى وأحمد » أن الأسهم كانت توزع ، بحيث يأخذ الراجل سهماً واحداً ، والفارس ثلاثة أسهم : سهم له وسهمان لفرسه^(٣١) . وخالف أبو حنيفة فجعل للفارس سهمين فقط . وقد علق « ابن رشد » على تأييد هذا الإجماع بقوله : « وغير بعيد أن يكون تأثير الفارس بالفرس ثلاثة أضعاف تأثير الراجل ، بل لعله واجب »^(٣٢) وقد يكون أراد من ذلك الوجوب ، أن يؤكد أن الفرس عليه المعول في مراحل المعركة الثلاث : فعليه العماد عند بثّ العيون والطلائع قبل الاشتباك ، وعليه العماد عند الكرّ والفر ، وحماية الأجناب خلال المعركة ، ثم عليه العماد عند مطاردة الفارين

(٢٨) الحراج له ض ١٢٢ ط بولاق سنة ١٣٠٢ هـ .

(٢٩) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٦ .

(٣٠) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٦ .

(٣١) ابن رشد في البداية ج ١ ص ٣١٤ ، والشعرانى في الميزان ج ٢ ص ١٧٣ ، والكلبي في نسب الخيل ط ليدن ١٩٢٨ م ص ٢ فقد قال فيها في بيان حض الرسول على اقتناء الخيل : « وفضلها في السهمان على أصحابها ، فجعل للفارس سهمين ولصاحبه سهماً ، فارتبطها المسلمون وأسرعوا إلى ذلك » .

(٣٢) بداية المجتهد له ج ١ ص ٣١٤ .

في حال النصر ، أو النجاة بصاحبه من الموت في حال الهزيمة ، أما الراجل فغناؤه عند الاشتباك الفعلي والمبارزة ، وهو ثلث المراحل الرئيسية للمعركة .
على أنه مما يؤيد إجماع الأئمة ، أن عمل الرسول وأصحابه والتابعين كان موافقا ، له ، فأصحاب المغازي والمؤرخون ، مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما قسم غنائم « بنى قريظة » جعل للفارس ثلاثة أسهم : سهماً له وسهمين لفرسه وللراجل سهماً واحداً (٣٣) .

وروى « الطبرى » أن سهم الفارس من جند « العلاء » يوم « دارين » بلغ ستة آلاف ، وسهم الراجل ألفين ، كما روى أنه بلغ في معركة (ذات السلاسل والثني) للفارس ألف درهم ، وكان الراجل على الثلث من ذلك (٣٤) ويظهر أن هذا التفريق كان للتشجيع على اقتناء الخيل ، وزيادة العناية بها ، ولذا كان بعض الصحابة ، يصحب معه أكثر من فرس في معاركه كلها .

ومما يزيد إجماع الأئمة قوة ، أن تلميذ أبي حنيفة ، الذى جعل للفارس سهمين فقط ، خالفه في رأيه ، وقرر في كتابه « الخراج » (٣٥) أن يجعل للفارس ثلاثة أسهم : سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم ، وإن كان قد رجع إلى رأى أستاذه أخيراً ، بقصد التوسعة في الفتوى على الخليفة المستفتى « هرون الرشيد » ليفعل أى الأمرين شاء .

ومما يدل على ارتفاع أسهم الخيل ورغبة الناس في اقتنائها لذلك ، أن بعض الفرسان كان يحارب على فرسين بالتناوب ، ثم يأخذ لهما أربعة أسهم ولنفسه سهماً واحداً ، كما فعل « الزبير بن العوام » في فتح « خيبر » وقد صنع الصنيع نفسه في فتح الشام ، وأراد أن يأخذ الأسهم الأربعة ولكن « أبا عبيدة » منعه ، عملاً بفتوى الخليفة (٣٦) عمر ، وربما كان ذلك لأن الإسلام صار عزيزاً ، وليس محتاجاً إلى تكثير الخيل ، ولأن فتح هذا الباب ، قد يؤدي إلى تعداد الخيل للفارس الواحد أكثر من

(٣٣) الطبرى ج ٤ ص ١٨٧ وطبقات ابن سعد ج ٢ ص ٤٦ والكامل ج ٢ ص ٧٧ وتاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢١٥ والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٦٣ وذكر الماوردى في الأحكام السلطانية ص ١٦٢ أنه كان مع الرسول في (خيبر) ٢٠٠ فارس أعطاهم ٦٠٠ سهم و ١٢٠٠ راجل أعطاهم ١٢٠٠ سهم فكانت جميع السهام ١٨٠٠ سهم .

(٣٤) تاريخه ج ٣ ص ٢٦٠ ، ج ٤ ص ٧ .

(٣٥) أبو يوسف ص ١٠ ، ١٢١ .

ذلك ، فيتحول الغرض من الجهاد ، إلى الاستكثار من الخيل لجمع المال ، وهي نظرة حكيمة عادلة من الخليفة .

ولعل هذه الحادثة ونظائرها ، هي التي جعلت « الطبرى وابن سعد »^(٣٧) يقرّان أنه لم يكن يسهم للخيل إذا كانت مع الرجل ، إلا لفرسين ، وبذلك قال الإمام « أحمد » ولكن « ابن رشد » نقل إجماع الأئمة الثلاثة ، على أنه لا يسهم إلا لفرس واحد ، وهو الحكم الذى يساير تطور الإسلام ، ويراعى مقتضى الحال في معارك المسلمين .

وقد دعت العناية بالفرس ، إلى اختلاف الفقهاء في حكمه ، فقد فرقوا بين العربى منه والهجين ، وقال بعضهم : « لا يسهم إلا للفرس العربى فقط » كما روى « ابن رشد » كما فضلوه على البرذون والبعر ، فيرى الإمام « أحمد » أنه يأخذ سهمين ، والبرذون سهم واحد ، والبعر كذلك ، مع أن الثلاثة متفقون على أنه لا يسهم للبعر ، وهناك خلافاً فقهية في هذا الصدد ، حُشيت بها كتب السنة والفقهاء ، لا داعى للإكثار منها هنا ، وليرجع إليها من يريد التوسعة .

٢ - وأما النّفْل : بتحريك الفاء وجمعه أنفال ، فهو شىء من المال غير محدود ، يعطيه القائد مكافأة لمن أجاد القتال ، زيادة على سهمه ، تشجيعاً له واستحثاً لغيره ، ويكون ذلك في أشهر الأقوال من خمس الغنيمة قبل قسمها^(٣٨) ، فقد بعث الرسول سرّية إلى نجد فغنموا إبلا كثيرة ، فكان سهم كل منهم اثني عشر بعيراً ، ثم نفلوا بعيراً بعيراً^(٣٩) ، والوقائع التاريخية في ذلك كثيرة .

٣ - أما سلب القتيل : فهو ما معه من فرس وسلاح وملابس ونفائس ، وقد جرت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأن يجعل سلب القتيل لقاتله ، فإن نازع القتال فيه أحد قضى بينهما ، فقد تنازع شابان يوم بدر في سلب « أبى جهل » فقضى الرسول بقسمته بينهما ، لما عاين سيفيهما ، وثبت عنده اشتراكهما في قتله ،

(٣٦) الواقدي في فتوح الشام ج ١ ص ١٤٣ .

(٣٧) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٨ والطبقات ج ٢ ص ١١٠ .

(٣٨) الطبرى ج ٣ ص ١٣٦ وإرشاد السارى ج ٥ ص ٢١٤ .

(٣٩) ابن رشد في بداية المجتهد ج ١ ص ٣١٦ ، والماوردي في نهاية الأرب ص ١٣٣ وقد بالغ

فذكر أن فارساً قتل عشرين وأخذ أسلابهم ؟

ويومها أيضا قضى « لأبي قتادة » بسلب قتيله لما أخذه غيره ، فأخذ الدرع وباعها بسبع أواق اشترى بها بستانا^(٤٠) .

وقد كانت الأسلاب تُدفع لأصحابها بالغة ما بلغت ، لدرجة أن بعض المسلمين يوم القادسية باع سلب قتيله باثنى عشر ألف درهم (أى بحوالى ٤٨٠ جنيها) على أن الدرهم يساوى فرنكا تقريبا كما سيأتى بيانه ، وهو مبلغ يصح أن يكون وحده ثروة ، ولكن إذا زاد السلب زيادة غير معقولة ، فمن حق الأمير أن يخمسه بين الجند كالغنيمة ، وقد ظهر ذلك فى أسلاب الفرس والروم ، الذين كانوا يخرجون للمعارك بالأسورة الذهبية ، ويحلون سلاحهم بكرام الجواهر وغيرها ، يروى « ابن رشد » عن بعض حروب الفرس ، أن البراء بن مالك « قتل مرزبانا » فارسيا وأخذ سلبه الذى قُدر بثلاثين ألفا (١٢٠٠ جنية تقريبا) فلما بلغ ذلك الخليفة « عمر » قال فى أصحابه : « إنا كنا لا نخمس السلب ، وإن سلب البراء بلغ مالا كثيرا ، ولا أرانى إلا خمسته^(٤١) » وبذا وضع الخليفة مبدأ تخميس السلب إذا بلغ حداً كبيراً ، أو زاد زيادة غير معقولة .

ح - حظ النساء والأتباع والذميين :

اعتاد المسلمون كثيرا أن يخرجوا للحرب بنسائهم ، آخذين معهم بعض العبيد والغلمان ، لنقل الأمتعة ورعى الماشية ، وكان كثير من النساء والعبيد والأطفال ، يؤدون للجند خدمات جليلة ، إما بالاشتراك فى القتال ، وإما بتمريض الجرحى ونقلهم ، ودفن الموتى ، كما سبق بيانه فى الفصل الثانى ، عند الكلام على القوات المدنية الملحقه بالجيش ، وكان بعض الذميين أيضاً يشتركون مع المسلمين فى القتال ، لأغراض ليس هنا مكانها ، فكان هؤلاء وأولئك يأخذون قدرا من الغنيمة ، وهو شئ يقدره القائد ولا يبلغ به سهم المقاتل ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطى النساء اللاتى يحضرن معه القتال ، أقل من سهم الرجال^(٤٢) ، وكان « عمر » يعطى

(٤٠) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٩١ ، وتاريخ الطبرى ج ٤ ص ٧ ، وشرح القسطلانى ج ٥

ص ٢٢٣ .

(٤١) بداية المجتهد ج ١ ص ٣١٢ .

(٤٢) البخارى شرح القسطلانى ج ٥ ص ٨٤ ، ٨٥ والطبرى ج ٣ ص ٩٦ والحلبى ج ٢

ص ٣٦٣ .

العبيد من الغنينة شيئاً لا يبلغ السهم ويقول : « ليس أحد إلا وله في هذا المال حق ، إلا ما ملكت أيما نكم » . وحكى « أبو بيوسف » أن الذمي والعبد والمرأة ، يُرضخ لهم من الغنينة ، أى يأخذون قدراً لا يبلغ السهم^(٤٣) ، بل إن الأئمة غير مالك مجمعون على أنه « يُرضخ لمن حضر الغنينة من مملوك وصبي وامرأة وذي ، بشيء يجتهد الإمام في قدره ، ولا يبلغه له سهما^(٤٤) » .

المرتبات بعد وضع الديوان

(١٥ هـ - ٦٣٧ م)

١ - في عهد « عمر بن الخطاب » الزاهر ، أدرك المسلمون أن لا بقاء لدولتهم ، إلا بالقضاء على مصادر القوة التي تهددهم من حولهم ؛ ومن أجل ذلك تقدمت الجيوش الإسلامية في البلاد شرقاً وغرباً ، تفض الحصون المنيعه ، وتحوى كنوز الفرس والروم ، حتى تدفقت الأموال على المدينة كأنها السبيل ، فهذا المال من أخماس الغنائم ، وذلك من الزكاة بأنواعها المختلفة ، والثالث من الجزية المفروضة على الذميين ، والرابع من خراج الأرض المترعة ، إلى غير ذلك من عشور التجارة والمكوس ، وغير ذلك من مصادر الخير ، التي كانت تدر على الدولة مالا وفيرا ، وكان الخليفة يرى أن لكل مسلم في هذا المال حقاً ، وأنه ملزم أمام إلزامهم بالجهاد ، أن يضمن لهم رزقهم ورزق عيالهم ، لتصلهم حقوقهم مكرمين ، وقد أثر عنه في ذلك قوله : « لئن بقيت ليأخذن الراعي بصنعاء ، حقته من ذلك النىء ودمه في وجهه ، وقوله « أما والله ، لئن بقيت لأرامل أهل العراق ، لأدعهن لا يحتجن إلى أحد بعدى^(٤٥) » .

بدافع من ذلك الغرض السامى ، وضع الخليفة ديوان المسلمين بصفة عامة ، وديوان الجند بصفة خاصة ، ولم يعبأ باعتراض « أبى سفيان » الذى قال له : « إنك إذا فرضت للناس ، تركوا التجارة واتكلوا على الديوان » فأجابه قائلاً :

(٤٣) الخراج له ص ١٢٢ .

(٤٤) الشعراني في الميزان ج ٢ ص ١٧٤ ، والرضخ عطاء غير مقدر .

(٤٥) أبو سيف في الخراج ص ص ١٢ ، ٢١ .

« لا بد من هذا فقد كثر فيء المسلمين ^(٤٦) » .

هذا وقد اختلف الباحثون في تقدير المرتبات السنوية ، التي كانت تمنح للجند في عهده ، فيرى الدكتور « كريم » ^(٤٧) أن الحد الأدنى للمحارب ، كان يتراوح بين ٦٠٠ ، ٥٠٠ درهم سنوياً ، ويرى الأستاذ « زيدان » ^(٤٨) أن مرتبات الجند كانت تتراوح بين ٥٠٠ ، ٣٠٠ درهم سنوياً ، غير ما كان يدفع لنسائهم وأولادهم ، وما فرض لهم من الخنطة ، وهو (جريبان) ^(٤٩) لكن واحد من الشهر ، وأن رواتب الضباط كانت تتراوح بين ٥٠٠٠ ، ٤٠٠٠ درهم سنوياً ، وقد ذكر الرواتب أيضاً « جوستاف لوبون » ^(٥٠) وجعلها تتراوح بين ١٠٠٠ درهم و ٣٠٠ درهم ولم يميز بين مرتبات الجند ومرتبات الأمراء (الضباط) .

ولكن الذي يرجع إلى ما كتبه « الطبرى وابن الأثير وابن خلدون » ^(٥١) وغيرهم من المؤرخين عن وضع الديوان ، يجد تفصيلاً كثيراً ، حسبنا منه أن نعرف أن الفاروق رتب أسماء الجند في دفاتره ، وقدر أرزاقهم حسب السابقة في الإسلام ، والقراءة من رسول الله ، ثم البلاء في الفتوح الإسلامية ، فكانت الأرزاق على الوجه الآتى في الترتيب التنازلى :

- ١ - أهل بدر ، لكل منهم ٥٠٠٠ درهم سنوياً .
- ٢ - من جاء بعد بدر إلى (الحديبية) ٤٠٠٠ درهم .

(٤٦) الكامل ج ٣ ص ٤٥٧ .

(٤٧) Orient under the Caliphs. p. 316.

(٤٨) تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٤٤ .

(٤٩) الجريب وحدة مساحة كالقدان ، والمقصود ما ينتجه من الجيوب ، وهو كما فسره (الماوردى) في الأحكام السلطانية ص ١٢٣ ونقل عنه (زيدان وثابت) يساوى ١٠ - ١٠ = ١٠٠ قصبه ، والقصبه ٣٦ ذراعاً ، فيكون الجريب = ٣٦٠٠ ذراع مكسرة (مربعة) هذا هو الجريب المقيس أما الجريب المكمل فقد قدره صاحب القاموس بأربعة أقدرة كيلا ، وإذا كان القفيز عنده يساوى ٨ مكايك ، والمكوك صاع ونصف ، والصاع أربعة أمداد متوسطة ، فالقفيز إذن = ٤٨ مدا = ٢ كيله ، والجريب = ٨ كيلات لأنه أربعة أقدرة ، فيكون للفرد في الشهر من الخنطة ١٦ كيله ، وهو قدر كبير إن صح هذا الحساب . وذكر الماوردى أن مساحة القفيز ١٠ قصبات في قصبه (٣٦٠ ذراعاً) وأن العشير قصبه في قصبه فتكون مساحته ٣٦ ذراعاً أنظر الخراج في الدولة الإسلامية للدكتور الرئيس (ص ص ٢٦٤ وتواليها ، ٢٩٤ وتواليها .

(٥٠) حضارة العرب ص ١٦٩ .

(٥١) انظر الطبرى والكامل - حوادث سنة ١٥ هـ ومقدمة ابن خلدون ص ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

- ٣ - لمن بعدها إلى أن أقطع « أبو بكر » عن أهل الردة ٣٠٠٠ درهم .
 ٤ - أهل الشام وأهل القادسية ٢٠٠٠ درهم .
 ٥ - الذين بعد القادسية واليرموك ١٠٠٠ درهم .
 ٦ - من جاءوا بعد ولم يشهدوها وهم (الروادف) من ٥٠٠ إلى ٢٠٠ درهم .
 ونحن إذا علمنا أن الفاروق ، كان يسند الإمارات والقيادات إلى السابقين
 الأولين ، وينحى عنها من مسته شائبة في حركة الردة ، استطعنا أن نفهم أن مرتبات
 الضباط العظام كانت تتراوح بين ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ في العام كما ذكر الأستاذ
 « زيدان » .

وإذا علمنا أيضا أنه ألزم الجند بالجهاد، منذ القادسية واليرموك، وأنه حدد لهم
 المرتبات ، ونهاهم عن التجارة والزراعة ، وعاقب المشتغلين بها ، وضمن لهم أرزاق
 عيالهم ، إذا علمنا هذا استطعنا أن ندرك أن مرتبات عامة الجند ، كانت تتراوح
 حسب طبقاتهم بين ١٠٠٠ و ٢٠٠ درهم ، ولا يدري المرء بعد ذلك ، كيف حدد
 الدكتور (كريم) الحد الأدنى بمبلغ ٥٠٠ أو ٦٠٠ درهم؟ ولعله أخذ المتوسط بين
 ألف درهم ومئتي درهم، وهما الحدان الأعلى والأدنى لمرتبات عامة الجند بعد القادسية.
 وإذا فرضنا أن متوسط المرتب لعامة الجند كان ٥٠٠ درهم في العام، استطعنا
 أن نقدر مرتب الجندى في ذلك الوقت ٤٢ فرنكا في الشهر ، لأن الدكتور
 « كريم »^(٥٢) يذكر أن الدرهم كان وقتها يساوى فرانكا على الأقل ، وبذا يكون
 مرتب الجندى الشهرى حوالى (٢٠٠ قرش) وهو مرتب كان في وقته يزيد أضعافا
 عن مرتب الجندى البيزنطى المعاصر ، الذى كان يتراوح بين ١٢ - ١٨ دينارا
 فى السنة^(٥٣) أى من ١٢٠ - ١٨٠ درهماً، على أن الدينار يساوى ١٠ دراهم فى
 المتوسط ، فيكون مرتبه الشهرى (حوالى ٥٠ قرشا) أى ربع مرتب الجندى العربى
 ومع ذلك كان لا يحصل على مرتبه ، إلا كل ثلاث سنوات أو أربع ، كما قرر
 « زيدان » وكما قرر « نورمان بينز » الذى ذكر أن مرتبات الجنود البيزنطيين ،
 كانت تتأخر عن مواعيدها باستمرار ، وكانت حاجيات الجند غير كافية ، بشكل
 لا يشرف ، وهذا اعتراف له قيمته من مؤرخ غربى منصف .

(٥٢) الشرق فى حكم الخلفاء ص ٣١٦ .

(٥٣) زيدان - تاريخ المدن ج ١ ص ١٤٦ .

وبمقارنة مرتبات القادة والضباط ، بمرتبات الخليفة والأمراء ، نجد أن الفرق بينهما قليل ، مما يدل على أن الفاروق عمر ، كان يعمل على التقريب بين الطبقات ونشر روح الديمقراطية والاشتراكية بينهم ، فقد كان متوسط مرتب الضباط ٤٠٠٠ درهم ، وكان مرتب الخليفة « أبي بكر » ٦٠٠٠ درهم ، ثم تقاضى الفاروق من بعده المقدار نفسه ، فلما زاد المال باتساع الفتوح ، عرض عليه بعض الصحابة أن يزيدوا في مرتبه ، ولكنه رفض اقتراح الزيادة غاضباً^(٥٤) ، واكتفى بمبلغ ٢٠٠ جنيه سنوياً أى حوالى ١٧ جنيه فى الشهر ، عاملاً بمبدأ الزهد والقناعة ، لأنه مرتب يقارب مرتب والى مكة « عتّاب بن أسيد » الذى استعمله الرسول عليها ، ورزقه ديناراً فى اليوم (أى ١٠ دراهم أو ٤٠ قرشاً ، أى حوالى ١٢ جنيه فى الشهر) كما روى « ابن هشام » فانظر الفرق بين مرتب الخليفة ، ومرتب عامل على مدينة واحدة ؟ ! .

ومما يدل على أن عمر كان عازماً التسوية بين الجند ، ما رواه « الطبرى »^(٥٥) من قوله : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف : ألفاً يجعلها الرجل فى أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها ، فمات قبل أن يفعل » . وروى عنه أيضاً أنه كان يفرض للأسراء الذين يشتركون فى الحرب ، أعطيات تعادل أعطيات سادتهم^(٥٦) ، بلا تفرقة بين الطبقات .

ومع أن الجند كانوا يتقاضون مرتباتهم تلك السخية ، التى لم تصل إليها مرتبات الروم أو جنودنا المعاصرين ، فإن الخليفة « عمر » كان لا يستكثر عليهم سهمانهم وأسلابهم المناسبة ، وما جلبته لهم سيوفهم ، فقد كتب مرة إلى بعض قواده ، أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم ، فقال له : « إنا قد فعلنا وبقي شئ كثير » . فكتب إليه مشتداً عليه « أنه فيؤهم الذى أفاء الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر ،

(٥٤) انظر الطبرى ج ٤ ص ص ٥٤ ، ١٦٤ ، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٧ ، وقارن مرتب الخليفة بمرتب (يزيد بن الحكم) الذى ولاه (الحجاج) من قبله على فارس فإنه أجرى له عشرين ألف درهم أى حوالى ٨٠٠ جنيه سنوياً ، ٦٦ جنيه شهرياً .

(٥٥) تاريخه ج ٤ ص ١٦٣ .

(٥٦) نعمان ثابت : الجندية ص ٨٩ ، وفى لسان العرب أن العطية تجمع على عطايا وأعطية ، وتجمع هذه على أعطيات (مادة عطا ج ١٩) وقال فى مادة (رزق ج ١١) أن الرزق العطاء ، وأرزاق الجنود أطماعهم ، وارتزق الجند أخذوا أرزاقهم ، وفى الخراج لأبى يوسف ص ١١٥ ومحاضرات الحضرة ج ٢ ص ٨٩ أن الأرزاق هى المرتبات ، ومن هنا يظهر أنها مترادفات لشئ واحد .

فأقسمه بينهم^(٥٧) .

لهذا أثرى الجند في عهده رضى الله عنه ، وصار الجهاد من أرباح الحرف كسبا ، فأقبل الناس عليه ، في الوقت الذى أقيمت عليهم البلاد المفتوحة بخيراتها وكنوزها فامتألت أيديهم بنفائس الفرس والروم ، وصاروا يزهدون فيما دون تلك النفائس من مال ، ويجلى لنا تلك الحقيقة واضحة ، قول « المثني » لجنده لما انتصروا في معركة « البويب من مال » وأقبلوا على الغنائم يجمعونها : « لا تأخذوا إلا الذهب والفضة ، ولا تأخذوا من المتاع إلا ما يقدر كل منكم حملاً على دابته »^(٥٨) وقد يكون القائد قصد من هذا - غير إظهار يسارهم - ألا يُثقلوا أنفسهم بالغنائم ، التي تعوق حركتهم في المعارك ، وتجعلهم حراساً عليها ، دائمى التفكير فيها ، والدفاع عنها دون من ينالها بسوء ، فيشغلهم ذلك عن القتال الحق .

ولعل ثراء الجند الملحوظ ، كان ضمن الأسباب التي منعت الخليفة « عمر » عن قسمة الأرض المفتوحة بين فاتحيها ، فإنه كان يتركها بيد أهلها يزرعونها ، ويأخذ منهم خراجها^(٥٩) ، ليكون ثمرة باقية في أيدي المسلمين ، ولهذا السبب أيضاً استرد من قبيلة « بجيلة » رُبُع سواد العراق ، بعد أن زرعه ثلاث سنوات ، وكان قد وهبه لهم فوق سهامهم لقاء حربهم مع « المثني » هناك^(٦٠) ، وفاءً منه لهم بشرطهم ، ولكنه راجع نفسه ، وخشى أن يستقر الجند في أراضيهم ، فيتكاسلوا عن الجهاد ، كما خشى أن يتفاسد الناس بالتنازع على المياه ، وأن تضيق الأرزاق على ذرية المسلمين اللاحقين ، فمنع توزيع الأرض ووقفها لمصالح الناس ، والإنفاق عليهم من غلاتها ، أخذاً من قوله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان » . . .

٢ - وفي عهد الخليفة الغنى « عثمان » زاد غنى الجنود ، لأن عجلة الفتح مضت في اندفاعها ، فانضم إلى الدولة الناشئة أقطار غنية مثل « إيران وأذربيجان وأجزاء من أرمينيا^(٦١) » وغيرها ، فأتى المال لعثمان فيضاً من كل وجه ، حتى اتخذ له الخزائن

(٥٧) الكامل ج ٣ ص ٤٥٣ .

(٥٨) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٧٩ .

(٥٩) إرشاد السارى ج ٥ ص ٢٠٨ .

(٦٠) الطبرى ج ٥ ص ٤٩ ومروج الذهب ج ٢ ص ٣١٨ .

(٦١) فيليب حتى ، تعريب نافع ج ١ ص ٢١٧ .

وجعل عليها الحراس ، فزاد أرزاق الناس ، ورفع مرتب كل جندي ١٠٠ درهم عن ذى قبل^(٦٢) ، وقد استكثر تلك الزيادة « سعيد بن العاص » وناقشه كثيراً في إنقاصها ، ولكنه لم يقبل ذلك منه وأمضاها .

وتبعاً لثراء الحكومة أثرى الجند كثيراً في عهده ، وأقبل المحبون للمال على جمعه ، حتى بلغت ثروة بعض كبار الجند في عهده حداً خيالياً ، لا يكاد يصدقه الباحث المدقق ، فقد روى « القسطلاني » شارح البخاري^(٦٣) ، أن « الزبير بن العوام » كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، وكان له أرض بالمدينة تسمى (الغابة) بيعت في دينه بعد وفاته ، بمبلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ درهم ، وكان له بها إحدى عشرة داراً ، وداراً في كل من البصرة والكوفة ومصر .

هذا مثل من أمثال كثيرة ، تركت إيرادها تخففاً ، وهو يوضح لنا أن الضباط والجند في عهد « عثمان » بلغوا من اليسار حداً ، لم يحلم به جنود جيش من الجيوش ، قديماً أو حديثاً ؛ وذلك لوفرة المرتبات ، ونفاسة الغنائم التي كانت تقسم على المحاربين .

٣ - أما فترة حكم الإمام « علي » فلا يصح أن تجعلها مقياساً لتشريع ثابت ، لأنها كانت مملوءة بالحروب الأهلية ، والمنازعات والقلاقل ، التي تنافي عادة مع استقرار الأحوال ، وبخاصة فيما يتعلق بالمرتبات ، ويغلب على الظن أن العطاء في تلك الفترة ، ظل خاضعاً لقواعد الفاروق غالباً ، رغم السخاء المالي الذي عرف به « معاوية » ليجمع الناس حوله ، ورغم الاقتصاد الورع الذي عرف به « علي » فقد ذكر عنه بعض الباحثين^(٦٤) أنه سوى بين الجند في العطاء ، ولكنه لم يذكر مرجعه ، ولم يوضح لنا مقدار ذلك العطاء ، ومن هنا نعرف أن المرتبات كانت تابعة للعوامل الاقتصادية والدينية في هذا الاضطراب ، كما تبعت العوامل السياسية والإقليمية أيضاً .

(٦٢) الطبري ج ٥ ص ٤٥ والنجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٧ .

(٦٣) إرشاد الساري ج ٥ ص ٢١١ ، ١٢ .

(٦٤) الضابط « نعمان ثابت » في الجندية ص ٩١ .

المرتبات في الدولة الأموية

(٤١ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٥٠ م)

انتهى أمرُ النزاع بين «علي ومعاوية» بقتل الأول غيلة بأيدي الخوارج، وتتمام الأمر للثاني ، وبخاصة بعد تنازل (الحسن) عن الخلافة له ، وقد كان جل اعتماد «معاوية» على عرب الشام . وبخاصة القبائل اليمنية ، التي كثيراً ما كان أفرادها يدلون عليه بنصرته ، ويمنون عليه بمساعدته ، والذين استغلوا حاجته إليهم ، فاشتروا عليه شروطاً قاسية، واشتطوا في مطالبهم ، ففرض لهم عطاء مضاعفاً ، وعمل على إشباع نهمهم المالى بالمنح والعطايا ، حتى جعلهم حكومة داخل حكومته ، بحيث لا يقطع في أمر من أمورهم إلا بعد مشورتهم^(٦٥) ، ووفى لهم بشروطهم كلها .

هذا، وقد عرف عهد «معاوية» بكثرة الأحزاب المناوئة له، كالشيعة والخوارج وغيرهم من المطالبين بالخلافة ، لدرجة أنه شغل بأمر هذه الأحزاب شغلاً جعله يهادن الإمبراطور البيزنطى ، الذى كان ينتهر فرصة الاضطرابات الداخلية ، فيغير على الحدود الإسلامية ، وأمام هذه المخاوف الداخلية والخارجية ، كان الخليفة بحاجة إلى جند كثيف ، يقوم بهذه الأعباء ، فاضطر أن يرفع مرتب الجندي إلى ١٠٠٠ درهم في العام تقريباً، أى (٤٠ جنيهاً) فقد روى زيدان وغيره، أن عدد الجيش في عهده كان ٦٠ ألفاً ، وكان يكلف الدولة ٦٠ مليون درهم^(٦٦) ، على الرغم من أن بعض الجنود لم ترفع مرتباتهم ؛ لرأيهم الحسن في «علي بن بن أبي طالب»^(٦٧) . استمرت الحال كذلك في عهد «مرؤان بن الحكم» كما كانت أيام أسلافه ، فلم يكن يُقضى مضجعه إلا هؤلاء اليمنية ، الذين كانوا ينتهزون كل فرصة ليطالبوا بزيادة أجورهم ، والذين هددوه بالتخلي عنه ، إن ألغى امتيازاتهم الممنوحة لهم من قبل^(٦٨) ، والتي كان بمقتضاها يتقاضى أحدهم ٢٠٠٠ درهم مرتباً سنوياً (٨٠

(٦٥) المسعودى في مروج الذهب ج ٣ ص ٩٥ وتاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ١٤٤ ، ٤٥ .

(٦٦) فون كريمير ص ٣١٧ وتاريخ التمدن ج ١ ص ١٤٤ .

(٦٧) الأغاني ج ١٤ ص ١٣ .

(٦٨) المسعودى ج ٣ ص ٩٥ ، وفون كريمير ص ٣١٨ ، وقسم التجنيد في الفصل الثانى من

هذه الرسالة .

جنياً تقريباً) .

فلما كانت أيام ابنه « عبد الملك » قوى أمر منافسه على الخلافة « عبد الله ابن الزبير » في الوقت الذي اشتد فيه ساعد الشيعة والحوارج ، ولما رأت الدولة الرومية ذلك النزاع زاد تحرشها به ، فوجد الرجل نفسه أمام عدة ميادين ، فصالح الروم على جزية يدفعها لهم على أساييع ، وأكثر من حشد الجنود ليقابل بها الثورات الداخلية ، وكانت المرتبات لا تزال على ارتفاعها ، فهجر كثير من الناس مزارعهم ، والتحقوا بالحيش رغبة في المرتبات ، وأسلم بعض الذميين تهرباً من الجزية ، التي كانت ترفع عن الذمي بمجرد إسلامه^(٦٩) . فأدى هذا إلى نقص في الميزانية العامة في زمنه . لذلك كله ، ولضخامة الجزية التي كان يدفعها للبيزنطيين ، وقعت اضطرابات ملحوظة في مالية الدولة ، جعلته يؤجل مرتبات الجنود عن أوقاتها مراراً^(٧٠) ، وقد حاول أن يصلح ماليته ، بضرب النقود الفضية والذهبية في دمشق ، كما حاول « الحجاج » أن يعيد كثيراً من الموالى إلى مزارعهم ، وأن يفرض عليهم الضريبة العالية التي كانوا يدفعونها قبل إسلامهم ، لما عرف أن بعضهم كان يهرب منها بإسلامه^(٧١) ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل ، وزادت من تدمير الناس ، وبخاصة لأخذ الجزية ممن أسلم ، ومعاملته كغير المسلم .

ولم تكن حال الخزانة في عهد « الوليد الأول » بأحسن منها في عهد والده ، لأن أمر الحملات الحربية كان بيد « الحجاج » الذي عرف بالإسراف في الإنفاق عليها ، حتى لامه « عبد الملك » في ذلك ، ولذا كثيراً ما كانت تؤجل مرتبات الجنود ، وكثيراً ما كانوا يشغبون على الدولة لذلك ، حتى لقد ضيق الشاميون على الوليد ابن عبد الملك يوماً ، وتشددوا في طلب مرتباتهم ، فاضطر نساؤه أن ينفضن الطيب من شعورهن ، فبيع في الأسواق ودفع من ثمنه أعطيات الجنود^(٧٢) ، وهذا جزاء إسرافه في المباني والإنفاق عليها ، وإسرافه في أنواع الترف والرخاء ، الذي أدى إلى ذلك الارتباك المالي .

(٦٩) فيليب حتى - تعريب الأستاذ نافع مجلد ١ ص ٢٧٢ .

(٧٠) فون كريمير ص ٣١٩ .

(٧١) فيليب حتى تعريب نافع ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٧٢) ابن قتيبة في عيون الأخبار ج ١ ص ١٧٠ .

ولما آل الأمر إلى الخليفة الورع « عمر بن عبد العزيز » حاول أن يعالج روح التذمر التي فشت بين المسلمين الجدد ، فأعاد المبدأ القديم الذي وضعه « عمر ابن الخطاب » من قبل ، وهو ينص على أن المسلم عربياً كان أو مولى ، لا يدفع جزية ما ، فأقبل كثير من البربر والفرس على الإسلام ؛ ليتمتعوا بتلك الامتيازات المالية ، وصار كثير منهم عرباً بالولاء ، ليحصلوا على حقهم من الأعطيات ، فقلّ لذلك دخل الدولة ونقصت ميزانيتها^(٧٣) ، فلما شكّا إليه بعض ولاته نتيجة سياسته ، أجابه قائلاً : « تا لله إنه ليسرني أن أرى كل واحد يصبح مسلماً ، حتى نُضطر أنا وأنت إلى فلح الأرض بأيدينا وكسب « قوتنا »^(٧٤) وقد ذكر « المقرئ » أن « ابن شريح » أحد ولاته ، كتب إليه « أن الإسلام أضرّ بالجزية » فأجابه بقوله : « ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »^(٧٥).

لهذا السبب المتقدم ، ولما كان ينفقه القواد على الحملات البحرية وتحصين الثغور ، حدث نقص ظاهر في الميزانية ، تبعه اضطراب في دفع مرتبات الجند^(٧٦) ، كان يؤدي إلى تأجيلهما ، فعمل الخليفة على علاج تلك الحال ، بضم أطراف الجيوش المتناثرة وضغط النفقات ، والعدول على الفتوح ، إلى ملاينة الأعداء ، لدرجة أنه أمر القواد الذين كانوا يحاصرون « القسطنطينية » بفك الحصار ، والعودة بالمسلمين سالمين^(٧٧) ، فرضخوا لأمره ، كما أمر بإخلاء بعض الثغور المتطرفة في بلاد الروم ، وإعادة الجنود منها ، وأقبل على محاسبة الولاة والقادة على إسرافهم ، وألحّ في مطالبتهم بالأموال المتأخرة عندهم من الأخماس والضرائب ، فمن كان يجهل شيئاً منها ، أو يتأخر عن الدفع ، كان يلقي به في غيابة السجن ، ويأخذه بألوان التعذيب ، حتى يؤدي ما عليه للدولة ، كما فعل مع القائد المشهور « يزيد بن المهلب »^(٧٨) وغيره .

ولكن ذلك الجهود الذي بذله « عمر » والذي بذل مثله خلفه « هشام بن عبد

(٧٣) نفس المرجع السابق (حتى) .

(٧٤) انظر بتلر في فتح العرب لمصر ص ٢٠٢ ، ٢٠٤ .

(٧٥) نفس المرجع ص ٢٠٣ ونورمان بينز في الإمبراطورية البيزنطية ص ٥٩ .

(٧٦) فون كريمير ص ٣١٩ .

(٧٧) فيليب حتى تعريب نافع ص ٢٥٤ .

(٧٨) ابن الأثير في الكامل ج ٥ ص ١٤ ، ٢٠ .

الملك « لم يعالج كثيراً ذلك الفساد الذى فشا فى الدولة ، بسبب النهم للمال ، والإقبال على جمعه بشتى الوسائل ، لدرجة أن الجند الذين يحرم دينهم الغلول والحياة ، والذين عرف أجدادهم بالأمانة ، كانوا يسرقون من الغنائم بطرق غريبة ، فقد روى « ابن الأثير » أن بعضهم كان يذبح الهرة ويرمى أحشاءها ، ثم يحشوا جوفها بالدنانير ويخيط عليها ، ثم يلقونها فى الطريق ، ويسلم ما بقى معه فى بيت الأقباض ، فإذا خرج للطريق أخذ الهرة وأخرج الدنانير من جوفها ، كما يروى أن بعض السفن الإسلامية ، غرقت بعد فتح جزيرة « سِردانية » فلما أخرجت جثث الغرقى من الجند ، وجدوا أكثرهم قد ربط الدنانير على وسطه^(٧٩) ، ولم يدفعها لصاحب الأقباض ، رجاء أن يخلص بها .

ومن المحتمل أن يكون ذلك الشره المالى ، قد سرى إلى الجند من قاداتهم وولاتهم ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون ، وقد عرفنا كيف كان الولاة والقادة يستقلون بالبلاد ، ويحتكرون خيراتها ، معرضين أنفسهم للحساب والعذاب ، ويصح أن نكتفى هنا بمثل أورده « الطبرى » عن والى العراق « خالد بن عبد الله القسرى » الذى استغل خصب البلاد ووفرة خراجها ، فاخص نفسه بمبلغ ١٣ مليون درهم ، بعد أن بعثر بإسراف مقداراً ، يبلغ ثلاثة أمثال ذلك المقدار^(٨٠) ، وكان من أثر ذلك أن سجنه « هشام » وعذبه ، ولقى نفس المصير الذى لاقاه أمثاله من المستغلين ، الذين كانوا يجعلون الولاية مكسباً .

ولا يتوقع المرء إزاء هذا الفساد المستشري ، والارتباك المالى وسرقة المغنم ، أن ترتفع مرتبات الجند عما كانت عليه فى صدر الدولة ، بل إن ضعف الحلفاء فى نهايتها أمام وطأة الخوارج ، جعلتهم يستجيبون لرغبة الجند ومطامعهم المالية ، فصاروا يسرفون فى بذل العطايا والمنح لهم ، ليساعدوهم على الخوارج ، لدرجة أن بعض القواد ، كان يعطى الجندى الذى يقتل خارجياً ، عطاء سوى ما أخذه من الشام ، وفوق ذلك يعفيه من الخروج للغزو فى الهند^(٨١) ، والمرابطة فى الثغور النائية . ولم تذكر المراجع العربية مقادير المرتبات فى تلك الفترة بوضوح ، وإنما الذى

(٧٩) الخبران مفصّلان بالكامل ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٨٠) عن فيليب حتى تعريب نافع ج ١ ص ٢٨٨ .

(٨١) الكامل ج ٥ ص ٨٣ .

عرف عن الخلفاء الأمويين ، أنهم كانوا إذا مات واحد وتلاه آخر ، زاد في أرزاق الناس عشرة دراهم ، ولا يترجم لنا عن شعور الشعب نحو الخلفاء الأمويين مثل تلك العبارة ، التي كانوا يقولونها إذا مات أحدهم « عَيْرٌ بعيرٌ وزيادة عشرة »^(٨٢) . ويؤيد هذا المعنى أن « الوليد بن يزيد » لما ولي الخلافة ، أراد إشباع نهم الجند ، ليضمن طاعتهم ، ويأمن شغبهم ، فزادهم في العطاء عشرة دراهم ، وخص أهل الشام بعشرة فوق العشرة^(٨٣) ، ويذكر « كريم » أن الزيادة كانت بنسبة ١٠٪ ، ولكن « يزيد الثالث » كان غير مؤمن بأحقية تلك الزيادة ، ولذا رأيناه بمجرد تسلمه زمام الحكم ، يبادر بإلغائها ورد العطاء إلى ما كان عليه أيام « هشام » ولذا لقبه الناس (بالناقص)^(٨٤) لنقصه من العطاء رفقا بخرانة الدولة .

على هذا النظام القلق سارت مرتبات الجند ، حتى قامت الدعوة للعباسيين زمن « مروان بن محمد » فزاد الأمر قلقاً ، وسارت الأموال تبذر بلا حساب ، في سبيل دعم العرش الأموي المترنح ، ولكن إرادة القضاء كانت فوق إرادة المال ، فكان سقوطه في موعده المقدور له .

المرتبات في الدولة العباسية لنهاية القرن الثاني

(١٣٢ - ٦٥٦ هـ ، ٧٤٠ - ١٢٠٨ م)

قامت الدولة العباسية على أكتاف الحراسانيين ، بزعامة « أبي مسلم » وكان الناس في ذلك الوقت قد بعدوا عن عهد الخلافة ، وزادت شراحتهم للمال ، ولما لمس القائد الحراساني ذلك المعنى ، احتاط له حتى لا يقع فيما وقع فيه غيره ، من عصيان الجند وشغبهم ، فجعل من نصوص بيعته لأتباعه « ألا تسألوا رزقاً ولا طُعماً ، حتى يتدثكم به ولا تكتم »^(٨٥) .

وأغلب الظن أن المرتبات لم يكن لها ضابط في تلك الفترة ، وأن منح الجند كانت تدفع من الأراضى التي يغلبون عليها ، ومن أموال الأمويين التي يصادرونها ،

(٨٢) القاموس المحيط مادة (العير) وهو الحمار .

(٨٣) انظر الكامل ج ٥ ص ١٠٦ وفون كريم ص ٣١٧ .

(٨٤) الكامل ج ٥ ص ١١٦ ومحاضرات الخضرى ص ٢٠٢ وكريم ص ٣٢٠ .

(٨٥) نفس المرجع ص ١٥٣ .

فلما تم الأمر إلى « أبي عبد الله السفاح » ابتهج لهزيمة « مروان الثاني » وأمر لمن شهد وقعة « الزّاب » بمكافأة قدرها ٥٠٠ دينار (حوالي ٢٠٠ جنيه) ورفع أرزاقهم إلى ٨٠ درهماً شهرياً ، وللفارس ضعفها ١٦٠ درهماً (حوالي ٦٤٠ قرشاً) كما جاء في الكامل ج ٥ ص ١٧٠ .

وبمرور الزمن استكثر العباسيون من الجنود الأعاجم ، لأن دولتهم مدينة لهم بوجودها ، ولأنهم أكثر الجند سمعاً وطاعة ، ولأنهم أقنع بالرواتب القليلة ، التي كانوا يألفونها في بلادهم ، فأقبلوا ألوفاً على الخدمة في جيش الإمبراطورية الفتية ، حتى صارت جيوشها تعدّ بمئات الألوف ، فاضطّر الخلفاء إزاء هذا النمو السريع ، أن ينقصوا مرتبات الجند ، وروى « فون كريمر » أن هذا النقص بلغ أكثر من نصف المرتبات الأموية (٨٦) .

ويمكن أن يقال في تحوّل ، إن وقوف عجلة الفتح نوعاً ، تبعها قلة الاحتياج إلى الجند ، وأصبحت مهمة الجيش في الغالب ، إخماد الثورات وضبط النظام ، وإعادة فتح البلاد المنتقضة ، والاشتراك في حفلات استقبال السفراء الروم وغيرهم ، فكانت الحاجة ووظيفة الجيش داعية إلى إنقاص مرتباته .

ويقوى هذا المعنى أن الخليفة « المأمون » في عام ٢١٠ هـ - ٨١٨ م كان يدفع للراجل ٢٠ درهماً شهرياً ، وللفارس ٤٠ درهماً (٨٧) (أي ٨٠ قرشاً ، ١٦٠ قرشاً) مع أن الغلاء في عهده بلغ حداً لا يطاق ، فقد بلغ القفيز من الحنطة بالهاروني من أربعين درهماً إلى خمسين (٨٨) ، أي مرتب شهرين للراجل (حوالي جنيهين) ، وهذا المرتب مع ذلك الغلاء ضئيل جداً .

يضاف إلى هذا ما لوحظ على العباسيين ، من أنهم كانوا يجعلون الفارس ضعف الراجل فقط ، بخلاف سابقهم ، وذلك طبعاً اقتصاداً في النفقة وتوفير لبيت المال ،

(٨٦) الشرق في حكم الخلفاء ص ٣٣٦ ، ٣٩ ، وزيدان ج ١ ص ١٤٥ ، ٤٦ ولعل قناعة الموالى بالأجور القليلة ، كانت ضمن الأسباب ، التي جعلت « المعتصم » يستغنى عن الجنود العرب نهائياً ، ويمحو أسماءهم من ديوان الجند ، ويعتمد على أخواله الأتراك .

(٨٧) الكامل ج ٥ ص ٢٨٨ وكريم ص ٣٦٦ .

(٨٨) نفس المرجع ج ٦ ص ١٤٣ . والقفيز كما في الهامش (٤٩) من هذا الفصل = وية حديثة = ٢ كيلة فإذا كان ثمنه = ٢ جنيه ، فثمن الكيلة جنيه وهو ثمن مرتفع جداً .

كما فعل « المأمون » مع ملاحظة أن مستوى المعيشة في عصره الذهبي ، استدعى أن ترتفع قيمة الذهب بنسبة الثلث ، فالدينار الذي كان يساوي عشرة دراهم في عهد « عمر » زادت قيمته عن ١٥ درهماً زمن المأمون^(٨٩) ، فإذا أضيف هذا إلى غلاء الأسعار ، عرفنا ضآلة المرتبات العباسية ، بالنسبة للمرتبات الأموية .

وعملًا بمبدأ البذل عند الحاجة ، كان الخلفاء يزيدون مرتبات المرباطين في الثغور عن سواهم من الجند ، نظراً لبعدهم عن ديارهم ، وتعرضهم لردّ غارات الأعداء في الحين بعد الحين ، وقيامهم بالحملات التمرينية، التي كانت تنظم صيفاً وشتاء (الصوائف والشواتي) ففي عام ١٣٩ هـ - ٧٥٧ م أعاد « المنصور » بناء مدينة (ملطية) بعد أن خربها الروم، ورتب فيها حامية قوامها ٤٠٠٠ جندي، وبنى لهم بها مساكن دائمة، بحيث يخصص لكل عشرة أو خمسة عشر حجرتان، ومنح كل جندي فوق مرتبه الثابت، مكافأة قدرها عشرة دنانير، كما كان يطعمه في العام بما يساوي ١٠٠ دينار، وفي نفس العام جدّد أيضاً سور « المصيصة » وسماها (المعمورة) ووضع بها ١٠٠٠ جندي^(٩٠) ، وعاملهم معاملة إخوانهم غالباً .

ولما جاء « هرون الرشيد » جدّد الثغور ، وأقام على خرائب « طرسوس » معسكراً كبيراً ، فيه حامية قوية، ومنح جنودها مكافأة سنوية فوق راتبهم ، قدرها عشرة دنانير^(٩١) .

أما ولده « المأمون » فقد جدّد ثغر « طوانة » وشحنه بالمقاتلين، ورتب لكل فارس منهم ١٠٠ درهم شهرياً ، ولكل راجل ٤٠ درهماً^(٩٢) .

ومن هذا يظهر أن مرتب المرباطين بالثغور ، كان ضعف مرتب جنود الجيش أو يزيد ، فقد عرفنا أن مرتب الفارس في جيشه كان ٤٠ درهماً، ومرتب الراجل ٢٠ درهماً ، وهذا هو الشأن في الجيوش الحديثة ، حيث يتقاضى المغتربون فيها ضعف المقيمين أو يزيد .

وقد كان بعض الخلفاء إذا أعوزه المال ، يمنح المرباطين أرضاً زراعية بدل

(٨٩) فون كريم ص ٣٣٩ .

(٩٠) انظر أبو الفدا ط الأولى ج ٢ ص ٣ وفون كريم ص ٣٤٩ .

(٩١) نفس المرجع .

(٩٢) الكامل ج ٦ ص ١٦٢ .

مرتباتهم ، ويظهر أن هذا كان تقليداً للنظام البيزنطى ، الذى كان يمنح الأرض فى نظير الخدمة العسكرية ، وكان منحها يتضمن إلزاماً بالخدمة فى الجيش ، يتوارثه الابن عن أبيه ، كما فصل (نورمان فى كتابه ص ١٧٥) ، ولكن عقلاء المسلمين وبعض العلماء ، عرفوا الخطر الذى تنطوى عليه تلك الحطة ، من ربط المالك بأرضه ، وانشغاله بها عن الجهاد ، وهو ما خشيه « عمر » فنصحوا للخلفاء بتركها ، فأقلعوا عنها ، بعد أن تبين لهم ضررها .

ويجب أن نذكر فى هذا المقام ، أن الحاجة للجند عند الشدائد ، كانت تستدعى إغداق المال عليهم بلا حساب ، لدرجة أن الخليفة كان يضطر أحياناً ، أن يدفع لهم قبل الخروج للقتال ، مرتب عامين أو ثلاثة ، كما فعل « الأمين » وكثيراً ما كان « المأمون » يعمل على إرضائهم ، إذا تمردوا عليه لتأخر مرتباتهم (٩٣) .

وكذلك كان الولاة بالأقاليم ، يستميلون الجند بالمال لينصروهم ، فقد حدث فى عام ١٩٦ هـ - ٨١٢ م أن ثار أهل طرابلس على والى إفريقية « عبد الله بن الأغلب » فلجأ إلى المال يجمع به البربر ، فكان يدفع للفارس أربعة دراهم كل يوم ، وللراجل درهمين ، فاجتمع له منهم جمع كبير ، زحف بهم إلى المدينة وفتحها ، ولا شك أن مبلغ ١٢٠ درهماً فى الشهر (٤٨٠ قرشا) مرتب عظيم جداً للفارس ، ولكنه كان فى حالات طارئة ، أما فى الحياة العادية ، فكان مرتب الجندى فى الغالب خاضعاً لحال الخزنة ، إلا الجندى المرباط ، الذى كان يعطى عناية خاصة .

الخلاصة

نستطيع أن نخرج من هذا التفصيل ، لمرتبات الجندى الإسلامى بصورة مجملة بما يأتى : -

أ - كان دخل المحارب فى فجر الإسلام ، وقبل وضع الديوان يكاد ينحصر فى أسهمه من الغنيمة ، ومن سلب قتلاه ، ومن الأنفال التى قد ينحص بها إن كان من أهل البلاء .

ب - كان متوسط أجر الجندى فى ديوان « عمر » يساوى ٦٠٠ درهم فى العام

(٩٣) انظر فى هذا الكامل ج ٦ ص ١١٢ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٣١ ومواضع أخرى .

أى ما يعادل ٥٠ فرنكاً في الشهر (أى ٢٠٠ قرش) هذا إلى جانب دخله السابق المذكور في (١) .

ح - أن مرتب الجندى ارتفع في الدولة الأموية ، فكان متوسطه بوجه عام ١٠٠٠ درهم سنوياً ، أى ٤٠٠٠ قرش بالعملة المصرية ، فيكون مرتبه الشهري ٣٣٤ قرشاً تقريباً ، هذا بغض النظر عما كان يعترى المرتبات من زيادة أو نقص ، حسب الظروف السياسية والمالية وغيرها .

د - أن المرتبات كانت قليلة ، في أول عهد « السفاح » ثم رفعها بعد معركة « الزاب » إلى ٨٠ درهماً شهرياً للمشاة ، ١٦٠ درهماً للفرسان (٣٢٠ قرشاً و ٦٤٠ قرشاً) . ثم أخذت المرتبات بعد ذلك في التناقص ، لقلة الحاجة إلى الجند ، وكثرة الجيوش وضخامة أعدادها ، حتى صارت أيام « المأمون » إلى ٢٠ درهماً للراجل و ٨٠ للفارس .

هـ - أن المرابطين في الثغور على الحدود ، كانوا يتقاضون أجوراً مضاعفة ، ويتمتعون بامتيازات في المأكل والمسكن ، تكافئ ما يلقونه من خوف واغتراب ، وتعرض للأخطار ، وهذا هو الشأن في الجيوش الحديثة تتفاوت المرتبات فيها ، بتفاوت المواطن أمناً وخوفاً ، وقرباً وبعداً ، وغير ذلك من الاعتبارات الأخرى .

خامساً - نظام الأسر ومعاملة الأسرى :

تنتهى الحرب عادة بجمع الغنائم ، وسوق الأسارى ، ولما كان هؤلاء يحسبون ضمن الغنائم ، ويوزعون على المقاتلين توزيع الأسهم ، كان من المناسب ذكر كلمة عن الأسرى ، ومعاملتهم عند المسلمين ، وبيان مكانهم من التشريع الإسلامى .

١ - نظام الأسر :

كان النظام المتبع في الحروب الإسلامية ، أن يؤخذ الأسير بعد هزيمة قومه ، فيُشد كتافه بربط يديه خلف عنقه ، ثم يوضع مقيداً في محبسه ، حتى يفصل القائد في أمره ، وأول ما عرف المسلمون أخذ الأسرى في معركة « بدر » وكان للرسول صلى الله عليه وسلم في معاملتهم طرق عدة :

(١) أن يطلق صراح الأسير في فداء يدفعه ، أو يدفعه عنه أهله وكانت تلك

الطريقة معروفة في الجاهلية، وأقرّها الرسول في الإسلام، وكان ممن أطلقه يوم بدر بعد دفع الفداء عمه « العباس بن عبد المطلب » ومعه بعض أبناء إخوته، ويومها جعل فداء الأسير الذي يحسن الكتابة، أن يعلمها عشرة من غلمان الأنصار، فإن تعلموها خلى سبيله، فكان ممن تعلم الكتابة يومها، الصحابي العالم « زيد بن ثابت » (٩٤) وغيره .

أما عن مقدار الفداء فقد روى « ابن هشام » (٩٥) أن أغلى ما فدى به قرشي يوم بدر ، كان أربعة آلاف درهم (حوالي ١٦٠ جنيها) وذكر « الماوردي » (٩٦) أن فداء الأسير المعتاد يومها كان ٤٠٠٠ درهم ، ولكن النص الأول أوثق ، وهو يشير إلى أنه كان في الفداء ما دون ذلك ؛ لأنه جعل ذلك المقدار الحد الأقصى للفداء ، وأحيانا كان يفدى أسير من المسلمين بإطلاق أسير من الأعداء ، وأول فداء من هذا النوع كان في سرية « عبد الله بن جحش » حيث عاد منها بأسيرين من قريش ، فبعث قومهما في فداءهما ، فامتنع الرسول حتى يقدم رجلان من رجال السرية ، كانا تخلفا في طلب بعير لهما ، ومن الجائز وقوعهما في أيدي قريش ، فلما حضرا فدى الرسول الأسيرين وأطلقهما ، وكذلك أطلق الرسول من أسرى بدر « عمرو بن أبي سفيان » ليفكّ به « سعد بن النعمان » الذي كان قد أسره « أبوسفیان » لما ذهب إلى مكة معتمرا (٩٧) .

٢ — أن يطلق الأسير بلا فداء إن كان فقيراً، أو رُجى بإطلاقه صلاحه ، بعد أن يتعهد بالألا يظاهر على المسلمين أحداً ، وأن يكف عنهم لسانه ، كما من الرسول صلى الله عليه وسلم على « أبي عزة الجمحي » الشاعر ، بعد أن تعهد ألا يكون ضد المسلمين بشعره (٩٨) في غزوة بدر .

٣ — أن يُسترقّ الأسير إذا لم يجد فداء ، أو كان غير أهل للامنّ عليه ،

(٩٤) السهيلي في الروض الأنف ط مصر ص ٩٢ ، ومحاضرات الحضري ج ١ ص ١٠٦ ط

١٣٧٠ هـ .

(٩٥) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٧٨ .

(٩٦) الأحكام السلطانية ص ٤٤ .

(٩٧) انظر هذين الخبرين في سيرة ابن هشام بهامش الروض الأنف ج ٢ ص ٦٠ ، ٨٠ .

(٩٨) محاضرات الحضري ج ١ ص ١٠٦ .

فيقوم بخدمة سيده ، ورعى ماشيته ، ورعاية النخيل وتعهدها ، وله حق بيعه إذا اقتضت الحال .

والرق مبدأ مقرر من أقدم العصور ، عرفه قدماء المصريين ، وكانوا يعدّون الرقيق آلة عاملة ، ومظهراً من مظاهر الأبهة والزينة ، وكذلك كانت الحال عند اليونان والرومان ، بل إن الفيلسوف « أرسطو » أيد صحته وأثبت مشروعيته ، وعرف الرقيق بأنه (آلة ذات روح)^(٩٩) .

وكان للرقيق في الجاهلية أسواق يباع فيها ، واشتهر ذلك ليس بحاجة إلى استشهاد ، ويكفي أن نعرف أن الفارس « زيد بن حارثة » حبّ رسول الله ، كان رقيقاً يباع في الجاهلية ، ثم اشتراه « حكيم بن حزام » لعمته خديجة بنت خويلد ، التي وهبته بدورها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه ثم تبناه ، وكان من أبرز قاداته في سراياه المختلفة^(١٠٠) ، لما عرف به من الخبرة الحربية والشجاعة .
ويتهمونهم بأنهم ما لا ذوا به إلا هروباً من الرق والخدمة .

٤ - كان الرسول إذا وجد في الأسرى ، من آذى المسلمين وألبّ الناس عليهم ، بادر بقتله اتقاء شرّه ، فقد قتل من أسرى بدر « عقيقة بن أبي معيط » والنضر بن الحارث الذي رثته أخته « قتيلة » بأبيات شعرية ، رق لها قلب الرسول^(١٠١) ، وتمنى أن لو كان سمعها قبل قتله .

كانت هذه الطرق المتبعة في الأسرى ، قبل نزول القرآن في شأنهم ، ثم نزلت في بدر آية الأنفال ، تلوم الرسول في اتخاذ الأسرى للرغبة في فدائهم : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة^(١٠٢) » . ثم بين الله لرسوله حكم الأسرى صراحة في قوله تعالى حاثاً على

(٩٩) انظر تفصيل هذا في كتاب « الرق في الإسلام » لأحمد زكي (باشا) ، واقرأ الأستاذ « عبد الوهاب النجار » في مقالاته عن الرق في « صحيفة المعلمين » الأعداد ١ ، ٣ ، ٦ من السنة الثالثة ١٩٢٥ م .

(١٠٠) انظر ترجمته في الإصابة وترجمة سلمان ومن ذكر معه .

(١٠١) الماوردى في الأحكام السلطانية ص ٤٧ ، ١٢٦ ومحاضرات الحضري ج ١ ص ١٠٧ .

(١٠٢) سورة الأنفال آية ٦٧ .

القتال « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » (١٠٣) . فكان الرسول بعد هذا بمنّ على الأسير ، أو يفديه بالمال ، أو يفادي أسيراً بأسير ، والآية وإن لم تشر إلى الاسترقاق ، إلا أنه مفهوم من الآيات التي تذكر ملك اليمين وتكرره ، مما يشعر بأنها تُقرّ نظام الرق ، مع الترغيب في الإقلال منه كما سيأتي بيانه ؛ ولذا بقي الرسول يعمل به في نطاق ضيق ، فقد كان له سبي كثير من « بني المصطلق » قسمه بين أصحابه ، وسبي آخر من « بني قريظة » باعه واشترى بثمنه خيلاً وسلاحاً للمسلمين .

وظل الرسول كذلك يقتل من الأسرى ، من يخشى أذاه ، ومن يؤلب على المسلمين فقد قتل « أبا عزة » الذي منّ عليه في بدر ، ثم عاد لقتاله في « أحد » فوقع في الأسر ، وقتل كذلك يوم (حنين) الشيخ الهرم الضرير « دُرَيْد بن الصّمة » لأنه كان يدبّر لقومه ، ويساعد على المسلمين (١٠٥) برأيه ؛ ولذا نقل الماوردي عن « الإمام الشافعي » قوله في حكم الأسرى : « الإمام مخير بين القتل والاسترقاق ، والفداء بالمال والمنّ عليهم » (١٠٦) .

فلما كانت حروب الردة بعد وفاة الرسول ، وحروب الفتوح في العراق والشام أنف المسلمون أن يسترقوا إخوانهم العرب ، واكتفوا بالمفاداة أو القتل ، وما أثر عن « عمر » في ذلك قوله : « أنه لقبّيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً » (١٠٧) .

وقد حدّد هو لفداء العربيّ ستة أبعرة إلا « حنيفة وكندة » فإنه خفف عنهم لقتل رجالهم في حروب الردّة ، وكان « عمر » معروفاً بالاجتهاد في تشريعاته فيقضى بما تقضى به الحال ، وهو الذي وضع ذلك المبدأ القائل : « كل أسير كان في أيدي المشركين من المسلمين ، ففكّاكه من بيت مال المسلمين » .

وقد ساعده على إمضاء أحكامه ، أن سبايا الفرس والروم ، تدفقت على بلاد

(١٠٣) سورة محمد آية ٤ .

(١٠٤) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٣٧٩ ومحاضرات الحضري ج ١ ص ١٢٤ وفجر الإسلام ج ١

ص ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(١٠٥) الماوردي في الأحكام السلطانية ص ص ٤٧ ، ١٢٦ وفجر الإسلام ج ١ ص ١٠٢ .

(١٠٦) نفس المرجع ص ص ١٢٥ ، ٢٦ .

(١٠٧) الطبري ج ٣ ص ٢٧٦ .

المسلمين ، وكثر الرقيق بكثرة الحروب في أيدي العرب ، حتى كان الواحد منهم يملك المئات والآلاف من العبيد « فالمسعودي » يروى أن « عبد الله بن الزبير » كان له من الرقيق ألف عبد وألف أمة (١١٠) ، وكان لغيره من الصحابة عبيد يخدمونه في القتال ، ويحضرون معه المعارك مقاتلين .

فلما اتسعت الفتوح وأصبح للمسلمين أسرى في أعدائهم ، كما أن لهم أسرى في أيديهم ، أصبح القائد مخيراً بين قتل الأسير ، أو فدائه بأسير مسلم ، وامتنع الفداء بالمال لغنى الدولة عنه ؛ ولذا قال « أبو يوسف » الذي عاصر القرن الثاني : « الإمام في الأسارى بالتخير بين القتل والفداء ، حسب الأصلح للمسلمين . . . ولا يفادى بهم بذهب ولا فضة ولا متاع ، ولا يفادى بهم إلا أسارى المسلمين » (١١١) .

ب - نظام المفاداة في الإسلام :

كان هذا النظام من النظم المتبعة بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية ؛ لأنهما كانتا في حروب دائمة على حدودهما ، لا تنقطع إلا في فترات قليلة وكانت هذه الحروب عادة تنتهى بأخذ أسرى من الدولتين ، فكانتا أحياناً تتفقان على أن يفدى أسير من المسلمين بأسير من الروم ، وتحددان لهذا التبادل زماناً ومكاناً ، يتم فيه بصفة رسمية محفلية . يذكر « بن الأثير » حوادث (١٨١ هـ - ٧٩٨ م) فيروى أن أول فداء بين الروم والعباسيين حدث فيها ، وكان يمثل الدولتين « القاسم ابن الرشيد ، والملك نقفور » ففودى بكل أسير في بلاد الروم ، وفرح الناس بذلك ، ثم بيّن المكان الذى جرت فيه المباداة وكيفيتها فقال : « وكان الفداء باللامس (نهر) على جانب البحر بينه وبين طرسوس اثنا عشر فرسخاً ، وحضر الفداء خلق كثير ، من أهل الثغور وغيرهم ، من العلماء والأعيان ، وكان عد الأسرى ٣,٧٠٠ وقيل أكثر من ذلك (١١٢) » .

(١٠٨) الماوردى في الأحكام السلطانية ص ٥٣ وتواليها .

(١٠٩) أبو يوسف في الخراج ص ١٢١ .

(١١٠) نقل أحمد أمين في فجر الإسلام ج ١ ص ١٠٥ .

(١١١) الخراج لأبي يوسف ص ١٢١ .

(١١٢) الكامل ج ٢ ص ٦٤ حوادث ١٨١ هـ .

(١١٣) نفس المرجع ص ٧٧ .

ويروى « ابن الأثير » (١١٣) أيضاً ، أن الفداء الثاني كان في عهد الرشيد (١٩١ هـ) ولم يبق فيه بأرض الروم مسلم إلا فودي ، وكان عدد الأسرى في هذا الفداء (٢٠٥٠) أسيراً (١١٤) .

ويصح هنا إيراد ما كتبه الأستاذ « الخضرى » عن الفداء الثالث (٢٣١ هـ - ٨٤٦ م) ففيه بيان أوضح لكيفية تبادل الأسرى في زمنهم ، يقول : « وقد تقابل الفريقان في يوم عاشوراء ، على نهر (اللامس) وكان عدد من فودي به من المسلمين ٤٦٠٠ أسيراً ، فوقع الفداء ، كل نفس عن نفس صغيراً أو كبيراً ، وقد عقد المسلمون جسراً على النهر ، وعقد الروم جسراً ، فكان المسلمون يرسلون الروم على جسرهم ، ويرسل الروم المسلم على جسرهم (١١٥) » . وذكر من دلائل التسامح الإسلامى ، أنه بقى مع المسلمين بعد التبادل ١٠٠ أسير رومى ، فتفضلوا على الروم بإطلاقهم بلا مقابل .

ح - معاملة الأسرى في الإسلام وغيره :

يجدر بنا قبل بيان تلك المعاملة ، ذكر كلمة عن الرق ومعاملة الرقيق في الأمم الأخرى ؛ ليتضح الفرق بين المسلكين ، ولنعرف مكانة الرقيق في الإسلام .
الرقيق في الأصل ناشئ من أسرى الحروب ، والحروب لا تنتهى بين الأمم ، فالرقيق معروف لديها جميعاً ، وقد كان العبد في أقدم الشرائع وهى شريعة « موسى » عليه السلام ، يُسترقّ ست سنوات ، ثم يعتق بعدها ويعامل بالحسنى ، كما جاء في الكتاب المقدس « إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم ، وفي السابعة يخرج حراً مجانياً » (١١٦) وجاء فيه أن « إبراهيم » عليه السلام ، كان صاحب إماء وعبيد ، وأن زوجته « هاجر » كانت في الأصل أمة مصرية ، وأن « يوسف » عليه السلام بيع عبداً لحاكم مصر ، (١١٧) كما قرر القرآن في قصته ، ومن تلك القصة القرآنية ، ومن الإصحاح الذى ذكرها ، يفهم المرء أن الشرائع القديمة كانت تجازى

(١١٤) الجندية لثابت ص ٧٤ .

(١١٥) تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى - الدولة العباسية ص ٣٤ والجندية لثابت ص ٧٤ .

(١١٦) العهد القديم ، إصحاح ٢١ من سفر الخروج .

(١١٧) انظر سفر التكوين : آيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٣ .

السارق بالاسترقاق « قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه » وقد نفذ الحكم بأن أخذ يوسف أخاه لنفسه ، في نظير مكيا له الذي سرقه ، دون أن يجد على ذلك اعتراضاً . وقد كانت الدولة البيزنطية تعطي السيد حق التصرف المطلق في عبده ، فيميته أو يبيعه كما يشاء^(١١٨) ، وقد زاد الرقيق فيها زيادة تلفت النظر ، لعدم الرغبة في عتقه ، حتى بلغ عدد العبيد في بعض عصورها ، ثلاثة أرباع الأحرار من أبنائها ، وظل العبيد يلقون شر المعاملات ، حتى جاء الإمبراطور العادل « كلوديوس » فأمر بإعتاقهم جميعاً ، حتى احتلوا الوظائف الإدارية وصاروا ينافسون حكام روما ، ولكن سرعان ما عادت معاملتهم إلى سابق عهدها ، فصار العبد يباع يبيع السلع ، ويُحرم من كثير من الحقوق المدنية والتعليمية ، ولم تستطع الكنيسة إصلاح حاله ، أو رفع الظلم عنه^(١١٩) .

بل إن تلك الدولة كانت تعد تجارة الرقيق من أهم مواردها ، فكانت تحصل مكوساً على العبيد والغلمان والخصيان^(١٢٠) ، لتضاعف ميزانيتها ، ومع ذلك كانت تمنعهم من تعلم القراءة والكتابة ، وتعاقب من يخالف ذلك منهم عقاباً شديداً ، وذلك لاستفادة السادة من جهل عبيدهم^(١٢١) .

أما الإسلام : فقد عامل الرقيق باللطف والعدالة ، وكثيراً ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل على الإقلال منه ، بالعفو عن الأسرى أو قبول فدايتهم ، فكتب المغازي تروى أنه بعد انتصاره على « بنى المصطلق » ، وتوزيع السبي بين الجند ، تزوج بنت زعيمهم ، السيدة « جؤيرة بنت الحارث » ليبادر أصحابه إلى إطلاق أهلها ، الذين أصبحوا أصهار رسولهم ، وفعلاً أعتق المسلمون إكراهاً لها ، أهل مئة بيت من قبيلتها^(١٢٢) .

ومرة أخرى جاءه وفد « هوازن » يطلبون سباياهم بعد توزيعها ، ويتركون له أموالهم ، فأوحى إليهم سرّاً أن يستشفعوا به لدى المسلمين ، عقب انصرافه من الصلاة ،

(١١٨) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٩٤ ، وفون كريمير ص ٣٣٢ .

(١١٩) نورمان بيتز : الإمبراطورية البيزنطية - تعريب مؤنس وزايد ط ١٩٥٠ ص ٧٥ .

(١٢٠) نورمان بيتز ص ١٦٣ .

(١٢١) وسترمارك ، نقلاً عن الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٤٩ .

(١٢٢) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩٨ ومحاضرات الحضرة في السيرة ص ١٢٤ .

فلما كلموه أطلق لهم أسراهم ، و وعد المتمسك بحقه من الجند ، أن يدفع له ست نياق لقاء أسيره الذى يطلقه^(١٢٣) ، فأى تحايل شريف على منح الحرية للناس كذلك التحايل ؟

والرسول كثيراً ما أوصى أصحابه بحسن معاملة الرقيق ، فأمرهم ألا يكلفوا عبيدهم فوق طاقتهم من الأعمال ، وأن يساعدوهم إذا كلفوهم ، وأمرهم أن يطعموهم مما يطعمون ، ويكسوهم مما يلبسون ، وشجع العبيد على حضور مجالس العلم ، والتزود من المعرفة ، وكان أصحابه ينفذون تعليماته بكل دقة ، فكانوا يؤثرون الأسير على أنفسهم بجيّد الطعام ، لدرجة كانت تجعله يشعر بالحجل^(١٢٤) ، وكان الأسرى ينالون قسطهم وافياً من الطعام والمعاملة الحسنة^(١٢٥) ، فى حين يلتقى الأسرى فى القرن العشرين ، ما تشيب لهوله الولدان من التعذيب والحرمان .

وفى الوقت الذى نرى فيه الروم يجعلون للسيد حق إهلاك عبده ، ومنعه من التعليم ، نسمع « عمر بن الخطاب » يقول فى جواز أمان العبد المسلم إذا أمّن أحد الأعداء : « عبد المسلمين من المسلمين ، وذمته من ذمتهم ، يجوز أمانه^(١٢٦) » فأى سموّ بالرقيق ذلك سموّ ، الذى يجعل كلمته محترمة ، سارية على سادته فى حال القتال ؟

هذا وقد حرص الإسلام الحرص كله ، على تحرير الأرقاء وفك الرقاب ، فقد جعل عتق العبد أحد أبواب ثمانية ، من مصارف الزكاة ، فالعبد يساعد من أموالها فى سداد أقساطه لسيده ، ليصير بعد أدائها حراً ، قال تعالى فى مصارف الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب^(١٢٧) » .

الآية « فجعل للعبد الحق فى أن يشتري نفسه من سيده ، بمال يتفقان على قدره ومواعيد دفعه ، وفتح للأمة سبيل الحرية إذا أولدها سيدها ، وجعل عتق الرقبة كفارة كثير من المخالفات التى يرتكبها المسلم ، وما أكثر المخالفات من النفوس البشرية ،

(١٢٣) الماوردى فى الأحكام السلطانية ص ١٢٩ إلى ١٣٢ وكتب السيرة المختلفة .

(١٢٤) ابن هشام بهامش الروض الأنف ص ٧٨ .

(١٢٥) الخضرى : تاريخ الدولة العباسية ص ٢١٢ .

(١٢٦) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٦ .

(١٢٧) الآيات الآتية بترتيب ذكرها فى سورة البقرة ١٧٧ والنساء / ٩٢ والمجادلة / ٣ والتوبة

فجعل العتق كفارة القتل الخطأ « ومن يقتل مؤمناً خطأ فتنحرير رقبة مؤمنة » وجعله بالتخيير في كفارة اليمين ، إذا حنث فيه صاحبه « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة » وجعله كذلك كفارة الظهار « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة » .

بل إنه رغب في العتق لغير تلك المخالفات ، فجعله طريقاً من طرق شكر الله على نعمته ، قال تعالى يخاطب الإنسان : « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقة » .

حقيقة إن الإسلام جعل العبد نصف الحر ، في المعاملات الاجتماعية والشهادة وغيرها ، ولكن هذا الفارق قد يكون هو الوحيد بين العبد وسيده ، ومع هذا فقد رأينا السادة الروم يستفيدون من جهل عبيدهم ، ورأينا السادة المسلمين يُعنون بتعليم عبيدهم وإمائهم حتى لمع نجم الكثير منهم في ميدان العلوم والفنون ، ويكفى أن نعرف أنه من بين الأرقاء المسلمين ، العلامة « ياقوت » صاحب معجم البلدان والمؤلفات القيمة ، الذي طار ذكره في الناس^(١٢٨) ، كما كان من بين الإماء المثقفات من حذقت الغناء ، وأجادت الموسيقى والأدب ، ودرست علوم الشرع المختلفة ، حتى جذبت لها أنظار الأمراء ، وزاحمت الحرائر في قصور الخلفاء ، وبخاصة في الدولة العباسية ، التي كان معظم خلفائها أبناء الجواري المملوكات .

هذه معاملة الإسلام للأسير بعد استرقاقه ، وقد رأينا معاملة الرسول له حتى في الميدان ، وهذا لا يمنع المرء من ذكر بعض المعاملات القاسية ، التي كانت تبدر من بعض القادة للأسرى ، وهم القادة الذين كانوا معروفين بالإسراع إلى سفك الدماء « كخالد بن الوليد » الذي قال فيه الفاروق « إن في سيف خالد لرهقاً » والذي أقسم يوماً ، لئن نصره الله على أعدائه ليُجرين النهر بدمائهم « وكيزيد بن المهلب » الذي يروى عنه أنه أعاد فتح « جرجان فأخذ أسراهم » وصلبهم فرسخين ، إلى يمين الطريق ويساره ، وقاد منهم ١٢,٠٠٠ إلى وادي جرجان ، وقال : من طلبهم بثأر فليقتل ، فكان الرجل من المسلمين ، يقتل الأربعة والخمسة ، وقيل إنه

قتل منهم ٤٠,٠٠٠ من الأسرى (١٢٩) .

وإذا كنا ندافع عن هؤلاء القادة، بأنهم كانوا يريدون إرهاب عدوهم القوى، فكيف بالدفاع عن غيرهم؟ لقد لوحظ السرف في الدماء أيضاً على «الحجاج بن يوسف» وكان إسرافه ظاهراً في قتل أسرى «دير الحجاجم» التي انتصر فيها على الثائر، «محمد بن الأشعث» لدرجة أن الخليفة عبد الملك لامه بقوله: «أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك في الدماء وتبذيرك في الأموال، ولا يحتمل هاتين الحصلتين لأحد من الناس» (١٣٠) .

ويظهر أن بعض القادة الأمويين والعباسيين، كانت تلعب بهم الأهواء السياسية والتزعات النفسية، لبعدهم عن زمن الرسالة، وعهد الخلافة، فرأيانهم يُنكلون بالأسرى، ويخلفون الوعد والأمان اللذين أوجب الإسلام احترامهما .
فهذا «ابن الأشعث» يسلك سبيل أستاذه الحجاج، عندما ثار به بعض قاداته (١٤٧ هـ - ٧٦٥ م) فإنه حاربه حتى قتله وهرب عنه أصحابه، ولكن «ابن الأشعث» أعطاهم الأمان ليعودوا، فلما عادوا قتلهم جميعاً (١٣١) وهل الغدر غير شيء؟ هذا؟ .

بل إن آخر خلفاء بني أمية «مروان بن محمد» «عُرف عنه في الناس أنه كان يقتل أسراه جميعاً إلا العبيد، فكان الكثير منهم يدعون أنهم عبيد» (١٣٢)، ليخلصوا من ظلمه .

وأيّما كان الأمر، فهذه أمثلة فردية، تشهد بمخالفتها للتشريع الإسلامي العام، والقواعد التي جرى العمل بها في صدر الإسلام، وإنما ذكرت إحقاقاً للحق، وليظهر للناس أن المسلمين كغيرهم، فيهم الفاتك وفيهم المقتصد، وإن كان الفاتك فيهم، لم يبلغ ما بلغه المسرفون في الدماء من الرومان، أو المغول أو الأتراك أو البيزنطيين .
ونهاية القول أن الإسلام، كان يرمي حق الأسير، فلا يلقيه في المعتقلات حتى يموت جوعاً وعرياً، ولا يكلفه من الأعمال ما يقصم ظهره، على النحو الذي

(١٢٩) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ١٤ .

(١٣٠) المسعودي في مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

(١٣١) الكامل ج ٥ ص ١٢٨ .

(١٣٢) الكامل ج ٥ ص ١٤٥ ، ٤٩ .

تعامل به الأسرى ، فى عصر النور والمدنية ، وعلى أيدي المثقفين من أبناء الأمم الغربية ،
التي تدّعى أنها حامية الحضارة فى العالمين ، ثم تسترقّ الشعوب والأفراد ، وتعترف فى
قوانينها بالتفرقة بين السود والبيض ، وتخصّ الزوج فى بلادها بمعاملة يأبأها الطبع
السليم ، والذوق الإنسانى الكريم .

وهكذا نرى الإسلام فى فجره يفك الرقيق ، والعصر الحاضر فى حضارته يسترق
الأحرار ، سواء أكانوا أفراداً أم جماعات .

الفصل السابع

السر في اكتساح الفتوح الإسلامية

إن الناظر في تاريخ الفتح الإسلامي ليعجب لسرعة انتشاره ، وتوالي انتصارات الجيوش الإسلامية ، بشكل لم يُعهد في تاريخ الحروب السابقة ، فقد اندفعت تلك الجيوش المظفرة ، تجوب البلاد شرقاً وغرباً لا يقف لها شيء ، وتهاوى أمام ضرباتها القاصمة حصون الفرس والروم ، كما تهاوى أوراق الخريف ، وبسيوف تلك الجيوش فقد الفرس ملكهم ، الذي بذلوا في تأسيسه قروناً طويلة ، كما فقد الروم عزهم في شمال « إفريقيا » وسقطت معقلهم السورية بسيوفهم ، فغادروها محزونين آسفين ، يظهر هذا جلياً في قوله « هرقل » المشهورة ، التي فاه بها عندما ألقى آخر نظرة له على مروج سوريا « سلام عليك يا سوريا سلام مودّع ، ونعم الأرض أنت للعدو » . وقد كفى لفتح الأندلس الغنية حروب عامين فقط^(١) .

ولقد دهش المؤرخ « غوستاف لوبون » لسرعة الفتح الإسلامي ، فدفعته الدهشة إلى المبالغة في قوله عند ذكر الفتح الإسلامي : « وقد كفى لثلّ عرش الأكاسرة ، وهدم الدولة الفارسية العريقة في القدم ، حروب شهرين (كذا) وقد خسر الروم في سبع سنوات « سورية » التي ظلوا حاكين لها ثلاثمائة سنة^(٢) .

وكيف يملك المرء نفسه من العجب ، لقوم لم يمض على وجودهم قرن كامل ، حتى بسطوا سلطانهم على نصف العالم القديم بوجه التقريب ، فوصلت فتوحهم إلى بلاد الصين شرقاً ، وإلى المغرب الأقصى والأندلس غرباً ، وامتدت رقعة ملكهم من جبال « القوقاز » وسهول سيبيريا شمالاً ، إلى بلاد النوبة جنوباً ، وهو ملك يبدو في عين المقدّرين إمبراطورية ضخمة ، يحتاج في تأسيسه إلى قرون طويلة ، فما السر يا ترى في هذا الفتح السريع المتواصل ، الذي لم يسمع بمثله في تاريخ الحروب

(١) الجغرافية التاريخية الإسلامية . الأستاذ حسونة ص ٨٧ ط ١٩٥٠ م .

(٢) حضارة العرب تعريب زعيتّر ط الحلبي ص ١٥٧ .

إلا نادراً ؟ إن ذلك يرجع فيما يبدو إلى أسباب عدة : بعضها يرجع إلى نفسية الفاتحين ، وطبيعة الدعوة الإسلامية ، والدين الجديد، وبعضها يرجع إلى الأمم المقهورة ، والشعوب التي كانت محكومة للفاتحين .

١ - أسباب تتعلق بالمسلمين الفاتحين :

أولاً - إيمان المسلمين بعدالة قضيتهم :

إن إيمان الجندى بعدالة القضية التي يحارب من أجلها ، عامل له أبعد الأثر في نصر الجيوش واندحارها ، فالיום الذي يحارب فيه الجندى في سبيل قضية يؤمن بخسراتها ، هو اليوم الذي تم فيه هزيمته ، واليوم الذي يحارب فيه مؤمناً إيماناً راسخاً بأنه على حق ، هو اليوم الذي يتم فيه نصره ، وهذا المعنى مقرر في الأذهان قديماً وحديثاً ؛ ولذا يقول القائد « كرمويل »^(٣) : أن أقوى غرض مشترك للجيش ، هو أن يعتقد أفرادهم أنهم أداة الخالق لتنفيذ أحكامه ، وأية قوة تستطيع الصمود في وجه القوة الإلهية ؟ ولقد كان المسلمون كذلك ، فإنهم كانوا يعتقدون أنهم جند الله ، يحاربون لإعلاء كلمته ونشر دينه ، بينما يقاتل أعداؤهم في سبيل الشيطان ، ولن ينتصر - الشيطان يوماً على الرحمن ، قال تعالى : « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً »^(٤) .

وكان المسلمون يعتقدون اعتقاداً راسخاً ، بأنهم الرابحون في القتال على أية حال ، فأحدهم إما أن يقتل مجاهداً فيفوز بنعيم الجنة ، وإما أن ينصرف يعود بالأجر والغنيمة ، ويكون قد حصل خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »^(٥) . ولا شئ يشد أزر الجندى كإيمانه بوجهة نظره ، واطمئنانه على مصيره المحمود ، في حالتي النصر أو الغلبة ، فما بالك به إذا كان يعتقد أنه من حزب الله ، الذين يُنزل عليهم نصره ، ويؤيدهم بروح من عنده ، وملائكة

(٣) نقل العقيد (شوقي) في كتابه فن القيادة ص ١٣٤ .

(٤) سورة النساء آية ٧٦ .

(٥) سورة التوبة ١١١ .

من جنده ، قال تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة^(٦) » فأراهم معجزة النصر بأعينهم ، وبين لهم كيف تنتصر القلة المؤمنة ، على الكثرة الكافرة ، وبين لهم كيف ينفي لجنده بوعده ويحقق نصره ، قال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه^(٧) » .

فهذه العقيدة تخلق في صاحبها روح التضحية ، وتحمله على إثثار الموت على الحياة ، وتجعل فيه الشجاعة التي تمكنه من ملاقاته عدو يفوقه عددا وعدة ، ولهذا المعنى يقول « دكتور أومان^(٨) » في كتابه « إن العرب الذين قادهم « خالد وعمر » في القرن السابع لفتح « سورية ومصر » لم يفوزوا بالنصر لكثرة جيوشهم ، أو لدقة نظامهم ، وإنما للتضحية والشجاعة النادرة ، فهي التي أقدرتهم على أن يواجهوا قوات أوفى منهم سلاحا ، وأدقّ منهم نظاما » . كما لاحظ هذا المعنى أيضا كثير من المستشرقين والمؤرخين ، ويكفي أن أذكر منهم الدكتور « فيليب حتى^(٩) » فإنه يقول في كتابه : « وملأ قلوب العرب شجاعة احتقارهم التام للموت ، الذي قرره في أذهانهم دينهم الجديد » .

ثانيا - تأصل الصفات الحربية في المسلمين :

لقد كان العرب منذ جاهليتهم مفطورين على حب الفروسية ، ومزاولة أعمال البطولة الحربية ، وساعدتهم بيئتهم الحربية على تنمية غريزة المقاتلة فيهم ، وقد كانت تلك الغريزة تجد مجالا واسعا لإشباعها ، في أيام العرب وحروبهم^(١٠) التي كانت لا تكاد تنقطع في الجزيرة العربية ، فلما جاء الإسلام جمع العرب على كلمته ، ونظّمهم في سلك الأخوة الإسلامية ، وقضى على أسباب الفرقة والتشاحن بينهم ، فلم تجد تلك الغريزة لها متنفسا ، وكانت كلما حاولت الظهور لرد عدوان قريش ، كفكف الرسول من غربها ، وأمر أصحابه بأن يكفوا أيديهم ، حتى يأذن الله له في القتال ، فلما أذن الله له فيه بقوله : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،

(٦) آل عمران ١٢٣ .

(٧) آل عمران ١٢٥ .

(٨) A Hist. of the Art of war. pp. 152-808 .

(٩) تاريخ العرب تعريب الأستاذ نافع ج ١ ص ١٧٦ .

(١٠) أنظر تمهيد الرسالة .

وإن الله على نصرهم لقدير . نشطت رغبتهم الحربية من عقابها ، ووجدت الفرصة سانحة لا ستغلالها ، ووجد المحبون للفروسية المناسبة التي يُشبعون بها نزعاتهم الحربية ، ففي شرعية القتال وثواب الجهاد مجال أيّ مجال ، فاندفعت قوى المسلمين جارفة عارمة ، تأتي على ما يقف في طريقها ، لإعلاء كلمة الله ، وتأديب المتحرّشين بالحكومة الإسلامية ، أو الخارجين عليها لسبب من الأسباب .

وقد ظلت تلك الغريزة تزاوّل نشاطها ، حتى دان للمسلمين العالم المجاور لهم ، واتسع سلطانهم ، فلما بعدوا عن روح الإسلام الحق ولعبت بهم الأهواء والأحقاد الدنيوية ، صار بأسهم بينهم ، واستغلوا صفاتهم الحربية ، في الثورات الداخلية وإخمادها ، وفي هذا المعنى يقول (جوستان لوبون^(١١)) . « لم تكن جزيرة العرب ... قبل ظهور « محمد » إلا ميدان حرب دائم واسع ، لما تأصل في العرب من الطوائع الحربية ، فلما جاء الإسلام وألّف بين قلوبهم ، وجهوا جميع قواتهم إلى البلاد الأجنبية فتم لهم النصر ، ولما لم يبق من الأعداء من يحاربونه وجهوا أسلحتهم نحو أنفسهم ، بفضل صفاتهم الحربية المتأصلة فيهم ، فصارت هذه الصفات التي كانت سر عظمتهم هي سبب انحطاطهم » .

ولقد نقل الأستاذ « محمد كرد علي » هذا المعنى عن « لوبون » أيضا ، ولكن في ترجمة مغايرة قليلا للسابقة ، فهو يقول : « إن اعتياد العرب الحروب والغارات في الجاهلية ، كان من قيام أمرهم في الإسلام ، فبعد أن كان بأسهم بينهم ، وجهوا غاراتهم نحو الأجانب ، فكان في ذلك قوتهم ... ولما لم يبق أمامهم أعداء يقاتلونهم ، عادوا يتقاتلون فأدى ذلك إلى انحطاطهم^(١٢) » .

مما تقدم نعلم أن طبيعة المسلمين الحربية ، التي انحدرت إليهم من البيئة العربية الجاهلية ، كانت خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين ، وعاملا مهما من عوامل السرعة في الفتح الإسلامي .

ثالثا — تحول العصبية القبلية إلى عصبية دينية :

عُرف العرب من بين الشعوب بحفظ أنسابهم ، والتعصب للقبيلة تعصباً ظاهراً ،

(١١) حضارة العرب تعريب عادل زعير ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(١٢) الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٤٤ . ولكنه للأسف لم يشر إلى مرجعه .

فقد عاشوا داخل جزيرتهم في شبه عزلة عن غيرهم ، بفعل الصحارى التي تشمل بلادهم ، عاشوا فيها قبائل متنافرة متحاربة ، تلازمهم في القتال روح العصبية القبلية ، فلما جاء الإسلام وضمهم إلى كنفه ، آخى بين المسلمين جميعا ، وأزال الفوارق بين طبقاتهم ، وقضى على العصبية القبلية فيهم ، وأحل محلها التعصب للدين الجديد ، وللدولة الإسلامية بوجه عام ، وربى المسلمين تربية جماعية ، وأوجد فيهم وعياً عاماً راقياً ، فبعد أن كان العربي يثور لفرد من قبيلته ، أصبح يثور لأخيه المسلم أينما كانت قبيلته ، وبعد أن كانت القبيلة هي وحدة الحياة الاجتماعية ، حلت محلها الحكومة الإسلامية .

فلما وجهت هذه العصبية الإسلامية لمحاربة الشرك والمشركين ، فعلت فعلها كما كانت تفعل العصبية القبلية في الجاهلية ، التي قضت عليها تعاليم الإسلام أو كادت تقضى عليها ، فقد كانت تحاول أن تخرج أعناقها زمن الرسول وخلفائه ولكن قوة شخصيتهم ، وحسن توجيههم لها نحو الفتوح ، كان يكتم أنفاسها ، ويردها إلى جحرها ، فلما وقفت عجلة الفتوح ، وبعد الناس عهداً عن أبطال الصدر الأول ، عادت عصبيتهم للظهور ، وكانت من بين العوامل التي فرقت كلمة المسلمين ، وأضعفت شوكتهم وهنا يقول الأستاذ « محمد مبروك نافع » عند توضيحه لهذا المعنى في ترجمته لكتاب « الدكتور حتى ^(١٣) » : « ولم تختف العصبية إلا في فترة الفتوح الأولى ، حين اكتسحت الروح الدينية كل شيء ، ولكن عندما استقرت الأمور ، كشفت العصبية عن نفسها وكانت من بين العوامل الفعالة التي أدت إلى انحلال الحكومات الإسلامية المختلفة وسقوطها » .

وفي الحق أن العصبية كانت سلاحاً ذا حدين ، فإنها لما هُذبت ووجهت لصالح المسلمين ، أثمرت خيراً وبركة ، فلما ضعفت الروح الدينية عادت لسابق عهدها ، فأثمرت شراً وضعفاً ، وأدت إلى تفكك الدول الإسلامية .

وقد كان النصيب الأوفى في تشجيع العصبية القبلية ، راجعاً للخلفاء الأمويين ، الذين أرادوا أن يشغلوا الناس بها ، عن النظر في الخلافة ونظامها ، ويشغلهم عن الأعيان السياسية : ففي عهدهم هاجت العصبية بين اليمانية والمصرية في كل مصر

(١٣) للأستاذ نافع في تعليقه على تاريخ العرب ج ١ ص ٣٥ طبعة ٢ ، قارنه بما ورد في سيرة

ابن هشام ج ٤ ص ٤٥ ط الحلبي .

من الأمصار ، وكانت السلاح القاتل في يد « أبي مسلم » الذي قضى به على الأمويين . وكذلك كانت تثور الفتن كثيرا أيام العباسيين ، بين هذين الحين في بغداد والكوفة والبصرة ، وفي مصر ودمشق ، وكذلك في بلاد الأندلس ، حيث كان يستمر القتال بينهما سنوات قد تصل إلى سبع^(١٤) ، مما أضعف شأن المسلمين ، وكان سبباً في القضاء على سلطانهم هناك والفتك بهم .

٤ - سمو الروح المعنوية "Moral"

لقد امتاز المسلمون بروح معنوية ، هي غاية في السمو والقوة ، سببها رغبتهم في إعلاء كلمة الله ، والفوز بنعيم الجنة إذا قتلوا ، أو بالثواب والغنيمة إذا سلموا ؛ لذا كان أحدهم يحارب وقد ضمن لنفسه المنفعة ، سواء أكانت عاجلة أم آجلة ، فيقدم إقدام المستميت ، ويحب الموت كما يحب غيره الحياة ، وقد عرف هذا عن المسلمين بين أعدائهم ، فكان له أثر كبير في نفوسهم ، فكانوا لا يثبتون أمامهم إلا قليلا ثم يفرون ، بل كثيرا ما كانوا يذهلون لمقدمهم فيسلمون لهم الحصون ، وبخاصة إذا عرفوا أن القائد رجل مظفر « كخالد أو عياض أو سعد أو قتيبة » أو غيرهم ممن يماثلهم ، فهذا زعيم « دوامة الجندل » يقول لقومه لما علم بقدم خالد إليهم ، « أنا أعلم الناس بخالد - لا أحد - أيمن طائراً منه ، ولا يرى قوم وجهه خالد قلوباً أو كثراً إلا انهزموا ، فأطيعوني وصالحوا القوم^(١٥) » .

إذن فقد كان المسلمون بحاربون بشهرتهم التي تسبقهم ، كما كانوا يحاربون بسيوفهم أو أكثر ، وكانت هذه الشهرة تقوى من روحهم ، وتضعف من روح عدوهم ، وقد التفت إلى هذا المعنى الفيلسوف « ابن خلدون^(١٦) » فقرر أنه « من أقوى أسباب الانتصار ، ورفع روح الجند ، ذبوع الشهرة ، وبعد الصيت ، وتناقل أخبار النصر ، به يُلقي العدو سلاحه ، ويفقد روح المقاومة » ، وكذلك كان الفرس يلقون سلاحهم أمام « سعد » ، وأهل خراسان أمام « قتيبة بن مسلم » لدرجة

(١٤) انظر الكامل لابن الأثير ج ٥ صفحات ٦ ، ١٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ج ٦ صفحات ٤٥ ، ٦٧ ، ١١١ وتواليها .

(١٥) الفتوة عن العرب للأستاذ عمر الدسوقي ص ١٨٦ .

(١٦) المقدمة له ص ٢٣٣ .

أن أهل إقليم « صاغان » أتوه بهدايا ومفتاح من ذهب ، وسلموا إليه بلادهم بالأمان^(١٧) ، كما كان الروم يلقون سلاحهم أمام « خالد وأبي عبيدة » .

وإن الضربات التي ذاقها الفرس من « خالد » يوم الوَلجة وأُلّيس وغيرها جعلت قواد الفرس يجنبون عن مواجهة المسلمين في القادسية ، فهذه المحاورة التي دارت بين « يزدجيرد » وقائد جيوشه « رستم » تنطق على فرض صحتها ، بأن القائد كان يحاول التهرب من لقاء المسلمين ، وأنه أُرغم على الخروج لهم ، فخرج وقلبه مفعم بالفرع ، كما تفيدنا رواية « ابن الأثير^(١٨) » وما ظنك بقائد يخرج لعدوه مترددا ، غير واثق بنفسه ؟ لا شك أن شعوره هذا ينعكس على جنده ، فيقودهم للهزيمة .

ولقد بلغ من فزع الفرس بعد هزيمتهم في القادسية ، « أن كان الجندى المسلم يشير إلى الفارسي فيأتيه فيقتله ، وربما أخذ سلاحه فقتله به ، وربما أمر رجلين فيقتل أحدهما الآخر^(١٩) » ، وما ذاك إلا للرغبة التي داخلتهم منهم والهيبة التي جعلتهم يخرجون لقتالهم مقرنين في السلاسل خشية الفرار ، وكثيراً ما كانوا يقولون عن العرب : ما نقاتل إلا شياطين ، وهذا الرعب هو المقصود بقوله تعالى عن الكفار : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله^(٢٠) » . وهو المقصود بقوله عليه السلام : « نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر^(٢١) » .

وقد تولى الله سبحانه تربية هذه الروح في نفوس المسلمين ، فعمل على تقويتها بتذكيرهم بنصره لهم ، وتأنيده إياهم ، قال تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » وقال : « قد كان لكم آية في فتنتين التقتا ، فئة تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره ، من يشاء^(٢٢) » . ثم هو يشعرهم بأنهم الغالبون مهما تداول النصر بينهم وبين عدوهم ، ومهما نزل بهم من إيلام أو شدة

(١٧) النجوم الزهراء لابن تغرى بردى ج ١ ص ٢١٢ .

(١٨) القصة مطولة بالكامل ج ٢ ص ١٩١ وتواليها .

(١٩) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢٠) سورة الحشر آية ١٣ .

(٢١) صحيح البخارى - باب الجهاد ج ٥ ص ٥٤ .

(٢٢) سورة آل عمران آية ١٣ .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ^(٢٣) » . « ألا إن حزب الله هم الغالبون » .

ولأمر ما كلف الله المسلم أن يثبت أمام عشرة من أعدائه ، ثم خفف عن المسلمين لما علم منهم ضعفهم ، فجعله يثبت لاثنتين ، وألزمه الصبر والثبات أمامهما ، وحرّم عليه الفرار منهما مهما كان الموقف ، وكثيراً ما كان يحدث هذا في معارك المسلمين ، فابن هشام يروى أن « أبا عامر الأشعري » قتل تسعة من المشركين مبارزة ، ثم حمل على العاشر فاستجار به فعفا عنه فأسلم ، وأكثر من هذا ما رواه « الطبري ^(٢٤) وابن الأثير » في حوادث سنة ١٣ هـ من أنه أحصى في معركة (البويب) بالعراق مئة مسلم ، قتل كل منهم عشرة من جنود الفرس ، ولذا سُموا أصحاب الأعشار « كما سُمي يوم المعركة « يوم الأعشار » وقد أحصوا إلى جانب هؤلاء عدداً كبيراً من أصحاب التسعة والثمانية .

وأكثر من هذا وذلك أن بعض أبطال المسلمين ، كان يقتل مئة من الأعداء في المعركة الواحدة ، فقد نقل السيد « رفيق العظم ^(٢٥) » أن « البراء بن مالك » كان من أصحاب المئين في « حرب الهرمزان » يوم معركة « تستر » فقد قتل مئة مبارزة في أثناء مدة الحصار ، ومثله كان « مجزأة بن ثور وكعب وغيرهم » .

وكما تولى القرآن تقوية الروح المعنوية ، تولى الرسول كذلك تقويتها في أصحابه فقد دأب دائماً على تبشيرهم بالنصر والفتح ، حتى في أشد أوقات الضيق والخرج ، ومن ذلك قوله لأصحابه : « أبشروا بالنصر » عندما لحن له رساله بغدر بني قريظة يوم الأحزاب ، كما تولى إضعافها في أعدائهم ، بإظهار قوته ولو بوسائل مصطنعة ، ومن ذلك خروجه وراء قريش ثانی يوم من « أحد » وعامة أصحاب جرحى ، وأمرهم بأن يوقدوا ليلاً ٥٠٠ نار ، حتى يراها المشركون من المكان البعيد ، كما أوقد عشرة آلاف نار ^(٢٦) ليلية فتح مكة ؛ ليفت ذلك في سواعد المشركين .

وفي سبيل تقوية هذه الروح ، وإثارة الحماسة في نفوس المسلمين ، كان الله

(٢٣) سورة آل عمران ١٣٩ .

(٢٤) الطبري ج ٤ ص ٧٥ والكامل ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢٥) أشهر مشاهير الإسلام ص ٣٢٦ .

(٢٦) الطبقات الكبرى لابن سعد طبعة ليدن ج ٢ ص ٣٥ ، ٩٧ .

سبحانه يُثير عواطفهم ، ويستنهض فيهم النخوة العربية ، والنجدة البدوية ، فذكرهم بإخوانهم المحصورين بمكة ، الذين لا يملكون دفع الضيم عن أنفسهم ، قال تعالى : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا (٢٧) » .

كما أثار في نفوسهم الحقد على أعدائهم ، بتذكيرهم بأيام المذلة والقلّة ، حيث كانت قريش تستقلهم ، وتنزل عسفها بهم قال تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٨) » .

لقد أثمرت هذه التربية الإسلامية ثمرتها في نفوس المسلمين ، فخلقت فيهم قوة معنوية جبارة ، فيها كنت ترى الأعرج المقطوع يجندل الأبطال ، ويستطيل حياته في الميدان شوقاً للجنة ، في حين يفر ضعيف الروح من لمع السيوف ، ويفزع للهيئات ، والفرق بينهما هو الفرق بين روحيهما ، والقوة الدافعة في كل منهما ، حيث خرج الأول راغباً عن العودة ، وخرج الثاني راغباً فيها ، وشتان بين من يفكر في ولده وماله ، ومن يفكر في لقاء ربه ونعيم جناته .

وليتضح لنا أثر الروح المعنوية في الجندی ، وكيف كانت تُقدّره على الإتيان بالمعجزات ، يصح أن نستمع إلى ما يرويه « ابن هشام (٢٩) » عن « معاذ بن عمرو ابن الجموح » فإنه ذكر في يوم بدر أن معاذاً ضرب « أبا جهل » ضربة أطنّت قدمه بنصف ساقه ، ثم روى عنه قوله : « وضربني ابنه « عكرمة » على عاتقي فطرح يدي ، فتعلقت بجلدة في جنبي ، وأجهضني القتال عنها ، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي ، فلما آذنتني وضعتُ عليها قدمي ، ثم تمطيت بها عليها فطرحتها . فهذا الرجل الذي يتخلى عن ذراعه بتلك الطريقة ، ولا يمنعه ألمها ، ولا الدم النازف منها عن القتال ، رجل مسحور لا شك بقوة روحه التي طغت

(٢٧) سورة النساء ٧٥ .

(٢٨) سورة الأنفال ٢٦ .

(٢٩) سيرته بهامش الروض الأنف ص ٧٢ .

على بدنه ، فجعلته لا يحسّ بالآلام ، مركزاً همه في طلب الشهادة كأنه ينشق ريح الجنة ويراهها .

وهاك مثالا آخر يبين أثر تلك الروح في أوسع مجاليه ، وهو مثل فريد في بابه إذ أنه غير من وجه المعركة يوم أحد ، فحوّلها من هزيمة ساحقة للمسلمين ، إلى تحاجز بين الفريقين ، دون أن يهزم أحدهما الآخر ، ذلك أن « ابن الأثير وأبا الفرج »^(٣٠) يرويان أنه لما أشيع قتل الرسول يوم أحد ، ألقى المسلمون بأيديهم ، وفيهم « أبو بكر وعمر وطلحة وغيرهم » فمرّ بهم « أنس بن النضر » فسألهم عن سبب كفّهم ، فأجابوه بأن الرسول قد قتل ، فما كان منه إلا أن أجابهم تلك الإجابة الدافعة ، التي تتمثل في قوله « فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم اندفع أمامهم يقاتل حتى قتل ، فوجد به سبعون ضربة وطعنة ، وما عرفته أخته إلا بحسن بنانه . فلولا دفعته تلك ، واندفاع المسلمين معه لكانت الهزيمة الساحقة ، ولتغير وجه التاريخ الإسلامي كله .

ولعل بعض الناس يعجب لتقدم « أنس »^(٣١) في هذا العمل المجيد على « أبي بكر وعمر » وهما صهرا رسول الله ووزيراها ، ولكن الدارس لطبائع النفوس والأحداث ، لا يعجب لهذا كثيرا .

ذلك لأن هذين الرجلين كان للرسول عندهما مكانة خاصة وحب خاص ، وكانت تربطهما به صلات نسب خاصة أيضا ، وكانا يقدران خطر الرسالة التي كُلف أدائها ، فقد يذهل أحدهما عند المفاجأة بقتله ، ويدهش دهشاً فجائياً يُقعده عن التصرف الإيجابي ، ريثما تثوب له نفسه ، ويراجع للتصرف عقله ، ولقد حدث هذا مرة أخرى من « عمر » عند سماعه بوفاة « الرسول » فما سبقهما « أنس » لأنه أثبتُ منهما إيمانا ، ولا أكثر منهما مضاء ، وإنما لأن عاطفته في ذلك الوقت كانت تسمح له بالتفكير والعمل — فكان أسرع منهما .

على أن « ابن الأثير » يذكر ما قد يكون باعثاً « لأنس » على هذا العمل ،

(٣٥) انظر الكامل ج ٢ ص ٦٤ والأغانى طبعة المغربي ج ١٤ ص ١٩ .

(٣١) ينقل الحلى عن الإمتاع للمقرئزي أنه « ثابت بن الدحداح » وأنه قال لهم « إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظفركم وناصركم ، فهض اليه نفر من الأنصار فحملوا على المشركين (الحلية ج ٢ صفحات ٢٣٩ ، ٤٠ .

فيروى أنه سمع بعض المسلمين يقولون لما أشيع قتل الرسول : « لَيْتَ لَنَا مِنْ يَأْتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سُلُولٍ » فيأخذ لنا أماناً من « أَبِي سَفِيَّانٍ » قبل أن يقتلونا^(٣٢) . فلعله ثار عند سماع تلك القالة ، وأخذته عزة الإسلام فأتى ما أتى مدفوعاً بالغيرة الإسلامية ، والنخوة العربية التي تأبى الذل ، ولا ترضى بالهوان ، ومن الناس من تخونه قدماءه عند هول المفاجأة ، ومنهم من تثيره المفاجأة ، وتُهيج أعصابه لحدة مزاجه ، ولعل « أنسا » كان من هذا النوع الثائر ، الحاد المزاج .

يضاف إلى ذلك أن « أنسا » أراد أن يُكفر في أحد عن تخلفه يوم بدر ، بكل ما يستطيع ، يروى لنا « النووي^(٣٣) » أنه قال للرسول : « يا رسول الله : غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، ولئن أشهدني الله قتال المشركين ، ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد ، انكشف المسلمون فقال لهم : اللهم إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء (يعني أصحابه الرماة) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين) ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، ومثل به المشركون كما تقدم ، فقد وجد بجسمه سبعون ضربة وطعنة .

٥ - كلمة عن الإمداد الملائكي :

يتعلق هذا الموضوع بالروح المعنوية تمام التعلق ، وقد طال كلام الباحثين فيه ، بعضهم يستند إلى ظاهر الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأخبار المؤرخين المتأثرة بهما ، فيقول بأن الإمداد كان حسيّاً في معارك الرسول ، وأن الملائكة نزلت وباشرت القتال فعلاً في تلك المعارك ، وبعضهم يرى أن الإمداد الملائكي ، كان لتقوية الروح المعنوية كما قال تعالى : « وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم^(٣٤) » . فاستجابة الله دعوة الرسول بإرسال الملائكة ، إنما كانت لتبشير المسلمين بالنصر ، وإدخال الطمأنينة على القلوب ، لتمضي قدماً في سبيلها معتمدة على ربها ، فتوقع الرعب في قلوب الأعداء بثباتها .

(٣٢) ابن الأثير . الكامل ج ٢ ص ٦٤ .

(٣٣) رياض الصالحين طبعة ١٣٤٧ ١٩٢٩ هـ م ج ٧ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣٤) سورة الأنفال آية ١٠ .

وأظن هذه الآية الماضية تعد جواباً حاسماً يقطع كل خلاف ، في مسألة الإمداد الملائكى ، فقد نصّت على أنه للبشرى وتطمين القلوب ، تضاف إليها آية أخرى تحدد وظيفة الملائكة ، وتبين مهمتهم ، وهى قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب (٣٥) » . والملائكة أرواح تستطيع بالإلهام أن تقوى العزائم ، وتربط على القلوب ، كما توقع الله الرعب بنفس الإلهام فى قلوب الكفار .

وسواء أباشرت الملائكة القتال أم لم تباشره - وهو الراجح - فالثابت أنهم كانوا سبباً فى نصر المسلمين ، ويكفى فى ذلك شعورهم بأنهم جند الله ، وأن الملائكة تقاتل معهم ، ليمضوا فى المعركة ويصبروا ، والعاقبة دائماً للصابرين ، المدفوعين بروحهم المعنوية السامية .

أما كيف كانت مساعدتهم للمسلمين ، وتقويتهم لقلوبهم ، فحقيقة ذلك يعلمها خالق القلوب وخالق الملائكة ، فنحن نجهل طبائعهم ، وعقولنا قاصرة عن تحديد نوااميسهم ، وإنما نعرف عنهم أن ملكاً واحداً كان كافياً لإبادة من فى بدر جميعاً ، فما الحاجة إلى ألف أو ثلاثة آلاف ؟ وما الحاجة إلى إنكار جهاد المسلمين والله سبحانه يقول : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم (٣٦) » وما دام العذاب بأيدي المسلمين ، فكيف ينسب القتل إلى الملائكة ؟

هذا وليس البحث محتاجاً إلى هذه الروايات المتضاربة ، التى يرونها المؤرخون والمفسرون عن الملائكة ، فى نصوص القرآن غناء عنها (٣٧) ، وهى تفيد أن الإمداد بالملائكة كان إمداداً روحياً للتقوية ، ولله جنود السموات والأرض ومنها الرعب والرعد والمطر والبرق والرياح ، وقد فعلت هذه الجنود فعلها يوم الخندق ، وإذا أراد الله نصر قوم بوسائله الخاصة ، فلا نسأل نحن عن كنه هذه الوسائل وحقيقتها ،

(٣٥) سورة الأنفال : آية ١٢ .

(٣٦) سورة التوبة : ١٥ .

(٣٧) من أراد التوسعة فى هذا الموضوع ، فليرجع إلى تفسير سورة الأنفال فى كتب التفسير المختلفة وبخاصة تفسير المنار ، وفى ظلال القرآن ، وتفسير السورة للأستاذ مصطفى زيد ، ومجلة « لواء الاسلام » فيها بحثان عن معركة « بدر » للأستاذين « عبد الوهاب خلاف » والشيخ محمد أبو زهرة فى العدد الثانى من السنتين الثانية والخامسة .

وما علينا إلا الإيمانُ بالروح المعنوية ، التي تفعل فعل السحر في النفوس ، لا كإيمان « نابليون » الذي جعل نسبتها إلى القوة المادية كنسبة ٣ : ١ فإن تاريخ المسلمين يشهد بخلاف هذه الحقيقة ، ولو كان نابليون « في جند كجندهم لرفع كثيراً من نسبة الروح المعنوية ، فهي شيء مهم في الجيوش قديماً وحديثاً .

٦ - سماحة المسلمين في معاملة الشعوب المغلوبة :

من الأسباب التي ساعدت على سرعة التوسع الإسلامي ، ما امتاز به المسلمون من رفق في معاملة الشعوب المغلوبة ، يتجلى ذلك واضحاً في المعاهدات التي كانت تعطى لهم ، لتؤمنهم على دور عبادتهم ، وتترك لهم حرية الاعتقاد والعبادة^(٣٨) ، وتجعلهم في أمان من المسلمين ومودة معهم ، ما لم يحملوا السيف في وجههم ، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ، روتها كتب التاريخ عن « عمر » وغيره من الخلفاء ، كما روت الاضطهادات الكنسية التي كانت تروّع البلاد وقتها ، وتقض مضاجع الناس في مصر والشام وغيرهما ، فكان الناس يوازنون بين الحالين ، ويختارون أرحم الحكومتين ، وأرفق المعاملين .

هذه هي الأسباب التي ساعدت على سرعة التوسع الإسلامي ، من ناحية المسلمين أنفسهم ، وهناك أسباب أخرى ساعدت عليه ، من ناحية البلاد المفتوحة . وحالة الشعوب المهضومة ، وهي أسباب عدة أهمها ما يلي :

ب - أسباب تتعلق بالبلاد المفتوحة :

١ - الاتحاد الجنسي بين أهل البلاد والغزاة :

لقد كان العرب المقيمون في نواحي الهلال الخصيب ، لا يرون بأساً في غزو بني عمهم لبلادهم ، فهم أولى بها من المستعمر الدخيل ، والجميع من جنس واحد ، يتكلمون لغة واحدة ، وتجمعهم عادات وتقاليدهم واحدة ، وفي خضوعهم لبني جنسهم اطمئنان لأنفسهم ، أكثر من

(٣٨) فيليب حتى - تاريخ العرب مجلد ١ طبعة ٢ ص ١٧٥ .

خضوعهم للجنس الآرى أو الطوراني ، الذى لا يمتُّ بنسب إلى الجنس السامى الذى ينتمى إليه العرب ؛ ولذا رأيناهم أسرعوا فى نبذ سلطان ساداتهم القدماء ، وانضموا لبني جنسهم عند قدمومهم ، وحملوا لواء الجهاد معهم ، وإن كانوا على غير دينهم ، فساعد ذلك على سرعة التوسع العربى ، وفى هذا المعنى يقول « دكتور حتى » فى كتابه (٣٩) : « وكان الساميون المقيمون فى سوريا وفلسطين ، وكذلك حاميو مصر يعتبرون الغزاة العرب ، أمتاً بالقربى لهم من ساداتهم الأجانب المبغضين لديهم . » إذن فالتقارب الجنسى والاجتماعى بين أهل البلاد والفاثحين ، كان لهما دور مهم فى الإسراع بالفتوح الإسلامية ، كما نبها الأذهان للقومية العربية .

٢ — خصب البلاد المفتوحة ووفرة خيراتها :

لقد خرج المسلمون من جزيرة العرب القاحلة ، فوجدوا أمامهم مروج الشام والعراق التى تفيض بالخير والخصب ، وجربوا ما تُدره عليهم تلك البلاد من جزية وخراج ومغانم مالية ، فأغراهم ذلك بالتقدم فى بلاد العدو ، وهم قوم يعتمدون فى تنقلهم على الحمل الصبور فى الأسفار ، ولم يعرفوا بعدُ الأسلحة الثقيلة التى تعوق تقدم الجيوش ، فساحوا فى البلاد ليكونوا أولى بخيرها ممن تتناقل عن طاعة الله ، وبهذا المعنى أغرى « خالد » جنده ، لما دخلوا العراق ورأوا خصبها (٤٠) ، كما أغرى به « أبو بكر » من قبله الجيوش التى حشدتها لغزو الشام ، فلقد ذكر « البلاذرى » أنه كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وكل العرب ، فى نجد والحجاز يدعوهم إلى الجهاد ، ويشير فيهم الرغبة فيه وفى الغنائم التى يحصلون عليها من الروم (٤١) . وكثيرا ما كان ملوك الفرس والروم يجابهون رسل المسلمين ، بأنهم ما أخرجهم من بلادهم إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، بل لقد ادعى بعض المُرُخين ، أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لجمع المغانم . وقد يكون هذا الادعاء عريضا مبالغاً فيه ، ولكن الذى يساويه فى معناه أن نغفل من حسابنا بالمرّة إغراء النوى والجزية ، ونُهمل أثر العامل الاقتصادى فى سرعة انتشار الفتوح الإسلامية بوجه عام ، فهو يلازم العوامل الأخرى ويساعدها .

(٣٩) نفس المرجع ص ١٧٧ .

(٤٠) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٩ .

(٤١) فيليب حتى تاريخ العرب نقلا عنه .

٣ - ضعف الفرس والروم أمامهم :

لقد برزت الحكومة الإسلامية إلى الأفق الدولي، في وقت كانت الحروب فيه قد أنهكت نوعاً الدولتين الفارسية والبيزنطية، فقد دامت بينهما الحروب عدة قرون، كانت تتغلب فيها الفرس مرة فتستولى على الشام ومصر، وتتغلب الروم أخرى فتستولى على سواد العراق، وكان المسلمون يفرحون بانتصار الروم لأنهم كتابيون مثلهم، وفي سبيل تبشير المسلمين بنصرهم، بعد هزيمتهم أمام الفرس نزل قوله تعالى: « ألم غابت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين »^(٤٢). وقد تطلبت هذه الحروب الكثيرة في كل من الإمبراطوريتين فرض ضرائب باهظة، كانت تثقل كاهل المواطنين، وتقلل من شعورهم بالولاء^(٤٣) ويساعدنا كثيراً على توضيح تلك النقطة قول الدكتور « فون كريمير^(٤٤) » بترجمة « خوداينخش »: « أما الحكومات المنحلة الآخذة في التدهور، فإن الإحساس بالوطنية والشعور بالواجب سرعان ما يضعفان فيها، ثم يختفيان تماماً، وكلاهما كان قد انمحي من نفوس البيزنطيين إلى الأبد ».

وكذلك كانت الحال في فارس؛ فإن الحروب الداخلية المستمرة كانت قد أنهكتها، وأفسدت أمرها، ويمكننا أن نقرر صادقين أنها أجهزت فيها على الروح الوطنية والشعور بالواجب، فقد كانت همة الحكام في الدولتين، متجهة إلى تدبير المؤامرات، وإحكام الدسائس، للظفر بالحكم والبقاء فيه.

ومما زاد في ضعف الشعور الوطني في كل من الدولتين، تلك المنازعات والاضطرابات التي كانت تثور حول العرش، والدسائس التي كانت تحاك في البلاط الملكي لتنازع السلطة، مما شغلهم بأنفسهم عن عدوهم الخارجي، فلم يفيقوا له إلا حين طرق عليهم أبواب حصونهم، وكانت الدولة منهم إذا أقرت سياستها الداخلية، قويت في مقاومته، فإذا عاد لها الاضطراب ضعفت أمامه فاجتاح أملاكها، وكثيراً ما كان يحدث هذا.

(٤٢) أول آية من سورة الروم، وبعد نزولها راهن أبو بكر على أنهم سينصرون، وقد وقع،

(٤٣) تاريخ العرب « لحي » تعريب « نافع » مجلد ص ١٧٥. الطبعة الثانية.

(٤٤) Orient under the G aliphs. p. 315.

٤ - استهانة الفرس والروم بعدوهم الحديد :

لقد كانوا أول أمرهم ينظرون إلى غزوات المسلمين ، نظرتهم إلى غارات الأعراب ، التي ألفتها منهم كثيراً ، والتي كانوا لا يقصدون بها سوى النهب ثم العودة إلى قلب الصحراء ، فلم يأبهوا لها ، وأهملوا حصون الحدود^(٤٥) فلم يقووها ، لدرجة أن المسلمين كانوا أحياناً يجدونها شبه خالية ، وبحاجة كبيرة إلى الإصلاح والترميم ، كما حدث في فتح مصر وغيرها ؛ ولذا بُهِت الروم حين حاصر العرب دمشق ، ورأوهم مجهزين بمثل ما كان عندهم من آلات الحرب^(٤٦) ، ومعدات الحصار ، التي كانوا يعلونها من مستحدثاتهم .

وكذلك كان الفرس يعدون العرب أوشابا من الحفاة العراة ؛ لا يجسرون على غزوهم ، لدرجة أن كسرى لما أتاه كتاب « الرسول يدعو إلى الله ، كبر عليه ذلك وطلب إلى عامله على اليمن أن يرسله إليه مقيداً مغلولاً ، وقد بلغ من استهانة الفرس بالمسلمين ، أنهم كانوا يسمون سهامهم التي يرمونها بها يوم القادسية (مغازل) فما زالت تلك المغازل بهم حتى أزال ملكهم^(٤٧) ، وقضت على دولتهم التي أمضوا القرون في تدعيمها .

أما من جانب المسلمين ، فقد كانوا يهابون غزو الدولتين أول أمرهم^(٤٨) لأنهم عرفوا قوة جيوشهما ، وسعة ملكهما ، فوجهوا لكل منهما ضربة الخائف القاتلة ، فلما أصابت ضرباتهم تجرءوا على قتالهم ، وهجموا هجوم الواثق من الغلب ؛ فأفزعوا أعداءهم ، وأدهشهم بجراتهم عليهم ؛ بعد أن كانوا يرهبونهم .

إذن فاعتداد العرب بقوة عدوهم ، واستهانة عدوهم بقوتهم ، أوجد لهم ثغرة يستفدون منها إلى قلب بلاده ، فإن الروم والفرس كانوا يظنون المسلمين كسابق عهدهم من التفكك والتناحر ، ولكنهم أفاقوا بعد فوات الأوان ، ووقعت عيونهم على الحقيقة المرة ، وأدركوا جيداً أنهم أمام غزو منظم ، من قوم يثبتون أقدامهم فيما فتحوا

(٤٥) حضارة العرب « لوبون » تعريب زعيتر ص ١٥١ .

(٤٦) فتوح البلدان للبلاذري طبعة ليدن ص ٢٦٠ .

(٤٧) تاريخ الطبري ج ٤ صفحات ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٤٨) تاريخ العرب المتقدم (لحتى) ص ١٧٥ .

وينشرون في البلاد الحكم العادل بدل ظلمهم ، وحرية التدين بدل اضطهادهم وروح المحبة والمساواة بدل تعصبهم ، فلم يملكوا إلا أن دخلهم الرعب منهم ، وأفسحوا الطريق أمامهم ، مولين إلى غير رجعة .

هـ - عدالة الضرائب الإسلامية :

مما ساعد أيضاً على سرعة الفتوح الإسلامية ، وجعل أهالي البلاد يتقبلون العرب قبولاً حسناً ، ويدلونهم على عورات عدوهم أحياناً ، ما عرّفوا به من الرفق بالناس في تقدير الضرائب وطريقة جمعها ، فإن الجزية التي كان المسلمون يتقاضونها ، كانت أقل من ضرائب الفرس والروم^(٤٩) ، التي كانت كثيرة بكثرة الحروب ، المحتاجة إلى كثرة الجند ، المحتاجين للنفقات والمربطات الكثيرة ، فجزية المسلمين كانت على أصحاء الجسم ، بحيث يُدفع عن كل غني أربعة دنانير في العام ، وعن كل متوسط الحال ديناران ، وعن كل فقير دينار .

هذا إلى خراج الأرض الذي كان يراعى في تقديره الرفق ، وكان يدفع عينا من حاصلات الأرض والماشية ، على أقساط تناسب مواسم الحصاد ، وأحياناً كان يُدفع نقداً باختلاف الأقاليم . « فقد جعل الخليفة « عمر » على كل جريب (فدان تقريبا) من أرض الشعير بالعراق درهين ، وعلى كل جريب من أرض للكروم والرطاب ستة دراهم ، وعلى كل جريب من أرض النخل ثمانية دراهم ، ونخم على ٥٠٠ ألف إنسان على الطبقات^(٥٠) .

وقد ذكر « ياقوت^(٥١) » أن المقوقس تضمّن « مصر » سن « هرقل » بتسعة عشر مليون دينار ، وكان يجبّئها عشرين مليوناً ، فلما فتحها العرب جعل « عمرو » خراجها أول عام عشرة ملايين دينار ، وفي العام الثاني جعلها اثني عشر مليوناً ولما وليها أيام « معاوية » جباها تسعة ملايين ، وجباها « عبد الله بن سعد » أربعة عشر مليوناً ، وهي ضرائب مهما كثرت لا تصل إلى ما كان يُحصله البيزنطيون .

(٤٩) نفس المصدر ص ٢١٠ . (تاريخ العرب حتى) .

(٥٠) التراتيب الإدارية للإدريسي المطبعة الأهلية بفاس سنة ١٩٤٦ هـ ص ٣٩٤ - والجريب يقابل الفدان عندنا الآن وهو يساوي ٣٦٠٠ ذراع مربع كما في فجر الإسلام ج ١/٢٠٦ وهي غير الجريب المكمل .

(٥١) ياقوت في معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٢ .

وعلى أية حال لقد جبي المسلمون العراق بأقل من جباة الفرس ، ، وجي « عمرو بن العاص » مصر بأقل مما جباها البيزنطيون ، الذين كانوا يعدونها مزرعة لهم ، كما كان الرومان يعدونها ، وأحس الناس بهذا كله فرحبوا بالفاتحين ودخلوا في دينهم ، وساعدوهم على عدوهم .

هذه الأسباب المتقدمة ، سواء منها ما كان راجعاً إلى طبيعة العربي وروح الدعوة الإسلامية ، وما كان راجعاً إلى حال الدولتين ، وشعور الشعوب المفتوحة نحو الفاتحين ، ساعدت كثيراً على سرعة الفتح الإسلامي ، سرعة لم نعهد لها نظيراً في تاريخ الفتح ، ومكنت المسلمين من إقامة إمبراطورية ضخمة ، يسودها العدل ، ويَدعمها التسامح وحب السلام .

الخلاصة

وخلاصة هذا الفصل ، أن الحرب في نظر الإسلام ضرورة اجتماعية ، لا محيد عنها ، وهي كذلك عند علماء الاجتماع ، وقد شرعت في الإسلام لتأمين الدعوة ضد أعدائها ورد عدوانهم عنها ، لتجد سبيلها إلى القلوب عن طريق الرغبة لا الرهبة ، وكان الدافع إليها إفساح الطريق للدعوة ، ومنع الفتنة في الدين وتنبيه قريش إلى مهادنة الرسول (ص) حفاظاً على تجارتها ، ومحاولة تقوية المسلمين بمغانم أعدائهم . ثم بين هذا الفصل السر في اكتساح الفتوح الإسلامية ، وذكر لذلك أسباباً :

١ - بعضها يرجع إلى طبيعة الفاتحين وأهمها :

- ١ - إيمانهم بعدالة القضية التي يحاربون من أجلها .
- ٢ - تأصل الصفات الحربية فيهم قبل الإسلام .
- ٣ - تحول العصبية القبلية إلى عصبية دينية .
- ٤ - سمو روحهم المعنوية .
- ٥ - سماحة المسلمين في معاملة الشعوب المغلوبة .

ب - وبعضها يرجع إلى الشعوب المقهورة وأهمها :

- ١ - الاتحاد الجنسي بين أهل البلاد المفتوحة والغزاة .

- ٢ - خصب البلاد المفتوحة ووفرة خيراتها .
- ٣ - ضعف الفرس والروم أمام المساميين .
- ٤ - استهانة الفرس والروم بعدوهم الجديد .
- ٥ - عدالة الضرائب الإسلامية .

لهذه الأسباب مجتمعة ، استطاع المسلمون أن يؤسسوا إمبراطورية واسعة ، لا تقل شأنًا عن غيرها إن لم تزد عليها ؛ لأنها قامت على أسس سليمة واضحة ، فلما ضيع أهلها تلك الأسس ، ضاعوا فيمن ضاع ، وهم اليوم يعملون على إعادة مجدهم التالذ ، وهو في طريقه إليهم ، لأنه عرفوا سبيل الإسلام الحق ، وهو سبيل العزة والقوة والكرامة ، سبيل القومية العربية ، والوحدة والاتحاد والتضامن ضد العدو المشترك ، وهو المستعمر الغاصب مهما تنوعت أشكاله وصوره .

خاتمة البحث

هذا عرض سريع للفن الحربى الإسلامى، قصدتُ منه إبراز معالم ذلك الفن للناس كما سطرها التاريخ، وكما روتها المراجع الموثوق؛ بها لنعرف أن المسلمين أسسوا مجدهم القديم، عن جدارة حربية، ومقدرة فنية، فى النواحى التكتيكية والاستراتيجية، لا بمجرد الصدفة والحظ الموائى، كما يقرر كثير من مؤرخى الغرب المغرضين، الذين كبرُ على نفوسهم أن يؤسس المسلمون إمبراطورية زاهرة، كالإمبراطورية البيزنطية وغيرها، فعزوا إليهم كثيراً من التهم، التى لا تستند إلى دليل، ولا تقوم على حق، ناسين أنهم ناس من الناس، يصنعون مثل ما يصنعون، عندما تتوافر لديهم المؤهلات والبواعث^(١) والأسباب.

ومن الغريب أن كثيراً من هؤلاء الباحثين، اعترف بسرعة التوسع الإسلامى ودهش لتلك السرعة، ولكنه لم يجد تعليلاً لذلك، إلا اندفاع الغرائز الحربية المتأصلة فى المسلمين منذ الجاهلية، التى تدفعهم إلى السلب وأعمال القرصنة، وأضاف إلى ذلك ضعف الإمبراطوريتين: البيزنطية والفارسية، وحاول إبراز ذلك الضعف ليهوّن من خطر الفتوح الإسلامىة، وانتصارات المسلمين المدهشة، وقد تقدم بيان خطأ تلك الفكرة، بل بيان أن الدولتين كانتا لا تزالان فى قوتهما، وبخاصة الدولة البيزنطية، التى ظلت فى حروب دائمة مع المسلمين، ولم يستطع القضاء عليها إلا الأتراك العثمانيون أخيراً.

والبحث مع هذا جهد متواضع، حاولت فيه جهد طاقتى، توضيح ناحية من تاريخ المسلمين غامضة، وهى تصوير الفن الحربى الذى عرفوا به فى بدء تاريخهم، فإن تكن الرسالة حققت هدفها، فذلك غرضى منها وأملى فيها، وإن كانت الأخرى، فحسبى أنها فتحت للباحثين أبواباً أرجو منهم أن يطرقوها،

(١) اقرأ فيليب حتى - تعريب الأستاذ نافع، ودكتور «أومان» فى تاريخ فن الحرب و «نورمان بينز» فى الإمبراطورية الإسلامىة، «وفاز لبيب» فى علاقة الإسلام ببيزنطة، وفون كريمير، ومن نحا نحوهم من الغربيين، وقد سبق تحديد الصفحات فى مواضعها من هذا الكتاب.

علمهم يوضحون بجهدهم غامضاً ، أو يفصلون مجملها ، أو يضيفون للعلم جديداً لم أستطع الوصول إليه .

هذا وأحسب أنني بهذا البحث العلمى ، قد وصلت إلى نتائج يرضاها الباحثون ، وأظن أنها من الجدة بحيث تنفع البحث والباحثين ، وتنصف فى غير تعصب تاريخ المسلمين الحربى ، الذى أهملت فيه الناحية الفنية من المؤرخين إلى حد كبير .

ولا أريد هنا إثبات كل ما جاء بالرسالة ، من أفكار جديدة مدعمة بالبراهين فهى منبثة فى ثناياها ، واردة فى أماكنها منها ، أو فى الملاحق التابعة لها ، ويكفى الآن أن ألفت النظر إلى بعض هذه الآراء ، لما لها من أهمية خاصة : —

١ — لقد تعرض القسم الثانى من الفصل الثانى إلى موضوع (التجنيد) فأبطل رأى الشائع ، الذى يقول بأن التجنيد الإجبارى ، بدأ فى أواسط الدولة الأموية ، وعلى يد « الحجاج » بالذات^(٢) ، وأثبت بالأدلة أن الفاروق « عمر بن الخطاب » هو أول من ألزم الناس بالجهاد ، وعاقب المتخلف منهم عنه ، حيث ضمن لهم أرزاقهم وأرزاق عيالهم ، ورتب لهم المرتبات السنوية ، حتى يستجيبوا لكل نداء من الدولة .

٢ — كذلك أبطل القسم الثالث من هذا الفصل ، الفكرة السائدة بين المستشرقين ، التى تدعى أن المسلمين لم يكن لديهم جيش ثابت ، وإنما كانوا يجمعون قواتهم عند الحاجة ، ثم يتفرون بعدها ، وأثبت بالنصوص الصحيحة ، أنه كان لدى « الفاروق عمر » جيش قائم « Standing Army » مستعد لرد العدوان وإحباط حركات التمرد فى البلاد المفتوحة ، وأن قوات هذا الجيش كانت تُقيم فى معسكرات دائمة ، فى الأمصار الإسلامية ، تقوم فيها بالتمريبات اليومية ، ولا غرض لها إلا الجهاد والاستعداد له ، وكان الخليفة يعاقب منهم من يشتغل معه بالزراعة أو التجارة ، أو غيرها من الحرف .

٣ — ذكر القسم الأول من الفصل الثالث ، الأسلحة الخفيفة ، فأثبت أن القوس ليس عربى النشأة ، وأن العرب لم يمهروا فى الرماية به مهارة الفرس والروم ، وإن صارت لهم بعد ذلك أقواس عربية معروفة .

(٢) يرى هذا الأستاذ « جرجى زيدان » ورئيس الركن « نعمان ثابت » كما مر بالرسالة .

كما أثبت أن الحربة والنيزك ، سلاح ليس بعربي ، وأن الذي كان يجيد القذف به هم الأحباش والنوبة والفرس ، الذين يُعدون أساتذة العرب فيه . وتحدث القسم الثاني من ذلك الفصل عن آلات الحصار ، فأثبت أن الدبابة والمنجنيق - وإن لم تكن عربية في الأصل - كانت تصنع ببلاد العرب ، حيث كان كثير منهم يتعلم صنعها ، وأن المسلمين بعد ذلك أدخلوا عليها كثيراً من التحسينات ، التي ساعدتهم على إجادة فن الحصار ، إجادة مكنهم من فتح المدن والحصون^(٣) ، التي كان أعداؤهم يعتزون بها ، ويعتمدون عليها في إطالة مدة الحصار .

وهناك غير ما ذكر بعض الردود على المبالغين ، أو إبراز بعض النواحي الخفية في فن المسلمين ، وبخاصة فيما يتعلق بأعمال الاستطلاع والتجسس وبأعمال التحركات التكتيكية ، ووضع خطة المعركة مناسبة لطبيعة الأرض واستغلال تلك الطبيعة في إدارة المعارك المختلفة .

ولعل بعد هذا كله ، أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ، وتمكنت من أن أقدم للعلم الذي أدين له ، والمجتمع الذي أنتسبت إليه ، بعض الدين الذي في عنقي ، أو أضيف إلى المكتبة العربية ، شيئاً يصح أن يكون نافعاً ، عن الفن الحربي الإسلامي والله وحده ولي التوفيق ، وبه وحده تكون الاستعانة .

(٣) ترد هذه الوقائع على الدكتور « بتلر » حديثه الذي ذكره عن فتح العرب الحصن « بابليون » في مصر ، واتهمهم فيه بأنهم كانوا يجهلون آلات الحصار وطرق استخدامها ، وقد سبق نقاشه في موضعه .

الملاحق

ملحق (١)

الفدائيون في الإسلام

لم يكن المسلمون قديماً يعرفون هذا الاصطلاح ، وإن كان كثير منهم يصلح لأن يكون فدائياً ، فقد كان أحدهم يخرج للقتال باذلاً نفسه لله ، لا يفكر فيما وراءه من أولاد وأموال ، وهذا هو ما كان يعنيه « خالد بن الوليد » عندما يقول لأعدائه : « لقد جئكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وأول ما عُرِفَت الفدائية عند المسلمين ، بمعنى العزم الأكيد على الموت مع تحقيق أسبابه ، عرفت ليلة الهجرة ، لما بات الشاب عليّ مكان الرسول عليه السلام ، وهو يعلم مصيره ، ثم عُرِفَت في مواطن الشدة ، عند اختلال صفوف المسلمين ، وظهور بوادر الهزيمة عليهم ، حيث كان بعض الأبطال يتعاهدون بالأيدي على الموت ، والثبات إلى النهاية ، مهما كانت النتائج ، وكان لهم في هذا الباب أفاعيل تشبه المعجزات ، وحسبنا هنا أن نتذكر موقف الفدائي البطل « أنس بن النضر » في يوم أحد ، الذي غير بحركته الفدائية نتيجة المعركة كما سبق^(١) والشواهد التاريخية في هذا الباب لا تحصى . ومن الخطأ ألا يُحسب في الفدائيين ، ذلك الذي كان يتسوّر حصن الأعداء ، فيهبط عند بابه ، فيقتل حراسه ويفتحه لإخوانه ، كما فعل « البراء بن مالك » الذي اعتلى سور (حديقة مسيلمة) وفتح بابها ، فدخلها المسلمون وقتلوا المنتسبي الكذاب ، ومن معه من بني حنيفة ، في حروب الردة المعروفة ، وكما فعل البطل « الزبير بن العوام » الذي تسور « حصن بابلون » في فتح مصر ، وصنع نفس الصنيع الذي كان سبباً في فتحه ، والتاريخ يذكّر كثيراً غير هذين ، صنعوا صنعهم ، فحق علينا أن نعدّهم في الفدائيين .

ولعله أول ما ظهرت الفدائية في شكل كتائب ، ظهرت في أيام معركة « صفين » حيث كان « عبّيد الله بن عمر » يتقدم الصفوف في أربعة آلاف من

(١) انظر الفصل الأول : هامش .

(الخضرية) معممين بشقاق الحرير الأخضر ، متقدمين للموت^(٢) ، ولعلمهم اختاروا اللون الأخضر ، لأنه يرمز للجنة ويذكرهم بها .

ثم زادت تلك الحركة وضوحاً على أيدي الخوارج ، الذين كانوا يستमितون في القتال بدافع من العقيدة الراسخة ، لدرجة أن أربعين منهم هزموا ألفين في بعض معاركهم ، ولعلمهم اختاروا لأنفسهم اللون الأحمر ؛ لأنه يشير للدماء المراقبة في سبيل الله ، ولعل في تسمية بعض فرقهم (بالشُّرة) ما يشير إلى أنهم شرواً أنفسهم لله ، أى باعوها له ، وقطعوا أنفسهم عن كل غرض من أغراض الدنيا ، غير الجهاد وبذل النفوس في سبيل الله .

وعلى أيدي الخوارج هؤلاء تخرج أصحاب « المهلب بن أبي صفرة » فكان منهم الفدائيون الأفاضل ، مثل ذلك الأزدي الذي قال لأصحابه في بعض معاركهم مع الخوارج : من يبايعني على الموت ؟ فبايعه أربعون رجلاً ، قُتل معظمهم وجرح بعضهم^(٣) .

ومثل ذلك الفدائي الذي حمل وحده على الخوارج ، فاخترق صفوفهم حتى نجم من الناحية الأخرى ، ثم كر ثانية ففعل فعلته الأولى حتى عاد لموقفه ، وليس اختراق صفوف الخوارج بالأمر الهين ، ولذا وصفه المهلب بقوله : « أعرابي مجنون^(٤) » ومن الفدائية جنون .

ثم ظهرت الفدائية بشكل رسمي ، في فتوح المسلمين للفرس والروم ، حيث كان البطل « القعقاع بن عمرو » يقود كتيبة منهم تتقدم الجيش ، وكانت تسمى « كتيبة الموت » وفي طبيعة التسمية غناء عن شرح أعمالها ، وكان لهذه الكتيبة أعمال مجيدة تذكر بالفخر في معارك « القادسية ونهاوند » وغيرها^(٥) .

وهذه الكتيبة الفدائية ، هي التي تقدمت أمام جيش سعد فاتح العراق ، وقامت وحدها باقتحام نهر دجلة سباحة بالخليل ، ثم خرجت على الشاطئ المقابل ؛ لحمايته

(٢) المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ٣٩٠ والدكتور كريم ص ٣٠٥ .

(٣) المبرد في الكامل ج ٢ ص ٢٤٣ ط مصطفى محمد سنة ١٣٥٥ هـ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٦٧ ، ج ٤ ص ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٤١ ، والكامل ج ٥

وتمكن بقية الجيش من العبور ، فلما رأهم الفرس خارجين من الماء ، وحيولهم تنفض أعرافها ، أسرعوا بالفرار قائلين : « نحن ما نحارب إلا جنأ » .

وفي الحقيقة أن الفدائي المخلص ، يستطيع أن يفعل فعال الجن ، كما كان « ضرار بن الأزور » يفعل في فتوح الشام ، وغيره كثيرون لا يتسع المقام لذكرهم ، وحسبنا هنا التمثيل بالبعض ؛ لنعلم أن (الضفادع البشرية) التي تعد من مستحدثات القرن العشرين ، كانت موجودة عند المسلمين في القرن الأول الهجري ، فقد كانت لديهم فرقة معدة لعبور الأنهار ، واقتحام الخنادق المائية بالسباحة ، وخوض البرك والمستنقعات ، التي كان يتحصن بها الأعداء .

ولنعلم أيضاً أن نظام الفدائيين ، كان معمولاً به في تلك الفترة ، حيث كانوا يقومون بأخطر المهمات التي يعجز عنها غيرهم وهم يعلمون أن الموت في انتظارهم . وما يجعلهم ممتازين عن الفدائيين المحدثين ، أنهم كانوا لا ييغون بمغامراتهم تلك أجراً ولا شكراً ، وإنما يقومون بها لإرضاء لترعاتهم الدينية ، واستجابة لغرائزهم البطولية ، لدرجة أن أحدهم كان ينكر ذاته ، ولا يحب أن تعرف فعاله ، كذلك الفدائي الذي بات وحده يحرس نقباً في سور الأعداء أحدثه المسلمون ، فلما أصبحوا وجدوه قد أكمله ومكن الجيش من الدخول منه ، وبعد الانتصار في المعركة ، نادى القائد (مسلمة بن عبد الملك) على صاحب هذا العمل ، فلم يخرج إليه أحد ، فعزم عليه أن يقدم له نفسه في أي وقت ، وذات ليلة جاءه الرجل وقال له : أنا أعرف صاحب النقب ، وهو يشترط عليكم شروطاً :

١ - ألا تذكروا اسمه في صحيفة إلى الخليفة أو غيره .

٢ - ألا تسألوه عن اسم أبيه ، أو اسم قبيلته وألا تأمروا له بمكافأة .

فلما أجابه الأمير إلى شروطه قال له : أنا صاحب النقب : ثم انصرف فكان الأمير بعد ذلك يدعو عقب صلاته : « اللهم اجعلني مع صاحب النقب » ومن الطبيعي كما تذكر الرواية ، أنه أرسل خلفه من تبعه سراً ، حتى عرفه وعرف قبيلته .

فأي إنكار للذات هذا الإنكار؟ وأي فدائية تذكر بعد تلك الفدائية المثالية؟.

ملحق (٢)

جدول زمني للحوادث البارزة في تلك الفترة

أبرز الحوادث	الميلادي	الهجري	رقم
معركة بدر الفاصلة	٦٢٤	٢	١
معركة الخندق	٦٢٧	٥	٢
وفاة الرسول عليه السلام	٦٣٤	١٢	٣
بدء خلافة « عمر » ، ومعركة اليرموك	٦٣٤	١٣	٤
بناء البصرة ، معركة القادسية ، فتح بيت المقدس وفتح دمشق	٦٣٥	١٤	٥
تأسيس عمر للديوان	٦٣٧	١٥	٦
تأسيس الكوفة في عهد عمر	٦٣٩	١٧	٧
فتح العرب لمصر على يد « عمرو بن العاص »	٦٤١	٢٠	٨
وقعة نهاوند وفتح فارس بعدها	٦٤٢	٢١	٩
بدء خلافة « عثمان »	٦٤٤	٢٣	١٠
معركتا الجمل وصفين بين علي ومنافسيه	٦٥٧	٣٦	١١
خلوص الخلافة لمعاوية (عام الجماعة)	٦٦٢	٤١	١٢
مقتل الحسين في كربلاء	٦٨٠	٦١	١٣
بدء خلافة « عبد الملك بن مروان »	٦٨٥	٦٥	١٤
حصار مكة وقتل « عبد الله بن الزبير »	٦٩٣	٧٣	١٥
بناء الحجاج مدينة واسط	٦٩٥	٧٥	١٦
خلافة الوليد بن عبد الملك	٧٠٥	٨٦	١٧
موت الحجاج خادم الأمويين	٧١٤	٩٥	١٨
بدء خلافة « عمر بن عبد العزيز »	٧١٧	٩٩	١٩
خلافة مروان الثاني آخر الأمويين	٧٤٥	١٢٨	٢٠
أبو عبد الله السفاح مؤسس مدينة الهاشمية	٧٥٠	١٣٢	٢١
أبو جعفر المنصور ، باني بغداد المدورة	٧٥٤	١٣٦	٢٢
هرون الرشيد ، فاتح هرقة	٧٨٦	١٧٠	٢٣
محمد الأمين ، بدء النزاع بينه وبين أخيه	٨٠٩	١٩٣	٣٤
حصار بغداد الأول في الحروب الأهلية بين الأخوين	٨١٣	١٩٧	٢٥
تمام الأمر « لمحمد المأمون »	٨١٣	١٩٨	٢٦
تولية أخيه المعتصم التركي الذي أبطل الديوان العربي	٨٣٣	٢١٨	٢٧

مصادر الرسالة

١ - مصادر مخطوطة ومصورة :

ابن سيّد الناس : (محمد بن أبي بكر اليعمرى الأندلسى ، ولد بالقاهرة ثم صار معلماً للحديث بالمدرسة الظاهرية . توفى (٧٣٤ هـ .)

- ١ - عيون الأثر ، فى فنون المغازى والسير . دار الكتب المصرية رقم ١٧٥ . ابن كثير : (عماد الدين إسماعيل عمر بن كثير القرشى الدمشقى (٧٧٤ هـ)
- ٢ - رسالة له فى الصيد ، مصورة بالجامعة العربية (ف ٧٧٤) . الحسامى : (المملوك لاجين الطرابلسى الحسامى (؟) .

- ٣ - تحفة المجاهدين ، فى العمل بالميادين ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٠٢) .

الحسن العباسى : (الحسن بن عبد الله بن محمد ، ينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب ، بدأ فى تأليف كتابه (٧٠٨ هـ) .

- ٤ - آثار الأول فى تدبير الدول ، مخطوط بالمتحف الحربى بالقلعة ، برقم (٣٨٣) عربى . ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى ط مصر ١٣٠٥ هـ .

الزردكاش : (المملوك التركى أرنبغا الزردكاش ، أى صانع الزرد (؟) .

- ٥ - الأنيق فى المجانيق ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٧٠) .

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد الشافعى (٩١١ هـ) .

- ٦ - غرس الأنشاب ، فى الرى بالأنشاب ، مصور بالجامعة العربية (ف ١٠٥٦) .

السنجارى : (مملوك تركى من رجال الحرب (؟)

- ٧ - هداية الرامى ، إلى الأغراض والمرامى ، مصور بالجامعة العربية

نقلا عن خط المؤلف (ف ١٠٥٦) .

الهرثمى : هو صاحب المأمون ، من رجال الحرب (؟)

- ٨ — مختصر في سياسة الحروب ، مصور بالجامعة العربية (ف ٨٤٤)
اليوسفي : (هو موسى بن أحمد اليوسفي (؟) .
- ٩ — كشف الكروب في أمر الحروب ، مخطوط بالمتحف الحربى
بالقلعة ، رقم (١٠٦ عربى) .
- اليوناني : (هو طيبغا الأشرفى البسكلمشى اليوناني (؟) .
- ١٠ — بغية الراى ، مصور بالجامعة العربية عن مكتبة أحمد الثالث بتركيا
(ف ٩٧٠) .
- مؤلف مجهول : (؟) .
- ١١ — نظم التعبئة ، مصور بالجامعة العربية (ف ٩٤٦) .

ب — مصادر قديمة :

- ١٢ — القرآن الكريم ، فى سورہ التى تعرضت للقتال وما يتصل به .
- ١٣ — العهد القديم ، من الكتاب المقدس .
- ابن الأثير الجزرى : (أبو الحسن بن أبى الكرم بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى
(٦٢٩ هـ - ١٢٣٢ م) .
- ١٤ — الكامل فى التاريخ . ط المطبعة الأزهرية (١٣٠١ هـ) .
- ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن ، يوسف بن تغرى بردى الأتابكى (؟)
- ١٥ — النجوم الزاهرة ، فى ملوك مصر والقاهرة . ط . دار الكتب
(١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م) .
- ابن حنجر : (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى (٨٥٢ هـ -
١٤٤٨ م) .
- ١٦ — الإصابة فى تمييز الصحابة . ط مصر ١٣٢٣ هـ .
- ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى (٤٥٦ هـ -
١٠٦٤ م) .
- ١٧ — المحلى فى الفقه . تحقيق الجزيرى ط إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ هـ
٧ > .

- ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي) (٨٠٦ هـ) .
- ١٨ — المقدمة ط المهدي ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .
- ١٩ — العبر ، وديوان المبتدأ والخبر . . . ط دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م .
- ابن رشد : الفيلسوف محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (٥٩٥ هـ — ١١٩٩ م) .
- ٢٠ — بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد ط شركة المطبوعات العربية ؟
- ابن سعد : محمد بن سعد كاتب الواقدي (٢٣٠ هـ) .
- ٢١ — الطبقات الكبرى ط ليون ١٣٢٥ هـ .
- ابن سيده : (أبو الحسن علي بن اسماعيل اللغوي الأندلسي) (٤٥٨ هـ — ١٠٦٦ م) .
- ٢٢ — المخصص . ط المطبعة الأميرية ١٣١٦ هـ .
- ابن عبد الحكم : (المؤرخ الثقة ٢٥٧ هـ) .
- ٢٣ — فتوح مصر وأخبارها ط مطبعة المعارف الفرنسية ١٩١٤ م .
- ابن قتيبة : (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري) (٢٧٦ هـ) .
- ٢٤ — عيون الأخبار ط دار الكتب المصرية (١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م) .
- ابن القيم : (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية) (٧٥١ هـ) .
- ٢٥ — الفروسية ط دار الكتب المصرية ١٩٤١ م .
- ابن كثير : (سبق التعريف به في المصادر المخطوطة) .
- ٢٦ — تفسيره للقرآن الكريم ط مصطفى محمد ١٣٥٦ هـ .
- ابن الكلبي : (هشام بن محمد بن سائب الكلبي) (٢٠٤ هـ) .
- ٢٧ — نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها ط ليدن ١٩٢٨ م .
- ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين بن مكارم بن منظور المصري الأنصاري) (٧١١ هـ) .
- ٢٨ — لسان العرب ط المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ .
- ابن هشام : (محمد بن هشام تلميذ ابن إسحاق) (٢١٨ هـ) .
- ٢٩ — السيرة النبوية ط الحلبي بمصر (١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م) .
- أبو الفداء : (الملك المؤيد عماد الدين ، اسماعيل صاحب حماه ، انتهى نسبه إلى صلاح الدين الأيوبي) (٧٣٢ هـ) .

- ٣٠ - المختصر في أحوال البشر ط أولى بالمطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ .
- أبو الفرج : (هو أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) .
- ٣١ - الأغاني ط الساسي المغربي ج ١١ - ٢٠ .
- أبو يوسف : (الإمام المجتهد ، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، صاحب أبي حنيفة . (١٨٢ هـ) .
- ٣٢ - الحراج ط مصر ١٣٠٢ هـ .
- الإدريسي : (محمد الحسني الإدريسي الفاسي ، عالم معاصر) .
- ٣٣ - التراتيب الإدارية . . . ط فاس ١٣٤٦ هـ .
- البخاري : (الحافظ أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ٢٥٦ هـ) .
- ٣٤ - صحيح البخاري - شرح القسطلاني ج ٧ ، ٩ ط بولاق ١٣٠٤ - ١٣٠٦ هـ .
- البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (٢٧٩ هـ) .
- ٣٥ - فتوح البلدان ط ليدن ؟
- الجاحظ : (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ٢٥٥ هـ) .
- ٣٦ - البيان والتبيين ط ثانية بالقاهرة ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .
- الجواليقي : (موهوب بن أبي طاهر بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي ٥٣٩ هـ) .
- ٣٧ - أسماء خيل العرب وفرسانها ط ليدن ١٩٢٨ م .
- ٣٨ - المعرب من كلام العرب ط دار الكتب المصرية في ١٣٦٠ هـ .
- حاجي خليفة : (مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبي) .
- ٣٩ - كشف الظنون ، عن أسامي الكتب والفنون ط حلب ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م .
- حسان بن ثابت : (شاعر الرسول المشهور) .
- ٤٠ - ديوانه ط مصر ١٣٣١ هـ .
- الحسن : الحسن بن عبد الله بن محمد ، ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب (ألفه ٧٠٨ هـ) .
- ٤١ - آثار الأول في تدبير الدول ، مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي .

الحلبي : العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي ؟

٤٢ — إنسان العيون ، في سيرة الأمين المأمون ، ط ٢ بالمطبعة الأزهرية

١٣٢٩ هـ .

الديار بكري : (المؤرخ حسين بن محمد بن الحسن (٩١٦ هـ - ٩٨٢ هـ) .

٤٣ — تاريخ الخميس ، في أحوال أنفس نفيس ، ط أولى ١٣٠٢ هـ -

١٩٢٧ م .

الزنجشري : (جاز الله محمود بن عمر الزنجشري ٥٣٨ هـ) .

٤٤ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ط مصر ١٣٠٧ هـ .

السهيلى : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي ٥٨١ هـ) .

٤٥ — الروض الأنف ط مطبعة الجمالية ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

السيوطي :

٤٦ — حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة ، ط مصر ؟

٤٧ — تاريخ الخلفاء ط مصر ١٣٠٥ هـ .

٤٨ — بغيّة الوعاة ط الخانجي ١٣٢٦ هـ .

الشريف الرضي : (محمد بن الحسين بن موسى ، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي

٤٠٤ هـ) .

٤٩ — نهج البلاغة - شرح محمد عبده ط الحلبي .

الشعراني : (الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي ٩٧٣ هـ) .

٥٠ — الميزان في الفقه من جزئين ط مصر ؟

الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير المعروف بالطبري ٣١٠ هـ) .

٥١ — تاريخ الأمم والملوك ط المطبعة الحسينية ١٣٢٦ هـ .

الفيروز آبادي : (الشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيرازي

٨١٦ هـ) .

٥٢ — القاموس المحيط في أربعة أجزاء ط ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .

القلقشندي : (أبو القاسم أحمد بن علي بن أحمد بن الجمال ٨٢١ هـ) .

٥٣ — صبح الأعشى ط دار الكتب ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٨ م .

الكاسانى : (أبو عبد الله الكاسانى الحنفى) ؟

٥٤ - بدائع الصنائع ، فى ترتيب الشرائع ، ط الخانجى ١٣٢٨ هـ -
١٩١٠ م .

الكندى : (الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكندى ، ينتهى نسبه إلى محمد بن
الأشعث ٢٥٢ هـ) .

٥٥ - السيوف وأجناسها ، رسالة أخرجها القائمقام (العقيد) عبد الرحمن
زكى ط جامعة القاهرة ١٩٥٢ م .

الماوردى : (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ٤٥٠ هـ) .
٥٦ - الأحكام السلطانية ط مصر ١٢٩٨ هـ .

المبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الأزدي ٢٨٥ هـ) .

٥٧ - الكامل فى اللغة والأدب فى جزئين ط ١٣٥٥ هـ .

المسعودى : (أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى ٣٤٦ هـ) .

٥٨ - مروج الذهب ومعادن الجوهر ط مطبعة السعادة ١٣٦٧ هـ -
١٩٤٨ م .

المقرئى : (أبو العباس أحمد بن على بن عبد القادر ٨٤٥ هـ) .

٥٩ - إمتاع الأسماع . . . ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

النووى : (الشيخ محى الدين يحيى بن شرف الدين النووى الشافعى ٦٧٦ هـ) .

٦٠ - رياض الصالحين ط القاهرة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م .

النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويرى ٧٣٣ هـ) .

٦١ - نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٦ ط دار الكتب ١٣٤٥ هـ -
١٩٢٦ م .

الواقدى : (أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدى ٢٠٧ هـ) .

٦٢ - مغازى رسول الله ط أولى ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .

٦٣ - فتوح الشام ط مصطفى محمد . . القاهرة ١٢٨٢ هـ .

ياقوت : (شهاب الدين ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى ٦٢٦ هـ) .

٦٤ - معجم البلدان ط أولى ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٦ م .

ج - المراجع الحديثة :

مراجع عربية

أحمد أمين : (الأستاذ الدكتور ، عميد كلية آداب القاهرة سابقا) .

٦٥ - فجر الإسلام ط ثانية بمطبعة الاعتماد بمصر .

٦٦ - ضحى الإسلام ط أولى بالقاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

أحمد شوقي : (الضابط القائمقام) .

٦٧ - فن القيادة . ط مصر ١٩٤٨ م .

أحمد فريد رفاعى : (الأستاذ الدكتور) .

٦٨ - عصر المأمون ط دار الكتب ١٩٢٨ م .

جاء المولى : (الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك مع آخرين) .

٦٩ - أيام العرب فى الجاهلية ط ثانية ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م .

جمال الدين حماد : (الرائد أركان حرب) .

٧٠ - معارك الإسلام الكبرى ط الحلبي ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

جمال الدين عياد : (الضابط - سفير مصر فى لبنان الآن) .

٧١ - نظم الحرب فى الإسلام ط . الخانجي ١٣٧٠ هـ .

جميل نخلة المدور : (الأستاذ الأديب المؤرخ) .

٧٢ - حضارة الإسلام فى دار السلام ، ط بولاق ١٩٣٧ م .

جورجى زيدان : (الأستاذ المؤرخ صاحب مجلة الهلال) .

٧٣ - تاريخ التمدن الإسلامى ط مطبعة الهلال ١٩٠٢ - ١٩٠٦ .

الحضرى : (الشيخ محمد الحضرى ، أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة القديمة) .

٧٤ - محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ح ١ ، ٢ ط ٦ ، ١٣٧٠ هـ

٧٥ - تاريخ الدولة العباسية ط أولى ١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م .

رفيق العظم : (الأستاذ السورى المؤرخ) .

٧٦ - أشهر مشاهير الإسلام ط القاهرة ١٣١٩ م .

صلاح الدين : (الرائد ا . ح . صلاح الدين فرحات) .

٧٧ - تطور القوات المقاتلة ط المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩ م .

- طه الهاشمي : (الفريق العراقي الباحث) .
- ٧٨ — خالد بن الوليد . رسالة صغيرة .
- فيض الله : (الأستاذ فيض الله الحسني المقدسي) .
- ٧٩ — فيض الرحمن ، لطالب آيات القرآن ط بيروت ١٣٢٢ هـ .
- عباس العقاد : (الأستاذ الباحث عباس محمود العقاد) .
- ٨٠ — سلسلة العبقريات (عبقرية محمد وعمر وخالد والإمام) .
- عبد الرحمن زكي : (الدكتور القائمقام « العقيد » ، مدير مكتبة الجيش سابقا) .
- ٨١ — السلاح في الإسلام ط الجمعية التاريخية .
- ٨٢ — الألوية وشارات المُلْك ؟
- عبد الله المراغي : (الأستاذ الشيخ مدير المساجد بالأوقاف سابقا) .
- ٨٣ — الجهاد ط مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .
- عمر الدسوقي : (أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم الآن) .
- ٨٤ — الفتوة عند العرب ط لجنة البيان العربي ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م .
- محمد حسونة : (الأستاذ الباحث المدرس بكلية دار العلوم سابقا) .
- ٨٥ — الجغرافية التاريخية الإسلامية ، ط . لجنة البيان العربي ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .
- محمد حسين هيكل : (المرحوم الدكتور الأديب) .
- ٨٦ — الصديق أبو بكر ط . مصر ١٣٦١ هـ .
- ٨٧ — الفاروق عمر ط . أولى ١٣٦٤ هـ .
- محمد عبد الفتاح : (الرائد ا . ح) .
- ٨٨ — محمد القائد ط . الحلبي (١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م) .
- محمد فرج : (الضابط النقيب) .
- ٨٩ — محمد المحارب ط دار الفكر العربي ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م .
- محمد كُرد علي : (الأستاذ المؤرخ) .
- ٩٠ — الإسلام والحضارة العربية ط ١٩٣٦ م .
- مصطفى زيد : (الأستاذ مدرس الشريعة بكلية دار العلوم الآن) .

- ٩١ — تفسير سورة الأنفال ط ١٩٥٣ م .
 محمود شلتوت : (شيخ الأزهر الحالى) .
 ٩٢ — القرآن والقتال . ط . دار الكتاب العربى ١٩٥١ م .
 محمد ضياء الدين الرئيس : (الدكتور الرئيس) أستاذ التاريخ الإسلامى بدار العلوم .
 ٩٣ — التاريخ المالى للدولة الإسلامية ، ط نهضة مصر ١٩٥٧ الأولى .
 نعمان ثابت : (الضابط العراقى رئيس الركن) .
 ٩٤ — الجندية فى الدولة العباسية . ط بغداد ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .
 ٩٥ — مجلة لواء الإسلام ١ — السنة الثانية العدد ١ ، ٢ .
 ب — السنة الخامسة العدد الأول .

مراجع معربة

- الفرد بتلر : (الدكتور المؤرخ) .
 ٩٦ — فتح العرب لمصر — تعريب أبو حديد ط . دار الكتب المصرية
 ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م .
 أميل درمنغم : (المستشرق الفرنسى) .
 ٩٧ — حياة محمد — تعريب زعير ، ط الحلبي ١٩٤٥ م .
 جوستاف لوبون : (الدكتور المؤرخ المستشرق) .
 ٩٨ — حضارة العرب ط الحلبي ١٩٤٥ م تعريب زعير .
 فيليب حتى : (الدكتور المستشرق السورى أصلا) .
 ٩٩ — تاريخ العرب — تعريب الأستاذ نافع ط ثانية ١٩٤٩ م .
 كمال الدين : (خواجا كمال الدين إمام مسجد بالهند) .
 ١٠٠ — المثل الأعلى فى الأنبياء — تعريب أمين الشريف ط مصر ١٩٥٢ م .
 محمد على : (العالم الهندى المسلم مولاي محمد على) .
 ١٠١ — محمد رسول الله . ط لجنة النشر للجامعيين ١٩٤٥ م .
 المودودى : (العالم الباكستانى ، أبو الأعلى المودودى المسلم) .

- ١٠٢ - الجهاد في سبيل الله ، معرب عن الأردية ط المطبعة السلافية ؟
 نورمان بينز : (المؤرخ المشهور) .
- ١٠٣ - الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مؤنس وآخرين ط .
 مصر ١٩٥٠ م .

مراجع أجنبية

Eljindi : Dr. Ali Eljindi : Dar-el-Ulume, London.

1. Mortial Poetry among the Arabs in the Jahiliah 1952.
 Kamal El-Dien :

2. Islam and civilization, India.
 Kremer : Dr. Von Kremer.

3. The Orient under the Caliphs, Translated by Khuda Bukhch,
 Calacutta 1920.
 Oman : Dr. Oman.

4. A history of the Art of War in the Middle Ages.
 5. The Byzantine Empire.
 Le Strange :

6. Baghdad during the Abbasid Caliphate 1900.
 7. The lands of the Estern Caliphate 1930.
 S. Lane-Poole :
 8. A history of Egypt, The middle Ages, 1924.

الفهرس

الصفحة

١٣	مقدمة
٢٩	تمهيد
٢٩	البيئة العربية ، وحروب العرب فى الجاهلية
٣١	١ - البيئة العربية وبواعث الحرب فيها
٣٢	(أ) عرب البادية
٣٥	(ب) عرب القرى والممالك
٣٦	٢ - الحرب ومصادر الرزق عند العرب
٣٩	٣ - أيام العرب وفنها الحربى .
٤١	(أ) أيام البادية وأهميتها
٤٣	(ب) أيام القرى والممالك وأهميتها
٤٥	مقارنتها بأيام البدو .
٤٥	١ - إعداد المقاتلين فيها
٤٦	٢ - التنظيم الحربى الفنى فيها
٤٧	(ح) أسلحة القتال عند العرب
٥٠	(د) آلات الوقاية عندهم
٥٣	(هـ) أسلوب العرب فى القتال
٥٥	(و) كيفية توزيع الغنائم بعد المعركة
٥٧	(ز) معاملة الأسرى
٥٨	(ح) الحرم والأشهر الحرم

الصفحة

٦٠	الخلاصة
٦١	الفصل الأول :
٦١	نظرة الإسلام إلى الحرب ومشروعيتها فيه
٦١	القسم الأول : نظرة الإسلام إلى الحرب .
٦٣	الحرب في نظر علماء الاجتماع
٦٣	استحالة السلام الدائم .
٦٥	القسم الثاني : مشروعية القتال في الإسلام
٦٥	١ - تأمين الدعوة .
٦٥	٢ - رد العدوان .
٦٧	٣ - دعوى الإكراه في الإسلام
٦٧	أولا - العقائد لا تستقر بالإكراه
٦٧	ثانيا - مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير
٦٨	ثالثا - الإسلام يطلق على القتال لفظة (الجهاد)
٦٨	رابعا - انتشار الإسلام في عهود ضعف أهله
٧٠	القسم الثالث : بواعث الحرب في الإسلام
٧٠	أولا - إفساح الطريق للدعوة الجديدة، ومنع الفتنة في الدين .
٧٢	ثانيا - حمل قریش على مهادة المسلمين
٧٣	ثالثا - الباعث الاقتصادي
٧٥	الفصل الثاني :
٧٥	جمع القوات وتنظيمها وإمدادها
٧٥	القسم الأول : القادة ومؤهلاتهم
٧٥	(أ) القيادة بين الجاهلية والإسلام
٧٦	(ب) شروط القيادة في الإسلام
٧٧	١ - السبق للإسلام والفناء في العقيدة
٧٨	٢ - التجربة والخبرة الحربية

٧٨	٣ - الشجاعة وتقوى الله
٧٩	(ح) نظام تعيين القادة
٨٢	(د) اللواء والراية عند المسلمين
٨٤	القسم الثانى : التجنيد ونظمه
٨٤	(ا) شروط التجنيد وسن المجند
٨٨	(ب) نظام تسريح الجند بعد الخدمة
٩٠	(ح) التجنيد بين التطوع والإلزام
٩٠	١ - الدور الأول فى عهد الرسول وخليفته
٩٥	٢ - التجنيد بعد وضع الديوان فى عهد عمر
٩٩	٣ - الجند النظاميون والمتطوعون
١٠١	٤ - التجنيد فى الدولتين الأموية والعباسية
١٠٥	القسم الثالث : الجيش الإسلامى الدائم وتنظيمه
١٠٦	(ا) الجيش الدائم وحرس الخلفاء
١٠٩	(ب) النظام الدائم لكثائب الجيش
١١١	(ح) مقارنة التنظيم الإسلامى بالفارسى والبيزنطى
١١٧	(د) الوحدات المدنية الملحقه بالجيش
١١٧	١ - القراء والقصاص
١١٨	٢ - العمال والفعلة
١١٩	٣ - الأطباء والمرضات
١٢٢	القسم الرابع : تموين الجند بالحيوان والسلاح والطعام
١٢٢	(ا) الحمل
١٢٤	(ب) الحصان
١٢٥	(ح) الطعام والعلف والسلاح
١٢٩	الفصل الثالث :
١٢٩	أسلحة القتال

الصفحة

القسم الأول - الأسلحة الخفيفة ١٢٩

(أ) القوس والسهم ١٣٠

١ - وصف القوس وأجزائها ١٣٠

٢ - كلمة تاريخية عن القوس ١٣٢

٣ - تطور القسي عند العرب ١٣٦

٤ - وصف السهم وأجزائه ١٣٧

٥ - استعمالات السهام ١٤١

٦ - السهم والبندق ١٤٢

(ب) الرمح ١٤٣

١ - وصفه وتسمية أجزائه ١٤٣

٢ - الرمح والحربة ١٤٤

٣ - أهمية الرمح وكيفية حمله واستخدامه ١٤٦

(ج) السيف وما يتعلق به ١٤٨

١ - أهمية السيف ١٤٨

٢ - أجزاء السيف ١٤٩

٣ - أنواع السيوف وأطوالها ١٥٠

٤ - حلية السيوف وطريقة حملها ١٥٢

٥ - الأسلحة الصغيرة ١٥٤

القسم الثاني : الأسلحة الثقيلة (آلات الحصار) ١٥٦

(أ) المنجنيق : ١٥٦

١ - وصفه وكيفية العمل به ١٥٧

٢ - طرق الوقاية منه ١٦١

٣ - تاريخ ظهوره وتطوره ١٦٢

(ب) الدبابة ١٦٨

١ - وصف الدبابة والعمل بها ١٦٨

٢ - السلاح المضاد لها والوقاية منه ١٦٩

٣ - كلمة تاريخية عن تطورها ١٧٠

(ح) رأس الكبش وسلم الحصار ١٧١

الفصل الرابع : ١٧٥

وسائل الدفاع وآلاته ١٧٥

القسم الأول : وسائل الدفاع المتحركة (الخفيفة) ١٧٥

(أ) الدرع وملحقاتها ١٧٥

١ - وصفها وتطورها ١٧٥

٢ - أهمية الدرع ١٨٢

٣ - ملحقات الدرع ١٨٤

المغفر ١٨٤

البيضة (الخوذة) ١٨٤

الأذرع والسيقان والأكف ١٨٤

(ب) الترس وأنواعه ١٨٦

١ - الترس عند المسلمين ١٨٦

٢ - أنواع التروس ١٨٧

القسم الثاني : وسائل الدفاع الثابتة ١٨٩

(أ) الخنادق ١٨٩

١ - تاريخها وتطورها ١٨٩

٢ - طرق اقتحام الخنادق ١٩٣

(ب) الحسك الشائك ١٩٥

الصفحة

١٩٧	(ح) الحصون والأسوار .
١٩٩	(د) الثغور الإسلامية .
٢٠١	١ - نظام العمل بالثغور
٢٠٣	٢ - جبال طوروس والتوسع الإسلامي
٢٠٦	الفصل الخامس :
٢٠٦	تنظيم القوات استراتيجية وتكتيكية
٢٠٦	التمهيد للفصل
٢٠٧	القسم الأول : التنظيم الاستراتيجي للجيش الإسلامية
٢٠٧	(أ) توجيه القوات من مركز القيادة .
٢١١	(ب) كتمان السر في العمليات الحربية
٢١٣	(ح) التجسس والجواسيس في الإسلام
٢١٦	معاملة الجواسيس في الإسلام
٢١٧	القسم الثاني : التنظيم التكتيكي
٢١٧	(أ) نظام الطلائع
٢١٧	(ب) طبيعة الأرض واختيار الموقع
٢٢٢	دراسة تكتيكية لبعض المعارك الإسلامية
٢٢٢	أحد
٢٢٥	اليرموك
٢٢٧	القادسية
٢٣٦	فتح مدينة بخارى
٢٣٨	(ح) نظام الصف للمعركة
٢٤٢	(د) التشكيل العام للكتائب
٢٤٤	(هـ) العمل عند اللقاء في المعركة

٢٤٤	١ - إلقاء الأوامر المختلفة
٢٤٥	٢ - بدء المعركة وإدارتها
٢٤٧	٣ - خاتمة المعركة
٢٤٩	(و) بعض الحيل لكسب المعركة
٢٥٠	١ - الكمائن
٢٥٠	٢ - الإيهام بالمدد
٢٥١	٣ - تضليل العدو
٢٥٢	٤ - الاستطراد للعدو
٢٥٤	(ز) الشارة والشعار في المعارك
٢٥٨	القسم الثالث : الحروب البحرية في الإسلام
٢٥٨	(ا) نشأة البحرية الإسلامية وتطورها
٢٦٣	(ب) المعركة البحرية وسلاحها
٢٦٤	١ - إدارة المعركة
٢٦٦	٢ - أسلحتها
٢٦٧	٣ - طرق الوقاية منها
٢٦٩	الفصل السادس :
٢٦٩	غنائم الجند ورواتبهم
٢٦٩	تمهيد الفصل
٢٧٠	أولا : توزيع الغنائم بين الجنود والدولة
٢٧١	(ا) حظ الدولة من الغنيمة
٢٧١	١ - الخمس
٢٧٢	٢ - النوى
٢٧٥	(ب) حظ الجندي من الغنيمة
٢٧٥	١ - أسهمه التي تقسم له
٢٧٥	٢ - النفل الذي يخص به

الصفحة

٢٧٥	٣ - السلب الذى يأخذه من قتيله
٢٧٩	(ح) حظ النساء والأتباع والذميّين
٢٨٠	ثانيا : المرتبات بعد وضع الديوان (١٥ هـ - ٦٣٧ م)
٢٨٠	١ - المرتبات فى عهد عمر
٢٨٤	٢ - المرتبات فى عهد عثمان
٢٨٥	٣ - المرتبات فى عهد على
٢٨٦	ثالثا : المرتبات فى الدولة الأموية (٤١ - ١٣٢ هـ ، ٦٦١ - ٧٥٠ م)
	رابعا : المرتبات فى الدولة العباسية ، لنهاية القرن الثانى (١٣٢ - ٦٥٦ هـ ،
٢٩٠	٧٥٠ - ١٢٠٨ م)
٢٩٤	خامسا : نظام الأسر ومعاملة الأسرى
٢٩٤	(ا) نظام الأسر
٢٩٤	١ - الإطلاق بالفداء
٢٩٥	٢ - العفو بلا فداء
٢٩٥	٣ - الاسترقاق
٢٩٦	٤ - قتل الأسير
٢٩٨	(ب) نظام المفاداة فى الإسلام
٢٩٩	(ح) معاملة الأسرى فى الإسلام وغيره

الفصل السابع :

٣٠٥	السر فى اكتساح الفتوح الإسلامية :
٣٠٥	(ا) أسباب تتعلق بالمسلمين الفاتحين
٣٠٥	١ - إيمان المسلمين بعدالة قضيتهم
٣٠٧	٢ - تأصل الصفات الحربية فى المسلمين
٣٠٨	٣ - تحوّل العصبية القبلية إلى عصبية دينية
٣١٠	٤ - سمو الروح المعنوى
٣١٥	٥ - كلمة عن الإمداد الملائكى

٣١٧	٦ - سماحة الإسلام في معاملة الشعوب المغلوبة	
٣١٧	(ب) أسباب تتعلق بالبلاد المفتوحة	
٣١٧	١ - الاتحاد الجنسي بين أهل البلاد والفاحين	
٣١٨	٢ - خصب البلاد المفتوحة ، ووفرة خيراتها	
٣١٩	٣ - ضعف الفرس والروم أمام الفاتحين	
٣٢٠	٤ - استهانة الفرس والروم بعدوهم الجديد	
٣٢١	٥ - عدالة الضرائب الإسلامية	
٣٢٢	الخلاصة	
٣٢٤	خاتمة البحث	
٣٢٧	الملاحق	
٣٢٩	١ - الفدائيون في الإسلام	
٣٣٢	٢ - جدول زمني للحوادث البارزة في تلك الفترة	
٣٣٣	المصادر	

فهرس الرسوم

الصفحة

١٣١	القوس .
١٤٠	السهم وأجزاءه
١٤٤	الرمح والحربة
١٥٠	السيف وأجزاءه
١٥٥	الدبوس والبلطة
١٦٠، ١٥٩	تطور المنجنيق والدبابة
١٦٩	الدبابة واستعمالها
١٧٣، ١٧٢	رأس الكبش وسلم الحصار
١٧٨، ١٧٧	الدرع والخوذة
١٨٩، ١٨٨	الترس وأنوعه
٢٢٧، ٢٢٦	وقعة اليرموك .
٢٣٠	وقعة القادسية .
٢٤٣	الشكل العام لصف الكتائب